هكذا تكلّم عيسى (ع)

بقلم

السيد تقي السيد حسين الموسوي

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

ISBN: 978-614-426-377-8

سلطنة عمان
الموقع الإلكتروني:
www.taqimusawi.com
الهاتف: ٠٠٩٦٨٩٩٤١٩٤٦١



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail : almahajja@terra.net.lb
E-mail & FB: info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com

هكذا تكلم عيسى عليه السلام

هكذا
تكلم عيسى عليه السلام

بقلم:
سيد تقي سيد حسين الموسوي

دار المحجة البيضاء



المقدمة

لقد تأثرتُ بتعاليم عيسى العرفانية منذ صغري، وكنت أعايش علو ذكره في القرآن الكريم، الذي تربينا تحت ظلاله الوارفة، وغرفنا من مناهله وبركاته، وشربنا من رحيقه ومعينه الذي لا ينضب.

ولقد حاولت جمع كلامه المقدس من مصادر شتّى: إسلامية ومسيحية. وكانت المصادر الإسلامية معظمها يعود إلى القرون الهجرية الأولى، مثل العلامة الصدوق والعلامة الكليني.

وجمعته في كتاب سميته (هكذا تكلم عيسى)، حتى يكون نبراساً ومشعلاً يضيء الطريق في ظلام الحضارة الحاضرة، حيث تدنت أخلاق الناس إلى أسفل سافلين، وغاب ذكر الله، الذي هو أصل الحياة ومعينها، عن وجود معظم الناس. وإذا انفصلت أرواح البشر عن الله عدوا من الموتى، رغم أنهم أحياء بالظاهر.

ونحن في هذا العصر المظلم أحوج ما نكون إلى متكلمين من هذا المستوى العالي ومن هذا المعيار الثقيل، ومن بطن الفطرة والضمير والوجدان الإنساني، المتحررين من النفاق والتقاليد البائسة، كي يبثوا فينا كلام الله حتى تنتعش أرواحنا، ونعود إلى الحياة مرة أخرى.

إن تقاليد البشر وجهالاتهم قد حولت رسالات السماء إلى مفاهيم متحجرة، أفرغت كلام الله من محتواه، وحولته إلى نصوص جافة. ونحن أحوج ما نكون إلى كلام الفطرة والضمير والوجدان، حتى تحيا نفوسنا ونستيقظ من سباتنا الطويل. نحن أحوج ما نكون إلى ضمير صارخ يهزنا ويوقظنا من السبات والتحجر. نحن أحوج ما نكون إلى أمثال عيسى حتى تتقوّم أخلاقنا ونستقيم إلى الله رب العالمين.

إن كلماته تنفذ بقوة حتى من خلال ٢٠٠٠ عام من التاريخ، وكأن عيسى ابن مريم أمامي يكلمني الآن، ويهزني بكلامه هزاً، ويستمطر الدموع المتدفقة من عيوني. ولا غرابة فإننا نعتقد بأنه حي ويعيش الآن في السماء الرابعة، وسوف يهبط إلى الأرض في آخر الزمان، وكذلك المسيحيون يعتقدون عقيدة مماثلة.

ونحن في هذه المقدمة نحاول أن نلخص بعض أقواله المقدسة.

إنه يبشر الفقراء الذين يبغضون بصدق مباهج الحياة الدنيا بأنهم سيحصدون بغزارة مباهج ملكوت الله. ويقول بأنكم في هذه الدنيا مسافرون كالحجاج. وهل الحجاج يحيطون أنفسهم بالقصور والحقول ومتاع الدنيا وزينتها وزبرجها وزخرفها؟ بالتأكيد لا! لأنهم يحملون معهم أشياء خفيفة تنفعهم وتريحهم على الطريق.

إنه يبشر المحسنين بأنه بالإحسان تتراكم كنوزهم في ملكوت الله. ويقول يا ليتكم اهتممتم بالفقراء وكسبتم أصدقاء بالإحسان إليهم وإنفاق الثروة عليهم.

إنه يبشرنا بأننا إذا استقررنا في ملكوت الله، نرى الله إلى الأبد ونحظى

بالسعادة والمجد، وبأننا بالصبر سوف نملك أرواحنا. ويعظنا أن لا نرد على الإساءة بالإساءة ولكن بالبر والإحسان، وندعوا الله للذين يكرهوننا، ونطلب لهم الخير. ويؤكد بأن النار لا تخمد بالنار بل بالماء. ويعظنا أن لا نقارع الشر بالشر، بل نقارع الشر بالإحسان.

إنه يفتح عيوننا على الواقع المرير بأننا نشيع موتانا إلى القبور ونقدم لحومهم طعاماً للديدان، ثم لا نعتبر! كم نحن بعيدون عن واقع الحياة، حيث نظن بأننا في هذه الدنيا خالدون، لأننا نبني قصوراً ونلهث وراء المال مغرورين متكبرين!

إنه ينصحنا إذا كان لا بُد من جمع المال فلنجمع المال لراحة الجميع حتى نزداد راحة وسعادة. ويقول لو أننا نحظى بعقلٍ متزن، لما جمعنا المال لأنفسنا فحسب بل للجميع على السواء. والذي يجمع أكثر يرغب أكثر، وهذا هو الجنون بعينه.

ويقول: الحق أقول لكم: **جمع الدنيا حباً في الدنيا شهادة صارخة لخسران الآخرة**. لأن الدنيا والآخرة على طرفي نقيض. فكيف تطلب نعيم الدنيا، ثم تتوقع حصول النعيم في الآخرة!

ويقول بأننا مجانين لو لم نسلم كل حواسنا لله، كي يشتري أرواحنا، حيث يستقر كنز العشق، لأن العشق كنز لا يضاهيه أي كنز. ويقول: من أحب الله وعشقه كسب الله، ومن كسب الله كسب كل شيء.

ويقول: كل ما تمتلكونه هو من الله، وهو الذي وهبكم إياه. قولوا لي: أيها أغلى وأعلى قيمة: الهبة أم الواهب؟

إذا كان أبوك وأمك أو أي شيء آخر هو العائق لك عن خدمة الله، تخلَّ عنهم واتركهم واهجرهم فإنهم أعداؤك.

ويوحي الله إليه: يا عيسى إنك تفنى وأنا أبقى، ومني رزقك، وعندي ميقات أجلك.... يا عيسى لا يغرنك المتمرد عليّ بالعصيان، يأكل رزقي ويعبد غيري، ثم يدعوني عند الكرب فأجيبه، ثم يرجع إلى ما كان، أفعلي يتمرد، أم لسخطي يتعرض؟... يا عيسى تبْ إليّ بعد الذنب.

واطوِ قلبك ولسانك عن المحارم، وغضّ طرفك عما لا خير فيه. فكم ناظر نظرة زرعت في قلبه شهوة، ووردت به موارد الهلكة.

يا بن مريم لو رأت عينك ما أعددت لأوليائي الصالحين، ذاب قلبك، وزهقت نفسك شوقاً إليه... (وإن جهنم) هي دار الجبارين والعتاة الظالمين، وكل فظٍّ غليظ، وكل مختال فخور... وكل شهوة تباعدك مني فاهجرها... أحبكم إليّ أطوعكم لي وأشدكم خوفاً مني... كيف يكفر العباد بي، ونواصيهم في قبضتي... يجهلون نعمتي... يا عيسى ابغني عند وسادك تجدني... يا عيسى إني إن غضبت عليك، لم ينفعك رضى من رضي عنك، وإن رضيت عنك لم يضرك غضب المغضبين. يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكرني في ملئك أذكرك في ملأ خير من ملأ الآدميين... وعندي دار خير مما يجمعون... وأصموا أسماعكم عن ذكر الخناء، وأقبلوا عليّ بقلوبكم، فإني لست أريد صوركم... وما لا تحب أن يصنع بك فلا تصنعه بغيرك، وإن لطم أحد خدك الأيمن فأعطه الأيسر... وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أن سروري أن تبصبص إليّ[١].

---

(١) أن تتملقني.

ويقول: لا توجد اليوم لدى بني إسرائيل تماثيل من خشب، ولكن توجد تماثيل من لحم[1].

ويقول: لا يقول الناموس: يجب أن تعبد. ولكن يقول: **يجب أن تحب الله ربك بكل روحك وبكل قلبك وبكل عقلك.... الشيء الوحيد الذي يجب أن نحب ونترك كل شيء من أجله هو الله.** إن الزاني صنمه العاهرة، وإن النهم السكران صنمه جسده الذي يعمل له ليل نهار، وإن الجشع صنمه الفضة والذهب! وعلى هذا المنوال، **فإن كل آثم له صنمه. فانظر ما هو صنمك!**

ويقول: إذا فهم الإنسان تعاسته على الأرض، قضى عمره باكياً منتحباً، واعتبر نفسه حقيراً. ولهذا السبب قضى آدم وحواء مئة عام، بدون انقطاع، في النحيب والبكاء، يتوسلان من الله رحمته. **لأنهما عرفا أين كانا وإلى أين هبطا بسبب غرورهما.**

ويعظنا أن صلوا بلا توقف حتى تنالوا فيض الله. لأن من طلب وجد، ومن قرع باباً فتح له، ومن سأل نال.... القليل منكم يقيم صلاة صادقة. أما الآخرون فإن الشيطان يهيمن عليهم.... إن الذين يصلون بدون حضور القلب يسخرون من الله... إن الله لا يحب من يكرمه بلسانه فقط، ولا يحب أولئك الذين يسألون رحمته في المعبد بلسانهم، في حين أن قلوبهم تظهر الاستهجان لله. ولهذا قال الله لأشعياء النبي: أخرج هؤلاء

---

(١) وكلامه هذا يصدق لكل زمان ومكان، وعلى الأخص، زماننا الحاضر، حيث يرى معظم الناس تماثيل من لحم، ولا يرون الحق، وأن جميع خصوماتهم من أجل الرجال لا من أجل الحق. ناسين كلام الإمام علي عليه السلام: اعرف الحق تعرف أهله.

الناس المملين المتعبين لي، الذين يكرمونني بلسانهم، في حين أن قلوبهم بعيدة عني.

ويقول عيسى ما قاله الله على لسان اليسع النبي: **اصرف أفكارك عن عيوني.**

ويتكلم عيسى عن الدعاء إلى الله وأثره البالغ واستجابته من عند الله: **صدقوني إذا كان الدعاء إلى الله كما يجب أن يكون، يحصل العبد على كل ما يريد. تذكروا عبد الله موسى، كيف نكل بمصر بدعائه، وكيف فتح طريقه في البحر الأحمر بدعائه، وكيف أغرق فرعون وجيشه بدعائه. وتذكروا يوشع كيف أوقف الشمس بدعائه. وتذكروا ساموبل كيف أرعب جيش الفلسطينيين الجرار وأدخل الخوف فيهم بدعائه. وتذكروا إلياس كيف جعل السماء تمطر ناراً بدعائه. وتذكروا اليسع كيف بعث الميت إلى الحياة بدعائه.**

وأيضاً الكثير من أنبياء الله المقدسين، الذين حصلوا بدعائهم على ما أرادوا. بيد أن هؤلاء لم يلتمسوا شيئاً لأنفسهم، بل كان كل اهتمامهم منصباً على نصرة الله وحده.

ويقول عن نفسه: أنا صوتٌ يدوي في كل منطقة يهودا قائلاً: مهدوا الطريق لرسول الله، كما هو مكتوب في سفر أشعياء.

ويقول: اللعنة على المنافقين! لأن مديح الناس لهم سيتحول إلى الإهانات والعذاب في نار جهنم.

ويصف محمداً رسول الله قائلاً: هو جلال الله الذي سوف يضيف

بهاءً ومجداً وفرحاً وسروراً إلى كل ما صنعه الله تقريباً. لأنه مزين بروح الفهم والنصيحة، وبروح الحكمة والاقتدار، وبروح الخوف والمحبة، وبروح الفطنة والحصافة والبصيرة، وبروح العفة وضبط النفس، وبروح الرحمة والإحسان، وبروح العدالة والتقوى، وبروح اللطف والصبر ـ المثل العليا التي نالها من الله بثلاثة أضعاف ما أعطاه الله لكل مخلوقاته. . . **صدقوني لقد رأيته وبجلته وكرمته، كما أن الأنبياء جميعهم قد رأوه، وبهذه الرؤية الروحانية يهبهم الله النبوة.**

ويصف المنافق بأنه هو الذي يعمل الخير، كي يراه الناس، وهو الذي يخدم الله بلسانه ويخدم الناس بقلبه، وأنه لا إيمان له، وأنه كاللص ينتهك الحرمات باستخدامه الناموس لإبراز صلاحه، ويسرق مجد الله الذي له وحده الحمد والمجد دائماً أبداً.

ويقول: من حكم بدون رحمة حُكم عليه بدون رحمة، وإذا كنت تحكم على الآخرين لعيبٍ يوجد فيهم، فقلبك أحرى أن تحكم عليه. ويقول: ما أخطر الحكم والقضاء! كم من الناس هلكوا لحكمهم الكاذب! الشيطان حكم على الإنسان بأنه أرذل منه. لأجل ذلك تمرد ضد الله خالقه، ولم يتب ولم يندم. . . . آباؤنا الأوائل حكموا على كلام الشيطان بالصدق، ولذلك طردوا من الجنة، وتسببوا في إدانة ذريتهم جميعاً. ويؤكد **أن الحكم الكاذب أبو الآثام جميعها. لذلك يعظنا أن لا تحكموا حتى لا يحكم عليكم.**

ويقول أنه في يوم القيامة لا تمر ثرثرة ولا كلام فارغ، ولا لغو ولا خنى، ولا فكر تافه عقيم، من دون عقاب، وأنه في ذلك اليوم الرهيب

تتراكم غبطة الفقراء وسعادتهم ثلاثة أضعاف بل أربعة أضعاف، الذين خدموا الله من صميم قلوبهم في فقرٍ صادق، لأنهم في هذه الدنيا عاشوا مجردين من الاهتمامات الدنيوية، ومن حرص الدنيا وهمومها وغمومها، ولهذا تحرروا من آثام كثيرة، ولا يكون لزاماً عليهم أن يقدموا الحساب فيما صرفوه من ثرواتهم، بل على العكس سوف يُجازون على صبرهم وفقرهم.

ويستشهد بما قاله النبي داود عن يوم القيامة، كيف أن العادل سوف يضحك على المذنبين الهالكين ويستهزء بهم قائلاً: لقد رأيت الرجل الذي عول على قوته وعلى ثروته ونسي الله.

ويقول: إن أولياء الله والقديسين سوف يبعثون في أوج الكمال وذروته، متحدين مع الله، فانين في الله، بحيث لا يخطر على بالهم أدنى شيء ضد عدالة الله. فلهذا سوف يطالبون بالعدل، وعلى الأخص رسول الله.

واعترف قائلاً: على الرغم من أني أبكي الآن رحمة على الجنس البشري، إلا أنني في ذلك اليوم سوف أطالب بالعدالة، من دون رحمة، ضد أولئك الذين يحتقرون كلامي ويزدرونه ويستخفون به، وعلى الأخص أولئك الذين يدنسون إنجيلي ويحرفونه.

ويقول لبطرس: إن الراحة في هذه الحياة الدنيا سم التقوى، وهي النار التي تلتهم كل عمل صالح. هل نسيت كيف أن نبي الله سليمان وسائر الأنبياء عيروا الكسل؟ الحق أقول لكم إنني **أكره الراحة فوق كل شيء**.

ويقول: إن الشيطان، كالأسد الزائر المزمجر، يبحث عن فريسة، كي يبتلعها وينهش لحمها، هو ذا يتربص لكل إنسان حتى يذنب.

ويقول: لو أن الإنسان عمل كتاجر، لما خاف في ذلك اليوم العصيب، لأنه سوف يَعِد العدة لذلك اليوم الموعود.

ويقول: **فاحذروا أن لا تبيعوا ولا تشتروا بحبكم أي فكر، مهما صغر، إلا بربح لروحكم. وكرسوا كل أفكاركم وأحاديثكم وأعمالكم من أجل حب الله. وبهذا سوف تحصلون على الأمن والأمان في ذلك اليوم العصيب، في يوم القيامة والعدل الإلهي.**

ويحذرنا من الصلاة والصوم والصدقات رياءً ونفاقاً، ومن أن نصرخ إلى الله بأفواهنا لا بقلوبنا، ومن أن نلوث أرواحنا بالذنوب.

ويقول: **والذي نفسي بيديه، إنهم لا يعرفون الله بقلوبهم، لأنهم إذا عرفوه أحبوه، ولأن ما لدى الإنسان هو من الله سبحانه، لذا يجب على الإنسان أن ينفق كل ما لديه في سبيل حب الله.**

وقال: لا شيء أخطر من الكلام، واستشهد بقول نبي الله سليمان: الحياة والموت منوطان باللسان. وحذرنا من أولئك الذين يباركوننا، لأنهم يخدعوننا. وقال: إن الشيطان بارك آدم وحواء بلسانه، ولكن تبعات كلماته كانت كارثية... ولذلك هلك الممدوحون وهلك المادحون.

وخاطب الكهنة الذين يشتهون الطيبات، ولا يحبون الكد والكدح في هذه الحياة قائلاً: إنكم تبتغون الخيول كالفرسان، بيد أنكم لا تبتغون الانطلاق إلى الحرب. إنكم تشتهون الملابس الأنيقة كالنساء، بيد أنكم لا تشتهون الغزل وتربية الأطفال. إنكم ترغبون في فواكه المزارع، بيد أنكم لا ترغبون في فلاحة الأرض. إنكم تشتهون أسماك البحار، بيد أنكم لا تشتهون صيد الأسماك. إنكم تبتغون الشرف والكرامة كالمواطنين، بيد

أنكم لا تبتغون تحمل مسؤوليات الحكومة. إنكم ككهنة ترغبون في عشور الأموال وفي باكورة الفواكه، بيد أنكم لا ترغبون بحق وصدق في خدمة الله.

إذن ماذا يفعل الله بكم، وهو يراكم تشتهون هنا كل الطيبات، من دون المشقات؟ الحق أقول لكم إن الله سوف يعطيكم مكاناً، تجدون فيه المشقات، ولا تجدون فيه الطيبات.

وبشرنا بقدوم محمد رسول الله قائلاً: أما أنا فقد أتيت إلى هذا العالم، كي أمهد الطريق لظهور رسول الله، الذي سوف يأتي بالخلاص والفلاح لهذا العالم... سوف لا يأتي في زمانكم، ولكن بعد زمانكم، عندما يكون إنجيلي قد أبطل، وبالكاد يكون عدد المؤمنين الصادقين قد وصل الثلاثين. في ذلك الزمان، سيرحم الله هذا العالم، وسيبعث رسوله الذي سوف تستقر غمامة بيضاء فوق رأسه، وبذلك سوف يعرف بالمصطفى، وبه سوف يظهر الله جليًا على العالم.

سوف يأتي رسول الله بقدرة عظيمة ضد المشركين والكافرين، الذين لا يؤمنون بالله. وسوف يبيد الوثنية على الأرض ويدمرها. وأنا أبتهج وأفرح لأن الله سوف يعرف ويمجد ويعظم من خلاله. وسوف يعلن للعالم بأنني نبي صادق، وسوف ينتقم من أولئك الذين يقولون بأنني أكثر من بشر.

الحق أقول لكم إن القمر سيكون وسيلته للنوم في صباه، وعندما يكبر سيأخذ القمر بيديه. فليحذر العالم من طرده، لأنه سوف يقتل الوثنيين.

... سوف يأتي بالصدق أكثر وضوحاً وجلاءً من سائر الأنبياء،

وسوف يزجر وينتهر من يستخدم العالم في غير موضعه. الحق أقول لكم: عندما يأتي رسول الله، فإن أبراج مدينة أبينا سوف تحيي بعضها البعض من كثرة الفرح، وأن الأوثان سوف تسقط على الأرض، وسيعترف بي كإنسان مثل سائر الناس.

ويعلمنا عيسى أساليب الشيطان في إغراء البشر وإغوائهم بأربع طرق:

الأول: إنه يغوي الإنسان بالأفكار.

الثاني: إنه يغوي الإنسان بكلام خدام الشيطان وأعمالهم.

الثالث: إنه يغوي الإنسان بالعقيدة الكاذبة.

الرابع: إنه يغوي الإنسان بالرؤية الكاذبة.

ويبشرنا بأنه لو خاف الإنسان ربه لانتصر على كل شيء. فقد قال نبي الله داود: كل من حافظ على الطريقة منكم، فإن الله يجعل الملائكة حراساً عليه، حتى لا يسبب له الشيطان عثرة... ويعدنا الله على لسان داود بأن يحفظنا ويرعانا هكذا: أنا أعطيكم الفهم الذي سوف يعلمكم، وسوف تكونون بعيني في السبل التي سوف تمشون فيها. ناهيك عما قاله الله على لسان أشعياء النبي: هل تنسى أم طفلها الذي كان في رحمها؟ وإني أقول لكم: إذا نست الأم طفلها فإني سوف لا أنساكم.

ثم قال عيسى: أخبروني من ذا يخاف الشيطان إذا كانت الملائكة له حراساً، وكان الله الحي القيوم له حامياً؟ ورغم ذلك يحذرنا سليمان النبي: (يا بني الخائف من الله، أعد روحك للإغراءات).

ويحذرنا: هناك الكثيرون الذين لا يعتبرون الأفكار آثاماً، وهم في

الحقيقة قد وقعوا في خطأ جسيم. قولوا لي كيف أذنب الشيطان؟ بالتأكيد إنه في البداية قد أثم وأذنب في فكره، بأنه أفضل من الإنسان.

ويقول: إن بذرة اقتراف المعصية هي في الأفكار، لأنه من دون الأفكار لا تقترف الآثام. ويستشهد بما كان الله يصرخ به على لسان أشعياء النبي قائلاً: (أبعدوا أفكاركم السيئة عن عيوني)، وبقول سليمان النبي: (احفظوا باطنكم بكل ما أوتيتم من قوة).

وفي سبيل الهيمنة على الأفكار وحفظ الباطن، يخبرنا عيسى عن مدى صعوبة الجهاد الأكبر باستشهاده بقول نبي الله داود: الصعود في الباطن يسبب وادياً من الدموع.

ويؤكد علينا ضرورة الجهاد الأكبر في سبيل السيطرة على الشيطان وأحابيله وإغراءاته ومكره وحيله وأفكاره السيئة الخبيثة قائلاً: يحاول عدوك الشيطان إدخال الأفكار الملحدة العاقة في قلبك ضد التقوى، وهي أفكار دنيوية لإفساد الجسد. ويحاول إدخال أفكار حب الدنيا في قلبك كي يفسد محبة الله. فكيف تسمح للشيطان أن يدخل قلبك، أو يضع أفكاره فيه، آخذاً بعين الاعتبار بأن قلبك منزل الله، وأن الله قد وهبك قلبك، كي تحافظ عليه؟

أما ترى كيف أن المصرفي يتعامل مع نقوده! إنه يتأكد في حيطة وحذر، ما إذا كانت صورة قيصر صحيحة أم لا، وما إذا كانت الفضة أصلية أو زائفة، وما إذا كان وزن الفضة صحيحاً أم لا، ولأجل ذلك يقلب النقود كثيراً في يديه.

آها يا دنيا! خدامك فطنون متحذرون في تجارتهم، في حين أن خدام

!لله مهملون متوانون في خدمتهم لله! ألا تتهمين خدام الله وتعيريهم بالتهاون والتواني في يوم القيامة؟

ويسألنا يا ترى من منكم يتفحص جوانب فكره في أعماق نفسه، كما يتفحص المصرفي سكته الفضية!

وبالنسبة لكيفية السيطرة على الأفكار يوضح لنا عيسى: هناك شيئان يجب مراعاتهما: أولا: أن تتمرن كثيراً بأن لا تفكر وثانياً: أن تتكلم قليلاً. لأن الكسل كالبالوعة تتجمع فيها الأفكار الغير نظيفة. والكلام الكثير هو كالإسفنج يمتص الآثام والشرور. لذلك يجب عليك ليس فقط أن تعمل كي ينشغل بدنك، بل أيضاً أن تذكر الله لإشغال روحك، لذا يجب عليك أن لا تتوقف عن ذكر الله.

وبالنسبة للعلم الذي لا يعمل به يقول عيسى: إنه سيأتي كثيرون في يوم القيامة ويقولون لربهم: يا رب لقد وعظنا غيرنا وعلمناهم ناموسك وقانونك. في ذلك اليوم العصيب، حتى الأحجار سوف تزعق ضدهم قائلين: إن كنتم وعظتم غيركم بلسانكم، فقد أدنتم أنفسكم، أيها الآثمون الظالمون.

ويقول: إن الذي يعرف الحق ويعمل ضده سوف يعاقب عقاباً فظيعاً، بحيث أن الشيطان نفسه يكاد أن يشفق عليه... إن العلم في نهاية المطاف يتضمن الحكمة بأن يعمل المرء بكل ما يعلمه، ويطبق علمه بحذافيره.

ويقول: أيها المجنون الذي فاق المجانين جنوناً! إنك بفهمك قد تعرفت على الفردوس، ثم إنك تختار بيديك الأرض! وإنك بفهمك قد تعرفت على الله، ثم تشتهي بعاطفتك الدنيا! وإنك بفهمك قد تعرفت على مباهج الجنة، ثم تختار بأعمالك تعاسة الجحيم!

ويقول: أيها الجندي الشجاع الذي يحارب في وطيس الحرب بغمد السيف، ويترك السيف! ألا تعرف أن الذي يمشي في ظلام الليل إلى خانه ونزله، يحتاج إلى النور، لا لأجل النور، بل لكي تستبين له في عتمة الليل معالم الجادة، حتى يمر بسلام إلى الفندق؟

ويقول: ألا يكفيك أن تعاين الهاوية التي يسقط فيها كل من عرف الباقيات الصالحات، ثم عمل السيئات، وارتكب المنكرات!

وبالنسبة لضرورة العلم يقول: إذا كان العالم حسناً من دون شمس، والإنسان من دون عيون، والروح من دون فهم، لكان حسناً أن نكون من دون علم! ليس الرغيف حسناً لهذه الدنيا الزائلة، بمقدار ما هو التعلم للحياة الخالدة.

وبالنسبة لتجسد قانون الله في وجود الأنبياء يقول: أما تعلمون أن أنبياء الله هم في بيت رحمة الله ورضوانه، ولذلك فإن قانون الله يتجسد في وجودهم. وقد قال أبونا داود: إن قانون الله في قلبه، لذلك لا يحتاج إلى من يمهد له الطريق.

ويقول: إن الله قد خلق الإنسان، ولم يكتف بأن يجعله صالحاً قويماً مستقيماً، بل إنه أدخل في قلبه نوراً ليرشده، بأنه من اللائق خدمة الله. وحتى إذا عتم هذا النور بسبب المعصية، إلا أنه لا ينطفئ.

ويقول للمرأة السامرية: أيتها المرأة من شرب من هذا البئر يظمئ، ومن شرب من الماء الذي أنا أعطيه لن يظمئ أبداً، ولا أعطي ماء الحياة الذي عندي إلا لعطاشى الحياة الخالدة. ويقول لها: **إن الله هو الروح والصدق، فيجب عبادته بالروح والصدق.**

ويقول لحوارييه: أنتم لا تعلمون بأن الطعام الصادق هو العمل بمشيئة الله. ليس الخبز قوتا يسد جوع الإنسان ويمده بالحياة، بل كلمة الله بمشيئته هي التي تمدنا بالحياة. ولهذا السبب فإن الملائكة المقدسين لا يأكلون، بل تغذيهم مشيئة الله فقط. وكذلك أنا وموسى وإلياس وآخر بتنا أربعين يوما وليلة من دون طعام.

ويقول لبطرس: يا بطرس اطرح جانباً الفطنة البشرية، وستجد طريقك فورا إلى الحقيقة الربانية. فكر ربانياً ولا تفكر بشرياً.

الأفضل لك أن تذهب إلى الجنة جاهلاً فقيراً قليل العمل، من أن تذهب إلى الجحيم عاقلاً ثرياً وصاحب أعمال عظيمة. كل شيء يمنعك عن خدمة الله فانبذه عنك، كما أنك ترمي بعيداً عن نفسك كل شيء يعرقل رؤيتك.

ويعطي الأمل للعاصين بقوله: لو كنتم على قدر من الفهم المتين، ولو علمتم بأنكم بأنفسكم كنتم مذنبين، لما فكرتم أبداً في أن تتوقفوا عن الرحمة والشفقة على المذنبين. لذلك أقول لكم بصورة واضحة بأنه ينبغي الصبر على المذنب حتى يتوب، ما دام الروح يدبّ في جسمه. لأن الله الرحيم القدير يصبر عليه كذلك.

لم يقل الله: إنني أعفو عن المذنب في الساعة التي فيها يصوم ويتصدق ويصلي ويحج، لأن كثيراً من الناس يفعلون ذلك، بيد أن الله يقضي عليهم بنار جهنم. لكن الله سبحانه وتعالى قال: حينما يبكي المذنب على ذنوبه ندماً وحسرة، عندها سوف لا أذكر من جانبي آثامه وذنوبه التي اقترفها.

ويقول: إن المنافقين يصلون ويتصدقون ويصومون أكثر بكثير من

رجال الله. ولأنهم لا إيمان لهم، لذلك فإنهم لا يميلون إلى الندم والتوبة حباً في الله، ولذلك فهم ملعونون.

ويقول عيسى عن محمد رسول الله بأنه مثال الله، بل مثال مجسد لكل ما فعله الله ويفعله، ولكل ما قاله الله ويقوله.

ويقول: المؤمن يرى بإيمانه أفضل من غيره الذي يرى بعينيه، لأن العيون يمكنها أن تخطئ، بل الأحرى أنها فعلاً تخطئ في معظم الأحيان، بيد أن الإيمان لا يخطئ أبداً، لأن أساسه الله وكلام الله. صدقوني إن خلاص المصطفين من قبل الله يتم بالإيمان. ومن المؤكد أنه يستحيل على أحد أن يرضي الله من دون الإيمان.

لذلك فالشيطان غير مهتم بإبطال الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل إنه على العكس من ذلك، يحث على رعاية الأعمال والأحكام، لأنه عدو الإنسان، ويسره أن يراه يعمل ويكد ويتعب من دون أجر. بيد أنه يبذل قصارى جهده أن يبطل الإيمان ويعدمه بكل جد واجتهاد.

ويتكلم عن مهزلة ابن آدم وحماقته: هو مخلوق في الدنيا في أربع منازل، هو في ثلاث منها واثق، وهو في الرابعة سيئ الظن، يخاف خذلان الله إياه.

فأما المنزلة الأولى، فإنه خلق في ظلمات ثلاثة: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فوفاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن، فإذا أخرج من ظلمة البطن، وقع في اللبن، لا يخطو إليه بقدم ولا ساق، ولا يتناوله بيد، ولا ينهض إليه بقوة، بل يكره إليه إكراها، ويوجر إيجارا، حتى ينبت عليه لحمه ودمه، فإذا ارتفع عن اللبن، وقع في المنزلة الثالثة من الطعام

من أبويه، يكسبان عليه من حلال وحرام، فإن ماتا عطف عليه الناس، وهذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يأويه وهذا يكسوه.

فإذا وقع في المنزلة الرابعة، واشتد واستوى وكان رجلاً، خشي أن لا يرزق، فيثب على الناس، فيخون أماناتهم، ويسرق أمتعتهم، ويغصبهم أموالهم، مخافة خذلان الله تعالى إياه.

ويبشرنا بقدوم محمد رسول الله قائلاً: وسوف يبعث رسوله، الذي خلق جميع الأشياء من أجله. سوف يأتي من الجنوب، باقتدار وقوة، ونفوذ وصولة، وسلطة وسطوة، وسلطان ودولة، وسوف يحطم الأصنام ويدمرها ويخربها، ويبيد الوثنيين ويهلكهم ويفنيهم.

وسوف يزعزع ملك الشيطان وسلطانه وسيطرته، وسؤدده ونفوذه وسلطته. وسوف يأتي برحمة من الله، لإنقاذ أولئك الذين آمنوا به وخلاصهم. طوبى لمن صدق كلامه وآمن به!

ورغم أني لا أستحق أن أحل شريط حذائه، إلا أنني رأيته برحمة من الله وفضله ومنته.

.. ولكنني أجد السلوان في قدوم رسول الله، الذي سوف يبطل أي فكر زائف عني، وأن عقيدته سوف تمسك بالعالم أجمع وسوف تنتشر، كما وعد الله أبانا إبراهيم. والذي يسليني ويعزيني ويواسيني هو أن عقيدته لا نهاية لها، وستبقى مصونة حريزة من قبل الله.

... اسم المسيح هو محمد، لأن الله أعطاه هذا الاسم، حينما خلق روحه متجلية في جلال سماوي. وخاطبه الله سبحانه وتعالى قائلاً:

انتظر يا محمد! لأني لأجلك سأخلق الجنان والأكوان، وجمعاً عظيماً من المخلوقات، والتي سأقدمها هدية لك، بحيث إن من باركك أجعله مباركاً، ومن لعنك أجعله ملعوناً. وحينما أبعثك إلى العالم، سوف أبعثك كرسولي للخلاص والنجاة والفلاح، وسيكون كلامك الحق والصدق، بحيث إن السماوات والأرض ستزولان، بيد أن عقيدتك لن تزول أبداً.

واسمه المبارك هو محمد.

ويقول عيسى عن التوبة: التوبة هي قلب نمط الحياة الشريرة رأساً على عقب. لأن كل حاسة يجب أن تقلب رأساً على عقب، من حالتها الآثمة إلى حالة الصلاح والسداد، بحيث يجب أن يتحول الفرح والسرور إلى حزن وحداد، والضحك إلى نوح ونحيب وبكاء، والمرح والطرب والعربدة إلى صيام، والنوم إلى قيام الليل وصلاة وسهاد، وأوقات الفراغ إلى نشاط، والشهوة والشبق إلى ورع وعفة وطهارة وسداد، واللغو إلى صمت ومناجاة الله وصلاة، والطمع والبخل وحب المال إلى إحسان وزكاة.

. . . إن التوبة يجب أن تكون قبل كل شيء خالصاً مخلصاً صرفاً محضاً لحب الله، وإلا فالندم سيكون عملاً عبثاً. . . إن أساس خلاصنا هو الله، والذي بدونه لا يكون خلاصاً ولا فلاحاً. فلو اقترف الانسان إثماً ومعصية، فقد أضاع أساس نجاته. فالواجب عليه أن يبدأ بالأساس. . . لذا أخبركم بأن الله لن يعفو عن أولئك الذين ندموا لخسرانهم الجنة.

انظروا إلى الشيطان الذي هو عدو كل عمل صالح، فقد ندم ندماً شديداً على خسارته الجنة ونيله نار جهنم. رغم ذلك فإنه لن ينال رحمة

الله بسبب هذه الندامة. هل تعلمون لماذا؟ لأنه لا يحب الله، بل بالعكس إنه يبغض خالقه.

. . . . لذلك فإن الآثم الذي يتوب بصدق، يجب أن تكون عنده رغبة ملحة، لمعاقبة كل توجه واهتمام في ذاته ضد خالقه.

. . . وبهذه الطريقة من التوبة والندامة (بالتضرع والإستكانة والإعتراف بالخطيئة وعدم أحقيته لأي مكافأة)، سيجد الآثم رحمة الله ورفقه وعطفه ورأفته، أكثر بكثير من ذاك الذي يطلب المكافأة، ولا يسأل الله من فضله.

ويصرخ عيسى قائلاً: اللعنة على أهل هذه الدنيا، لأنهم حقاً يساقون إلى عذاب أبدي! يا أيها الإنسان الشقي ما غرك بربك الكريم! فقد انتخبك وعاملك كابن مدلل ووهبك الجنة! فتعرضت أيها الشقي، بوسوسة الشيطان، لسخط الله وحنقه، وطردت من الجنة، وأدنت بالعيش في عالم دنس نجس وسخ قذر، تكدح فيه لأي شيء، وتخسر فيه أي عمل صالح، بارتكابك المستمر للمعاصي والآثام.

وأهل الدنيا يضحكون بهذه البساطة! والأسوأ من ذلك أن المجرم والشرير الأكبر يضحك أكثر من الباقين. . . وسوف يحكم الله على من يضحك على معاصيه، ولا يبكي عليها، بالخسران والعذاب الأبدي.

ويخاطب عيسى جهل الإنسان وحماقته قائلاً: تبكي على الجسد الذي يفارقه الروح، ولا تبكي على الروح الذي تفارقه رحمة الله بسبب الذنوب!

. . . إن الرجل إذا بكى على أي شيء دنيوي فهو آثم، ما عدا ذاك

الذي يبكي على ذنوبه ومعاصيه من خشية الله. لأن كل المصائب والبلايا، التي يبتلى بها الإنسان، تأتي من الله لخلاصه وإنقاذه، ولذلك ينبغي له أن يبتهج لها ويتهلل. بيد أن الذنوب تأتي من الشيطان لهلاك الإنسان. فكيف لا يحزن هذا الإنسان من الذنوب! حقاً ستلاحظون كيف أن الإنسان ينشد الخسارة لا الربح.

. . . ليس كل من يذرف الدموع يبكي. . . هناك أشخاص لم تذرف من عيونهم دمعة، بيد أنهم بكوا بمقدار يزيد عن ألف شخص أكثر من أولئك الذين يذرفون الدموع.

بكاء الآثم هو استنفاد العاطفة البشرية بشدة الحزن. فكما أن ضوء الشمس يحفظ الشيء من التعفن. . . كذلك استنفاد عاطفة الحزن يحفظ الروح من الذنوب.

لو أن الله من على أهل التوبة النصوح دموعاً، لكانوا اشتاقوا إلى ذرف الدموع، بمقدار يفوق مقدار مياه البحر. كذلك هذا الشوق يستنفد الدمعة الصغيرة، التي تذرف باشتياق ورغبة، كما يستهلك الأتون المتوهج قطرة من الماء.

. . . إن الله ينظر إلى الحزن في بكاء عباده، أكثر مما ينظر إلى الدموع.

ويتكلم عيسى عن جهل الإنسان بالبكاء والتحسر على متاع الدنيا قائلاً: **أيها الأحمق! الأحرى أن لا يكون هناك مبرر للبكاء على أشياء يودعك الله أمانة، ثم يستردها منك، لأن كل شيء يأتي من يد الله. أليس لله حق في أن يتصرف بأشياء أودعها أمانة، متى ما شاء ذلك؟ والذي**

تمتلكه أنت أيها الأحمق هو ذنوبك وحدها فقط، التي ينبغي لك البكاء عليها لا شيء آخر.

ويناشد طالبي الخلاص والفلاح قائلاً: إذا كنتم تودون الحياة الأبدية الخالدة، فعليكم أن تفهموا المعاني، ولا تلتصقوا بالكلمات الجافة.

ويستشهد الحواريون بكلام أشعياء النبي: إن الله مخفي عن حواس الإنسان.

ويؤكد عيسى ذلك ويضيف: وعندما نكون في الجنة، سنعرف الله كما يعرف أحدنا البحر، من قطرة الماء المالح.

... ينبغي البكاء على ذنوبنا، لأننا بالذنوب والمعاصي نهجر خالقنا. ولكن كيف يبكي وينتحب من يحضر مجالس البطالين، ومجالس المرح والطرب والعربدة والولائم والمآدب! سيبكي كما تسيل المياه من ذوبان الجليد!

لا بد أن تحولوا العربدة إلى صيام، إذا أردتم السيادة والهيمنة على حواسكم، كما يمارس الله هيمنته.

إن الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرات، واللهو والبسط والملذات، والحظ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الروح بالعلم والمعرفة والعشق والمودة والمحبة[1].

---

(١) فكما يعيش الجسد بالطعام والشراب والحواس بالملذات الشهوانية أو المباهج =

ويتكلم عن هيمنة الحواس على الكافرين الذين لا يؤمنون بالله قائلاً: بالتأكيد إنهم يتبعون الحواس ولا يتبعون الله، نابذين المنطق وقانون الله وراء ظهورهم[1]. لذلك فهم بغيضون كريهون ممقوتون، لا يعملون الصالحات مهما عملوا وكدوا واجتهدوا.

ويقول عيسى: فإذا لاحظ الخاطئ الأثيم، أنه بمباشرته الشهوة والملذات الدنيوية، قد أثم في حق خالقه، لأنه وقع في شراك حواسه، ينبغي له أن يحزن على آثامه، لأنها تبعده عن الله وعن الحياة، وتؤدي به إلى العذاب الأبدي.

ولأن الإنسان في حياته الدنيوية، يحتاج إلى هذه الملذات الشهوانية، لذا فإن الصيام واتباع الضوابط ضروري، كي يستطيع أن يكبح جماح حواسه، وكي يعرف بأن لله الولاية والسيادة عليه.

وإذا رأى أن الحواس تكره الصيام وتبغضه وتمقته، فدعه يذكرها **بحالة الجحيم، حيث لا ملذات البتة، بل حزن وشجى غير متناهٍ وغير محدود. ودعه يذكرها بمباهج الجنة وملذاتها، فهي عظيمة جداً، بحيث إن مثقال ذرة من مباهج الجنة وملذاتها، أعظم من كل المباهج والملذات الدنيوية مجتمعة.** وبذلك يسهل عليك تهدئة الحواس وكبح جماحها.

فالأحسن أن تقنع بالقليل في هذه الدنيا، لنيل الكثير في الآخرة، من

= الروحية كذلك الروح يعيش بالعشق والمعرفة.

(١) والعكس هو الصحيح بمعنى أن الذي ينبذ المنطق وقانون الله وراء ظهره هو الكافر ولا يؤمن بالله.

أن تطلق العنان للقليل، ثم تجرد وتحرم من كل الملذات والمباهج في الجحيم، وتبقى في عذاب جهنم خالدا فيها.

ويذم عيسى عجب الصائم بصيامه قائلاً: كم هو مقيت بغيض كريه، أن تصوم عن الطعام وحده، وفي الوقت نفسه، تملأُ روحك بالعجب والغرور والتكبر، وتحتقر أولئك الذين لا يصومون، وتستخف بهم، وتعتبر نفسك أحسن من الآخرين!

أخبروني هل أن الرجل المريض يتباهى ويتفاخر بالحمية، التي فرضت عليه من قبل الطبيب، ثم يسمى أولئك الذين لم تفرض عليهم الحمية بالمجانين؟ بالتأكيد لا! ولكنه يحزن لمرضه، الذي كان السبب في الحمية التي لا بد منها، والتي فرضت عليه بالضرورة.

ولنفس السبب أقول لكم بأنه لا ينبغي للتائب أن يتفاخر بصيامه، ويستخف بأولئك الذين لا يصومون. بل ينبغي له أن يحزن ويغتم لذنوبه، التي بسببها فرض عليه الصيام. وأيضاً لا ينبغي للتائب الذي يصوم، أن يهيئ لنفسه الأطعمة الفاخرة، بل يجب عليه أن يكون قانعاً بالخشن الجشب من الطعام.

ويتكلم عيسى عن قيام الليل والتأمل والمراقبة قائلاً: هناك نوعان من النوم: نوم الجسد ونوم الروح. وحينما تراقبون بالجسد، ينبغي لكم أن تراقبوا بالروح أيضاً، وأن تنتبهوا جيداً بأن يكون الروح متيقظاً غير نائم. لأن نوم الروح خطأ محزن مؤلم مفجع فظيع.

ويقول: إن من يراقب بجسده، وينام بروحه، رجل مختلط العقل. ألا إن علة الروح ومرضه وضعفه أفجع من علة الجسد ومرضه وضعفه.

وعلاج الروح أصعب من علاج الجسد. أيمكن لهذا البائس أن يتباهى بتيقظ الجسد، الذي هو قدم الحياة، في حين أنه لا يلاحظ تعاسته بنومه بالروح، الذي هو رأس الحياة؟

نوم الروح هو نسيان الله ومعاده المخيف المريع. الروح الذي يراقب، هو الروح الذي يرى الله في كل شيء، وفي كل مكان، ويشكر الله العظيم ذا الجلال والإكرام، في كل شيء، ومن خلال كل شيء، وفوق كل شيء، عالماً عارفاً بأنه يتلقى رحمة الله ونعمته وفضله ومنته دائماً أبداً، وفي كل لحظة.

ومن ثم وفي غمرة خشية الولي المراقب(١)، وخوفه من الله العظيم ذي الجلال والإكرام، فإن صوت الملائكة يرن في أذنيه دائماً ويدوي: أيها المخلوقات تعالوا إلى يوم المعاد والجزاء، لأن الخالق يريد محاسبتكم.

ويتكلم عيسى عن القديسين قائلاً: إن نسيان الله هو أكبر تعاسة يعاني منها البشر. لأن الإنسان على هذه المعمورة، لا يستطيع أن يجعل خالقه، وهو الله تعالى، دائماً نصب عينيه وذاكرته، **ما عدا القديسين الذين يجعلون الله نصب عينيهم وذاكرتهم دائماً أبداً سرمداً، لأنه يسطع في وجودهم نور حسن الله وجماله، بحيث إنه ليس بمقدورهم نسيان الله.**

ويعلمنا كيف أن نكون قديسين قائلاً: أرغب في أن تكون قديساً، إذا

---

(١) هذا الولي المراقب هو العالم المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. لا العلماء التقليديون الذين ملأوا الدنيا بضجيجهم وعجيجهم وألقابهم وملابسهم الخاصة.

كنت تريد أن تتغلب كلياً على تعاسة النسيان والغفلة. إنه من المؤكد بأن الماء يشق أعتى الصخور، بقطرة فريدة تصدم الصخور، بطور متواصل، لمدة طويلة.

هل تعلم يا برنابا لماذا لم تتغلب على هذه التعاسة؟ **لأنك لا تعتبر هذا الأمر الخطير ذنباً**.

أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم! لماذا هذه الغفلة عن الله، وجفاء ذاكرتك له، وهو الذي يهبك دائماً أبداً، من فضله ونعمه ومننه وعطاياه وهباته ورحمته ورأفته ومغفرته! فإذا كان أمير من الأمراء يهبك هدية، أليس من الخطأ الجسيم، أن تغمض عينيك أمامه، وتدير له ظهرك؟

أخبرني ألا يهبك الله الكريم المفضال هباته وعطاياه دائما أبدا؟ بلى وألف بلى! وكمثال صغير، ألا يهبك الله أنفاسك باستمرار، وبدون انقطاع، التي لولاها لم تعش على هذه الأرض لحظة واحدة؟ الحق والحق **أقول: كلما تناول بدنك نفساً، في كل لحظة من لحظاته، ينبغي لقلبك أن يصرخ قائلاً: ربي لك الحمد ولك الشكر!**

ويقول: لا يستطيع الإنسان نيل هذا المقام بقوته البشرية، بل بعون من الله وحوله ومنته وفضله. **ينبغي للمرء حقاً أن يرغب في الطيبات، كي يعطيه الله الطيبات. حقاً إنك لن تنال شيئاً لا ترغب فيه.**

إن الله قادرعلى أن يجعلك قديساً، إذا كنت ترغب في ذلك، في أقل من لمحة بصر، ولكن قضت مشيئته أن تصبر وتطلب بإصرار، حتى تقدر الهدية المقدسة حق قدرها، وتقدر الله الوهاب المعطي حق قدره.

هل رأيت أولئك الذين يتمرنون على إصابة الهدف في الرماية؟ إنهم يرمون سهامهم مرات عديدة، ولكن لا يصيبون الهدف. ورغم ذلك فإنهم لا يرغبون في أن يرموا سهامهم عبثاً، بل يأملون دائماً دأباً في إصابة الهدف.

فيا من تشتاق إلى ذكر الله الخفي الدائم، افعل كذا الآن! وعندما تنسى الله، أندب وأحزن على ذلك، فإن الله في نهاية المطاف، سوف يعطيك من فضله، وسوف تنال كل ما قلته لك.

ويتكلم عيسى عن الأحياء الذين صاروا في عداد الموتى: **واحتاجوا إلى ما قدموا، واستغنوا عما خلفوا**.

ويقول: الصوم والمراقبة الروحية مرتبطان ببعضهما البعض، بحيث أن الواحد إذا قطع المراقبة، فإن الصوم سيفطر فوراً. **لأن الإنسان أثناء المعصية ينسى الله، ويفطر صوم الروح**. لذا فإن المراقبة والصوم دائماً ضروريان لنا جميعاً، بما يخص الروح، لأنه لا يجوز لكل واحد منا أن يرتكب معصيةٍ ما.

ولأجل خلاص الإنسان يقول عيسى: الضحك يجب أن يتحول إلى بكاء، والولائم إلى صيام، والنوم إلى مراقبة. فإني قد لخصت لكم في ثلاث كلمات، كل ما سمعتم مني، بأنكم على هذه الأرض، ينبغي لكم أن تبكوا وتندبوا دائماً أبداً، وأن بكائكم يجب أن يتدفق من صميم قلوبكم، لأن الله خالقنا قد أسيئ إليه، وأنه ينبغي لكم أن تصوموا، كي تهيمنوا على حواسكم، وأن تكونوا في حالة مراقبة، كي لا تذنبوا، وأن بكاء الجسد وصيام الجسد ومراقبة الجسد يجب أن يراعى، كل حسب بنيته وتركيب جسده.

ويتكلم عيسى عن سبب بكائه الغزير قائلاً: إنني لا أستطيع أن أبكي كثيراً كما ينبغي. لو أن الناس لم يسموني الله، لرأيت ربي هنا كما يرى في الجنة، ولكنت في أمان من الخوف في يوم الجزاء. ولكن ربي يعلم أنني بريء، لأنني لم أضمر في نفسي أبداً، بأنني أكثر من عبد فقير.

ولو لم يسموني الله لدخلت الجنة بعد رحيلي عن الدنيا مباشرة، في حين أنني الآن لن أدخلها قبل يوم الجزاء. هل عرفت الآن سبب بكائي الغزير؟

ويتكلم عيسى عن المذنبين الذين لم يتوبوا قائلاً: وإن لله الآن على الأرض إنساناً، في وسط مخلوقاته، التي تخدم الله، كل حسب وظيفته التي قررها الله، إلا أن الإنسان الذي لا يثمر ثمرة، يريد الله أن يحصده، وأن يحكم عليه بالنار، نظراً إلى أنه تعالى لم يغفر للملك، ولم يغفر لآدم، بل عاقب الملك بهلاك أبدي، وعاقب آدم إلى حين.

لهذا قال قانون الله: إن في الإنسان أملاً كبيراً في هذه الحياة، فلهذا من الضروري ان يعاني هنا المحن والبلايا والشدائد، وأن يحرم من متاع الدنيا، كي ينتبه ويعمل الصالحات. فالله يصبر حتى يندم الإنسان ويتوب.

الحق أقول لكم إن الله قد أدان الإنسان بالعمل. فقد قال نبي الله وخليله أيوب: كما أن الطير قد خلق ليطير والسمك ليسبح كذلك الإنسان قد خلق ليعمل.

ويتكلم عن رذيلة الكسل وأثرها على الغلاء قائلاً: **لا جرم أن الغلاء لا سبب له غير الحشود الكبيرة من الكسالى. فإذا عمل بعضهم في حرث الأرض، والبعض الآخر في صيد الأسماك، لكان هناك وفرة وغزارة عظيمة**

في كل شيء في العالم. وبشأن أي نقصان في طعام الناس، سوف يحاسب الكسالى في يوم القيامة.

واستمر عيسى في كلامه قائلاً: دع الإنسان يقول لي، ماذا أتى به معه إلى هذا العالم، حتى يعيش هنا في كسل؟ لقد ولد عرياناً عاجزاً عن فعل أي شيء. وهو ليس مالك أمواله وممتلكاته، بل مجرد متصرف في ممتلكاته وأمواله. وسوف يحاسب على ذلك في يوم الجزاء المهول المخيف المريع الفظيع.

... صدقوني إن الإنسان ليعتبر زانياً، ومرتكباً للفاحشة، إذا أحب شيئاً، وكأنه مالك ذلك الشيء، لا كأن الله قد أعطاه وخوله إياه. لأن الروح الذي ينبغي أن يرتبط بخالقه ارتبط بالمخلوق. ولذا ينوح الله على الإنسان ويبكي وينتحب ويندب ويرثي على لسان أشعياء النبي قائلاً: لقد ارتكبت الزنى مع الكثيرات من العشيقات. ورغم ذلك ارجع إليّ واندم وتب، لأنني سأرحب بك.

... فليقنع الإنسان نفسه بزوجته، التي أعطاه الله إياها، ولينس غيرها من النساء.

... يجب عليه أن يدرء عن نفسه الإغراءات الخارجية، ويخشى حواسه، لأن فيها رغبة ملحة للقذارات والوساخات والنجاسات. وكيف يدافع عن نفسه، وهو لا يستطيع إلجام بصره، الذي هو منبع الشهوات الجنسية؟

ويستشهد بما قاله إلياس للأعمى: إن جسدي الذي تريد أن تراه، يبعدك عن الله... وأنه كلما زاد بغضي لنفسي، زاد حبي لله، ولو كنت

رأيتني، لابتغيت رؤيتي الجسدية، وذاك عمل لا يرضي الله في شيء. لأن إلياس ليس خالقك، بل الله هو خالقك... إني حقاً بالنسبة إليك شيطان، لأني أبعدتك عن خالقك. فابك على نفسك يا أخي، لفقدانك نور البصيرة، الذي يميز الحق عن الباطل. فلو كان هذا النور فيك، لما استخففت بعقيدتي. ولأجل ذلك أقول لك: هناك الكثيرون الذين يرغبون في رؤيتي، ويأتون من مكان بعيد لرؤيتي، بيد أنهم يحتقرون كلامي.

لذا من أجل خلاصهم، كان الأفضل أن لا يكون لديهم عينان، نظراً إلى أن من يلتذ برؤية المخلوق، أياً كان، ولا ينشد اللذة في رؤية الله، قد خلق صنماً في قلبه، ونبذ الله وراء ظهره.

ويقول: ما أنحس البشر! يثمنون النور الذي تشترك فيه الذباب والنمل، ويحتقرون النور الذي يختص بالملائكة والأنبياء والقديسين من قبل الله.

ويستشهد بكلام إرميا النبي: إن بصري هو السارق الذي يسرق روحي.

ويستشهد أيضاً بكلام النبي داود حيث كان يدعو ربه باشتياق عظيم، بأن يصرف بصره عن الزهو والعجب والغرور والخيلاء. لأن كل ما له نهاية عبث وباطل.

ويقول: ينبغي للإنسان أن يصرف البصر الظاهري في العينين، والبصيرة الباطنية في القلب، في نشدان معرفة خالقه، والاستمتاع بمشيئته، وأن لا يكون المخلوق هدفه، بحيث يتسبب في فقدانه الله خالقه... إذا

انشغل الإنسان بشيء، وتعلق قلبه به، بحيث ينسى خالقه، الذي صنع ذلك الشيء له، فإنه آثم مذنب.

. . . كذلك الإنسان الذي تعلق بمخلوق ما حباً فيه، ونبذ ذكر الخالق، الذي خلق ذلك المخلوق من أجله، مذنب في حق الله خالقه، بعدم الشكر ونكران الجميل وجحود المعروف.

كذلك فالرجل آثم عاص مذنب، إذا تعلق قلبه بامرأة، وأحبها واشتهاها، ونسي الله الذي خلق تلك المرأة لصالحه، وتشتد شهوته، ويندلع شبقه ويندفع، بحيث إنه يحب كل شيء يخص تلك المرأة، ومن ثم يرتكب المعصية ويقترف الفاحشة، التي هي مدعاة للخجل.

فالأحرى بالإنسان أن يلجم عينيه، ويكون سيد حواسه، بحيث لا يشتهي المرأة، إلا إذا عرضت له كزوجة. وبذلك يقع الجسد تحت هيمنة الروح. فالجسد من دون الحواس لا يذنب، كما أن السفينة من دون الرياح لا تتحرك.

ويتكلم عيسى عن ضرورة الدعاء والمناجاة إلى الله قائلاً: فالدعاء مدافع عن الروح، وهو دواء الروح، ودفاع القلب، وسلاح الإيمان، ولجام الحواس. وهو بمثابة ملح اللحوم، فكما يحفظ الملح اللحوم من الفساد والتعفن، كذلك الدعاء يحفظ الروح من تعفن المعاصي.

. . . وأن الدعاء والمناجاة هي أيادي الحياة، والتي بواسطتها سوف يدافع الإنسان عن نفسه في يوم القيامة. إن الدعاء على هذه الأرض يغيظ الشيطان ويحفظ الروح من الذنوب والآثام، ويحفظ القلب من أن لا تمسه الشهوات والرغبات. لأن الدعاء يضع الحواس في إطار قانون الله،

ويتسبب في أن يبقى الإنسان باراً صالحاً مستقيماً عادلاً مقسطاً قويماً، يتلقى من الله سبحانه وتعالى استجابة لكل ما يسأل الله في دعائه... وأن الرجل من دون دعاء ومناجاة، لا يستطيع أن يعمل عملاً صالحاً، ويبقى في الباقيات الصالحات.

... لو علم الرجل كيف يتلوث روحه ويفسد ويتعفن، بسبب اللغو والثرثرة والكلام الفارغ، لعضّ لسانه، وصمت عن الكلام.

... التائب إذا تكلم اقتصد فيه، كما يقتصد في صرف الذهب. فكما أن الذهب يصرف على أمور ضرورية، كذلك لزم عليه أن يتكلم في أمور ضرورية أيضاً. وكما أن الذهب لا يصرفه الإنسان ليؤذي جسده، كذلك لا يجوز للتائب أن يتكلم، بحيث يؤذي روحه.

.... كذلك ينبغي للتائب أن يفعل، كي لا يخسر روحه. فإن الله قد وكل ملكين على كل إنسان، أحدهما لتوثيق سيئاته، والآخر لتوثيق حسناته. وإذا كان التائب يريد أن ينال رحمة ربه، فالأحرى به أن يزن كلامه أكثر من الذهب.

... إن الطماع البخيل، رغم صمته باللسان، إلا أنه بأعماله يقول: لا يوجد إله آخر غيري. إنه فرح مسرور أن يصرف كل ما عنده باشتياق ورغبة، لأجل لهوه ولعبه وملذاته وشهواته، حسب إرادته ورغبته، ومتى ما شاء، غير ملتفت ومنتبه إلى بدايته ونهايته، بأنه ولد عارياً، وأنه سوف يترك كل شيء وراء ظهره، عندما يموت... وأن الطماع البخيل، المنغمس في حب المال، يفرض نفسه كالله على كل ماله وثروته، التي منحه الله إياها.

الطمع وحب المال هو عبارة عن عطش الحواس، حيث تحيط الحواس نفسها بالخيرات الدنيوية، وبمتاع الدنيا وزينتها وزبرجها وزخرفها، وترى فيها فائدتها ومنفعتها، لأنها خسرت الله بكثرة الذنوب، لعيشها في اللهو واللعب والملذات والشهوات، ولا تستطيع الآن أن تبتهج بالله، لأنه سبحانه وتعالى مخفي عنها. وكلما ابتعدت الحواس عن الله، زاد عطشها للدنيا وملذاتها وشهواتها.

ويقول: طوبى للمتواضعين في الدنيا، أولئك يرثون منابر الملك يوم القيامة. طوبى للمساكين، لهم ملكوت السماء... تلومون الناس عن الظن، ولا تلومون أنفسكم على اليقين... إن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر... فحصنوا باب العلم، فإن بابه الصبر... يا صاحب العلم صغر الجهال لجهلهم، ولا تطردهم، ولكن قربهم وعلمهم. يا صاحب العلم، اعلم أن كل نعمة عجزت عن شكرها، بمنزلة سيئة تؤاخذ عليها... أعلمكم لتعملوا ولا أعلمكم لتعجبوا بأنفسكم. إنكم لن تنالوا ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، ولن تظفروا بما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلوب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة. طوبى لمن جعل بصره في قلبه، ولم يجعل قلبه في نظر عينه.

ويقول: من الضروري كي يتوب المذنب وينيب، أن يستنير العقل مجدداً برحمة من الله وفضله، ويميز الخبيث من الطيب، ويهتدي إلى مباهج الحياة الحقيقية. ولذلك حقاً أقول لكم: إذا لم ينور الله قلب الإنسان، فإن عقل الإنسان يبقى متخبطاً في استنتاجاته.

. . . الإنسان كبشر لا يستطيع أن يهدي أحداً إلى التوبة. ولكن الله إذا أراد أن يهدي أحدا، جعل الإنسان وسيلة لهدايته. ونظراً إلى أن الله يعمل من أجل خلاص المذنب وفلاحه، بطريقته السرية الخاصة، لذلك ينبغي لطالب الهداية، أن يستمع لكل أحد، حتى يميز الشخص الذي من خلاله يتكلم الله إليه.

. . . هكذا يجب أن تفعلوا. استمعوا إلى الكل، واتبعوا أحسن القول، نظراً إلى أن الحق وحده يثمر ثماره في الحياة الأبدية الخالدة.

. . . كل شيء يطابق كتاب موسى فهو حق، نظراً إلى أن الله واحد، وأن الحق واحد، وأن العقيدة واحدة، وأن معنى العقيدة واحد، وأن الإيمان واحد.

. . . لو أن كتاب موسى لم يحرف، لما أنزل الله على أبينا داود كتاباً آخر، ولو أن كتاب داود لم يحرف، لما أنزل الله علي الإنجيل، نظراً إلى أن الله واحد لا يتغير، وأن رسالة الله التي بعثها إلى جميع الأنبياء واحدة. وحينما يأتي رسول الله، سوف يرفع دنس الأشرار الطالحين عن كتابي.

. . . ما أقل الناجين حينما يدنس قانون الله وناموسه! نظراً إلى أن الناس يخطئون الهدف وهو الله تعالى. . . أي عقيدة تبعدك عن الله، فهي عقيدة شريرة فاسدة. فلهذا هناك ثلاثة أشياء، يجب أخذها بعين الاعتبار في العقيدة وهي:

حب الله والشفقة على الجار وبغض النفس، التي أساءت إلى الله وغاظته، والتي تغيظ الله كل يوم. لذلك ابتعدوا عن أي عقيدة، تخالف هذه الأصول الثلاثة، لأنها سوف تكون عقيدة شريرة فاسدة.

. . . طالما الإنسان في حالة الذنوب، ينبغي له دائماً أن يندم على ذنوبه، وأن يتوب وينيب. ولأن الحياة البشرية دائماً في حالة الذنوب والمعاصي، لذا ينبغي للإنسان أن يكون في توبة دائمة.

. . . إننا إذا أذنبنا طلبنا رحمة الله فنعطى، في حين أن الشيطان الذي خلق من النفس الملتهبة، لا يجد إلى رحمة الله سبيلاً، لأنه غير قابل للتقويم والإصلاح، لعجبه وكبريائه وعزة نفسه وغروره وتجبره وتكبره، حيث يعتقد دائماً أبداً بأنه شريف ونبيل وسام ورفيع.

. . . ما أسعد أولئك الذين سمعوا هذه الكلمات ووعوها، إنهم سوف لا يذنبون في حق ربهم أبداً، نظراً إلى أنهم بعد كل خطيئة سوف يندمون، ولذلك فإن ذنوبهم سوف لا تبقى وسوف تمسح عنهم!

اللعنة على أولئك الذين يستشعرون العظمة في نفوسهم، لأن الله سوف يكبهم على مناخرهم في نار جهنم! أخبروني يا إخواني ما هو سبب تبجيل النفس ومدح الذات؟ هل من الممكن أن يكون هناك متاع ذو قيمة في هذه الدنيا؟ كلا بالتأكيد! لأن كل شيء تحت الشمس باطل، كما قال نبي الله سليمان.

وإذا كان متاع هذه الدنيا وزينتها وزبرجها وزخرفها، لا يبرر لنا استشعارالمجد والعظمة في نفوسنا، فالأحرى لحياتنا على هذه الأرض، أن لا تبرر ذلك أيضاً، لأنها مثقلة بالبؤس والشقاء والتعاسة والفاقة والضنك والإملاق، فإننا دائماً عرضة للمخاطر، من جانب كل المخلوقات الحقيرة حوالينا.

آه! كم منا من هلك بفعل حرارة الصيف الملتهبة! كم منا من هلك

بفعل الصقيع وبرد الشتاء القارس! كم منا من هلك بفعل البرق والبرد! كم منا من غرق في البحر بفعل ضراوة الرياح! كم منا من مات من الوباء والطاعون! كم منا من مات من الجوع! كم منا من ابتلعتهم الحيوانات المفترسة! كم منا من نكزتهم الحيات ولدغتهم الثعابين! كم منا من غصّ بالطعام ومن شرق بالماء!

ما أنحسك وأسوء حظك يا أيها الإنسان! تستشعر العظمة، وقد أثقلت كاهلك الأيام والليالي، وتترصدك كل المخلوقات في كل مكان!

. . . طبعاً ومن غير شك يا إخواني، إن الإنسان ليرعوي عن الذنب، إذا استشعر الدار الآخرة في حياته، كما قال أبونا داود.

إذا استشعر الإنسان المجد والعظمة في نفسه، فقد سدّ على نفسه أبواب رحمة الله وشفقته ورأفته. بالله عليكم كيف ينال الإنسان العفو والغفران، إذا كان لا يطلبه ولا يلتمسه ولا ينشده!

. . . فكل من يستشعر العظمة في نفسه، ينكر بسلوكه وتصرفاته بأنه خلق من التراب، ومن ثم لا يتعرف على حاجته، فلهذا لا يطلب النجدة من الله. فكيف لا يغضب الله عليه!

. . . إن الله يريد أن يعفو عن الشيطان، إذا عرف الشيطان تعاسته، وطلب الرحمة والغفران من خالقه سبحانه وتعالى.

. . . وأنت أيها الإنسان، أيمكن أن تتباهى بأنك قد عملت الصالحات، نظراً إلى أن الله هو الذي خلقك من الطين، وصنع فيك كل عمل صالح!

ولماذا تستخف بجارك؟ ألا تعرف أنه لو لم يحفظك الله من الشيطان، لكنت أسوء من الشيطان؟ ألا تعلم بأن ذنبا واحدا حول أجمل ملك إلى أشنع وأقبح عفريت، تشمئز منه النفوس، وحول أكمل إنسان على وجه البسيطة، وهو آدم، إلى إنسان شقي تعيس، وعرضه لما نعانيه نحن وجميع ذريته من آلام ومكابدة ونكد في هذه الدنيا؟ ما هو الأمر العالي الذي تملكه، والذي بسببه يمكنك أن تعيش كما يروق لك، من دون أي خوف؟

اللعنة عليك يا طين الأرض! إن الشيطان لك بالمرصاد، يترصد لك بأن يخزيك ويذلك ويحقرك ويشينك وينزلك ويحطك تحت أقدامه، لأنك رفعت نفسك فوق الله الذي خلقك!

. . . اللعنة على الذين يأتون إلى هذه الدنيا، ويعيشون مغرورين مزهوين في عجب وخيلاء! لأنهم كلما عاشوا في عجب وفخر وتباهي وكبرياء، ماتوا في خزي وعار واستخفاف وازدراء، وماتوا وهم مبلسون.

ألا إن هذه الدنيا هي دار مأدبة الله ووليمته، أولم الله فيها الناس، وأكل منها أوليائه وأنبيائه. والحق أقول لكم: كل ما يناله الإنسان، إنما يناله من عند الله. لذلك ينبغي للإنسان أن يعيش في هذه الدنيا، في خضوع وخشوع، وذلة مدقعة، وضعة صادقة، عالما عارفا واقفا على دناءته وسفالته وحقارته أمام عظمة الله، وعظمة نعمه وهباته وعطاياه، التي أغدقها علينا جميعا بكرمه وجوده وإحسانه.

لذلك فإنه غير مباح للإنسان بتاتا أن يضجر ويتذمر في هذه الدنيا ويقول: آه! أف! لماذا صار كذا؟ ولماذا قال كذا؟ ويا ليته لم يصر! ويا ليته

لم يقل وهلم جرا! بل الأحرى بالإنسان أن يعتبر نفسه حقا غير جدير وغير لائق للجلوس على مأدبة الله في هذه الدنيا.

... في مقابل كل نعمة من قبل الله، مهما صغرت في هذه الدنيا، يجب علينا أن نقضي عمرنا في حب الله وخدمته وعبادته.

وعن كلام الله وكيف يثمر في البشر يقول عيسى: وإن كلام الله يقع على الأرض الخصبة الطيبة، عندما يسمعه أولئك الذين يخشون الله، فتنبت فيهم ثمرة الحياة الأبدية. الحق أقول لكم: عندما يخشى الإنسان الله، فإن كلام الله في كل الأحوال يثمر فيه.

ومن وصاياه: صلوا من قطعكم، واعطوا من منعكم، واحسنوا إلى من أساء إليكم، وسلموا على من سبكم، وانصفوا ممن خاصمكم، واعفوا عمن ظلمكم، كما أنكم تحبون أن يعفى عن إساءتكم، فاعتبروا بعفو الله عنكم.

ألا ترون أن شمسه أشرقت على الأبرار والفجار منكم، وأن مطره ينزل على الصالحين والخاطئين منكم؟ فإن كنتم لا تحبون إلا من أحبكم، ولا تحسنون إلا إلى من أحسن إليكم، ولا تكافئون إلا من أعطاكم، فما فضلكم إذن على غيركم؟ قد يصنع هذا السفهاء الذين ليست عندهم فضول ولا لهم أحلام.

ولكن إن أردتم أن تكونوا أحباء الله وأصفياء الله، فأحسنوا إلى من أساء إليكم، واعفوا عمن ظلمكم، وسلموا على من أعرض عنكم. اسمعوا قولي، واحفظو وصيتي، وارعوا عهدي، كيما تكونوا علماء فقهاء.

بحق أقول لكم: إن قلوبكم بحيث تكون كنوزكم، وكذلك الناس يحبون أموالهم، وتتوق إليها أنفسهم، **فضعوا كنوزكم في السماء، حيث لا يأكلها السوس، ولا ينالها اللصوص.**

. . . إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، وكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار. ألم تعلموا أنه من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن خفض برأسه عنه استظل تحته وأكنه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه، ومن تواضع لله رفعه.

إنه ليس على كل حال، يصلح العسل في الزقاق، وكذلك القلوب ليس على كل حال تعمر الحكمة فيها. إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل، فسوف يكون للعسل وعاء، **وكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، ويدنسها الطمع، ويقسيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة.**

ويقول: أنصت إلى من يعظ العقيدة الصالحة، كما لو أن الله يتكلم، لأن الله يتكلم من خلال لسانه. إن الذي لا يزجر المذنبين ولا ينتهرهم ولا يلومهم ولا يعيرهم، احتراماً لأشخاص، أو مداهنة لناس معينين، فحذار حذار منهم! ابتعد عنهم كما تبتعد عن الأفعى المريع المرعب المخيف! فإنه حقاً يسمم الأذن البشري.

. . . فكما أن الرجل الجريح ليس بحاجة إلى ضمادات جميلة ليضمد جراحه ويربطها، بل إلى مرهم طيب مفيد وشافي، ولو كان محرقاً، كذلك المذنب ليس بحاجة إلى كلام طيب جميل، بل إلى تعيير وتعنيف ولوم وتوبيخ، ولو كان موجعاً، كي يتوقف عن الذنوب والمعاصي.

. . . إن الشقي من مشى في هذا العالم ولم يدر إلى أين يتجه. أما

الأشقى فهو ذلك الذي يعرف كيف يصل إلى خان ونزل ومأوى، وهو قادر عليه، ورغم ذلك يريد ويرغب في الإقامة على طريق موحل طيني، تحت المطر المنهمر، وفي معرض خطر اللصوص وقطاع الطرق.

أخبروني يا إخواني هل هذه الدنيا هي وطننا الأصلي ومسقط رأسنا؟ بالتأكيد لا! لأن الرجل الأول أبعد إلى منفاه في هذه الدنيا، حيث عانى الشقاء عقاباً على معصيته. هل يمكن أن يوجد منفي يكابد الفقر في منفاه، لا يطمح إلى الرجوع إلى وطنه الغني؟ التجربة تثبت أنه لا يطمح، بيد أن العقل ينكر ذلك. **أما ترى عشاق الدنيا لا يفكرون في الموت بتاتاً! أما ترى أنهم لا ينصتون إلى من يذكرهم بالموت!**

ويستشهد بكلام نبي الله سليمان قائلاً: **أيها الموت ما أمر ذكرك عند أولئك الذين ركنوا إلى ثرواتهم!**

ويضيف: لا أقول هذا لأنني سوف أموت قريباً. إنني واثق من أني سوف أعيش حتى يقترب العالم من نهايته. **لكنني أتكلم إليكم في هذا الموضوع، كي تتعلموا كيف تموتون.**

بحق الحي الذي لا يموت، كل شيء يقع خطأً حتى لمرة واحدة، يظهر لنا كيف أن ممارسة الشيء على وجهه الصحيح، يحتاج إلى تمرين وتدريب. أما رأيتم الجنود، كيف أنهم في أيام السلم، يتمرنون ويتدربون على أساليب الحرب والقتال مع بعضهم البعض؟ ولكن كيف للإنسان أن يموت ميتة طيبة، إذا لم يتعلم عملياً كيف يموت ميتة طيبة؟

ويستشهد بكلام نبي الله داود: **ما أندر مشهد موت القديس بعين الله وأفخره وأنفسه وأجله وأعظمه!** هل تعلمون لماذا؟ سأخبركم: كما أن

الأشياء النادرة فاخرة ونفيسة، كذلك مشهد موت الذين يموتون ميتة طيبة نادر، ولذلك فهو فاخر ونفيس، بعين الله وفي منظور الله.

. . . ولكن ماذا يفعل الإنسان بحياته، التي ولدت لتموت، حيث إن الذي لم يولد لا يموت؟ ألا يجدر بالإنسان أن يكيل ويعاير حياته بالموت!

ألا تلاحظون البنائين حين يبنون كيف أن عيونهم دائماً متجهة إلى أساس البيت في كل حجر يضعونه؟ هم يهتمون بالأساس أن يبقى مستقيماً ولا يتعوج، كيلا يقع الجدار على الأرض.

يا لشقاء الإنسان! لأن بناء حياته سيتحول إلى خرائب وأطلال، وإلى دمار عظيم، لأنه لم يهتم ولم يعتن بأساس حياته وهو الموت، ولم يجعل عينه على موته أثناء حياته!

أخبروني حينما يولد الإنسان كيف يولد؟ لا جرم أنه يولد عارياً. ثم أنه إذا وضع في لحده ميتاً، ماذا يأخذ معه؟ يلف بنسيج أبيض حقير! وهذه هي جائزته التي تقدمها له الدنيا.

إن أي مشروع يجب أن تكون أدواته متناسبة مع بدايته ونهايته، كي ينجز بأحسن وجه، وتكون خاتمته حسن العاقبة ومسك الختام، فماذا يا ترى هي نهاية الإنسان، الذي يحب الدنيا وثرواتها! إنه سيموت كما قال نبي الله داود: إن المذنب يموت ميتة، في أقصى النحس والشؤم.

اذا كان المرء يخيط القماش، بأعمدة من حديد، بدل الخيط في الإبرة، فكيف ينجز عمل الخياطة؟ وكيف تكون خاتمة هذا العمل؟ لا جرم إن عمله سوف يذهب سدى، وسوف يكون موضع احتقار جيرانه. أما ترى

أن الإنسان يعمل نفس الشيء باستمرار، حينما يجمع المال ويكدس متاع الدنيا وزينتها وزخرفها وزبرجها!

إن الموت هو إبرة خياطة الحياة، ولا يمكن خياطة حلة الحياة بالأعمدة، التي هي متاع الدنيا. رغم ذلك فالإنسان في جنونه، يكد ويكدح باستمرار لإنجاح عمله، في خياطة حلة حياته، ولكن يذهب جهده سدى.

وكل من لا يصدقني، دعوه يذهب إلى القبور، ويشاهد ما فيها، فهنالك سوف يجد الحق والحقيقة. فمن كان يرغب باشتياق، في أن يكون عاقلاً وخائفاً من الله، أكثر من غيره، فعليه أن يدرس كتاب القبور، لأنه سوف يجد هناك العقيدة الحقة، للتمهيد لفلاحه وخلاصه.

فهنالك سوف يتعلم كيف يحترس من الدنيا، ومن رغبات الجسد، وملذات الحواس، حيث يجد أن جسد الإنسان بلحمه وعظمه وجميع أنواع أنسجته قد ادخر من قبل الله كي يكون طعاماً للديدان.

أخبروني لو كان هناك طريق، بحيث أن الإنسان إذا مشى في وسطه سلم، وإذا مشى على حافتيه هلك، فماذا تقولون لو أنكم رأيتم الناس يتنافسون بشدة على الاقتراب من حافتي الطريق، ويقتلون أنفسهم بسبب ذلك؟ كم ذا تكون دهشتكم وحيرتكم وذهولكم! لا جرم أنكم تقولون: إنهم مجانين ومعتوهون، وإذا لم يكونوا معتوهين، فإنهم مستقتلون متهورون.

. . . إن أهل الدنيا ومحبيها هم كذلك. فلو أنهم عاشوا حسب معايير العقل والمنطق، وتمسكوا بالاعتدال والوسطية، لاتبعوا قانون الله، وأنقذوا أنفسهم من الهلاك والعذاب الخالد.

ولأنهم يتبعون إغراءات الدنيا، ورغبات الجسد، فإنهم حقاً معتوهون وأعداء ألداء لأنفسهم، حيث يبذلون قصارى جهدهم، ويتنافسون بشدة، كي يعيشوا بعجرفة وغطرسة وزهو وعجب وكبرياء، ويمارسوا الشهوانية والدعارة أكثر من غيرهم.

ويستشهد عيسى بتعاليم نبي الله إلياس في السير والسلوك إلى الله كما يلي:

كل من أراد أن يتعلم الكثير، كانت خشيته من الله جد قليل. لأن من يخشى الله يقنع بأن يعرف ما يشاؤه الله فقط لا غير.

كل من يبحث عن الله، لا ينشد الكلمات الجميلة، لأن الله لا يريد منا شيئاً، غير أن نوجه اللوم والتوبيخ لأنفسنا على آثامنا وذنوبنا ومعاصينا.

إن بيت الله في قلبك، حيث يوجد حب الله. فكل من اشتاق إلى الله، أغلق أبواب بيته وشبابيكه وأوثق إقفالها، لأن الله لا يسمح لنفسه، بأن يتواجد خارج بيته، حيث لا يوجد حب الله. فاحفظ حواسك، وعليك بقلبك، لأن الله لا يوجد خارجنا في هذه الدنيا التي تبغض الله.

إذا أردت أن تعمل صالحاً فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت، ولا ينفعك أن تربح العالم كله ثم تخسر نفسك.

كل من أراد أن يعلم الآخرين فليكن أصلح من غيره، لأنه لا يمكن لنا التعلم ممن هو أقل صلاحاً منا. فكيف يصلح المذنب نفسه، حينما يجد الذي يعظه أسوء منه؟

كل من نشد الله فليتجنب محاورة الناس. لأن موسى على جبل سينا،

في عزلته الكاملة عن الناس، وجد الله، وتكلم مع الله، كما يتكلم الخليل إلى خليله.

كل من التمس الله، يكفيه مرة في كل ثلاثين يوماً، أن يزور أهل الدنيا، لأنه يكفيه يوم واحد، أن ينجز فيه أعمال سنتين، بكل ما يختص بمتطلبات من يبحث عن الله.

إذا مشى فلينظر فقط إلى قدميه، وليغضّ الطرف عن كل شيء سواه.

إذا تكلم فليمسك لسانه إلا عما هو ضروري.

إذا أكل الطعام، فليقم عن المائدة وهو لا زال جائعاً، وليعمل لآخرته كأنه يموت غداً، وليقض وقته شاكراً، مع كل زفرة وشهقة من نفسه.

فليكتف بلباسٍ واحد من جلد الحيوانات.

فلينم ككتلة أرض على أرض عارية، وليكتف بساعتين من النوم في كل ليلة.

فليبغض نفسه فقط لا غير، وليستنكر ويذم نفسه فقط لا غير.

فليقف في الصلاة في خشية من ربه، كما أنه أمام الله في يوم القيامة.

فاعمل بهذه الوصايا وبالناموس، الذي أنزله الله على موسى، من أجل خدمة الله وعبادته. وإذا فعلت سوف تجد الله، بحيث إنك في كل مكان وزمان، ستشعر بأنك في الله وأن الله فيك.

ويقول مؤنباً الفريسيين الذين كانوا يظنون أنفسهم صالحين، حتى لا يغريهم طول الأمل: إن كثيراً من المرابين والخمارين والمومسات

والمذنبين والمذنبات سيدخلون ملكوت الله، في حين أن الذين يحسبون أنفسهم صالحين، سيذهبون إلى نار جهنم وبئس المصير.

... إن الملائكة في السماء، لتطرب وتتهلل وتفرح وتبتهج، لمذنب حين يتوب ويندم.

ويقول عيسى: ليس هناك أسوء على وجه الأرض من رجل يحترف الدين، وعليه لباس الدين، كي يخبئ وراء ذلك روحاً آثمة.

ويستشهد بما قاله إلياس النبي على لسان عابد بني إسرائيل: من كان يبحث عن الله، ينبغي له أن يذم نفسه فقط.

ويضيف العابد: لا جرم أن إلياس كتب ذلك، كي نعمل به، لا أن نفهمه فحسب.

ويستشهد عيسى أيضاً بما قاله نبي الله داود: سأحرس لساني كي لا يزيغ وينحرف إلى قول الجور والظلم والشر والإثم، حتى لا أجد عذراً لمعصيتي.

ثم يستشهد بما قاله عابد بني إسرائيل: لقد فهمت الكلام من الساعة الأولى، ولم أنسه قط، بيد أنني لم أطبقه، ولم ألتزم به بعد، كما يجب وينبغي. **فماذا ينفع أن نتعلم كثيراً، ولا نراعي ما تعلمناه، ولا نطبقه ولا نلتزم به؟ إن ربنا لا ينشد منا جودة وطيبة في الفهم والإدراك، بل جودة وطيبة في القلب. فهو سبحانه وتعالى سوف لا يسألنا في يوم القيامة، ماذا تعلمنا، بل ماذا فعلنا.**

... ما أقوله هو أنه يجب على الذين فهموا وصايا الله المكتوبة في

الناموس أن يطبقوها أولاً، قبل أن يتعلموا الباقي فيما بعد، وأنه كلما تعلم الإنسان شيئاً، يجب عليه أن يلتزم بتلك الحكمة ويطبقها، لا أن يعرفها ويفهمها فحسب.

. . . في كل يوم أحاسب نفسي، كما لو أني أمام الله في يوم القيامة. وكلما حاسبت نفسي، أشعر بأن شيئاً ما في داخلي يجد لي أعذاراً لأخطائي وعيوبي وذنوبي.

. . . إنني أقف بين ذنبين عظيمين: الأول أني لا أعرف نفسي بأني أعظم الخطائين. والثاني أنني لا أريد أن أندم على ذنبي هذا أكثر من الآخرين.

. . . إن أول كلمة قالها لي معلمي، في بداية انخراطي في طريقة الفريسيين هو أنه ينبغي لي أن أضع نصب عيني، طيبة الآخرين وفداحة ذنبي، وإذا أنا فعلت ذلك، أدركت بأني أعظم الخطائين.

. . . ينبغي أن أضع نصب عيني طاعة الشمس والكواكب، لأنها تخدم خالقها أحسن مني. بيد أني أذمها، لأنها لا تعطي النور الكافي، كما أحب وأشتهي، أو أن حرارتها شديدة، أو أن هناك مطراً كثيراً أو مطراً قليلاً على هذه الأرض.

. . . إن الخالق لا ينظر إلى أعمارنا، بقدر ما ينظر إلى قلوبنا. ولهذا انتخب الله داود ملكاً على إسرائيل، وجعله نبياً، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان أصغر من ستة من إخوانه.

ويصف عيسى العابد الصادق بأنه خالص زيت الطبيعة البشرية. إن

طيبة الفريسي الصادق تعلو الطيبة البشرية، كما يعلو الزيت كل سائل. إنه الكتاب الحي الذي وهبه الله للعالم، لأن كل ما يقوله وكل ما يفعله مطابق لقانون الله. فكل من اقتدى به واحتذى حذوه يراعي قانون الله.

إن الفريسي الصادق هو الملح الذي لا يسمح للحم البشري أن يتعفن بسبب الذنوب، لأن كل من يرى الفريسي الصادق يراجع نفسه، ويندم على ذنوبه. إنه النور الذي ينير طريق الحجاج، لأن كل من ينظر إلى فقره وحالة ندامته، يشعر بأنه لا ينبغي له أن يغلق قلبه.

أما من جعل الزيت نتناً فهو الفريسي الكاذب، الذي يدنس الكتاب ويفسده، ويعفن الملح وينتنه، ويطفئ الضوء ويخمده. لذلك حذار أن تفعلوا كما يفعل الفريسون في هذا الزمان كي لا تهلكوا!

ويعظ حوارييه قائلاً: إن الحريق ليقع في البيت الواحد، فلا يزال ينتقل من بيت إلى بيت، حتى تحترق بيوت كثيرة، إلا أن يستدرك البيت الأول، فيهدم من قواعده، فلا تجد فيه النار محلاً. وكذلك الظالم الأول لو أخذ على يديه، لم يوجد من بعده إمام ظالم فيأتمون به، كما لو لم تجد النار في البيت الأول خشباً وألواحاً لم تحرق شيئاً.

بحق أقول لكم: من نظر إلى الحية تؤم أخاه لتلدغه، ولم يحذره حتى قتلته، فلا يأمن أن يكون قد شرك في دمه، وكذلك من نظر إلى أخيه يعمل الخطيئة، ولم يحذره عاقبتها، حتى أحاطت به، فلا يأمن أن يكون قد شرك في إثمه.

ومن قدر على أن يغير الظالم، ثم لم يغيره، فهو كفاعله. وكيف يهاب الظالم، وقد أمن بين أظهركم، لا ينهى ولا يغير عليه، ولا يؤخذ

على يديه. فمن أين يقصر الظالمون أم كيف لا يغترون؟ فحسب أحدكم أن يقول: لا أظلم ومن شاء فليظلم، ويرى الظلم فلا يغيره، فلو كان الأمر على ما تقولون، لم تعاقبوا مع الظالمين، الذين لم تعملوا بأعمالهم، حين تنزل بهم العثرة في الدنيا؟

ويلكم يا عبيد السوء، كيف ترجون أن يؤمنكم الله من فزع يوم القيامة، وأنتم تخافون الناس في طاعة الله، وتطيعونهم في معصيته، وتفون لهم بالعهود الناقضة لعهده؟ بحق أقول لكم، لا يؤمن الله من فزع ذلك اليوم، من اتخذ العباد أرباباً من دونه.

ويلكم يا عبيد السوء، من أجل دنيا دنية وشهوة رديئة، تفرطون في ملك الجنة، وتنسون هول يوم القيامة! ويلكم يا عبيد الدنيا، من أجل نعمة زائلة وحياة منقطعة، تفرون من الله، وتكرهون لقائه! فكيف يحب الله لقائكم وأنتم تكرهون لقائه؟ وإنما يحب الله لقاء من يحب لقائه، ويكره لقاء من يكره لقائه.

وكيف تزعمون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنتم تفرون من الموت، وتعتصمون بالدنيا؟ فماذا يغني عن الميت طيب ريح حنوطه، وبياض أكفانه، وكل ذلك يكون في التراب، كذلك لا يغني عنكم بهجة دنياكم التي زينت لكم، وكل ذلك إلى سلب وزوال! ماذا يغني عنكم نقاء أجسادكم وصفاء ألوانكم، وإلى الموت تصيرون، وفي التراب تنسون، وفي ظلمة القبر تغمرون!

ويلكم يا عبيد الدنيا، تحملون السراج في ضوء الشمس، وضوؤها كان يكفيكم، وتدعون أن تستضيؤوا بها في الظلم، ومن أجل ذك سخرت

لكم! كذلك استضأتم بنور العلم لأمر الدنيا وقد كفيتموه، وتركتم أن تستضيؤوا به لأمر الآخرة، ومن أجل ذلك أعطيتموه!

تقولون: إن الآخرة حق وأنتم تمهدون الدنيا؟ وتقولون: إن الموت حق وأنتم تفرون منه؟ وتقولون: إن الله يسمع ويرى، ولا تخافون إحصائه عليكم؟ فكيف يصدقكم من سمعكم؟ فإن من كذب من غير علم أعذر ممن كذب على علم، وإن كان لا عذر في شيء من الكذب.

بحق أقول لكم: إن الدابة إذا لم تركب ولم تمتهن وتستعمل، لتصعب ويتغير خلقها، وكذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ويتبعها دؤوب العبادة تقسو وتغلظ. ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره، وجوفه وحش مظلم؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشة معطلة! فاسرعوا إلى بيوتكم المظلمة فأنيروا فيها، كذلك فاسرعوا إلى قلوبكم القاسية بالحكمة، قبل أن ترين عليها الخطايا، فتكون أقسى من الحجارة.

ويناظر عيسى الجنود الرومان قائلاً: إن العيون المادية تستطيع أن ترى الأشياء الظاهرية الضخمة والجسيمة فقط. لذلك فباستطاعتكم فقط رؤية آلهتكم، التي هي من الخشب والفضة والذهب، والتي لا تقدر على فعل شيء. بيد أننا في يهودا نملك عيوناً روحية، وهي عبارة عن خشية الله والإيمان بإلهنا. وبهذا نستطيع رؤية إلهنا في كل مكان.

وفي مناظرته مع الكهنة والفريسيين يقول: كل الأشياء التي خلقها الله، تختص بالله وحده، بحيث إن لا مجال لأحد أن يدعي ملكية أي شيء. لذلك فإن الروح والحواس والجسد والزمان والمتاع والشرف كلها لله،

بحيث إن الإنسان يعتبر لصاً، إذا كان قد حصلها بما لا يرضي الله. كذلك هو يعتبر لصاً، إذا كان قد أنفقها بما لا يرضي الله.

... وأنتم تعتبرون من أكبر اللصوص، إذا قضيتم أحسن أوقاتكم في إرضاء أنفسكم، لا في إرضاء الله، وقضيتم أسوء أوقاتكم في خدمة الله وعبادته.

وكل من اقترف إثماً، أياً كان الآثم، وأياً كان الإثم، فهو يعتبر لصاً، لأنه يسرق من وقته وروحه وحياته، التي ينبغي له أن يكرسها جميعها لخدمة الله وعبادته، ثم يعطيها للشيطان الذي هو عدو الله.

فالإنسان شرفه وحياته ومتاعه كلها هي بضاعته. فإذا سرق سارق متاعه شنق، وإذا أخذ القاتل حياته قطع رأسه. وهذه الأوامر جاءت صريحة في الناموس، ومن وصايا الله سبحانه وتعالى إلى عبده موسى.

ولكن إذا دنس شرف الجار وانتهك وهتك، فلماذا لا يصلب سارق الشرف؟ هل المتاع حقاً أحسن من الشرف؟ هل الله حقاً أمر بأن يعاقب سارق الأمتعة، وأن يقاص قاتل النفس، ولا يعاقب ولا يجازى سارق الشرف، بل يترك حراً طليقاً؟

بالتأكيد لا! لأن أجدادنا منعوا من دخول أرض الميعاد، وذلك بسبب تذمرهم ودمدمتهم وشكايتهم وزمزمتهم. بيد أن أولادهم دخلوا أرض الميعاد فيما بعد. وبسبب هذا الإثم العظيم، قتلت الحيات والثعابين حوالي ٧٠،٠٠٠ من أجدادنا في التيه.

... إن سارق الشرف يستحق عقاباً أكبر من الذي يسرق الإنسان

متاعه وحياته. والذي ينصت إلى المتذمر الشاكي ويتعاطف معه، هو أيضاً مجرم، لأن المتذمر يحتضن الشيطان في لسانه، في حين أن المستمع يحتضن الشيطان في أذنه.

... أخبرك أن الله خالقنا وبارئنا، لا يعمل بموجب إرادتنا، ولذلك ليس مباحا للمخلوق، أن ينشد هوى نفسه، بل أن ينشد شرف الله خالقه وبارئه، ويبحث عنه ويفتش عنه في كل شيء، كي يعتمد المخلوق على الخالق، لا الخالق على المخلوق.

... لو أعطى الله الإنسان كل شيء لطغى، ولاعتبر نفسه سيداً على الجنة، ولم يحسب نفسه عبدالله. لذلك فإن الله تبارك اسمه، منعه من الطعام، كي يبقى الإنسان تابعاً خاضعاً مذعناً لله سبحانه وتعالى.

والحق أقول لك، من كانت عينه صافية، رأى كل شيء صافيا، واجتذبت عينه الضوء، حتى من الظلمة نفسها. أما الأعمى فلا يستطيع ذلك. ولذلك أقول لك: لو لم يذنب الإنسان، لما عرفت أنا ولا أنت رحمة الله وصلاحه واستقامته. ولو أن الله قد جعل الإنسان غير قادر على الذنب، لكان الإنسان كفؤاً ونداً لله، في ذلك الأمر.

لهذا خلق الله تعالى الإنسان طيباً وصالحاً، بيد أنه سبحانه جعل الإنسان حراً في أن يفعل ما يسره ويرضيه، بخصوص حياته، وفلاحه أو هلاكه.

... ولأن الله قادر على كل شيء، فلقد خلق الإنسان بقدرته المطلقة، ولا يحتاج إلى الإنسان في شيء. لذلك فقد جعله حراً بجوده وفضله وكرمه، بحيث يكون بمقدوره مقاومة الشر وعمل الخير. ورغم أن

الله عنده القدرة على منع الذنب وصده، لكنه لا يناقض ولا يضاد جوده وكرمه وفضله. وتعالى الله عن أن يناقض نفسه، ويضاد نفسه، ويعارض نفسه، ويخالف نفسه علواً كبيراً!

ولأن قدرة الله المطلقة، وكرم الله المطلق، كليهما مكتوبان في فطرة الإنسان، فإن الله لا يصد الإنسان عن الذنب، كي تعمل رحمة الله وعدله كلاهما في هذا الإنسان

ومن وصاياه: وكيف يبلغ من يسافر بغير دليل! وكيف يصير إلى الجنة من لا يبصر معالم الدين! وكيف ينال مرضاة الله من لا يطيعه! وكيف يبصر عيب وجهه من لا ينظر في المرآة! وكيف يستكمل حب خليله من لا يبذل له بعض ما عنده! وكيف يستكمل حب ربه من لا يقرضه بعض ما رزقه!

بحق أقول لكم أنه كما لا ينقص البحر أن تغرق فيه السفينة، ولا يضره ذلك شيئاً، كذلك لا تنقصون الله بمعاصيكم شيئاً ولا تضرونه، بل أنفسكم تضرون، وإياها تنقصون، وكما لا ينقص نور الشمس كثرة من يتقلب فيها، بل به يعيش ويحيى، كذلك لا ينقص الله كثرة ما يعطيكم ويرزقكم، بل برزقه تعيشون وبه تحيون.

ويلكم يا أجراء السوء، الأجر تستوفون، والرزق تأكلون، والكسوة تلبسون، والمنازل تبنون، وعمل من استأجركم تفسدون! يوشك رب هذا العمل أن يطالعكم، فينظر في عمله الذي أفسدتم، فينزل بكم ما يخزيكم، ويأمر برقابكم، فتجذ من أصولها، ويأمر بأيديكم فتقطع من مفاصلها، ثم يأمر بجثتكم فتجر على بطونها، حتى توضع على قوارع الطريق، حتى تكونوا عظة للمتقين، ونكالاً للظالمين.

ويلكم يا علماء السوء، لا تحدثوا أنفسكم أن آجالكم تستأخر، من أجل أن الموت لم ينزل بكم، فكأنه قد حل بكم فأظعنكم، فمن الآن فاجعلوا الدعوة في آذانكم، ومن الآن فنوحوا على أنفسكم، ومن الآن فابكوا على خطاياكم، ومن الآن فتجهزوا وخذوا أهبتكم، وبادروا التوبة إلى ربكم.

بحق أقول لكم أنه كما ينظر المريض إلى طيب الطعام، فلا يلتذه مع ما يجده من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها، مع ما يجد من حب المال. وكما يلتذ المريض نعت الطبيب العالم، بما يرجو فيه من الشفاء، فإذا ذكر مرارة الدواء وطعمه، كدر عليه الشفاء، كذلك أهل الدنيا يلتذون ببهجتها وأنواع ما فيها، فإذا ذكروا فجأة الموت، كدرها عليهم وأفسدها.

بحق أقول لكم: إن كل الناس يبصر النجوم، ولكن لا يهتدي بها، إلا من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك تدرسون الحكمة، ولكن لا يهتدي لها منكم، إلا من عمل بها.

ويلكم يا عبيد الدنيا! نقوا القمح وطيبوه، وأدقوا طحنه، تجدوا طعمه، ويهنئكم أكله، كذلك فأخلصوا الإيمان وأكملوه، تجدوا حلاوته، وينفعكم غبه.

بحق أقول لكم: لو وجدتم سراجاً يتوقد بالقطران، في ليلة مظلمة، لاستضأتم به، فلم يمنعكم منه ريح قطرانه، كذلك ينبغي لكم أن تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه، ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها.

ويلكم يا عبيد الدنيا، لا كحكماء تعقلون، ولا كحلماء تفقهون، ولا كعلماء تعلمون، ولا كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن

تقتلعكم من أصولكم، فتقلبكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ويدفعكم العلم من خلفكم، حتى يسلماكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيجزيكم بسوء أعمالكم.

ويلكم يا عبيد الدنيا، أليس بالعلم أعطيتم السلطان على جميع الخلائق؟ فنبذتموه، فلم تعملوا به، وأقبلتم على الدنيا، فبها تحكمون، ولها تمهدون، وإياها تؤثرون وتعمرون، فحتى متى أنتم للدنيا، ليس لله فيكم نصيب؟

ويقول عيسى: إن مشيئة الله مضادة لمشيئة العالم، كما أن الأرض مضاد للهواء، والماء مضاد للنار، والنور مضاد للظلمة، والبرودة مضادة للحرارة، والحب مضاد للحقد.

... فاعلموا أن هناك ثلاثة أنواع من العالم، تحت مظلة اسم واحد. النوع الأول هو عبارة عن السماوات والأرض، والماء والهواء والنار، وكل شيء أوضع وأحط من الإنسان. وكل الأشياء في إطار هذا النوع، مسلمة تماماً لمشيئة الله، كما قال نبي الله داود: إن الله قد أمرها بأمر، وهي لا تتعدى أمر الله ولا تخالفه.

أما النوع الثاني فهو عبارة عن كل الناس أو الأمة. إن الأمة في الحقيقة تحب الله، لأنها بالفطرة تشتاق إلى الله، ولو أنها تخطئ في البحث عن الله. وهل تعرفون لماذا يشتاق الكل إلى الله؟ لأن كل واحد منهم يشتاق إلى الطيبة اللامتناهية اللامحدودة، التي لا أثر للشر فيها. وهذا هو الله وحده لا شريك له. فلهذا السبب بعث الله الرحمن الرحيم أنبيائه، إلى هذا النوع من العالم، من أجل خلاصه.

أما النوع الثالث فهو عبارة عن حالة الناس المنحطة المنغمسة في الذنوب والآثام، والتي حولت نفسها إلى قانون يغاير قانون الله خالقهم. وهذه الحالة تمسخ الإنسان إلى شكل عفاريت مردة، الذين هم أعداء الله.

وهذا النوع من العالم، يبغضه الله بشدة، بحيث لو أن الأنبياء أحبوه، لا جرم أن الله يسلبهم النبوة!

... إنكم لا تقدرون على فهم هذا، لأنكم لا تعرفون ما هو الإثم. فاستمعوا إلي وأنصتوا. الحق والحق أقول لكم: إن الذنب لا يستطيع أن يقوم في الإنسان، إلا كمخالفة ومناقضة ومعارضة لله، نظرا إلى أن الشيء الوحيد، الذي يخالف ويناقض ويعارض مشيئة الله، هو الذنب، بحيث إن كل ما يريده الله غريب وأجنبي على الذنب، ومباين ومغاير ومخالف للذنب.

... لو كان إبليس قد تكلم إلى الملائكة، كي يعرف كيف يحبون الله، لم يكن ليرجم من قبل الله. لكن إبليس كان ينشد أن يبعد الملائكة عن الله، فلهذا فهو يعتبر فاسداً شريراً.

... كما أن الطفل يخطئ بأن يجعل أحذيته على مقاس العملاق، كذلك يخطئ من يجعل الله تابعاً للشريعة، كما أن الإنسان نفسه تابع للشريعة.

.... الإثم هو الشيء الذي لا يريده الله.

... المصائب حسنة، لأنها كفارة عن آثامنا التي اقترفناها، أو لأنها تمنعنا من ارتكاب الإثم، أو لأنها تطلعنا على حقيقة هذه الدنيا، كي نحب التجافي عن دار الغرور، ونرغب في الإنابة إلى دار الخلود.

ومن وصاياه: ليس شيء أبلغ في شرف الآخرة، وأعون على حوادث الدنيا، من الصلاة الدائمة، وليس شيء أقرب إلى الرحمن منها. فدوموا عليها واستكثروا منها، وكل عمل صالح يقرب إلى الله، فالصلاة أقرب إليه وآثر عنده.

بحق أقول لكم: إن عمل المظلوم، الذي لم ينتصر بقول ولا فعل ولا حقد، هو في ملكوت السماء عظيم. أيكم رأى نوراً اسمه ظلمة، أو ظلمة اسمها نور؟ كذلك لا يجتمع للعبد أن يكون مؤمناً كافراً، ولا مؤثراً للدنيا راغباً في الآخرة. وهل زراع شعير يحصد قمحاً؟ أو زراع قمح يحصد شعيراً؟ كذلك يحصد كل عبد في الآخرة ما زرع، ويجزى بما عمل.

بحق أقول لكم: إن الناس في الحكمة رجلان: فرجل أتقنها بقوله وضيعها بسوء فعله، ورجل أتقنها بقوله وصدقها بفعله، وشتان بينهما! فطوبى للعلماء بالفعل! وويل للعلماء بالقول!

بحق أقول لكم: من لا ينقي من زرعه الحشيش، يكثر فيه حتى يغمره فيفسده، وكذلك من لا يخرج من قلبه حب الدنيا، يغمره حتى لا يجد لحب الآخرة طعماً.

ويلكم يا عبيد الدنيا، اتخذوا مساجد ربكم سجوناً لأجسادكم، واجعلوا قلوبكم بيوتاً للتقوى، ولا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات!

بحق أقول لكم: أجزعكم على البلاء لأشدكم حباً للدنيا، وإن أصبركم على البلاء لأزهدكم في الدنيا.

... فيا ويلكم من ذل يوم القيامة، كيف يهينكم ويصغركم!

. . . بل للموت تتوالدون، وللخراب تبنون وتعمرون، وللوارثين تمهدون.

وفي كلامه عن سر الجبر يقول: إن الجبر سر عميق، حتى أني أقول لكم بحق: إن هذا السر لا يظهر جلياً، إلا لرجل واحد فقط، ألا هو الذي تنتظره الأمم، وهو الذي تظهر له أسرار الله جلية واضحة، حتى أنه إذا أتى إلى هذا العالم، عمت البركة أولئك الذين ينصتون إلى كلامه، لأن الله سوف يظلهم برحمته، كما أن شجرة النخل هذه تظلكم، وكما يحمينا هذا النخل من حرارة الشمس الملتهبة، كذلك فإن رحمة الله، سوف تحمي من الشيطان، أولئك الذين يؤمنون بهذا الرجل.

. . . إنه محمد رسول الله! وعندما يأتي إلى هذا العالم، سيكون كالمطر، تهتز تحته الأرض وتربو، وتثمر ثماراً يانعة، بعد أن لم تمطر السماء لمدة طويلة. كذلك سيكون هو سبباً للأعمال الصالحة بين الناس، بوسيلة الخير الوفير، والرحمة الغزيرة، التي سيأتي بها. لأنه السحابة البيضاء، حبلى بالرحمة الإلهية، والتي سيرشها الله على المؤمنين، كما يرش المطر.

وفي كلامه عن بطلان عقيدة الفريسيين بالجبر المطلق يقول: يا إخواني هذه هي ثمار التقاليد البشرية. لأنهم في قولهم بأن الله سبق وقدر، بأن الفاسد الشرير لا يمكنه، بأي حال من الأحوال، أن يهتدي ويصبح من صفوة الله، فإنهم في الحقيقة يسبون الله، ويصفونه بالظالم وعديم التقوى. لأن الله يأمر المذنب أن لا يذنب، وأن يتوب ويندم إذا أذنب، في حين أن عقيدة الجبر تسلب المذنب قوته على أن لا يذنب، وتجرده كلياً من الندامة والتوبة.

واسمعوا ماذا قال الله على لسان النبي يوئيل: أنا ربكم الله الحي القيوم، لا أريد أن يموت المذنب مذنباً، بل أنشد للمذنب أن يتوب ويندم.

هل من الممكن أن يقضي الله ويقدر ما لا يريده؟ قارنوا ما يقوله الله، مع ما يقوله الفريسيون في هذا الزمان.

ويقول الله على لسان أشعياء النبي: لقد ناديتكم ولكن لا تنصتون إليّ.

كم نادى الله على لسان أشعياء النبي قائلاً: كل يوم أمد يدي إلى الناس، الذين لا يؤمنون بي، بل يخالفونني ويعارضونني ويضادونني!

بيد أن الفريسيين في هذا الزمان، عندما يقولون بأن الفاسد الشرير، لا يمكنه أن يكون من الصفوة، إنهم في الحقيقة يقولون، بأن الله يسخر من الناس، كما يسخر الواحد من الأعمى، حين يريه شيئاً أبيضاً، وكما يسخر الواحد من الأصم، عندما يهمس في أذنه.

وكم من الصفوة حبطت أعمالهم، وتحولوا إلى أشرار فاسدين!

اسمعوا ماذا يقول الله على لسان النبي حزقائيل: أنا الله الحي القيوم، إذا ارتد الرجل الصالح، وترك صلاحه وعدله واستقامته، وارتكب المنكرات، فإنه سوف يهلك، وسوف لا أذكر شيئاً من صلاحه واستقامته، لأنه إذا عول على صلاحه، فإن صلاحه سوف يتركه أمام عيني، وسوف لا يخلصه من الهلاك.

وفي تسمية الفاسدين الأشرار، يقول الله على لسان النبي هوشع: (من

لم أسمه من الصفوة، سوف أسميه من الصفوة). إن الله صادق في قوله، ولا يكذب، لأن الله هو الحق، ولا ينطق إلا بالحق. بيد أن الفريسيين في هذا الزمان، يناقضون الله جل وعلا، ويضادونه بعقيدتهم الهوجاء.

... إنه بناء عليه فإن عقيدة الجبر أساسها قانون الله وحرية الاختيار البشرية. وحتى إذا كان الله قادراً على إنقاذ العالم كله، وأن لا يهلك أحد من البشر بذنوبه، إلا أنه سبحانه لن يشاء ذلك، كي لا يجرد الإنسان من حرية الاختيار ـ والتي اختصه الله بها ـ ولكي يعمل الإنسان على خلاف رغبة الشيطان، حتى تكون لهذه الكتلة من الطين ـ والتي يبغضها الشيطان ـ القدرة على الندامة والتوبة والإنابة، ومن ثم الذهاب للعيش إلى نفس المكان الذي طرد منه غريمها الشيطان، رغم أنها أذنبت كما أذنب الشيطان.

إن الله يريد بقدرته المطلقة، أن يتابع برحمته قوة اختيار البشر، ولا يريد أن يترك البشر في ذنوبهم، بل يريد بمتابعته أن يرجعوا إلى رشدهم، ويندموا ويتوبوا وينيبوا، حتى لا يكون في مقدور أي أحد منهم، أن يلتمس العذر لذنوبه، نظراً إلى أنه سيكون واضحاً وجلياً لكل أحد، كم فعل الله لهدايته، وكم أتم حجته عليه، بدعوته إلى الندامة والتوبة والإنابة!

ومن ضمن كلامه عن عجز البشر عن درك الله وأعماله يقول: فكيف في مقدورهم، أن يفهموا بأن الله قد خلق الكون من العدم بكلمة واحدة؟ وكيف يكون في مقدور البشر، أن يستوعبوا خلود الله؟ لا جرم إنهم لا يستطيعون أن يدركوا ذلك، بأي حال من الأحوال، لأن الإنسان محدود، ومركب مع الجسد، الذي قال عنه النبي سليمان بأنه قابل للتعفن والفساد،

وأنه يكبس الروح كبساً، في حين أن أعمال الله متناسبة مع الله وحده، فكيف يقدر البشر على دركها وفهمها واستيعابها!

وبالنظر إلى كل هذا، فإن أشعياء النبي صرخ قائلاً: إنك بحق إله مخفي! وقال عن رسول الله وكيف خلقه الله: ومن يستطيع أن يروي عنه غير ذريته! وقال عن عظمة أعمال الله: يا ترى من كان مستشاره!

ولأجل ذلك خاطب الله البشر قائلاً: كما أن السماء معظم وممجد على الأرض، كذلك فإن طرقي معظمة وممجدة على طرقك، وأفكاري معظمة وممجدة على أفكارك.

وعلى هذا أقول لكم: إن نمط الجبر وكيفيته ليس واضح المعالم على البشر، رغم أن الحقائق التي أنبأتكم بها صادقة.

هل ينبغي للبشر إذن أن ينكر الحقيقة، إذا كان لا يعرف الكيفية؟ حقاً إني لم أر أحداً بعد يرفض الصحة، رغم أن كيفيتها لا تدرك. ولا أعرف إلى الآن، كيف أن الله يبرئ المرضى على يدي، وبوسيلة لمسي ومسي.

ويقول عيسى عن نفسه: صدقوني إن الله سبحانه وتعالى، حينما اصطفاني وبعثني إلى بني إسرائيل، أعطاني كتاباً كالمرآة الصافية، نزل على قلبي، بحيث إن كل ما أنطق به، يأتي من ذلك الكتاب. وحينما ينتهي ذلك الكتاب، ويتوقف عن التفجر من فمي، سوف أرفع عن هذه الأرض.

. . . كل ما أنطق به عن علم الله، وعن خدمة الله وعبادته، وعن علم البشر، وعن خلاص البشر وفلاحه، كل هذا يأتي من ذلك الكتاب، والذي هو إنجيلي.

ويقول في وصف الجنة: **إن الجنة دار يدخر فيه الله مباهجه وبسطه وسروره وفرحه، وهي عظيمة للغاية، بحيث إن أرضها التي تطؤها أقدام القديسين وأولياء الله الصالحين ثمينة وفاخرة ونفيسة للغاية، بحيث إن درهما واحدا منها، أثمن وأفخر وأنفس من آلاف العالمين.**

إن هذه المباهج شاهدها أبونا نبي الله داود، لأن الله أراه إياها، حتى يشهد أمجاد الجنة وجلالها وبهائها وعظمتها. وعندما رجع إلى نفسه، أغمض عينيه بكلتي يديه، وبكى وانتحب قائلاً: لا تنظري يا عيني إلى هذا العالم كرة أخرى، لأنه جميعه باطل وسراب، ولا يوجد شيء طيب هاهنا.

وعن هذه المباهج يذكر عيسى ما قاله أشعياء النبي: **لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، تلك المباهج التي هيأها الله لعاشقيه ومحبيه.**

أتعلمون لماذا لا يشاهد البشر، مثل هذه المباهج، التي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر؟ لأن البشر في عيشه في أسفل السافلين، غير جدير بمشاهدة مثل هذه المشاهد. فلهذا على الرغم من أن أبانا داود قد رآها حقاً، إلا أنه لم يرها بعيونه البشرية، بل إن الله رفع روحه ودمجها معه، وبالاتحاد مع الله، رأى تلك المشاهد، بالنور الإلهي.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، نظراً إلى أن مباهج الجنة غير محدودة ولامتناهية، وأن الإنسان محدود متناهي، لذا فإن الإنسان لا يستطيع احتوائها، كما لا تستطيع الجرة الفخارية الخزفية احتواء البحر.

فانظروا كم هو جميل هذا العالم في فصل الصيف حين تؤتي الأرض ثمارها! إن الفلاح يسكره الجذل والفرح، بسبب الحصاد الوافر، فيملؤ الوديان والجبال غناء، لأنه يحب ثمار يديه وكده وكدحه حباً جمًا. والآن ارفع قلبك إلى الجنة، حيث الوفرة من الثمار والفواكه، من تلك الفواكه التي زرعها وفلحها الخالق العظيم.

بحق الحي الذي لا يموت، إن هذا يكفيكم للتعرف على الجنة، نظراً إلى أن الله قد خلق الجنة، ليكون داراً لمباهجه.

يا ترى ماذا تتوقع من الطيبة المطلقة إلا الطيبة المطلقة بلا حدود! ويا ترى ماذا تتوقع من الجمال المطلق إلا الجمال المطلق بلا حدود! أنت في خطأ جسيم إذا فكرت غير ذلك. وأنت في ضلال بعيد، إذا فكرت أن الله جل وعلا لا يملك الطيبة المطلقة، والجمال المطلق، بلا حدود ولا نهاية.

لقد خاطب الله الإنسان الذي يخدمه ويعبده بكل إخلاص قائلاً:

أنا مطلع على أعمالك، وبأنك تعمل من أجلي. بحقي أنا الحي القيوم، إن حبك لي ليس أوسع من فضلي وجودي وكرمي. ولأنك تخدمني وتعبدني أنا الله خالقك وبارئك، عارفاً بأنك من صنع يدي، وأنت لا تسألني شيئاً غير فضلي ونعمتي ومنتي وصفحي وعفوي ومغفرتي ورحمتي ورفقي ورأفتي، كي تخدمني وتعبدني بكل إخلاص، وأنت لا تضع حداً ولا هدفاً لخدمتي وعبادتي، نظراً إلى أنك تشتاق إليّ، وترغب في خدمتي وعبادتي أبد الآبدين، كذلك سأفعل أنا بك، لأني سوف أكافئك، كما أنك الله وكما أنك عدلي.

وأنا لن أكافئك فقط، بأن أضع في يديك وفرة الجنة وفيضها

وغزارتها، بل سوف أعطيك نفسي كهدية. وكما أنك تشتاق، بكل فرح وسرور، أن تكون عبدي أبد الآبدين، كذلك سأجعل لك أجري وثوابي أبد الآبدين.

... يا ترى ماذا تفكرون وتتصورون عن الجنة! هل هناك عقل يقدر على درك مثل هذه الثروات والمباهج؟ إن الإنسان ينبغي له علم، بعظمة علم الله، إذا أراد أن يعرف ما يريد الله إعطائه لعبيده المخلصين.

... فليكن هذا كتابك، تدرس فيه علم الجنة. لأن كل ما أعطاه الله لجسد الإنسان في هذه الدنيا، تساوي فلساً، أي بالضبط ما يعطيه الملك هيرود للرجل الفقير. بيد أن ما يعطيه الله للجسد والروح في الجنة، تساوي كما أن هيرود يعطي كل ما عنده، بل يعطي حياته رخيصة، لأحد من عبيده المخلصين أصحاب الزلفى عنده.

يقول الله لمن يحبه ويخدمه بكل إخلاص:

يا عبدي اذهب، وعد حبات رمل البحر، وانظر كم عددها. ولو أعطى لك البحر حبة واحدة من الرمل، هل يتراءى لك ذلك ضئيلاً؟ بالتأكيد نعم! أنا خالقك الحي القيوم، كل ما أعطيته للأمراء والملوك على هذه الأرض، هي أقل من حبة رمل، التي يعطيك إياها البحر، بالمقارنة مع ما سوف أعطيك في جنتي.

واستأنف عيسى قائلاً: تأملوا وتبصروا في وفرة الجنة وفيضها وغزارتها. إذا كان الله قد أعطى للإنسان في هذه الدنيا، درهماً واحداً من الخير والرفاهية، فإنه سيعطيه في الجنة ألف ألف أضعاف.

تصور كمية الفواكه في هذه الدنيا، وكمية الطعام، وكمية الورود والزهور، وكمية الأشياء التي هي في اختيار الإنسان!

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، كما أن البحر يطفح بالرمل الغزير، حتى بعد ما يتسلم الإنسان حبة منه، كذلك ستكون جودة التين وكميته في الجنة، تفوق جودة التين وكميته في هذه الدنيا. وعلى نفس المنوال، ستكون حالة الأشياء الأخرى في الجنة.

والحق أقول لكم بأنه إضافة إلى كل هذا، فكما أن جبلا من الذهب واللؤلؤ أفخر وأنفس من ظل النمل، كذلك فإن مباهج الجنة أفخر وأنفس من كل المباهج التي يتمتع بها أمراء العالم، مما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وفي جوابه عندما سئل هل الجنة للجسد أو للروح وحده قال: **هل من الممكن يا بطرس أن تكون قد نسيت ما قاله نبي الله وخليله أيوب: أنا أعلم بأن الله حي قيوم، وفي يوم القيامة سوف أستيقظ بجسدي، وسوف أرى الله مخلصي ومنقذي بعيني؟**

ولكن صدقني إن الجسد سوف يطهر ويصفى وينقى، بحيث لا تبقى أية خاصية أو صفة أو خلة من الجسد الحالي، نظراً إلى أنه سوف يطهر من رغبات الشر والإثم، ويصفى وينقى من الشهوة والهوى، وأن الله عز وجل سيغيره ويحوله إلى الحالة والهيئة التي كان عليها آدم، قبل أن يعصي ويذنب.

على سبيل المثال، هناك رجلان يعملان لسيد واحد، في عمل واحد. الأول مراقب ويعطي الأوامر للثاني، والذي بدوره يؤدي كل ما يأمره به

المراقب. هل يتراءى لك أن السيد يجب أن يكافئ المراقب وحده، الذي يشرف على العمل ويصدر الأوامر، ثم يرمي خارج منزله بذاك الذي كد واجتهد في العمل، وأنهك نفسه وأضنى وأعيى؟ بالتأكيد لا.

فكيف تتحمل عدالة الله ذلك! إن روح الإنسان وجسده وحواسه تخدم الله معاً: الروح وحده يشرف ويراقب، ويأمر بالخدمة والعبادة، لأن الروح لا يأكل ولا يصوم ولا يمشي، ولا يحس البرودة ولا الحرارة، ولا يمرض ولا يمكن أن يقتل ويباد، لأن الروح خالد. فهو لا يعاني من تلك الآلام والأوجاع، التي يعانيها الجسد تحت وطأة محيطه. هل هذه عدالة أن يذهب الروح وحده إلى الجنة، ولا يذهب الجسد إلى الجنة، ذاك الذي أنهك نفسه كثيراً وأضنى، وأكلَ وأتعب وأعيى، في خدمة الله وعبادته جل وعلا!

وفي جوابه على تساؤل بطرس بأن الجسد تسبب للروح أن يذنب، فلهذا لا ينبغي له أن يدخل الجنة، قال عيسى: قل لي كيف يمكن للجسد أن يذنب من دون روح؟ بالتأكيد إن ذلك مستحيل. فلذلك إذا أبعدت رحمة الله عن الجسد، فأنت في الحقيقة تحكم على الروح بعذاب النار.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إن ربنا الله قد وعد أن يتغمد المذنب برحمته قائلاً: بمحض أن يندب المذنب ويبكي على ذنوبه، فأنا من جهتي سوف لا أتذكر آثامه إلى الأبد.

والآن قل لي من سيأكل اللحم الطري في الجنة، إذا كان الجسد لا يدخل الجنة؟ هل من الممكن أن يكون الروح؟ بالتأكيد لا!

وفي جوابه على تساؤل بطرس بأن الجسد الذي سيأكل في الجنة كيف

يفرغ اللحم من دون نجاسة؟ قال عيسى: قل لي كيف يكون الجسد متنعماً، إذا كان لا يأكل ولا يشرب؟ لا جرم أنه من اللائق أن تكرم شيئاً بما يناسب ذاك الشيء. ولكنك تخطئ يا بطرس بتفكيرك، بأن لحم الجنة يجب أن يفرغ في نجاسة، لأن الجسد في هذه النشأة، يأكل لحوماً قابلة للتعفن، ولذلك لا ينتج منها إلا التعفنات والنجاسات، بيد أنه في الجنة، يكون الجسد غير قابل للتعفن، وعديم الإحساس وخالداً، ومتحرراً من كل بؤس وشقاء وتعاسة، وضنك وإملاق وفاقة، وأنه في الجنة، تكون اللحوم بلا عيب، ولذلك لا تنتج منها التعفنات والنجاسات البتة.

يقول الله على لسان أشعياء النبي، مستخفاً بالفاسدين الأشرار: إن عبادي سوف يجلسون على مائدتي في بيتي، وسوف يقيمون الأعياد والولائم، ويتلذذون ويتمتعون بابتهاج وسرور وفرح، وعلى أصوات القيثار والأرغن، وسوف لا أسمح لهم، بأن يكونوا بحاجة إلى أي شيء. ولكنكم يا أعدائي سوف ترمون بعيداً عني، حيث تموتون في بؤس وشقاء وتعاسة، وضنك وإملاق وفاقة، وتكونون في معرض الاحتقار والازدراء من قبل عبادي.

فقال عيسى للحواريين: ماذا تعني كلمة (وسوف يقيمون الأعياد والولائم، ويتلذذون ويتمتعون بابتهاج وسرور وفرح)؟ لا جرم أن الله يتكلم بوضوح. أخبروني لأي غرض تجري الأنهار الأربعة من خمر فاخر نفيس، مع وفرة من الفواكه في الجنة؟ بالتأكيد أن الله لا يأكل، وأن الملائكة لا تأكل، وأن الروح لا يأكل، وأن الحواس لا تأكل. بل الذي يأكل هو الجسد.

ولأجل هذا فإن تكريم الجنة للجسد هو اللحوم، وتكريم الجنة للروح والحواس هو الله، ومعاشرة الملائكة، ومخالطة الأرواح المقدسة. إن أمجاد الجنة سوف يعلنها ويظهرها رسول الله على أحسن وجه، وهو يعرف كل شيء، أحسن من أي مخلوق آخر، نظراً إلى أن الله قد خلق كل شيء حباً له.

وفي جوابه عندما سئل هل سيكون تكريم الجنة مساوياً لك أحد، قال عيسى: سوف لا يكون مساوياً، لأن الله عادل. وكل أحد سوف يكون قانعاً، لأنه لا حسد في الجنة. أخبرني يا برثولماوس، إذا كان هناك سيد، ويملك عبيداً كثيرين، وأنه يلبس عبيده نفس اللباس، فهل الصبيان الذين يلبسون لباس الصبيان، ينوحون لأن ثيابهم ليست ثياب الكبار؟ على العكس من ذلك، لو رغب الكبار أن يعطوهم حللاً أكبر، لغضبوا لأن الحلل ليست على مقاسهم، وسوف يظنون أن الكبار يستهزئون بهم.

والآن يا برثولماوس، ارفع قلبك إلى الله في الجنة، وسوف تجد هناك مجداً واحداً، رغم أنه سيكون متفاوتاً في التكريم، لكن ذلك لا يولد حسداً.

وعندما سئل هل في الجنة ضوء من الشمس قال عيسى: يا برنابا إن الله قد قال لي: إن للعالم، حيث يوجد بشر مذنبون، شمساً وقمراً ونجوماً تزينه، قد خلقت كل ذلك لمنفعتكم ولبهجتكم. أتفكرون أن بيتي، حيث يقيم المؤمنون، ليس أحسن؟ لا جرم أنكم تخطئون بمثل هذا التفكير، لأني أنا الله شمس الجنة، وأن رسولي قمرها، الذي يتلقى مني كل شيء، وأن النجوم هم أنبيائي، الذين وعظوكم مشيئتي. وكما أن المؤمنين تلقوا

كلامي من خلال أنبيائي، فإنهم سوف يتلقون، على نفس المنوال، البهجة والسرور من خلالهم، في جنة مباهجي.

وتكلم عن الجنة قائلاً: إن الجنة عظيمة جداً، بحيث لا أحد يستطيع أن يتصورها. الحق أقول لكم: إن السماوات تسعة، وبينها وضعت الكواكب، وكل كوكب يبعد عن الآخر، بمقدار رحلة ٥٠٠ عاماً للإنسان. وأن الأرض على نفس المنوال، تبعد عن السماء الأولى، بمقدار رحلة ٥٠٠ عاماً.

ولكن توقف عند قياس السماء الأولى، والتي تكبر عن الأرض، بمقدار ما تكبر الأرض عن حبة رمل. كذلك تكبر السماء الثانية عن الأولى، والثالثة عن الثانية، وهكذا دواليك إلى السماء الأخيرة، حيث إن كل سماء تكبر عن السماء التي قبلها بنفس النسبة.

والحق أقول لكم: إن الجنة تكبر عن الأرض والسماوات جميعاً، بمقدار ما تكبر الأرض عن حبة رمل.

وفي جوابه على بطرس بأن الجنة أكبر من الله، لأن الله يرى في الجنة. أجاب عيسى: امسك لسانك يا بطرس، لأنك كفرت بالله سهواً وبدون التفات.

ثم هبط جبرائيل على عيسى، وأراه مرآة تضيئ كالشمس، وشاهد فيها هذه الكلمات مكتوبة:

بحقي أنا الحي القيوم! فكما أن الجنة تكبر عن الأرض والكون والسماوات جميعاً، بمقدار ما تكبر الأرض عن حبة رمل، كذلك أنا أكبر

من الجنة، بأضعاف ما في البحار من حبات رمل، وما في ماء البحار من قطرات، وما في حشيش الأرض من شفرات، وما في الأشجار من أوراق، وما في الحيوانات من جلود، بل أكبر بكثير من أضعاف حبات الرمل تملأ الكون والسماوات والأرض والجنة، بل أكبر من ذلك بكثير.

ثم قال عيسى: فلنكبر لله ونهلل، ونقدسه ونبجله، ونحترمه ونجله. فانحنوا جميعاً برؤوسهم مئة مرة، واسجدوا لله في صلاة.

وبعد الصلاة نادى عيسى بطرس، وأخبره وجميع الحواريين بما شاهد. وقال لبطرس: إن روحك الذي هو أكبر من كل الأرض، يشاهد الشمس التي هي أكبر من كل الأرض ألف مرة، من خلال عين واحدة.

فقال بطرس: لقد صدقت.

ثم قال عيسى: كذلك سترى الله خالقنا بعين الجنة.

ومن وصايا عيسى: إن كل كلمة سيئة تقولون بها، تعطون جوابها يوم القيامة. يا عبيد السوء، إذا قرب أحدكم قربانه ليذبحه، فذكر أن أخاه وجد عليه، فليترك قربانه وليذهب إلى أخيه فليرضه، ثم ليرجع إلى قربانه فليذبحه.

... بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل، يخرج الدقيق الطيب ويمسك النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم، ويبقى الغلّ في صدوركم.

بحق أقول لكم: ابدؤوا بالشر فاتركوه، ثم اطلبوا الخير ينفعكم، فإنكم إذا جمعتم الخير مع الشر لم ينفعكم الخير.

بحق أقول لكم: إن الذي يخوض النهر، لا بد أن يصيب ثوبه الماء، وإن جهد أن لا يصيبه، كذلك من يحب الدنيا لا ينجو من الخطايا.

بحق أقول لكم: طوبى للذين يتهجدون من الليل، أولئك الذين يرثون النور الدائم، من أجل أنهم قاموا في ظلمة الليل على أرجلهم في مساجدهم، يتضرعون إلى ربهم، رجاء أن ينجيهم في الشدة غداً.

بحق أقول لكم: إن الدنيا خلقت مزرعة، يزرع فيها العباد الحلو والمر والشر والخير، الخير له مغبة نافعة يوم الحساب، والشر له عناء وشقاء يوم الحصاد.

بحق أقول لكم: إن الحكيم يعتبر بالجاهل، والجاهل يعتبر بهواه. أوصيكم أن تختموا على أفواهكم بالصمت، حتى لا يخرج منها ما لا يحل لكم.

بحق أقول لكم: إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون.

بحق أقول لكم: يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة، من لا تنقص شهوته من الدنيا، ولا تنقطع منها رغبته.

... بحق أقول لكم: يا عبيد الدنيا، إن أحدكم يبغض صاحبه على الظن، ولا يبغض نفسه على اليقين. وأقول لكم: إن أحدكم ليغضب، إذا ذكر له بعض عيوبه وهي حق، ويفرح إذا مدح بما ليس فيه.

وقال للكاتب الطيب نيكوديموس: أخبرني من الذي خلق الإنسان من العدم؟ لا جرم أنه الله! الذي وهبه أيضاً العالم كله لصالحه والانتفاع منه.

بيد أن الإنسان قد فرط في كل ما أعطاه ربه في الآثام، وبسبب الإثم تحول العالم كله ضده.

إن الإنسان في بؤسه وشقائه وتعاسته، لا يملك شيئاً كي يعطيه لله، عدا الأعمال الملوثة بالذنوب. لأنه بارتكابه المستمر للمعاصي، في كل يوم، قد أفسد أعماله. ولهذا قال أشعياء النبي: إن أعمالنا الصالحة كمثل خرقة حيضة.

وأنى للإنسان أن تكون له جدارة، وهو غير متمكن من الاكتفاء بذاته، ولا يستطيع أن يرضي غيره! هل في الإمكان أن لا يذنب البشر؟ لقد قال الله على لسان نبي الله داود: إن الصالح المستقيم يزل ويسقط سبع مرات في اليوم.

إذن كيف لا يزل ويسقط الطالح الشرير؟ وإذا كانت أعمالنا الصالحة كخرقة حيضة، فما بالك بأعمالنا الطالحة!

بحق الحي الذي لا يموت، لا شيء أجدر بالتحاشي والهروب، من أن يقول العبد: (أنا أستحق). فلينظر الإنسان في أعماله، سيرى حالاً عدم جدارته. فإذا أتى بأشياء حسنة، فهي من الله، لا من عنده، لأن وجوده من الله الذي خلقه.

وما يعمل المرء من عنده، هو أن يعارض الله خالقه وبارئه، ويخالفه ويضاده، ويرتكب الآثام، ويقترف الجناية على نفسه. وهذا لا يستحق الثواب بل العقاب.

إن الله لم يخلق الإنسان فحسب، بل خلقه كاملاً. إن الله قد أعطاه

العالم جميعه، وبعد افتراقه عن الجنة، جعل له ملكين لحراسته، وبعث إليه بأنبيائه، وأعطاه الناموس والقانون والشريعة، وأعطاه الإيمان، وهو في كل لحظة ينجيه من الشيطان، وهو راغب باشتياق، بأن يعطيه الجنة، بل أكثر من ذلك، هو يريد أن يعطي نفسه للإنسان.

فانظر كم هو كبير دين الله علينا! وإذا أردت سد هذا الدين، لزم عليك أن تخلق الإنسان من العدم، وأن تخلق كثيراً من الأنبياء، كما بعثهم الله، وأن تخلق العالم، وأن تخلق الجنة، وأكثر من ذلك، أن تخلق رباً عظيماً طيباً، كما هو الله ربنا. وبذلك سوف تكون في وضع، تستطيع معه أن تسد دينك، بالتمام والكمال، إلى الله العظيم. وكذا يتم سد الدين، ويبقى بعد ذلك على ذمتك، الالتزام بأن تشكر الله رب العالمين.

ولأنك لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، ناهيك عن غيرها، ولأنه لا إله إلا الله رب العالمين، لا إله غيره، فكيف تستطيع أن تسد الدين؟ لا جرم لو أن الإنسان أقرضك مئة قطعة من الذهب، يبقى في ذمتك الالتزام بأن تعيد إليه مئة قطعة من الذهب بالتمام والكمال.

فمغزى هذا الكلام يا أخي، هو أن الله يستطيع أن يقول ما يشاء، ويهب ما يشاء، لأنه سيد الجنة ورب العالمين. ولذلك حينما قال لإبراهيم: (سأكون جائزتك العظمى)، فإن إبراهيم لم يستطع أن يقول: إن الله هو جائزتي. بل قال: **إن الله هو هديتي، والدين الذي في رقبتي.**

فعندما تحاضر الناس يا أخي، ينبغي لك أن توضح لهم هذه الجملة: بأن الله يهب للإنسان كذا وكذا، إن عمل الإنسان صالحاً.

فيا أيها الإنسان، عندما يخاطبك الله قائلاً: أي عبدي لقد عملت

الصالحات حباً في! ما المكافأة التي تنشدها مني، أنا ربك الله؟ فليكن جوابك كذا: يا ربي أنا صنيع يديك، وليس من اللائق أن أحمل ذنباً الذي يحبه الشيطان. لذلك يا ربي وسيدي ومولاي، تغمد صنيع يديك برحتمك، إعلاء لشأنك ومجدك... **يا سيدي عاقب في ما فعلته أنا، وادخر لي ما عملته أنت وصنعته.**

وفي توضيحه للتواضع الصادق يقول: **من لم يكن كالطفل الصغير لا يدخل ملكوت الله...** إن الرجل يجب أن يكون كالطفل الصغير، لأن هذا هو التواضع الصادق. لأنك إذا سألت الطفل الصغير: من الذي صنع ملابسك؟ يجيب: أبي. إذا سألته لمن هذا المنزل الذي تسكن فيه؟ يجيب: إنه منزل أبي. وإذا سألته: من الذي يعطيك الطعام؟ يجيب: أبي. وإذا سألته: من الذي علمك المشي والكلام؟ يجيب: أبي.

ولكنك إذا سألته: من كسر جبينك، لأن جبينك مضمد؟ سيجيب: لقد سقطت على الأرض فكسرت رأسي. فإذا سألته: لماذا سقطت على الأرض؟ سيجيب: أما ترى أني طفل صغير، لا قوة لي على المشي والجري كالكبار! ولكي أستطيع أن أمشي بثبات، فإن والدي يأخذ بيدي. ولكن كي أتعلم المشي، فإن والدي تركني قليلاً فسقطت، لأني حاولت أن أجري. وإذا سألت: وماذا قال أبوك؟ سيجيب: لماذا لم تمش هويداً هويداً؟ احترز أن لا تترك يدي في المستقبل.

... فقال عيسى: من ميز بقلبه صادقاً مخلصاً، بأن الله هو صانع كل خير، وأنه هو صانع كل ذنب، سيكون متواضعاً صادقاً. ومن يتكلم بلسانه، كما يتكلم الطفل الصغير، ثم يناقض نفسه بعمله، لا جرم أن

تواضعه زائف، وغروره صادق. لأن الغرور يكون في ذروته، إذا تظاهر الإنسان بالتواضع، كي لا يلام ويرفض.

إن التواضع الصادق هو مسكنة الروح، أي أن يكون الإنسان مسكيناً مستكيناً، خاشعاً خاضعاً في نفسه، يعرف نفسه في صدق. بيد أن التواضع الكاذب، هو ضباب وغبار مظلم من جهنم، يسود فهم الروح ونباهته، بحيث إن الإنسان ينسب إلى الله، ما ينبغي له أن ينسب إلى نفسه، وينسب إلى نفسه ما ينبغي له أن ينسب إلى الله.

فالمتواضع الكاذب الزائف سوف يقول بأنه مذنب فظيع، في حين لو أن أحدا قال له إنه مذنب، لحنق عليه واضطهده. إن المتواضع الكاذب الزائف سوف يقول بأن الله قد أعطاه كل ما عنده، بيد أنه من طرفه لم ينم ولم يغفل، بل عمل الصالحات.

وفي قصة هوشع عندما باع نفسه لإنقاذ امرأة قال الكاتب: فاستشاط حاغاي غضباً وصرخ قائلاً: من هو هذا الشخص السيئ الذي باعك كعبد؟

فأجاب هوشع: الله يسامحك يا أبتاه، لأن الذي باعني هو الطيب، الذي لو لم يوجد في هذا العالم، لما كان هناك أحد من القديسين.

فقال له حاغاي: بالله عليك من هو هذا الشخص؟

فأجاب هوشع: يا أبتاه إنه كتاب موسى!

فبقي حاغاي الطيب حيراناً مبهوتاً وقال: يا ولدي ليتني باعني كتاب موسى أيضاً، وجميع ولدي، كما باعك!

وفي رده على الكاتب حينما امتنع عن قول الحق مراعاة للجو العام

قال عيسى: لا يجوز لك أن تثير سخط الله خالقك، باحترامك للناس ولجميع العالم، وحتى للقديسين والملائكة. فالأحسن أن يهلك العالم، ولا تسخط الله خالقك، ولا تحافظ على العالم باقتراف الذنوب، لأن الذنب يهدم ولا يحفظ، وأن الله قادر على خلق الكثير من العالمين، بعدد حبات الرمل في البحار، بل أكثر من ذلك بكثير.

ومن جوامع كلمه: إن الشمس نور كل شيء، وإن الحكمة نور كل قلب، والتقوى رأس كل حكمة، والحق باب كل خير، ورحمة الله باب كل حق. ومفاتيح ذلك الدعاء، والتضرع والعمل، وكيف يفتح باب بغير مفتاح!

وبعد معجزة إحيائه لازاروس قال: فاعلموا أن موت الإنسان ليس موتاً، بل نهاية لموت طويل. إن الجسد حين يفترق عن الحواس في الغشية والإغماء، ولو أن الروح موجودة فيه، لا يتميز عن الميت المدفون في شيء، سوى أن الميت المدفون ينتظر من الله أن يعيده إلى الحياة، في حين أن المغشي المغمى عليه، ينتظر من الحواس أن تعود اليه.

فاعلموا أن الحياة الحاضرة هي موت، إذا كان الله ليس حاضراً في الإنسان. إن الذين آمنوا بي لا يموتون، بل سيخلدون، لأنهم يستحضرون الله في أنفسهم، عبر كلماتي ورسالتي، ولذلك سوف يسعون ويجدون ويجتهدون، كي ينالوا خلاصهم وفلاحهم.

ما الموت إلا عمل تؤديه الطبيعة، بأمر من الله! ماذا لو أن أحدا مسك طيراً بحبل، ثم مسك الحبل في يده؟ ماذا لو أن الرأس أراد للطير أن يطير، ماذا يعمل؟ لا جرم أنه من الطبيعي أن يأمر اليد بالإنفتاح، فيطير الطير فوراً.

ويستشهد عيسى بمقالة النبي داود: (إن روحنا هو كالعصفور يتحرر من مصيدة صياد الطيور). ثم يضيف عيسى إلى ذلك عبارة: عندما يكون الإنسان تحت حماية الله.

ويقول: إن حياتنا هي كالحبل، تربط به الطبيعة الروح بجسد الإنسان وحواسه. وعندما يريد الله، يأمر الطبيعة أن تفتح يدها، فتنقطع الحياة، ويفر الروح إلى أيدي الملائكة، الذين وكلهم الله لاستلام الأرواح.

فاعلموا أنه لا يجوز البكاء على الميت، لأن موته إنما هو بمشيئة الله. بل ابكوا واندبوا وانتحبوا بدون انقطاع إذا أذنبتم، لأنه بالذنوب يموت الروح، نظراً إلى أنه يفترق عن الله، الذي هو الحياة الحقيقية.

إذا كان الجسد مخيفاً بدون اتحاده مع الروح، فإن الروح مخيف مرعب أضعافا مضاعفة، بدون اتحاده مع الله، لأن الله سبحانه وتعالى يجعل الروح جميلاً بهياً حياً منتعشاً، بفضله ورحمته.

... انظروا كم هو رائع أن يموت الإنسان! لقد مات لازاروس مرة واحدة فقط، وقد تعلم العقيدة والإيمان، ما لم يتعلمه أعقل عقلاء العالم، الذين شاخوا وشابوا وسط الكتب! يا ليت أن كل إنسان يموت مرة واحدة ثم يعود إلى هذا العالم، مثل لازاروس، كي يتعلم كيف يعيش!

وفي تأكيده على وجوب نشر العقيدة الحقة وإنفاقها للمستحقين قال عيسى: فكما أن الإنسان يجب عليه أن ينفق المال والمتاع في سبيل الله، كذلك يجب عليه أن ينفق العقيدة الحقة والمبدأ الحق. بل إن إنفاق العقيدة الحقة واجب أضعافاً مضاعفة، ما دامت الكلمة لها القوة والنفوذ، في أن

توقظ روحاً إلى التوبة والندامة، في حين أن المال والمتاع ليست لهما القدرة لإرجاع الحياة إلى الميت.

فاعلم أن الإنسان يعتبر قاتلاً، إذا كانت له القدرة على مساعدة إنسان فقير، ثم إذا لم يساعده، مات الفقير جوعاً. ولكن القاتل الأفجع والأفظع، هو الذي عنده القدرة على توصيل المذنب إلى التوبة والندامة، عبر كلمات الله، ثم لا يوصله، بل يقف متفرجاً، كما قال الله: «كالكلب الأبكم». وقد قال الله ضد هؤلاء: أيها العبيد الخونة الغدارون، عندما تهلك روح مذنبة، بسبب سكوتكم، وكتمانكم رسالتي، وإخفائكم كلماتي، فسوف أوقفكم فإنكم مسؤولون.

فتصوروا كم الوضع مفجع فظيع، بالنسبة للكتاب والفريسيين، في هذا الزمان، الذين هم عندهم المفتاح، ولا يلجون الباب، بل يمنعون الآخرين، الذين هم مستعدون بكل فرح وسرور، للدخول في الحياة الخالدة!!!

وتكلم عن الموتى وكم هو مهم أن تتعلموا الدروس وتأخذوا العبرة بموتاكم: لقد قال الله: قسماً بي أنا الخالد الباقي! لقد أعطيت لكل واحد منكم فأساً حاداً، وهو منظر دفن أحد موتاكم، الذي تشاهدونه بأعينكم. فمن أحسن استعمال هذا الفأس، أزال حطب ذنوبه من قلبه، من دون ألم. ومن ثم ينال بفضلي ورحمتي، جدارة الحياة الخالدة، لعمله الصالح المتقن!

والذي ينسى أنه ابن الموت، وفان غير خالد، رغم رؤيته موت الآخرين، الواحد تلو الآخر، ثم يقول: «لو رأيت النشأة الآخرة لعملت

صالحاً»، فإن غضبي ينصب عليه، وسأقرعه بالموت، حتى لا ينال خيراً.

... ما أعظم مزية إنسان يتعلم من سقوط الآخرين كيف يقف على قدميه!

وتكلم عن لازاروس: لقد علمتكم كيف تعُيشون عيشة طيبة، بيد أن لازاروس سوف يعلمكم كيف تموتون ميتة طيبة.

بحق الله الحي القيوم، لقد نال لازاروس موهبة النبوة. فاستمعوا إلى كلامه الذي هو حق. بل انصتوا إليه أضعافاً مضاعفة، أكثر مما تنصتون إلي، لأن الحياة الطيبة عبث، لو لم تنته إلى خير العاقبة ومسك الختام، في الميتة الطيبة.

ويقول عن الدمعة في خشية الله: إن الله غني برحمته، بحيث إن مياه ألف بحر ـ إن وجدت تلك البحار ـ لا تطفئ شرارة واحدة من لهب جهنم، بيد أن دمعة واحدة من خشية الله ـ يذرفها العبد الحزين، بسبب إغاظته لله ـ تطفئ نار جهنم كلها، لأن الله برحمته الواسعة، يغيث هذا العبد الحزين.

إن الله بفضله ورحمته، يريد أن يسمي عبده المؤمن أهلاً لفضله ورحمته بسبب أعماله الصالحة، وذلك إظهارا لجوده وكرمه وإرباكاً للشيطان. ويريد من عبده المؤمن أن يتكلم كذا عن جاره. أما إذا تكلم العبد عن نفسه فليحذر من قوله، بأنه يستحق الأجر، لأن الله سوف يدينه.

ومن وصاياه: إن الشجرة لا تكمل إلا بثمرة طيبة، كذلك لا يكمل

الدين إلا بالتحرج عن المحارم... إن الرجل الحكيم لا يغرس شجرة إلا شجرة يرضاها، ولا يحمل على خيله إلا فرساً يرضاه، كذلك المؤمن العالم لا يعمل إلا عملاً يرضاه ربه.

بحق أقول لكم: إن الصقالة تصلح السيف وتجلوه، كذلك الحكمة للقلب تصقله وتجلوه، وهي في قلب الحكيم، مثل الماء في الأرض الميتة، تحيي قلبه، كما يحيي الماء الأرض الميتة، وهي في قلب الحكيم، مثل النور في الظلمة، يمشي بها في الناس.

بحق أقول لكم: إن نقل الحجارة من رؤوس الجبال، أفضل من أن تحدث من لا يعقل عنك حديثك، كمثل الذي ينقع الحجارة لتلين، وكمثل الذي يصنع الطعام لأهل القبور.

طوبى لمن حبس الفضل من قوله، الذي يخاف عليه المقت من ربه، ولا يحدث حديثاً لا يفهم، ولا يغبط امرئ في قوله، حتى يستبين له فعله. طوبى لمن تعلم من العلماء ما جهل، وعلم الجاهل مما علم. طوبى لمن عظم العلماء لعلمهم، وترك منازعتهم. وصغر الجهال لجهلهم، ولا يطردهم، ولكن يقربهم ويعلمهم.

ويتكلم عن مدى فرح الملائكة بتوبة المذنب: أخبروني لو أن أحداً منكم، كان له مئة خروف، وضاع منها خروف واحد، أما تذهبون للبحث عنه، تاركين التسع والتسعين الباقية؟ وحينما تجدونه، أما تحملونه على أكتافكم، وتدعون جيرانكم وتقولون لهم: افرحوا معي وتهللوا وابتهجوا واطربوا، لأني وجدت الخروف الضائع؟ لا جرم أنكم تفعلون ذلك.

أخبروني هل الإنسان، الذي خلق الله العالم لأجله، يحبه الله أقل من

غيره؟ بحق الحي القيوم، إن الملائكة لتفرح وتتهلل وتبتهج وتطرب، لأجل مذنب يتوب ويندم، لأنه بسبب المذنبين تظهر رحمة الله.

أخبروني من يحب الطبيب أكثر: ذاك الذي عولج بيد الطبيب من مرض عضال، أو ذاك الذي لم يمرض في حياته قط؟

فقال له الفريسيون: وكيف أن السليم المعافى يمكنه أن يحب الطبيب؟ لا جرم أنه سيحبه فقط، لأنه سليم معافى، وليس بحاجة إليه. ولأنه لا عهد له بالمرض، لذلك سوف لا يحب الطبيب إلا قليلاً.

عندئذ تكلم عيسى بحماسٍ شديد قائلاً: بحق الحي القيوم، إن ألسنتكم لتدين غروركم، بحيث إن الله ربي وربكم، يحبه المذنب الذي يندم، حين يرى بأم عينيه رحمة الله العظيمة تغدق عليه، أكثر من الصالح المقسط الذي لا يذنب. لأن الصالح القويم لا عهد له برحمة الله وشفقته. لذلك تفرح الملائكة وتتهلل وتبتهج وتطرب، لأجل مذنب يتوب ويندم، أكثر من تسع وتسعين صالحاً باراً.

. . . أخوف ما أخاف عليكم، أن تكونوا من الطالحين، الذين يظنون أنفسهم من الصالحين. لأنكم تعتبرون طالحين، إذا أذنبتم ثم أنكرتم ذنوبكم، ظانين بأنكم صالحون. وأدهى من ذلك وأمر، أن تدعوا بألسنتكم بأنكم خطائون، في حين أنكم في صميم قلوبكم، تعتبرون أنفسكم صالحين بررة.

ويتنبأ عيسى بدمار أورشليم والمعبد قائلاً: **يا أورشليم، يا بني إسرائيل، أنا أبكي عليكم، لأنكم لا تعلمون العقاب الذي ينتظركم. فكما تجمع الدجاجة أفراخها تحت أجنحتها، تمنيت باشتياق أن أجمعكم، لأجل**

حب الله خالقكم وبارئكم، بيد أنكم رفضتم! لذلك يخاطبكم الله هكذا:

يا مدينة أورشليم، يا بني إسرائيل، الفاسدين القاسية قلوبهم! لقد بعثت إليكم عبدي، كي يهديكم السبيل إلى قلوبكم، حتى تندموا وتتوبوا، ولكنك أيتها المدينة المخزية، نسيت العقاب الذي أنزلته على مصر، وعلى فرعون، لأجل حبكم يا بني إسرائيل. كم تبكون وتتوسلون إلى عبدي، كي يبرئ أجسادكم المريضة، في حين أنكم تنوون قتل عبدي، لأنه ينشد إبراء أرواحكم من الذنوب!

أتظنون أنكم تتفادون عقابي؟ أتظنون أنكم تعيشون إلى الأبد؟ أتظنون أن كبريائكم تخلصكم من يدي؟ بالتأكيد لا! لأني سوف أجيش الأمراء وجيشاً عرمرماً ضدكم، وسوف يطوقونكم بقوتهم، بحيث إني سوف أسلمكم إلى أيديهم، كي تتحطم كبرياؤكم، وتذهب إلى حطام الجحيم.

سوف لا أغفر الشيوخ منكم ولا الأرامل ولا الأطفال، بل سأسلمكم كلكم إلى المجاعة، وإلى حدّ السيوف، وإلى السخرية والاستهزاء. والمعبد الذي راقبته برحمتي، سوف أحوله مع المدينة إلى مكان مقفر موحش مهجور، بحيث سوف تصبحون أسطورة وعبرة وأمثولة وسخرية عند الشعوب. وكذلك سيحل غضبي وسخطي عليكم.

. . . إن مرضى الروح في أورشليم، أكثر بكثير من مرضى الجسد. وكي تعرفوا أنني على حق، أقول لكم أيها المرضى، بإذن الله، فليذهب مرضكم! وحين قال ذلك تعافوا المرضى فوراً.

فبكى الناس حين سمعوا عن غضب الله وسخطه على أورشليم، والتمسوا الرحمة. حينئذ قال عيسى: يقول الله عز وجل: إذا بكت

اورشليم على ذنوبها وندمت، واتبعت سبلي، سوف أنسى ذنوبها، ولن أصيبها بمكروه. لكن أورشليم تبكي لدمارها، لا لأنها أهانتني وهتكت حرمتي بين الشعوب. لذلك اشتد غضبي وضراوتي عليها أكثر وأكثر.

ومن وصاياه: إنما أعلمكم لتعملوا، ولا أعلمكم لتعجبوا، إنكم لن تنالوا ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، وبصبركم على ما تكرهون. وإياكم والنظرة! فإنها تزرع في قلب صاحبها الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة.

يا طوبى لمن يرى بعينيه الشهوات، ولم يعمل بقلبه المعاصي. ما أبعد ما قد فات، وأدنى ما هو آتٍ!... ويل لمن كانت الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً عند ربه!

ولا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله، قاسية قلوبهم، ولكن لا يعلمون. لا تنظروا إلى عيوب الناس، ولكن انظروا في خلاص أنفسكم، فإنما أنتم عبيد مملوكون.

إلى كم يسيل الماء على الجبل لا يلين؟ إلى كم تدرسون الحكمة، لا يلين عليها قلوبكم؟ عبيد السوء فلا عبيد أتقياء، ولا أحرار كرام. إنما مثلكم كمثل الدفلى، يعجب بزهرها من يراها، ويقتل من طعمها.

ويوضح للكاهن الأعظم من الذي يحمل الشيطان وراء ظهره قائلاً: أنا لا أحمل شيطاناً وراء ظهري، بل إنني أنشد أن أطرد الشيطان. ولهذا فإن الشيطان يهيج العالم ضدي، ويستفزه ويثيره، لأني لست من هذا العالم، بل إنني أنشد المجد لله وحده، الذي بعثني إلى هذا العالم.

فانصتوا لي جيداً، حتى أخبركم من يحمل الشيطان وراء ظهره. بحق

الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إن الذي يعمل بإرادة الشيطان، هو الذي يحمل الشيطان وراء ظهره. ذاك الذي وضع الشيطان لجام إرادته عليه، ويتحكم فيه حسب إرادته ورغبته، ويجره إلى كل شر وظلم وخطيئة.

... إن الذي يخاف الله خالقه ويحبه، يستشعر الرحمة قبال الذين يرحمهم الله. إن الله لا يريد موت المذنبين، بل يصبر على كل واحد منهم حتى يندم. بحق الحي القيوم، إذا كنتم متحدين مع نفس المبدأ، الذي أنا متحد معه، ستكونون لي مدداً، بأن أعمل حسب مبدئي.

إذا كنت أعمل السيئات، فانتهروني واعذلوني يحببكم الله، لأنكم قد عملتم حسب إرادته ومشيئته. بيد أنكم إذا لم تعذلوني وتلوموني، بسبب إثم ارتكبته، فذلك يدل على أنكم لستم أبناء إبراهيم، كما تسمون أنفسكم، ولستم متحدين مع المبدء، الذي كان إبراهيم متحداً معه.

بحق الحي القيوم، إن حب إبراهيم لله كان عظيماً، بحيث إنه لم يحطم الأصنام، ولم يهجر أباه وأمه فحسب، بل كان يريد قتل ابنه طاعة لله.

فقال الكاهن الأعظم: إني لا أريد قتلك، بل أريد أن أسألك: من كان ابن إبراهيم هذا؟

أجاب عيسى: يا رب إن غيرة شرفك وكرامتك تلهبني وتثيرني، ولا أستطيع الصمت! الحق أقول لكم، إن ابن إبراهيم كان إسماعيل، الذي في بذرته يكون المسيح، الذي وعد الله به إبراهيم، أن يبارك فيه كل قبائل الأرض.

وتكلم عيسى في العشاء الأخير إلى الحواريين قائلاً: إن الأجل قريب، وسوف أفارق هذه الدنيا. أوصيكم أن لا تحزنوا علي، لأني في

المكان الذي أذهب إليه، لن أشعر بالمحنة والشدة.

يا ترى هل يكون الحزن على سعادتي دليلاً على صداقتكم لي! بالتأكيد لا! بل يكون دليلاً على عداوتكم لي. إذا ابتهجت الدنيا وفرحت فاحزنوا، لأن فرح الدنيا مآبه إلى الحزن والبكاء، بيد أن حزنكم مآبه إلى الفرح، الذي يبقى معكم ولا يؤخذ منكم.

إن البهجة التي تشعرها قلوبكم، في حضور الله خالقكم، لا يمكن لكل العالم أن يأخذها منكم. لا تنسوا الكلام الذي كلمكم الله به على لساني. كونوا شهداء لي على كل أحد، يفسد شهادتي التي شهدتها في إنجيلي ضد الدنيا ومحبيها.

ثم رفع يديه إلى ربه خاشعاً في مناجاته قائلاً: يا ربنا ورب إبراهيم، ورب إسماعيل وإسحاق، ورب آبائنا! ارحم أولئك الذي وهبتهم لي، واحفظهم من هذه الدنيا. لا أقول بأن تأخذهم من الدنيا، لأنه من الضروري أن يبقوا في هذه الدنيا، ويشهدوا ضد من يفسد إنجيلي. لكني أدعوك يا ربي أن تحفظهم من شرور الدنيا، حتى يأتوا يوم القيامة في معيتي، ليشهدوا ضد الدنيا، وضد بني إسرائيل، الذين أفسدوا وفسقوا ميثاقك وعهدك.

يا ربي القدير الغيور! الذي يثأر وينتقم من الوثنية، ومن أولاد الوثنيين، حتى إلى الجيل الرابع، العن إلى الأبد أولئك، الذين يفسدون إنجيلي، الذي أعطيتني إياه، حينما يكتبون بأني ابن الله.

لأني أنا الطين والغبار، عبد عبيدك، ولم أفكر يوماً ما، بأني عبدك الصالح، لأني لا أستطيع أن أرد جميلك، وما عساني أن أعطي، في قبال

كل النعم، التي لا تُعد ولا تحصى، التي أغدقتها علي! إن كل الأشياء متعلقة بك، وأنا صفر اليدين، لا حول لي ولا قوة، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً!

أيا ربي الرحيم! الذي أظهرت رحمتك لمن يخشاك، إلى ألف جيل من ذريتهم، أنزل رحمتك على الذين يؤمنون بكلامي، الذي أعطيتني إياه. فكما أنك الله الحق المبين، كذلك كلامك الذي نطقت به هو الحق المبين، لأن كلامك مسطور في كتابك، الذي تجلى من لدنك على قلبي كالمرآة، نظراً إلى أني تكلمت، بما قرأت في كتابك.

يا ربي المنقذ المخلص! احفظ أولئك الذين وهبتهم لي، حتى لا يستطيع الشيطان أن يفعل شيئاً ضدهم. ولا تحفظهم فحسب، بل احفظ كل من آمن بهم.

يا ربي الغني الجواد الكريم المفضال في الرحمة! احشر عبدك مع رسول الله، وفي محفله يوم القيامة: لست فقط وحدي، بل كل من وهبتني، وكل من يؤمن بي بسبب مواعظهم. وافعل اللهم ذلك من أجلك، حتى لا يتباهى الشيطان أمامك.

يا ربي الذي تعطي بعنايتك كل شيء تحتاجه بنو إسرائيل، اشمل بعنايتك كل قبائل الأرض، الذين وعدت بأن تشملهم بركة رسول الله، الذي خلقت العالم من أجله. ارحم أهل الدنيا، وابعث رسولك وحياً[١]، حتى يخسر عدوك الشيطان امبراطوريته.

---

(١) يعني على عجل.

وفي آخر كلمة له في العشاء الأخير قال: إن واحداً منكم سوف يخونني، بحيث إني سأباع مثل الخروف. اللعنة عليه! لأنه سيحقق كل ما قاله أبونا داود عن مثل هذا الشخص: سوف يقع في نفس الحفرة، التي حفرها لغيره.

وعن هبوطه من السماء الثالثة يقول برنابا: فجاء عيسى، وهو مكتنف بالبهاء والرونق والجلال، إلى الغرفة، حيث تقيم مريم العذراء وأختاها ومارتا ومريم المجدلية ولازاروس وبرنابا وجون وجيمس وبطرس. فسقطوا جميعاً على الأرض، كالموتى من شدة الخوف. فرفع عيسى أمه والآخرين من فوق الأرض قائلاً: لا تخافوا لأني عيسى، ولا تبكوا علي، لأني حي ولست بميت.

فبقوا حيارى مذهولين لمدة طويلة في حضور عيسى، لأنهم جميعاً كانوا يعتقدون بأن عيسى ميت. فقالت العذراء وهي تبكي: أخبرني يا ولدي، كيف أن الله الذي أعطاك القوة لإحياء الموتى، سمح لك بأن تموت في عار وشنار، أصاب أقربائك وأصدقائك، وأصاب حتى عقيدتك؟ لأن كل أحد يحبك كان كالميت، من شدة الذهول وعدم التصديق.

أجاب عيسى وهو يعتنق أمه: صدقيني يا أمي! الحق أقول لك إني لم أكن ميتاً أبداً. إن الله قد حفظني حياً، وسيحفظني حياً حتى تقترب نهاية العالم. ثم طلب من الملائكة الأربعة أن يظهروا إلى العيان ويشهدوا بما جرى.

فظهرت الملائكة إلى العيان كالشموس الأربعة الساطعة، بحيث إن الجميع سقطوا على الأرض مرة أخرى، كالموتى من شدة الخوف.

فأعطى عيسى أربع أنسجة بيضاء إلى الملائكة. فلربما غطوا أنفسهم، وتيسرت رؤيتهم، وسماع صوتهم، من قبل أمه ورفقائها. ثم رفع عيسى كل واحد منهم، فسلاهم وجبر قلوبهم قائلاً: هؤلاء ملائكة ربي: هذا جبرائيل يعلن عن أسرار الله، وهذا ميكائيل يحارب أعداء الله، وهذا رافائيل يتسلم أرواح من يموت، وهذا يوريال الذي سوف ينادي كل أحد، في اليوم الأخير، إلى عدل الله وقضاوته.

فحكى الملائكة الأربعة للعذراء، كيف أن الله بعث وراء عيسى، وبدل هيئة يهوذا وشخصيته ووجهه وملامحه ونبرات صوته، كي يقاسي من العذاب، الذي باع غيره له.

وقال عيسى في جوابه على برنابا: إن الله يعذب عذاباً عظيماً على كل ذنب، مهما كان صغيراً، نظراً إلى أن الله يغتاظ ويسخط من الذنوب. ولأن أمي وحواريي الأوفياء أحبوني قليلاً، بحب أرضي، فإن الله العادل القويم، قد شاء أن يعذب على هذا الحب، بالحزن والأسى، كي يبعد عنكم لهيب نار جهنم.

وعلى الرغم من أنني كنت بريئاً في العالم، إلا أن الناس سموني (الله) و(ابن الله)، فلهذا شاء الله أن أكون بموت يهوذا، موضع سخرية من الناس في هذا العالم، بحيث ظن الناس جميعا بأني مت على الصليب، ولكي لا أكون موضع سخرية الشياطين في يوم القيامة. وهذه السخرية سوف تستمر إلى ظهور محمد رسول الله. فهو حينما يأتي، سوف يميط اللثام عن هذه الخديعة، للمؤمنين المعتقدين بقانون الله.

... ووبخ عيسى الكثيرين، الذين اعتقدوا بأنه مات، ثم بعث حياً

ورفع إلى السماء قائلاً: هل تظنونني وتظنون الله كاذبين؟ إن الله قد وهبني بأن أعيش حتى تقترب نهاية العالم، كما أخبرتكم.

الحق أقول لكم إنني لم أمت، ولكن يهوذا الخائن قد مات. حذار حذار! إن الشيطان سوف يسعى جاهداً لأن يخدعكم. كونوا شهداء لي في كل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها مني، في كل إسرائيل وفي كل العالم.

ثم دعا الله بالخلاص للمؤمنين، والهداية للعاصين. وعندما انتهى من مناجاته، اعتنق أمه قائلاً: يا أمي سلام الله عليك!

استقري في الله الذي خلقك وخلقني!

ثم استدار إلى حوارييه قائلاً: تغمدكم الله برحمته!

الكاتب

سيد تقي سيد حسين الموسوي

٧/ ٧/ ٢٠١٣

الموقع الإلكتروني:

com . taqimusawi . www

الهاتف:

٩٩٤١٩٤٦١_٠٠٩٦٨

مريم العذراء
أم عيسى

ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في آيات عدة عن مريم العذراء أم عيسى وعن أم مريم، وعن ولادة مريم، وعن نذرها للمعبد محررة لله وحده، وعن إعجاز حضور فواكه الجنة في صومعتها في المعبد، وعن كلام الملائكة إليها، وعن ظهور جبرائيل لها في مناسبات عدة، وعن إعجاز حملها بعيسى من دون بعلٍ، وعن قصة مخاضها، وعناية الله سبحانه وتعالى بها، وعن إعجاز ظهور الماء الجاري تحتها، وسقوط الرطب الجني عليها، وعن إعجاز كلام عيسى وهو طفل رضيع في أحضانها، وهلم جرا، إلى كثير من المعاجز المحيرة للعقول.

وفي القرآن الكريم سورة خاصة بمريم تسمى باسمها وهي سورة مريم. يقول الله تعالى فيها:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ

هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً[١] لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً[٢] مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا[٣] ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ[٤] فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٥].

فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً[٦]. وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً[٧]. فكلي واشربي وقري عيناً

---

(١) ولنجعله علامة ظاهرة وآية باهرة للناس تلزمهم الإقرار بنبوته ودلالة على براءة أمه.

(٢) ولنجعله نعمة منا على الخلق يهتدون بسببه.

(٣) وكان خلق عيسى من غير فحل أمراً كائناً مفروغاً منه محتوماً، قضى الله سبحانه بأن يكون، وحكم به.

(٤) فحملت مريم في الحال. إن جبرائيل أخذ ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه. فحملت مريم، وكمل الولد في الرحم من ساعته، كما يكمل الولد في أرحام النساء عند مضي تسعة أشهر. ومدة حملها ساعة واحدة.

إن هذا الحدث الغريب بمجموعه جعل أمة كبيرة تقول بألوهيته عليه السلام. وهذا ما احتج به نصارى نجران، حينما جاؤوا إلى المدينة، للاجتماع بالرسول الأعظم ص. ونزلت الآية الكريمة حينها: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران ٥٩). فخلقة آدم عليه السلام أدعى للعجب، لأنه خلق من غير أب ولا أم. فقدرة الله عز وجل لا حدّ لها ولا نهاية، وهي لامتناهية لامحدودة، كما أن الله لامتناهي ولامحدود.

(٥) تمنت مريم الموت، بل وأكثر من الموت، حينما قالت: (وكنت نسيا منسيا). ولكن ما تصورته من مأساة بلغ بها إلى أقصى مراتب العلو والرفعة في الدنيا والآخرة، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقها: حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. (الاستيعاب ٢/ ٧٢٠).

(٦) قد جعل ربك تحتك نهراً جارياً، تشربين منه وتتطهرين من النفاس، علما بأن النهر كان قد انقطع عنه الماء، ولكن الله سبحانه أجرى فيه الماء في اللحظة.

(٧) كما أحيى الله عز وجل ذلك الجذع، حتى أورق وأثمر، وأمرها الله بهزه حتى تساقطت عليها رطباً جنياً.

فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً. فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً. يا أخت هارون[١] ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغياً. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً.

قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً[٢] أين ما كنت وأوصاني بالصلوة[٣] والزكوة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم.

وبدأت القصة بحنة أم مريم إذ دعت الله حين حملت بإعجاز. يقول الله عز وجل عنها:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤].

---

(١) إن هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح. والمراد: يا شبيهة هارون في الصلاح.

(٢) وجعلني مباركاً أي جعلني معلماً للخير. والبركة: نماء الخير. والمبارك: النفاع.

(٣) تحدث الثعلبي عن صلاته وزهده عليه السلام فقال: ولم يتخذ بيتاً ولا حلية ولا متاعاً ولا ثياباً ولا رزقاً إلا قوت يومه. وكان حينما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح. (عرائس المجالس: ٣٨٧).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٥.

فلما فوجئت بأنها أنثى وليست بذكر، دعت الله بأن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. يقول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(١)،(٢).

قال ابن عباس: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون(٣).

وذكر ابن عباس: إن مريم لما بلغت تسع سنين صامت النهار وقامت الليل وتبتلت حتى غلبت الأحبار(٤).

وقال الله تعالى عن اصطفائها وتطهيرها وخالص عبادتها وكفالتها من طرف زكريا وبشارتها بعيسى المعجزة وأنه يكلم الناس في المهد:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي(٥) لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ(٦) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا

---

(١) مريم بلغتهم العابدة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٣) أسد الغابة: ٥/ ٤٣٧

(٤) بحار الأنوار: ١٤/ ١٩٦

(٥) ومعناه: اعبديه وأخلصي له العبادة.

(٦) وقصة إلقاء الأقلام هي كالتالي: إن حنة أم مريم أقبلت بها إلى المعبد المقدس حيث=

كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾[١].

قال الإمام أبو جعفر الباقرعليه السلام: اصطفاك من ذرية الأنبياء، وطهرك من السفاح، واصطفاك لولادة عيسى من غير فحل[٢]، (واصطفاك على نساء العالمين) على نساء زمانك.

= يجتمع الأحبار والعباد فقالت: دونكم النذيرة. فتشاحوا عليها، مع وجود سيدهم ونبيهم زكرياعليه السلام ورغم كونه أولى بها لأنه زوج خالتها، رغم هذا كله فإن نفوسهم لم تكن لتسمح بالتنازل عنها. لذلك اقترعوا، وكانت قرعتهم أن يلقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في ماء جار، فمن ثبت قلمه على الماء أخذها. فألقوا أقلامهم في الماء، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، وانحدرت أقلامهم ورسبت في الماء. فأخذها زكريا فكان القيم والكفيل لها (عرائس المجالس: ٣٧٢)

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٢ ـ ٤٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ١٩٣

عيسى
مولده وطفولته وصباه

في يوم من الأيام ظهر أمام مريم ملك من السماء ـ وهو جبرائيل ـ بصورة بشر، فاستعاذت هذه التقية العفيفة الطاهرة بالله في سرها من هذا الغريب القادم، إذ ظنته معتدياً أثيماً. يقول الله تعالى في سورة مريم:

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

أحست مريم بألم المخاض، فخرجت من القرية إلى بقعة جرداء بعيداً عن أعين الرقباء. خرجت لتنفرد بشكواها إلى الله، علمه ييسر لها هموم الولادة، وهموم دفع التهم والتساؤلات التي لا بد وأن توجه إليها. يقول الله تعالى في سورة مريم:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ

قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

فحملت الطفل بهمة وعزيمة، وتوجهت نحو أهلها وقومها. وصلت القرية، فلاحقتها النظرات، ورشقتها التساؤلات العاتية والمستنكرة، التي راحت تذكرها بما لأهلها من سابق عهد في التقى والصلاح. يقول الله تعالى في سورة مريم:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

التزمت مريم الصمت وأبت الكلام، وأشارت إلى وليدها الرضيع، كما أمرها الله، فتعجب القوم من حالها. يقول الله تعالى في سورة مريم:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

لقد ملأ الإعجاز حياة عيسى ابن مريم، وحتى ما سبق ولادته من حوادث محيرة للعقول، ذكر القرآن الكريم بعضا منها: عن إعجاز نزول رزق الله وفواكه الجنة في محضر مريم في محرابها[1]، وعن كلام الملائكة

---

(١) في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. قال المفسرون: كان زكريا يجد عندها فاكهة في غير =

إليها، وعن ظهور جبرائيل لها في مناسبات عدة، وعن إعجاز حملها بعيسى من دون بعل، وعن قصة مخاضها، وعناية الله سبحانه وتعالى بها، وعن إعجاز ظهور الماء الجاري تحتها[١]، وسقوط الرطب الجني عليها[٢]، وعن إعجاز كلام عيسى وهو طفل رضيع في أحضانها، وهلم جرا، إلى كثير من المعاجز المحيرة للعقول.

يقول برنابا: إن عيسى وهو في الثانية عشرة من عمره، ذهب مع أمه ويوسف النجار إلى معبد القدس لأداء مراسم الصلاة. وبعد إتمام الصلاة، فقداه وفتشا عنه في كل مكان فلم يجداه. وبعد ثلاثة أيام وجداه في المعبد، يناقش الكهنة والقساوسة بشأن ناموس موسى، حيث أذهل الجميع بأسئلته وأجوبته، وهو في هذا العمر الصغير، وهو لم يتعلم القراءة.

فأنبته أمه مريم قائلة: «ماذا فعلت بنا يا بني، نبحث عنك طوال ثلاثة أيام في ذروة القلق والحزن والأسى؟»

فأجابها عيسى: أما تعلمين أن خدمة الله مقدمة على خدمة الأبوين؟

فرجع معهما إلى الناصرة في انقياد وطاعة واحترام.

= حينها، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، غضة طرية. فيسألها كما يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(١) وفي قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

عيسى
يتلقى الإنجيل

قضى عيسى أوائل سني حياته بين الناصرة وبيت المقدس. ولما بلغ الثلاثين من عمره الشريف، هبط عليه الروح الأمين جبرائيل، بالإنجيل على قلبه ليكون من المنذرين. فكان ذلك بدء دعوته وفاتحة نبوته.

فأخذ يدعو الناس إلى التوحيد الخالص، والدين القويم، والتعاليم الربانية السامية، ويبلغهم رسالة الله، ويسعى حثيثاً إلى أن يرد اليهود عن زيغهم، ويصدهم عن ضلالتهم.

لكنهم كانوا قد طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، فانحرفوا عن تعاليم السماء، وما بقيت لهم إلا قلوب كالحجارة، أو هي أشد قسوة، وطقوس وتقاليد جوفاء خالية من محتوى الحق المبين، ومضوا قدماً إلى حيث تقودهم شهواتهم وملذاتهم. ونبذوا شريعة نبي الله موسى، وتعاليم زبور نبي الله داود، وراء ظهورهم.

كان رجال الدين اليهوديين وعلمائهم يأمرون الناس بتقديم الأموال والنذور والتبرعات، ليجمعوها في جيوبهم، وليتدفق الذهب إلى

خزائنهم. فكان عيسى يعلم الناس أن لا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يتسلط علماؤهم على أموال العامة ليدخروها في خزائنهم.

وكان الله عز وجل قد أيد نبيه عيسى بحجج وبراهين ومعاجز، تؤكد للناس صحة دعوته ونبوته. فكان يبرئ الأكمه - وهو الإنسان الذي يولد أعمى - ويشفي الأبرص والمجذوم، ويحيي الموتى، كل ذلك بإذن الله سبحانه وتعالى.

وهكذا بزغ نجم نبي الله عيسى، وانتشر ذكره على كل شفة ولسان. وسارت بأخباره الركبان، فتلقفها المؤمنون الذين كانوا قد اهتدوا ببصيرتهم، إلا أن علماء اليهود كانوا قد ابتعدوا بعداً شاسعاً عن تعاليم السماء الحقة، إذ كانوا قد حرفوها وحولوها إلى ما يتلاءم ومصالحهم. كما آمن به المستضعفون الذين كانوا ينشدون بفطرتهم الصافية رسالة السماء الحقة.

ولم يترك نبي الله عيسى طريقة يقنع بها الناس إلا سلكها، ولا باباً لهدايتهم إلا ولجه، يحاول أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور. وشعر رجال الدين اليهود بالخطر على مصالحهم، في حين أن التيار الرافض لسياساتهم الاستغلالية كان يتنامى ويزداد قوة. فحاولوا جهدهم أن يوقفوا التيار، ولكن أنى لهم ذلك! وأنى لشبكة العنكبوت بمواجهة الشلالات!

يقول برنابا: إن عيسى لما بلغ الثلاثين من عمره، ذهب إلى جبل الزيتون مع أمه مريم العذراء ليجمع حصاد الزيتون. وكان يصلي في وقت الظهيرة ويدعو ويناجي ربه، إلى ان وصل إلى قوله: (برحمتك يا ربي)..

وإذا به يرى نفسه محاطاً بنور ساطع وبحشدٍ من الملائكة، لا حد لهم ولا حصر، وهم يقولون: (تبارك اسم الله).

فقدم له جبرائيل كتاباً هو كالمرآة الصافية، نزل به الروح الأمين، على قلب عيسى عليه السلام، وفيه من العلوم الإلهية، والمشيئة الربانية، وكلمات الله النورانية، ما لا يعد ولا يحصى، ظهرت كلها جلية أمامه.

وقال عيسى لبرنابا: عرفت كل نبي، وكل نبوة، وكل رسالة سماوية، من هذا الكتاب، بحيث إن كل ما أقوله ينبعث من هذا الكتاب المقدس، وكل كلماتي وأقوالي تتدفق وتنساب منه.

وحينما تجلت له هذه الرؤية، عرف أنه نبي بعث إلى بني إسرائيل، فأخبر بذلك أمه مريم العذراء قائلاً: سأتعرض من وراء ذلك إلى اضطهاد عظيم في خدمة الرب وإعلاء كلمته العليا. ومن اليوم فصاعداً لا يمكنني خدمتك والإقامة معك.

فأجابته أمه: يا بني لقد أُنبئت بكل هذا حين ولادتك، وتبارك اسم الله المقدس.

معجزات عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

إن لعيسى عليه السلام معجزات كثيرة حباه الله بها ـ وكلها بإذن الله ـ كي يؤكد الله عز وجل للناس صحة دعوته ونبوته. وقد ذكرت سورة المائدة الآيات ١١٠ ـ ١١٩ معظمها كالتالي:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ

أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾(١).

وقد روى سلمان الفارسي رضوان الله عليه عن المائدة التي نزلت من السماء فقال: فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها، وهم ينظرون إليها، وهي تهوى منقضة، حتى استقرت بين أيديهم.

فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وهم ينظرون إليها، فنظروا إلى شيء لم يروا مثله قط، ولم يجدوا ريحاً أطيب من رائحة ذلك... ثم كشف المنديل عنها وقال: باسم الله خير الرازقين. فإذا هو بسمكة مشوية، تسيل سيلانا من الدسم، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحواليها من أنواع

---

(١) روح القدس هو جبرائيل عليه السلام، وقد قوى الله عيسى وأيده بجبرائيل، الذي كان يلازمه حين كلم الناس في المهد وكهلاً، وحين أحيى الموتى وأبرأ المرضى، وحين أوقف الشمس، وأنزل مائدة من السماء، وفي كل الأعمال الخارقة للعادة والمعجزات، والحجج والبراهين البينات الواضحات التي جاء بها.

البقول. وإذا خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد.

فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟

فقال عيسى عليه السلام: ليس ما ترون من طعام الدنيا، ولا من طعام الآخرة، ولكن افتعله الله بالقدرة الغالية. كلوا ما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله... فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلين وقال: كلوا من رزق الله ولكم الهناء، ولغيركم البلاء.

فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلاثمائة رجل من فقير وزمن ومريض ومبتلى، كلهم شبعان يتجشأ. ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء.

ثم طارت المائدة صعداً، وهم ينظرون إليها، حتى توارت عنهم. فلم يأكل منها يومئذ مريض إلا برئ، ولا زُمن إلا صح، ولا مُبتلى إلا عوفي، ولا فقير إلا استغنى، ولم يزل غنياً حتى مات[١].

---

(١) عرائس المجالس: ٣٩٩.

عيسى عليه السلام
يشفي المجذوم

نزل عيسى عليه السلام من أعلى الجبل، فاعترضه مريض مصاب بالجذام، يتضرع إليه بالبكاء والنحيب، طالباً منه الشفاء. فانتهره عيسى قائلاً: يا أحمق اطلب الشفاء من الله، الذي خلقك فسواك فعدلك، وهو الجدير بشفاء المرضى وإعادة الصحة إليهم.

أما ترى أني رجل مثلك لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟ فقال له الجذامي: إني أعرف أنك رجل مثلي في الظاهر، بيد أنك قديس اجتباك الرب، والله يسمع منك. ادع الله حتى يبرئني ويمنحني الشفاء والعافية.

فتكلم عيسى إلى الله متأوها قائلاً:

يا ربي! يا من له القدرة على كل شيء، يا من إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، بحق الأنبياء القديسين، أبرأ هذا المريض واشفه وامنحه الصحة والعافية[1].

---

(١) في الرواية الإسلامية: كان دعاء عيسى الذي كان يشفي به المرضى، ويحيي به =

ثم لمس المجذوم بيديه المباركتين وقال له: قم بإذن الله يا أخي فإن الله قد وهبك الشفاء والعافية.

فنظر الجذامي إلى نفسه، وإذا بالجذام قد زال، وإذا لحمه قد استعاد عافيته، وكأنه لحم طفل صغير. فصاح المريض المعافى بأعلى صوته: تعالوا يا بني إسرائيل واستقبلوا النبي الذي بعث اليكم. فالتمس منه عيسى قائلاً: يا أخي صه وامسك لسانك واسكت ولا تقل شيئاً. وكرر ذلك مراراً وتكراراً. بيد أنه كلما كرر التماسه، أعلى المريض المعافى صوته أكثر وأكثر قائلاً: استقبلوا النبي! استقبلوا قديس الرب!

وقفل كثير من الناس، الذين كانوا يخرجون من مدينة القدس، راجعين إلى المدينة بمعية عيسى، مذهولين مما فعله الله بالجذامي، على يدي عيسى.

= الموتى: اللهم أنت إله من في السماء، وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك، وأنت جبار من في السماوات، وجبار من في الأرض، لا جبار فيهما غيرك، وأنت ملك من في السماوات، وملك من في الأرض، لا ملك فيهما غيرك، وأنت حكم من في السماوات، وحكم من في الأرض، لا حكم فيهما غيرك، قدرتك في الأرض كقدرتك في السماء، وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء، أسألك بأسمائك الكرام، إنك على كل شيء قدير. (عرائس المجالس ٣٩٠)،

موعظة عيسى عليه السلام الأولى

ذهب عيسى عليه السلام إلى معبد القدس وصعد المنبر وقال:

تبارك اسم الله القدوس، الذي أراد خلق الخلق برحمته وجوده وكرمه، كي يسبحوه ويمجدوه ويعظموه. تبارك اسم الله القدوس، الذي خلق بهاء نور القديسين والأنبياء وجلالهم، قبل خلق الخلق، كي يبعث المنقذ لإنقاذ العالم، كما تكلم الله مخاطباً عبده داود قائلاً: خلقتك في بهاء نور القديسين.

تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الملائكة كي يخدموه. تبارك الله الّذي غضب على الشيطان الفاسق المتهتك الخليع، وعاقبه هو وأتباعه الذين لا يعظمون شعائر الله، التي أراد الله لها أن تعظم. تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الإنسان من طين الأرض ومن صلصال كالفخار، وجعله خليفة على أعماله. تبارك اسم الله القدوس الذي أخرج الإنسان من جنته لتعديه على ناموسه المقدس. تبارك اسم الله القدوس الذي أشفق برحمته على دموع آدم وحواء أبوي هذا الجنس البشري.

تبارك اسم الله القدوس الذي عاقب بعدله قابيل لقتله أخاه هابيل، وأرسل الطوفان على الأرض، وأحرق المدن الثلاثة الشريرة الخبيثة،

ونكل بمصر، وأغرق فرعون في البحر الأحمر، وشتت أعداء أوليائه، وعذب الكافرين، وعاقب الجاحدين والمعاندين، الغير التائبين، القاسية قلوبهم، وأدبهم شر تأديب.

تبارك اسم الله القدوس الذي أشفق برحمته على مخلوقاته، وبعث فيهم أنبيائه المقدسين، كي يسلك الناس الصراط المستقيم، ويقعدوا مقعد صدق عند مليك مقتدر، إذ أنقذ عبيده من كل شر، وأعطاهم هذه الأرض إلى الأبد، كما وعد أبانا إبراهيم وابنه، ثم أعطانا قانونه المقدس على لسان عبده موسى، كي يمنع الشيطان عن خداعنا، وهو الذي فضلنا على العالمين.

ثم أردف عيسى عليه السلام قائلاً: تأملوا يا إخواني ماذا نحن فيه الآن ولنسأل أنفسنا: ألا نستحق العقاب على ذنوبنا ومعاصينا؟

ثم خاطب عيسى عليه السلام جمهور المستمعين في حماسة بالغة، ووبخهم وعنفهم، لأنهم نسوا كلمة الله العليا، وانشغلوا بالترهات من أمور دينهم ودنياهم. وعنف عيسى الكهنة لإهمالهم في خدمة الله، وتعاظم أطماعهم الدنيوية، ووبخ الكتاب لمواعظهم التافهة، ولأنهم نبذوا قانون الله وراء ظهورهم، وعنف المطببين لأنهم جعلوا ناموس الله في طقوسهم أثراً بعد عين.

كان كلام عيسى عليه السلام في ذلك اليوم قوياً وعقلانياً، بحيث تسبب في بكاء الجميع ونحيبهم، من صغيرهم إلى كبيرهم، وكلهم كانوا يستمطرون رحمة الله، ويتضرعون إلى عيسى كي يدعو الله لهم. ما خلا الكهنة وزعماء القوم الذين أضمروا العداوة والبغضاء والحقد والكراهية ضد

عيسى عليه السلام ، لتهجمه على الكهنة والكتاب والمطببين ، ومن ثم قصدوا قتله ، بيد أنهم لم ينطقوا ببنت شفة ، خوفاً من الناس الذين تقبلوه كنبي مرسل من عند الله .

ورفع عيسى عليه السلام يديه إلى الله ودعاه وسط النحيب والبكاء من قبل جمهور المستمعين ، الذين رفعوا أصواتهم مؤمنين لدعائه قائلين : يا رب آمين !

وحينما انتهت الصلاة نزل عيسى عليه السلام من على المنبر وغادر المعبد . وفي نفس اليوم غادر مدينة القدس مع كثير من أتباعه . علماً بأن الكهنة في ذلك اليوم تداولوا فيما بينهم سبابا وشتائم ضد عيسى . وكان عيسى قد استشف بروحه نية الكهنة في قتله .

جبرائيل يهدئ من روع عيسى عليه السلام

وبعد أيام صعد عيسى عليه السلام جبل الزيتون وقضى ليلته هناك في العبادة. وفي الصباح دعا ربه قائلاً: يا رب إني لأعلم إن الكتاب يكرهونني وإن الكهنة عزموا على قتلي. يا رحمن يا رحيم استمع إلى مناجاة عبدك برحمتك، وخلصني من مصائدهم، إنك مخلصي ومنقذي. يا رب إنك تعلم أني عبدك ولا ألتمس أحداً سواك. إلهي انطق بقدس كلامك، لأن كلامك القدسي هو الحق الذي يبقى إلى الأبد.

ونزل عليه جبرائيل قائلاً: لا تخف يا عيسى، فإن آلاف الآلاف من الملائكة الذين يسكنون السماوات يحرسونك. لن تموت حتى تكمل رسالتك، وحتى تقترب نهاية العالم.

وسجد عيسى عليه السلام على الأرض قائلاً: يا إلهي العظيم! ما أعظم رحمتك علي! وما عسى أن أعطيك في قبال نعمك التي لا تعد ولا تحصى!

ورد عليه جبرائيل قائلاً: قم يا عيسى وتذكر إبراهيم الذي بادر تطوعاً بتقديم ابنه الوحيد إسماعيل قرباناً إلى الله في سبيل مرضاته. بيد أن السكين

لم يستطع قطع رقبة ابنه، فكان رضا ربه في أن قدم إبراهيم خروفاً قرباناً إلى الله. يجب عليك يا عبدي عيسى أن تحتذي بإبراهيم.

فأجاب عيسى عليه السلام: سمعاً وطاعة يا رب! ولكن كيف أجد الحمل؟ في حين أنه لا يوجد عندي نقود وأن السرقة محرمة. فأراه جبرائيل نعجة، وقدمها عيسى قرباناً، وهو يحمد الله ويسبحه ويمجده تمجيداً أزلياً أبدياً.

الحواريون الاثنا عشر

نزل عيسى عليه السلام من على الجبل، وذهب ليلاً لوحده إلى الجانب الأبعد من نهر الأردن، ثم صام أربعين يوماً وليلة، لا يأكل شيئاً في الليل ولا في النهار، يتضرع إلى الله باستمرار في خلاص قومه، الذين بعث إليهم. وفي نهاية صوم الأربعين كان جائعاً. فظهر له الشيطان وأغواه بكثير من الكلام، بيد أن عيسى طرده بقوة الذكر. وبعد مفارقة الشيطان أتت الملائكة وخدمت عيسى فيما يحتاجه.

وعندما رجع عيسى إلى منطقة أورشليم، رآه الناس وفرحوا برؤيته فرحاً عظيماً، ثم طلبوا منه أن يقيم عندهم، لأن كلامه لم يكن ككلام الكتاب، بل كان كلاماً من القلب إلى القلب وقوياً يمس القلب.

ورأى عيسى أن جمهوراً عظيماً من الناس قد رجعوا إلى قلوبهم، لنسير حسب ناموس الله وقانونه. فرجع إلى الجبل، حيث قام ليلته في صلاته. وفي الصباح نزل من أعلى الجبل، وانتخب الحواريين الاثني عشر، وكان من ضمنهم يهوذا، الذي قتل على الصليب.

وكانت أسماؤهم كالتالي: أندرو وأخوه بطرس وكانا صيادي أسماك، برنابا، ماتيو وكان جابي المكوس على الجمرك، جون وجيمس أولاد

زبدي، تاديوس، يهوذا، برثولماوس، فيليب، جيمس، ويهوذا الأسخريوطي الخائن. وكان يفشي إليهم بالأسرار الإلهية. بيد أن يهوذا الأسخريوطي جعله عيسى مسؤولاً عن تصريف الصدقات، ولكنه كان يسرق عشر المبلغ.

مكائد الشيطان

وبالنسبة لظهور الشيطان لعيسى، وإغوائه بكثير من الكلام الهراء، فقد ذكر في أمالي الشيخ الصدوق، أنه قد روي عن ابن عباس أنه قال: لما مضى لعيسى عليه السلام ثلاثون سنة، بعثه الله عز وجل إلى بني إسرائيل، فلقيه إبليس على عقبة بيت المقدس وهي عقبة أفيق، فقال له: يا عيسى أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أن تكونت من غير أب!

قال عيسى: بل العظمة للذي كونني، وكذلك كون آدم وحواء.

قال إبليس: يا عيسى فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً!

قال عيسى: يا إبليس بل العظمة للذي أنطقني في صغري، ولو شاء لأبكمني.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيصير طيراً!

قال عيسى: بل العظمة للذي خلقني وخلق ما سخر لي.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تشفي المرضى!

قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه أشفيهم وإذا شاء أمرضني.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى!

قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه أحييهم، ولا بد من أن يميت ما أحييت ويميتني.

قال إبليس: يا عيسى فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تعبر البحر فلا تبتل قدماك ولا ترسخ فيه!

قال عيسى: بل العظمة للذي ذلله لي، ولو شاء أغرقني.

قال إبليس: يا عيسى فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنه سيأتي عليك يوم تكون السماوات والأرض ومن فيهن دونك، وأنت فوق ذلك كله تدبر الأمر، وتقسم الأرزاق.

فأعظم عيسى ذلك من قول إبليس الكافر اللعين، فقال: سبحان الله ملء سماواته وأرضه، ومداد كلماته، وزنة عرشه، ورضا نفسه.

قال: فلما سمع إبليس (لعنه الله) ذلك ذهب على وجهه لا يملك من نفسه شيئاً حتى وقع في اللجة الخضراء[1].

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ١٧١.

موعظة الجبل

جمع عيسى حوارييه وذهب معهم إلى جبل الزيتون وألقى فيهم موعظة بليغة قائلاً:

ما أعظم نعم الله علينا! إنه من الضروري أن نخدم الله ونعبده بصدق وإخلاص. وكما أن الشراب الجديد يسكب في الأواني الجديدة، كذلك أنتم ستتحولون إلى رجال جدد، عندما تحتوون على عقيدة جديدة، والتي ستنبثق من فمي.

الحق أقول لكم، كما أن الرجل لا يستطيع أن يرى بعينيه السماء والأرض في آن واحد، كذلك من المستحيل أن تحبوا الله وتحبوا الدنيا في آن واحد. لا أحد يستطيع أن يخدم سيدين، وهما على طرفي نقيض، أعداء بعضهما البعض. فإذا أحبك الواحد كرهك الآخر.

لذا أقول لكم بصدق: ليس في مقدوركم أن تخدموا الله وتخدموا الدنيا، لأن الدنيا دار كذب وزور ونفاق، وجشع وطمع وحسد، وعداوة وبغضاء وسوء وخبث وشر. لذا لن تجدوا الراحة في هذه الدنيا، بل ستجدون فيها الاضطهاد والخسارة. فاخدموا الله واعبدوه، وابغضوا الدنيا واجتنبوها.

ستجدون السلوى وراحة الروح في كلماتي وتعليماتي. فانصتوا إلي لأني أتكلم إليكم بصدق وإخلاص.

الحق أقول لكم: المجد والعظمة للذين يندبون هذه الحياة الدنيا، لأنهم سيحصدون الراحة والسعادة. المجد والعظمة للفقراء الذين يبغضون بصدق مباهج الحياة الدنيا، لأنهم سيحصدون بغزارة مباهج ملكوت الله.

الحق أقول لكم: المجد للذين يأكلون على مأدبة الله لأن الملائكة تخدمهم. أنتم تسافرون كالحجاج، وهل الحجاج يحيطون أنفسهم بالقصور والحقول ومتاع الدنيا وزينتها وزبرجها وزخرفها؟ بالتأكيد لا! لأنهم يحملون معهم أشياء خفيفة تنفعهم وتريحهم على الطريق.

هذا مجرد مثال ونموذج، كي تطبقوا جميع ما أقوله لكم. وإذا طلبتم مثالاً آخر سأعطيكم إياه.

لا تثقلوا قلوبكم بالتعلقات الدنيوية وبهموم الدنيا وغمومها. لا تهتموا باللباس والطعام من أين سيأتي. بل انظروا إلى الأزهار والأشجار، وإلى الطيور، كيف يلبسها الرب العظيم ملابسها في ألوان براقة زاهية، وكيف يطعمها بجلال وبهاء يفوق جلال سليمان وبهائه!

وهو القادر على أن يطعمكم. ذاك هو الله الذي خلقكم ووفقكم لخدمته، والذي أنزل من السماء المن والسلوى على بني إسرائيل في التيه لمدة ٤٠ عاماً. ملابسهم لم تهترئ من القدم. وكان عددهم ٦٤٠،٠٠٠ ما عدا النساء والأطفال.

الحق أقول لكم: لو أن السماء والأرض زالتا فإن رحمة ربي لن تزول

عن الذين يخافون الله! بيد أن أغنياء العالم في ذروة رفاهيتهم هالكون جائعون.

كان هناك رجل ثري وكانت إيراداته في تزايد. وقال في تفاخر وتبختر: سأهدم مخازن غلاتي لأنها صغيرة، وسأبني مخازن جديدة أكبر من القديمة بكثير. وتباهى أمام أقرانه بانتصاراته وإنجازاته. ما أشقى ذلك الرجل! لأنه مات في نفس الليلة. يا ليته اهتم بالفقراء وكسب أصدقاء بالإحسان إليهم وإنفاق ثروته عليهم. **لأنه بالإحسان تتراكم كنوز في ملكوت الله.**

أخبروني لو أنكم أودعتم نقودكم عند المرابي، الذي يردها إليكم بعشر أضعاف أو بعشرين ضعفاً، أما تعطوه كل ما لديكم؟ الحق أقول لكم: ما أنفقتموه في محبة الله سترد إليكم بمئة أضعاف، وستخلدون في مجد الله. فانظروا ماذا يقنعكم من خدمة الله!

عقيدة التوحيد

وهنالك تكلم فيليب قائلاً: نحن مقتنعون بخدمة الله، بيد أننا نتمنى أن نعرف الله، لأن أشعياء النبي قال: يا إلهي أنت بحق الرب الخفي. وقال الله لعبده موسى: أنا الذي هو أنا.

أجاب عيسى: يا فيليب! إن الله هو الخير الذي لا خير دونه. إن الله هو الموجود الذي لا موجود دونه. إن الله هو الحياة الذي لا حياة دونه. إن الله هو العظيم الذي ينفذ في الكائنات، وهو في كل مكان. هو الأحد الصمد الذي لم يكن له كفوًا أحد. هو لا بداية له ولا انتهاء. هو الذي أعطى كل شيء بدايته وسيعطي كل شيء نهايته. هو لم يلد ولم يولد. هو لم يكن له أب ولا أم ولا أبناء ولا إخوان ولا أقران.

ولأن الله لا جسم له، لذا فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يمشي ولا يتحرك، ولكنه خالد من دون شباهة لبشر. إن الله لا مادي ولا جسد له. هو روحي معنوي، وهو غير مركب. هو الوجود البحت البسيط. هو الخير البحت، ويحب الخير وحده. هو العادل، والذي إذا عاقب أو عفا، لا يخالف ولا يفند أمره.

وباختصار أقول لك يا فيليب إنك هنا على الأرض لا تستطيع رؤيته

ولا معرفته معرفة كاملة. ولكنك إذا استقررت في ملكوت الله، تراه إلى الأبد وتحظى بالسعادة والمجد.

فأجاب فيليب: أيها المعلم! ماذا تقول؟ إنه مكتوب في سفر أشعياء بأن الله هو أبونا. فكيف لا يكون له أولاد؟

أجاب عيسى: هناك حكايات كثيرة في كتب الأنبياء ترمز إلى مغزى. لذا يجب الانتباه إلى المغزى لا إلى ظاهر الكلام. لأن جميع الأنبياء الذين بعثهم الله وعددهم ١٤٤،٠٠٠ قد تكلموا في غموض. ولكن سيأتي من بعدي خاتم الأنبياء وسيكشف الغموض جلياً عن كل ما قاله الأنبياء، لأنه المرسل من عند الله.

هنا تأوه عيسى وقال: اللهم ارحم بني إسرائيل. وأشفق على إبراهيم وعلى ذريته حتى يخدموك بصدق وإخلاص.

وأجاب الحواريون مؤمنين: آمين يا رب العالمين.

ثم قال عيسى: والحق أقول: إن الكتاب والمطببين قد أبطلوا قانون الله بنبوثاتهم الكاذبة، والتي هي مناقضة لنبوات الأنبياء الصادقين. لهذا فإن الله قد غضب على بني إسرائيل وعلى هذا الجيل الجاحد.

هنالك بكى الحواريون وانتحبوا وقالوا: يا رب ارحمنا وارحم المعبد والبلد المقدس، ولا تسلط عليهم أمما لا يرحمونهم، بل يزدرون شعائرك المقدسة. وأمن عيسى على دعائهم قائلاً: آمين يا ربنا ورب آبائنا الأولين.

أولياء اللّه مضطهدون

واستأنف عيسى كلامه قائلاً: أنتم لم تختاروني، ولكني أنا الذي اخترتكم، كي تكونوا لي حواريين. وإذا أبغضكم أهل الدنيا يوماً، فكونوا لي حواريين حقيقيين. إن اهل الدنيا أعداء أولياء الله على الدوام.

تذكروا أنبياء الله المقدسين كيف قتلوا على يد أهل الدنيا. حتى أنه في زمان إلياس النبي قتل ١٠،٠٠٠ نبي بيد جيزيبيل ملكة بني إسرائيل، وأن إلياس استطاع في ظروف صعبة جداً الهروب منها، وأن ٧٠٠٠ من أولاد الأنبياء اختبأوا لاجئين عند القائد مضيف آهاب. أيها الظالمون أتظنون أن الله لا يعلم ذلك!

أيها الحواريون إنكم مراقبون من قبل الله. لا تخافوا الموت في سبيل الله. انظروا إلى العصافير والطيور الأخرى، لا تسقط منها ريشة واحدة من دون مشيئة الله. هل الله يحافظ على الطيور أكثر من الإنسان الذي من أجله خلق كل شيء؟ هل يوجد إنسان على الأرض يحافظ على نعاله أكثر من أبنائه؟ بالتأكيد لا! لا تظنوا أن الله سبحانه وتعالى يترككم، وهو الذي يحافظ على الطيور! ناهيك عن أوراق الشجر، فإنه لا تسقط ورقة من شجر من دون مشيئة الله!

صدقوني فأنا أقول لكم الحقيقة. إن أهل الدنيا سيهابونكم إذا اتبعتم تعاليمي. إنهم لن يبغضوكم لو اطمئنوا إلى أن شرورهم سوف لا تفضح. ولكنهم يخافون أن يفضح خبثهم، فلهذا سوف يبغضونكم وسوف يضطهدونكم.

إذا رأيتم أهل الدنيا يحتقرون كلامكم فلا تبالوا، بل انظروا إلى الله كيف أنه أعظم منكم، وكيف أن أهل الدنيا تزدريه وتعتبر حكمته جنوناً! وإذا كان الله يتحملهم ويصبر عليهم، فما بالكم وأنتم غبار الأرض ونسبه، تجزعون ولا تصبرون على أهل الدنيا!

أنتم بصبركم سوف تملكون روحكم. إذا صفعكم أحد على خدكم فقدموا له الخد الآخر كي يصفعه. لا تردوا على الإساءة بإساءة، لأن هذا ما تفعله الحيوانات السيئة. ولكن ردوا على الإساءة بالبر والإحسان، وادعوا الله للذين يكرهونكم، واطلبوا لهم الخير. النار لا تخمد بالنار بل بالماء.

أنا أقول لكم لا تقارعوا الشر بالشر، بل قارعوا الشر بالإحسان. انظروا إلى الله كيف يبعث أشعة الشمس على الأخيار والأشرار على السواء، وينزل المطر على الأخيار والأشرار على السواء! كذلك أنتم أحسنوا إلى الأخيار والأشرار على السواء.

إنه مكتوب في ناموس موسى. كونوا قديسين لأني أنا الله ربكم قديس. كونوا أطهاراً نزيهين لأني أنا الله ربكم طاهر نزيه. كونوا كاملين لأني أنا الله ربكم كامل.

الحق أقول لكم إن الخادم يسعى في مرضاة سيده، ولهذا لا يلبس أي

لباس يسخط سيده. لباسكم هو إرادتكم هو حبكم وعشقكم. إياكم أن تريدوا أو تحبوا شيئاً يسخط الله ربكم! تأكدوا أن الله يبغض أبهة الدنيا وأمجادها وشهوات الدنيا ونزواتها. فحريٍ بكم أن تبغضوها وتكرهوها أيضاً.

قصة لازاروس مع الرجل الثري

ثم بكى عيسى وقال: الويل لخدام الجسد، لأن لا أمل لهم في الحياة الآخرة غير العذاب جزاء على ذنوبهم! أقول لكم كان هناك رجل ثري نهم وشره، والذي لم يكن يهمه في الحياة غير النهم والشراهة. وكان يقيم كل يوم وليمة فاخرة. وكان يقف عند بابه رجل فقير اسمه لازاروس مثخناً بالجراح، وكان راضياً ببقايا طعام ولائمه الفاخرة. إلا أن الرجل الثري وحاشيته بخلوا حتى بذلك، وحرموه من بقايا الطعام، وسخروا منه. كانت الكلاب فقط هي التي ترفق به، إذ كانت تلحس جراحه.

واتفق أن مات الرجل الفقير، وحملته الملائكة إلى أحضان أبينا إبراهيم. وأيضاً مات الرجل الثري، وحملته الشياطين إلى أحضان إبليس، حيث كان يعاني أسوء العذاب. ومن هناك رمق إلى لازاروس من بعيد وهو في أحضان إبراهيم. فصاح بأعلى صوته: يا أبانا إبراهيم ارحمني وابعث لازاروس إلي حتى يبرد لساني بأصابعه، ولو بقطرة واحدة فقط من الماء، فإن لساني يعذب في لهب السعير.

أجاب إبراهيم: يا بني تذكر أنك تمتعت في الحياة الدنيا وأن

لازاروس عانى الأمرين فيها. لهذا يجب أن تعذب الآن ويرتاح لازاروس.

وصاح الرجل الثري مرة أخرى قائلاً: يا أبانا إبراهيم إن في قصري ثلاثة من إخواني، فابعث لازاروس إليهم ليخبرهم مدى معاناتي هنا، حتى يندموا على أعمالهم ويتحاشوا عذاب الآخرة.

فأجاب إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء الآخرون. دعهم ينصتون إليهم.

فقال الرجل الثري: كلا يا أبانا إبراهيم! إذا بعث ميت في الدنيا وأخبرهم فإنهم سوف يصدقونه.

فأجاب إبراهيم: إن من لا يصدق موسى والأنبياء الآخرين فسوف لا يصدق الموتى حتى وإن بعثوا.

ثم قال عيسى: البركة والغبطة للفقراء الصابرين الراضين بالكفاف من العيش المبغضين للجسد! واشقوتاه لأولئك الذين يشيعون موتاهم إلى القبور، كي يقدموا لحومهم طعاماً للديدان، ثم لا يعتبرون! كم هم بعيدون عن واقع الحياة، حيث يظنون أنهم في هذه الدنيا خالدون، لأنهم يبنون قصوراً ويلهثون وراء المال مغرورين متكبرين!

ازدراء الجسد

وسأل برنابا: سيدي كلامك حق، ولهذا تركنا كل شيء وتبعناك. ولكن كيف نبغض الجسد لأنه لا يجوز قتل النفس؟ ولكي نعيش في هذه الدنيا يجب علينا تأمين حاجات الجسد.

أجاب عيسى: لكي تعيش بأمان عامل جسدك كما تعامل فرسك. إنك تعطي الفرس طعامه بمقدار، وتجعله يعمل لك بلا حد، وتلجمه ليمشي حسب إرادتك، وتربطه بحيث لا يضايق أحداً، وتضعه في اسطبل متواضع، وتضربه حينما لا يطيعك. عش هكذا يا برنابا وستكون دائماً مع الله.

ولا يغيظك ما قلته، لأن النبي داود عاش هكذا، كما اعترف بنفسه قائلاً: أنا كالحصان أمامكم، وأنا دائماً في خدمتكم.

والآن أخبرني من هو الأفقر؟ هذا الذي يقنع بالقليل، أو ذاك الذي يرغب في الكثير؟ أقول لك بحق: **لو أننا نحظى بعقل متزن، لما جمعنا المال لأنفسنا فحسب بل للجميع على السواء.** والذي يجمع أكثر يرغب أكثر، وهذا هو الجنون بعينه. **وكلما جمع المرء المال لراحة الجميع ازداد راحة وسعادة**[1].

---

(١) إن عيسى يعني بذلك أن يجمع المرء لشيء يستفيد منه أفراد المجتمع في هذه الدنيا =

اكتفوا بلباس واحد. انبذوا كيس دراهمكم. لا تحملوا معكم محفظة جيبكم. انبذوا أحذيتكم. انبذوا هذا النمط من التفكير: ماذا سوف يحدث لنا؟ بل اسعوا لتحقيق مشيئة الله كيفما يكون، تجدون الله يؤمن احتياجاتكم بدون أي نقصان.

الحق أقول لكم: جمع الدنيا حباً في الدنيا شهادة صارخة لخسران الآخرة. لأن الدنيا والآخرة على طرفي نقيض. فكيف تطلب نعيم الدنيا، ثم تتوقع حصول النعيم في الآخرة!

= وما بعد الدنيا كصدقة جارية، كالمساجد والمآتم والمستشفيات والمدارس والمرافق العامة إلى آخره. ناهيك عن مساعدة الفقراء والمستحقين باستمرار. المال مال الله والأغنياء مخولون على المال من قبل الله. بيد أن الأغلبية منهم يتركون ما خولهم الله وراء ظهورهم في حسرة أبدية. يقول الله في الحديث القدسي: (الأغنياء وكلائي والفقراء عيالي). أو أن يستفيد منه أفراد البشرية إن أمكن حاضراً ومستقبلاً، كالمؤسسات الخيرية العالمية، مثل مؤسسة نوبل لتشجيع تقدم العلم في العالم، في الحاضر في هذه الدنيا، وما بعد موته في حياة الأجيال القادمة. المشكلة الكبرى هو أن ضيق الأفق وضيق الرؤية في الإنسان لا يسمح له بأن يعامل أفراد المجتمع كأولاده وعياله. ولو أحبهم كأولاده لكان رجلاً مثالياً. ولو أحب الفقراء كعياله لنال السعادة القصوى. والأعظم منه من يعامل أفراد البشرية كأولاده وعياله. إن ضيق الأفق وضيق الرؤية في الإنسان يحصره في عائلته وأولاده، بل الأدهى والأمر ذاك الذي يجمع فقط وفقط كي يرى كل يوم أرقاماً وهمية تتضخم في كشوفاته المصرفية.

وحدانية اللّٰه وقدرته ووجوب طاعته

ومما قاله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن وصايا الله عز وجل لعيسى عليه السلام[١]:

قال: كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى ابن مريم عليه السلام أن قال له:[٢]

يا عيسى أنا ربك ورب آبائك[٣]، اسمي واحد، وأنا الأحد المتفرد

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٩٩ ـ الأمالي: ٣١٢ ـ روضة الكافي: ١٤١.

(٢) هذا هو نص أمالي محمد بن علي الصدوق، عن محمد بن موسى بن المتوكل، عن عبد الله بن جعفر الحميري، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن علي بن أسباط، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن الإمام الصادق عليه السلام.
وهناك نص آخر عن محمد بن يعقوب الكليني، عن علي بن إبراهيم القمي، عن أبيه، عن علي بن أسباط، عنهم عليهم السلام. ومقتضى إسناد الكليني: أن الحديث مروي عن الإمام الرضا، أو الإمام الجواد، لأن علي بن أسباط من أصحابهما وهو ثقة. وفي النص الذي رواه الكليني زيادة على النص الذي رواه الصدوق، وسنذكر الزيادة في حينه.

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٢): أنا ربك ورب آبائك الأولين...

بخلق كل شيء، وكل شيء من صنعي، وكل خلقي إلي راجعون[١].

يا عيسى أنت المسيح بأمري، وأنت تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، وأنت تحيي الموتى بكلامي، فكن إلي راغباً، ومني راهباً، فإنك لن تجد مني ملجأ إلا إلي[٢].

يا عيسى أوصيك وصية المتحنن عليك بالرحمة، حين حقت لك مني الولاية، بتحريك[٣] مني المسرة. فبوركت كبيراً وبوركت صغيراً حيثما كنت. أشهد أنك عبدي ابن أمتي[٤].

يا عيسى أنزلني من نفسي كهمتك[٥]، واجعل ذكري لمعادك، وتقرب إلي بالنوافل، وتوكل علي أكفك، ولا تول غيري فأخذلك.

يا عيسى اصبر على البلاء، وارض بالقضاء، وكن كمسرتي فيك، فإن مسرتي أن أطاع فلا أعصى. يا عيسى أحي ذكري بلسانك، وليكن ودي في قلبك. يا عيسى تيقظ في ساعات الغفلة، واحكم لي بلطيف الحكمة[٦].

يا عيسى كن راغباً راهباً[٧]، وأمت قلبك بالخشية. يا عيسى راع الليل لتحري مسرتي، واظمأ نهارك ليوم حاجتك عندي.

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٢): وكل إلي راجعون.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٣): فلن تجد مني ملجأ إلا إلي.

(٣) التحري: الاجتهاد في الطلب.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٣): أشهد أنك عبدي وابن أمتي.

(٥) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٣): أنزلني من نفسك كهمك..

(٦) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٣): واحكم لي لطيف الحكمة.

(٧) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٣): كن راهباً راغباً...

يا عيسى نافس في الخير جهدك، لتعرف[١] بالخير حيثما توجهت. يا عيسى احكم في عبادي بنصحي، وقم فيهم بعدلي، فقد أنزلت عليك شفاء لما في الصدور من مرض الشيطان.

يا عيسى لا تكن جليساً لكل مفتون. يا عيسى حقاً أقول ما آمنت بي خليقة إلا خشعت لي، وما خشعت لي إلا رجت ثوابي، فأشهدك أنها آمنة من عقابي[٢]، ما لم تغير أو تبدل سنتي[٣].

يا عيسى بن البكر البتول، ابكِ على نفسك بكاء من قد ودع الأهل، وقلى الدنيا، وتركها لأهلها، وصارت[٤] رغبته فيما عند الله.

يا عيسى كن مع ذلك تلين الكلام، وتفشي السلام، يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذاراً للمعاد والزلازل الشداد[٥]، وأهوال يوم القيامة، حيث لا ينفع أهل ولا ولد ولا مال.

يا عيسى اكحل عينيك بميل الحزن، إذا ضحك البطالون.

يا عيسى كن خاشعاً صابراً. فطوبى لك إن نالك ما وعد الصابرون. يا عيسى رح من الدنيا يوماً فيوماً، وذق ما قد ذهب طعمه[٦]. فحقاً أقول ما

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٤): تعرف بالخير حيثما توجهت.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٤): فأشهدك أنها آمنة من عذابي...

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٤): ما لم تبدل أو تغير سنتي.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٤): وكانت رغبته فيما عند الله.

(٥) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٤): حذراً من المعاد والزلزال الشداد....

(٦) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٥): وذق ألما قد ذهب طعمه...

أنت إلا بساعتك ويومك، فرح من الدنيا بالبلغة[١]، وليكفك الخشن الجشب، فقد رأيت إلى ما تصير[٢]، ومكتوب ما أخذت، وكيف أتلفت.
يا عيسى إنك مسؤول، فارحم الضعيف كرحمتي إياك، ولا تقهر اليتيم.

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٥): فرح من الدنيا ببلغة....

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٥): فقد رأيت إلى ما يصير....

من أحب اللّه كسب اللّه

ثم ضرب عيسى مثلاً: كان هناك رجل يسافر، وأثناء مشيه عثر على كنز في حقل. وكان الحقل تعادل قيمته خمسة قطع من النقود (الذهبية). باع الرجل فوراً عباءته من أجل أن يشتري الحقل. هل كان عمل ذلك الرجل منطقيا؟

أجاب الحواريون: لو لم يتصرف هكذا لاعتبر مجنوناً.

فقال عيسى: إذن أنتم مجانين لو لم تسلموا كل حواسكم لله، كي يشتري أرواحكم، حيث يستقر كنز العشق، لأن العشق كنز لا يضاهيه أي كنز. من أحب الله وعشقه كسب الله، ومن كسب الله كسب كل شيء.

فقال بطرس: يا سيدي كيف نحب الله حباً صادقاً؟

أجاب عيسى: الحق أقول: من لم يبغض أباه وأمه ولم يبغض نفسه وأولاده وزوجته لأجل حب الله، لا يستحق من الله حبه وعشقه.

فقال بطرس: أيها المعلم إنه مكتوب في الناموس في كتاب موسى: وقر أباك حتى تعيش طويلاً على الأرض. وأيضاً جاء في كتاب موسى: اللعنة على الولد الذي لا يطيع أباه وأمه! وأن الله أمر لمثل هذا الولد العاق

أن يغضب الناس عليه ويرجموه بالحجارة على بوابة المدينة. فكيف تطلب منا أن نبغض آبائنا وأمهاتنا؟

فأجاب عيسى: إن كل كلمة أقولها هي عين الصدق، لأنها ليست مني بل من الله الذي بعثني إلى بني إسرائيل. أقول لكم واسمعوا: كل ما تمتلكونه هو من الله، وهو الذي وهبكم إياه. قولوا لي: أيها أغلى وأعلى قيمة: الهبة أم الواهب؟

إذا كان أبوك وأمك أو أي شيء آخر هو العائق لك عن خدمة الله، تخل عنهم واتركهم واهجرهم فإنهم أعداؤك. ألم يقل الله لإبراهيم: انطلق من بيت أبيك وأهلك، واذهب إلى الأرض التي سوف أهبك ولذريتك، كي تعيش فيها. ولماذا قال الله ذلك؟ لأن أبا إبراهيم كان صانع الأوثان والآلهة الكاذبة وكان يعبدها. وكانت العداوة مضطرمة بينهما، بحيث إن الأب أراد أن يحرق ابنه.

محاورة إبراهيم
مع أبيه

فقال بطرس: صدقت. وألتمس منك أن تخبرنا كيف أن إبراهيم سخر من أبيه

أجاب عيسى: كان إبراهيم عمره ٧ سنوات حينما بدأ يبحث عن ربه. وفي يوم من الأيام قال لوالده: يا أبي من خلق الإنسان؟

فأجابه الوالد الأحمق: الإنسان! أنا خلقتك وخلقني والدي.

فقال إبراهيم: يا أبي لا يمكن أن يكون ذلك، لأني سمعت رجلاً طاعناً في السن يبكي وينتحب قائلاً: يا إلهي لماذا لم ترزقني أولاداً؟

فأجابه الوالد: هذا صحيح يا ولدي. إن الله يساعد الإنسان على خلق الإنسان من دون أن يباشر العمل بنفسه. إنه من الضروري أن يلتمس الإنسان من ربه، ويقدم له قرابين من الخرفان والأغنام حتى يساعده ربه.

فقال إبراهيم: يا أبي كم عدد الآلهة هناك؟

فأجاب الرجل العجوز: يا بني هناك آلهة لا حصر لها ولا حد.

فقال إبراهيم: يا أبي كيف أفعل إذا أنا خدمت إلهاً واحداً، ثم أراد لي

إله آخر سوءاً لأني لم أخدمه؟ سيكون هناك بلا شك خلاف ونزاع ونفور بينهما، وفي نهاية المطاف، سوف يكون هناك حرب بين الآلهة. وإذا اتفق أن قتل إله إلهاً الآخر، الذي يضمر لي السوء، إلهي فماذا أفعل؟ من الأكيد أنه سيقتلني أيضا.

فضحك الرجل العجوز وقال: يا بني لا تخف! ليس هناك إله يعلن الحرب على الآخر. إنه يوجد في المعبد الكبير ألف إله مع بعل ـ الإله الأعظم ـ ولم يحدث خلال أيام حياتي أن ضرب إله إلهاً آخر، رغم أني قاربت السبعين عاماً من عمري. وبالتأكيد الكل لا يعبدون إلهاً واحداً، إنما أحدنا يعبد إلهاً والآخر يعبد إلهاً آخر.

فأجاب إبراهيم: إذن هناك سلام بين الآلهة. أليس كذلك؟

فقال الأب: نعم.

فقال إبراهيم: يا أبي مم تصنع الآلهة؟

فأجاب الرجل العجوز: يا أحمق كيف لا تعلم مم تصنع الآلهة، في حين أنني كل يوم أصنع إلهاً وأبيعه للآخرين، كي أؤمن لنفسي رغيفاً! وكان آنذاك يصنع صنماً فقال: هذا من خشب النخل، وذاك من خشب الزيتون، وذاك الصغير من العاج. انظر كم هو جميل! ألا يتراءى لك كأنه حي؟ بالتأكيد إنه كذلك بيد أنه ينقصه النفس.

فقال إبراهيم: يا أبي الآلهة ينقصها النفس! أليس كذلك؟ فكيف تعطينا النفس؟ ولأنها لا حياة لها فكيف تعطينا الحياة؟ بالتأكيد يا أبي إنها ليست إلهاً.

فاسشتاط الرجل العجوز غضباً وقال: لو كنت كبيراً ولا تفهم لكسرت رأسك بهذا الفأس. ولكن امسك لسانك واسكت لأنك صغير ولا تفهم.

فأجاب إبراهيم: يا أبي إذا كانت الآلهة تساعد على خلق الإنسان، فكيف يستطيع الإنسان أن يصنع آلهة؟ وإذا كانت الآلهة تصنع من خشب، فحرق الخشب يعتبر ذنباً عظيماً. ولكن أخبرني يا أبي إنك صنعت بيديك آلهة كثيرة، فكيف لم تساعدك الآلهة على إنجاب أولاد أكثر، كي تصير أقوى وأقدر إنسان في العالم؟

كان الوالد قد استشاط غضباً وهو يسمع ابنه يواصل كلامه: يا أبي هل كان العالم لفترة من دون ناس؟

فأجاب الرجل العجوز: نعم ولماذا هذا السؤال؟

فقال إبراهيم: لأني أريد أن أعرف من خلق الإله الأول.

فصاح الرجل العجوز في وجه إبراهيم قائلاً: اخرج من بيتي! ودعني أصنع هذا الصنم على استعجال، ولا تستمر في كلامك، لأنك عندما تجوع ترغب في الخبز لا في الكلام.

فقال إبراهيم: بحق إنه إله ممتاز تنحته حسب إرادتك، وهو لا يقدر على الدفاع عن نفسه!

فاستشاط الرجل العجوز غضباً وصاح: كل العالم يقول إنه إله، أما أنت المجنون فتقول إنه ليس بإله. أقسم بالآلهة لو كنت كبيراً لقتلتك. ثم لاحقه باللطمات والرفسات إلى خارج البيت وهو يصرخ ويزعق.

كيف حطم إبراهيم عليه السلام الأوثان

وضحك الحواريون من سخافة الرجل العجوز، ووقفوا تقديراً لفطنة إبراهيم وحصافته وقوة بصيرته. فلامهم عيسى وانتهرهم، وقال لهم لا تنسوا قول أحد الأنبياء: ضحكة الحاضر تنذر بنحيب المستقبل. ثم اسمعوا عني: لا تذهبوا إلى محافل الضحك، بل إلى محافل البكاء والنحيب، لأن هذه الحياة تطفح بالشقاء والبؤس والتعاسة.

ثم قال عيسى: هل تعلمون أنه في زمان موسى، مسخ الله رجالاً كثيرين في مصر إلى حيوانات قبيحة المنظر، لا لسبب إلا لأنهم ضحكوا وسخروا من الآخرين؟ إياكم أن تضحكوا من الآخرين، لأن الضحك يتبعه النحيب!

فقال الحواريون: ضحكنا على سخافة الرجل العجوز.

فأجاب عيسى: الحق أقول لكم إن الطيور على أشكالها تقع وتجد فيها مسراتها. لهذا لو لم تكونوا سخيفين لما ضحكتم على سخافة الآخرين.

فقال الحواريون: يا رب ارحمنا برحمتك!

فأجاب عيسى: آمين!

ثم قال فيليب: أيها المعلم كيف أن أبا إبراهيم تمنى أن يحرق ابنه بالنار؟

فأجاب عيسى: في أحد الأيام عندما بلغ إبراهيم الثانية عشرة من عمره قال له والده: غداً سوف يكون مهرجان لكل الآلهة. يجب علينا أن نذهب إلى المعبد الكبير كي نقدم هدية إلى إلهي بعل العظيم. ويجب عليك يا إبراهيم أن تنتخب لنفسك إلهاً، لأنك راشد بالغ.

فأجاب إبراهيم بمكرٍ: سمعاً وطاعة يا أبي! فانطلقا إلى المعبد في الصباح الباكر قبل أي أحد. بيد أن إبراهيم خبأ تحت جلبابه فأساً. وعند دخول المعبد، وفي غمرة الازدحام البشري، خبأ إبراهيم نفسه وراء صنم في مكان مظلم من المعبد. وعند انتهاء المهرجان، ظن الأب أن إبراهيم قد غادر المعبد قبله إلى البيت، لذلك لم يبق في المعبد كي يفتش عن ابنه.

عندما غادر الجميع أغلق الكهنة المعبد ورحلوا. فقام إبراهيم وأخذ الفأس وبتر أقدام الأصنام جميعها إلا كبيرهم، وهو بعل العظيم، حيث وضع إبراهيم الفأس عند قدميه، وسط حطام الأصنام التي تكسرت قطعاً قطعاً لقدمها، ولأنها كانت مركبة من قطع.

فخرج إبراهيم من المعبد، ولاحظه بعض الناس الذين شكوا أنه قد ذهب إلى المعبد للسرقة. فمسكوه وذهبوا إلى المعبد. وحينما رأوا آلهتهم

مكسرة قطعاً قطعاً، أخذوا في الصراخ والعويل والبكاء والنحيب والزعيق قائلين: تعالوا أيها الرجال واستعجلوا، ودعونا نقتل الرجل الذي قتل آلهتنا!

فتزاحم هناك حوالي ١٠,٠٠٠ رجل مع الكهنة، وبدأوا يستجوبون إبراهيم عن الأسباب التي دعته لتخريب الآلهة.

فأجاب إبراهيم: أيها الحمقى! هل يستطيع إنسان قتل الآلهة؟ اسألوا كبيرهم فهو الذي قتل الآلهة! ألا ترون الفأس عند أقدامه؟ من المؤكد أنه لا يرغب في أقرانه وشركائه.

هنالك وصل أبو إبراهيم الذي كان يتذكر أحاديث إبراهيم الكثيرة ضد الآلهة، وتعرف على الفأس الذي حطم به إبراهيم الأوثان قطعاً قطعاً. فصرخ قائلاً: هذ ابني الخائن هو الذي قتل آلهتنا! لأن هذا الفأس فأسي. وقص عليهم تفاصيل ما جرى بينهما.

فجمع الناس أكواماً كثيرة من الخشب، وأوثقوا يدي إبراهيم ورجليه، ووضعوه على أكوام الخشب المكدسة، ثم أشعلوا النار في الخشب.

وأمر الله النار أن كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. واشتعلت النيران والتهبت وتأججت في وهيج ولهيب، وهياج وضراوة وغضب شديد. وفي ذلك اليوم المشهود، أحرقت النيران الضارية الغاضبة حوالي ٢٠٠٠ من الرجال الذين كانوا قد حكموا على إبراهيم بالإعدام.

أما إبراهيم فوجد نفسه سالماً، وقد حمله ملك من الملائكة إلى قرب دار أبيه، من دون أن يشاهد إبراهيم من الذي حمله. وبهذه الطريقة نجا إبراهيم من الموت.

نزول الوحي على إبراهيم عليه السلام

فقال فيليب: ما أعظم رحمة ربي على من يحبه! أخبرنا أيها المعلم كيف عرف إبراهيم ربه؟

أجاب عيسى: عندما وصل إبراهيم قرب دار أبيه، خاف أن يدخل الدار، فمكث غير بعيد عن الدار تحت شجرة النخل. حافظ إبراهيم على هدوئه وحدث نفسه قائلاً: يظهر أن هناك رباً حياً مقتدراً أكثر من الإنسان، رباً يصنع الإنسان، وبدونه لا يستطيع الإنسان أن يلد إنساناً آخر

ونظر في النجوم وفي القمر وفي الشمس، وظن أنها الله. بيد أنه حينما لاحظ حركاتها وتغيراتها قال: يظهر أن الله لا يتحرك، وأن الغيوم لا تحجبه، وإلا فإن الناس سيهلكون. وبينما كان سارحاً في أفكاره سمع صوتاً يناديه قائلاً: إبراهيم! فالتفت حواليه ولم يجد أحداً فقال. من المؤكد أنني سمعت صوتاً يناديني: إبراهيم! وسمع نفس الصوت ثانية وثالثة يناديه: إبراهيم!

فأجاب: من يناديني؟

فسمع صوتاً يقول: أنا جبرائيل!

فأوجس إبراهيم خيفة، فهدأ جبرائيل من روعه قائلاً: لا تخف يا إبراهيم لأنك خليل الله. إنك عندما حطمت آلهة الناس قطعاً قطعاً، اجتباك الله رب الملائكة والأنبياء، بحيث إنك الآن مدون في كتاب الحياة الخالدة.

فقال إبراهيم: ماذا عساي أن أفعل كي أخدم رب الملائكة والأنبياء المقدسين؟

الله يتجلى على إبراهيم عليه السلام

فأجابه الملك: اذهب إلى تلك العين واغتسل لأن الله يريد أن يكلمك.

فقال إبراهيم: كيف أغتسل؟

فتمثل له الملك بشراً سوياً في صورة شاب جميل، واغتسل في الينبوع قائلاً: يا إبراهيم اغتسل هكذا. وعندما اغتسل إبراهيم قال له الملك: اصعد ذاك الجبل لأن الله يريد أن يكلمك هناك.

فصعد إبراهيم الجبل كما أمره الملك، وجثى هناك على ركبتيه محدثاً نفسه: متى سيحدثني إله الملائكة؟

فسمع صوتاً لطيفاً خفياً يقول: إبراهيم!

أجاب إبراهيم: من يناديني؟

فجاء الجواب: أنا ربك يا إبراهيم.

فأوجس إبراهيم خيفة وسجد على الأرض قائلاً: كيف ينصت إليك عبدك؟ ومن هو غير التراب والرماد!

فقال الله عز وجل: لا تخف! وانهض لأنني اجتبيتك عبداً لي، وأنعمت عليك وباركت لك في ذريتك، أزيدهم وأكثرهم واجعل منهم رجالاً ونساءً عظاماً. فانطلق الآن من بيت أبيك وأهلك، وتعال لكي تعيش في الارض التي أهبك وأهب ذريتك.

أجاب إبراهيم: يا رب سأفعل ذلك، ولكن احرسني واحفظني، حتى لا يضرني أي إله آخر.

فتكلم الله قائلاً: أنا الله وحدي لا شريك لي، ولا إله غيري! أنا أجندل وأصرع، وأنا أهب العافية والكمال، وأنا أقتل وأنا أهب الحياة. أنا أدخل في نار جهنم من أشاء، وأنا أخرج منها من أشاء. لا يقدر أحد أن يخرج عن سلطاني.

ثم أعطاه الله عهد الختان. وهكذا عرف أبونا إبراهيم الله سبحانه وتعالى.

ثم رفع عيسى يديه إلى السماء قائلاً: يا رب لك المجد والشرف والكرامة. آمين!

كن في الصلاة وهمك هم واحد

ومما قاله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن وصايا الله عز وجل لعيسى عليه السلام [١]:

قال: كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى ابن مريم عليه السلام أن قال له:

يا عيسى ابك على نفسك في الصلاة، وانقل قدميك إلى مواضع الصلوات، وأسمعني لذائذ نطقك بذكري [٢]، فإن صنيعي إليك حسن. يا عيسى كم من أمة قد أهلكتها بسالف ذنب قد عصمتك منه [٣].

يا عيسى ارفق بالضعيف، وارفع طرفك الكليل إلى السماء، وادعني فإني منك قريب، ولا تدعني إلا متضرعاً إلي، وهمك هم واحد، فإنك متى تدعني كذلك أجبك.

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٩٩ ـ الأمالي: ٣١٢ ـ روضة الكافي: ١٤١.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٥): يا عيسى ابك على نفسك في الخلوات، وانقلها إلى مواقيت الصلوات، وأسمعني لذاذة نطقك بذكري....

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٥): كم من أمة قد أهلكتها بسالف ذنوب قد عصمتك منها.

يا عيسى إني لم أرض بالدنيا ثواباً لمن كان قبلك[١]، ولا عقابا لّمن انتقمت منه. يا عيسى إنك تفنى وأنا أبقى، ومني رزقك، وعندي ميقات أجلك، وإلي إيابك، وعلي حسابك، فاسألني[٢] ولا تسأل غيري، فيحسن منك الدعاء ومني الإجابة.

يا عيسى ما أكثر البشر، وأقل عدد من صبر. الأشجار كثيرة وطيبها قليل، فلا يغرنك حسن شجرة حتى تذوق ثمرتها. يا عيسى لا يغرنك المتمرد علي بالعصيان، يأكل رزقي[٣] ويعبد غيري، ثم يدعوني عند الكرب فأجيبه، ثم يرجع إلى ما كان، أفعلي يتمرد، أم لسخطي يتعرض؟ فبي حلفت لآخذنه أخذة ليس له منها منجى، ولا دوني ملتجأ، أين يهرب من سمائي وأرضي[٤]؟

يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل، لا تدعوني والسحت تحت أحضانكم، والأصنام في بيوتكم، فإني آليت أن أجيب من دعاني، وأن أجعل إجابتي إياهم[٥] لعناً عليهم حتى يتفرقوا.

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٦): إني لم أرض بالدنيا ثوابا لمن قبلك...

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٦): فسلني ولا تسأل غيري....

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٦): يأكل من رزقي ويعبد غيري.....

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٦): ثم يرجع إلى ما كان عليه، فعلي يتمرد، أم لسخطي يتعرض؟ فبي حلفت لآخذنه أخذة ليس له منجى، ولا دوني ملجأ. ولا يوجد في نص الكليني: أين يهرب من سمائي وأرضي؟

(٥) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٧): وأن أجعل إجابتي لعنا عليهم حتى يتفرقوا.

يا عيسى كم أجمل النظر، وأحسن الطلب، والقوم في غفلة لا يرجعون، تخرج الكلمة من أفواههم لا تعيها قلوبهم، يتعرضون لمقتي، ويتحببون بي إلى المؤمنين[١].

يا عيسى ليكن لسانك في السر والعلانية واحداً، وكذلك فليكن قلبك وبصرك، واطو قلبك ولسانك عن المحارم، وغض طرفك[٢] عما لا خير فيه. فكم ناظر نظرة زرعت في قلبه شهوة، ووردت به موارد الهلكة.

يا عيسى كن رحيماً مترحماً، وكن للعباد كما تشاء أن يكون العباد لك[٣]، وأكثر ذكر الموت ومفارقة الأهلين، ولا تله، فإن اللهو يفسد صاحبه، ولا تغفل فإن الغافل مني بعيد، واذكرني بالصالحات حتى أذكرك.

يا عيسى تب إلي بعد الذنب، وذكر بي الأوابين، وآمن بي، وتقرب بي إلى المؤمنين[٤]، ومرهم يدعوني معك. وإياك ودعوة المظلوم، فإني آليت على نفسي أن أفتح لها باباً من السماء، وأن أجيبه، ولو بعد حين[٥].

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٧): ويتحببون إلى المؤمنين.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٧): وغض بصرك عما لا خير فيه......

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٧): وكن كما تشاء أن تكون العباد لك.....

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): وتقرب إلى المؤمنين.....

(٥) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): وإياك دعوة المظلوم، فإني آليت على نفسي أن أفتح لها باباً من السماء بالقبول، وأن أجيبه، ولو بعد حين.

يا عيسى اعلم أن صاحب السوء يغوي، وأن قرين السوء يردي، فاعلم من تقارن[١]، واختر لنفسك إخوانا مَن المؤمنين. يا عيسى تب إلي، فإنه[٢] لا يتعاظمني ذنب أن أغفره، وأنا أرحم الراحمين.

يا عيسى اعمل لنفسك في مهلة من أجلك، قبل أن لا يعمل لها غيرك[٣]، واعبدني ليوم كألف سنة مما تعدون. فإني أجزي بالحسنة أضعافها، وإن السيئة توبق صاحبها. [٤]وتنافس في العمل الصالح، فكم من مجلس قد نهض أهله، وهم مجارون من النار.

يا عيسى ازهد في الفاني المنقطع، وطئ رسوم منازل من كان قبلك، فادعهم وناجهم، هل تحس منهم من أحد، فخذ[٥] موعظتك منهم، واعلم أنك ستلحقهم في اللاحقين.

يا عيسى قل لمن تمرد بالعصيان، وعمل بالإدهان[٦]، ليتوقع

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): يا عيسى اعلم أن صاحب السوء يعدي، وقرين السوء يردي، واعلم من تقارن......

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): تب إلي فإني لا يتعاظمني ذنب أن أغفره.......

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): اعمل لنفسك في مهلة من أجلك قبل أن لا تعمل لها............. ولا يوجد يا عيسى في نص الكليني.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): فامهد لنفسك في مهلة ونافس في العمل الصالح...... مع زيادة فامهد لنفسك في مهلة.

(٥) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): وادعهم وناجهم... هل تحس منهم من أحد، وخذ موعظتك منهم....

(٦) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٨): يا عيسى قل لمن تمرد علي=

عقوبتي، وينتظر إهلاكي إياه، سيصطلم مع الهالكين.

طوبى لك يا بن مريم ثم طوبى لك، إن أخذت بأدب إلهك، الذي يتحنن عليك ترحماً، وبدأك بالنعم منه تكرماً، وكان لك في الشدائد. لا تعصه يا عيسى، فإنه لا يحل لك عصيانه. قد عهدت إليك كما عهدت إلى من قبلك[1]، وأنا على ذلك من الشاهدين.[2]

يا عيسى أعطيتك ما أنعمت به عليك فيضاً من غير تكدير، وطلبت منك قرضاً لنفسك، فبخلت به عليها[3]، لتكون من الهالكين. يا عيسى تزين بالدين وحب المساكين، وامش على الأرض هوناً، وصل على البقاع، فكلها طاهر[4].

- بالعصيان وعمل بالأدهان.......

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٩): طوبى لك يا بن مريم ثم طوبى لك إن أنت أخذت بأدب إلهك، الذي يتحنن عليك ترحماً؛ وبداك بالنعم منه تكرماً، وكان لك في الشدائد لا تعصه. يا عيسى! فإنه لا يحل لك عصيانه. قد عهدت إليك كما قد عهدت إلى من كان قبلك.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٩): هناك زيادة كالآتي: يا عيسى ما أكرمت خليقة بمثل ديني، ولا أنعمت عليها بمثل رحمتي يا عيسى اغسل بالماء ما ظهر، وداو بالحسنات ما بطن، فإنك إلي راجع

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٩): فبخلت عليها.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٩): يا عيسى! تزين بالدين وحب المساكين، وصل على البقاع فكلها طاهر، وامش على الأرض هوناً

اعط ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه

ذهب عيسى إلى أورشليم قرب عيد المظلة. فلما علم الكتاب والفريسيون بذلك تشاوروا فيما بينهم كيف يحرجوه في الكلام. فانبرى له مطبب قائلاً: أيها المعلم ماذا يجب علي أن أفعل كي أنال الحياة الأبدية؟

أجاب عيسى: قل لي ماذا كتب في ناموس موسى؟

فقال المطبب أنه كتب في الكتاب: (أحب الله ربك وأحب جارك، ويجب أن تحب الله فوق كل شيء بكل قلبك وبكل عقلك، وتحب جارك كما تحب نفسك).

فأجاب عيسى: حسناً أجبت. فاذهب وافعل ذلك، وسوف تنال الحياة الأبدية.

فقال المطبب: ومن هو جاري؟

أجاب عيسى رافعاً عينيه: كان هناك رجل يسافر من أورشليم إلى أريحا. ففي الطريق قبض عليه قطاع الطرق، وضربوه ضرباً مبرحاً،

وجرحوه وجردوه من ملابسه، ومن ثم غادروا، وتركوه وهو في حال الاحتضار.

فاتفق أن مر عليه كاهن، فلما رأى الجريح مر من دون أن يسلم عليه. وعلى نفس المنوال، مر عليه رجل من سبط لاوي، فرآه على هذه الحال فلم يقل شيئاً.

فاتفق أن مر عليه سامري، فلما رآه على هذه الحال أشفق عليه ونزل من فوق الفرس، وأخذ الجريح وغسل جراحه بالنبيذ، ودهنها بالمرهم وضمدها، مواسياً له بالكلمات الطيبة، ثم أركبه على فرسه. وعندما وصل في المساء إلى الخان أعطاه إلى صاحب الخان كي يهتم به.

وحينما استيقظ في الصباح قال للمضيف: اهتم بهذا الرجل، وسأدفع لك كل ما تريد. ثم قدم للرجل المريض أربع قطع ذهبية، كي يدفعها للمضيف وقال له: تبسم وكن منبسط الأسارير، فسوف أوصلك إلى منزلي.

فقال عيسى: أخبرني من من هؤلاء كان جاراً؟

أجاب المطبب: ذاك الرجل الذي أظهر الرحمة.

فقال عيسى: حسناً أجبت، اذهب وافعل هكذا.

فغادر المطبب حيراناً مرتبكاً.

ثم اقترب إليه الكهنة وقالوا له: أيها المعلم هل يجوز أن ندفع الجزية إلى قيصر؟

فاستدار عيسى إلى يهوذا وقال له: هل عندك نقود؟ فاستلم منه سكة

وأخذها في يده، ثم استدار إلى الكهنة وقال لهم: هذه العملة عليها صورة. أخبروني صورة من هذه؟

فقالوا: صورة قيصر.

فقال عيسى: اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله!

فارتبك الكهنة وغادروا.

إيمان قائد روماني

فاقترب منه قائد روماني وقال: يا سيدي إن ولدي مريض، ارحم كبر سني!

أجاب عيسى: إن الله رب إسرائيل يتغمدك برحمته!

وكان الرجل على وشك المغادرة إذ قال له عيسى: انتظرني! فسوف آتي إلى دارك للدعاء من أجل ولدك.

فأجاب القائد: يا سيدي أنا لست جديراً بأن تأتي أنت ـ نبي الله ـ إلى داري. يكفيني ما نطقت به لشفاء ولدي، لأن ربك قد جعلك مهيمناً على كل مرض، كما أخبرني الملاك في حلمي.

فتعجب عيسى كثيراً. ثم استدار إلى الجمهور الحاشد حوله وقال: انظروا إلى هذا الغريب، إن إيمانه يفوق كل ما رأيته في إسرائيل. ثم استدار إلى القائد وقال: اذهب في سلام، لأن الله قد أعاد العافية إلى ولدك، لعظمة إيمانك الذي وهبك الله إياه.

فذهب القائد، وفي الطريق لقي خدامه الذين أعلنوا له شفاء ولده.

فسألهم القائد: في أي ساعة ذهبت عنه الحمى.

فقالوا: أمس في الساعة السادسة ذهبت عنه الحمى.

فعلم القائد أن ولده قد استعاد عافيته عندما قال عيسى: إن الله رب إسرائيل يتغمدك برحمته.

فاهتدى القائد وآمن بالله، وحينما دخل بيته حطم آلهته قطعاً قطعاً قائلاً: لا إله إلا الله رب إسرائيل الحي القيوم الصادق. ثم قال: لا يجوز لأحد أن يأكل من طعامي ما لم يعبد الله رب اسرائيل.

فضيحة النفاق والوثنية عند الكهنة

عزم رجل قانون عيسى للعشاء من أجل إغرائه. فجاء عيسى إلى منزله بمعية حوارييه. وكان في انتظاره هناك عدة من الكتاب، جاؤوا أيضاً لإغوائه. فجلس الحواريون على المائدة من دون أن يغسلوا أياديهم. فنادى الكتاب عيسى قائلين: لماذا لا يراعي الحواريون تقاليد كبارنا، بوجوب غسل اليدين قبل أكل الطعام؟

أجاب عيسى: أسألكم لماذا أبطلتم ناموس الله لرعاية تقاليدكم؟ لديكم آباء فقراء وأنتم أمرتم أولادهم ليقدموا النذور إلى المعبد. ولدى الأولاد القليل من المال الذي يقدمونه للمعبد، في حين أن آبائهم بأشد الحاجة إلى ذلك القليل من المال. وحينما يتمنى الآباء أن يأخذوا تلك النقود يصرخ الأولاد قائلين: هذا المال موقوف ومنذور لله، ويبقى الآباء يعانون من فقرهم وقلة حيلتهم.

يا كتاب الزور أيها المنافقون! هل الله يستعمل هذا المال؟ بالتأكيد لا! لأن الله لا يأكل، كما قال على لسان نبيه وعبده داود: هل أنا آكل لحوم الثيران وأشرب دماء الخرفان! قدموا لي قرابين الحمد والثناء ونذور الطهارة

من قلوبكم. أنا لا أجوع، وإذا جعت لا أسألكم شيئاً، لأن كل الأشياء بيدي وفي قبضتي. بيدي فيوض الجنان.

أيها المنافقون! إنما تعملون ذلك من أجل جيوبكم، وتؤمنون لأنفسكم موارد الندم والحسرة والمرارة. أيها الأشقياء! تدلون الناس على الصواب وأنتم لا تتبعون الصواب!

أنتم الكتاب والمطببون تضعون على كاهل الناس، ما لا يمكن تحمله من الأثقال، وما لا ترضونه لأنفسكم.

الحق أقول لكم: إن كل إثم دخل هذه الدنيا إنما دخل بذريعة أكابر القوم. أخبروني كيف دخلت الوثنية في هذه الدنيا، إن لم يكن بفعل أكابر القوم؟

اسمعوا مني: كان هناك ملك يحب أباه حباً جماً، وكان اسم أبيه بعل. وعندما مات الأب حزن الملك حزناً شديداً. ولمواساة نفسه نحت تمثالاً لأبيه ونصبه في سوق المدينة. وأصدر مرسوماً يقر بموجبه، أن كل من تواجد قرب تمثال أبيه على مسافة معينة، يكتب له الأمان، ولا يصيبه أي ضرر من أي أحد كان.

فاستغل الأشرار والجناة هذه الفرصة، وشرعوا في تقديم الورود والأزهار إلى التمثال. وفي مدة قصيرة تطورت العروض إلى تقديم المال والطعام، لدرجة أنهم سموا التمثال إلهاً لتكريمه وتشريفه. فتحولت هذه العادة المرعية أو العرف إلى قانون، ومن ثم انتشر صنم البعل إلى العالم كله.

وكم ذا يندب الله على الناس وينوح عليهم على لسان نبيه أشعياء في قوله: هؤلاء الناس يعبدونني عبثاً، لأنهم أبطلوا قانوني وناموسي الذي منحهم عبدي موسى، ويرعون تقاليد أكابر قومهم!

والحق أقول لكم: إن أكل الرغيف بيد غير نظيفة لا يلوثكم، لأن ما يدخل في الإنسان لا يلوثه، بل يلوثه الذي يخرج منه.

فقال أحد الكتاب: إذا أكلت لحم الخنزير أو أي لحم غير نظيف، ألا يلوث ذلك ضميري؟

أجاب عيسى: العصيان والعقوق وعدم الطاعة لا يدخل في الإنسان، بل يخرج من الإنسان ومن قلبه بالذات. وإذا كان قلبه ملوثاً أكل الحرام.

الشرك والوثنية
من أكبر المعاصي

وقال أحد المطببين: أيها المعلم أنت تهيننا، لأنك تتكلم ضد الوثنية، وكأن بني إسرائيل لديهم أوثان.

أجاب عيسى: أنا أعلم جيداً أنه لا توجد اليوم لدى بني إسرائيل تماثيل من خشب، ولكن توجد تماثيل من لحم.

أجاب الكتاب جميعهم بغضب: إذن هل نحن وثنيون؟

أجاب عيسى: الحق أقول لكم: لا يقول الناموس: يجب أن تعبد. ولكن يقول: **يجب أن تحب الله ربك بكل روحك وبكل قلبك وبكل عقلك**. أليس هذا صحيحا؟

أجاب الكل: هذا صحيح!

وعندها قال عيسى: **الشيء الوحيد الذي يجب أن نحب ونترك كل شيء من أجله هو الله**. إن الزاني صنمه العاهرة، وإن النهم السكران صنمه جسده الذي يعمل له ليل نهار، وإن الجشع صنمه الفضة والذهب! وعلى هذا المنوال، **فإن كل آثم له صنمه. فانظر ما هو صنمك!**

فسأل برنابا: أيها المعلم ما هو أعظم إثم؟

أجاب عيسى: ماذا يسبب انهدام البيت كله؟ وبقي كل الناس صامتين، حينما أشار عيسى بإصبعه إلى أساس البيت قائلاً: إذا انهدم الأساس سيتحول البيت فوراً إلى حطام، بحيث يكون من الضروري بناء البيت من جديد. ولكن إذا انهدم أي جزء من البيت، من الممكن إصلاح ذاك الجزء.

لذلك فالشرك والوثنية هي أكبر معصية، لأنها تفرغ الإنسان كلياً من الإيمان ومن الله، ومآلا من أي عاطفة روحية وجدانية. بيد أن أي معصية أخرى، تفسح المجال للإنسان بالأمل في الرحمة الإلهية.

ووقف الجميع مذهولين من كلام عيسى، لأنهم عرفوا أن كلامه لا يمكن الرد عليه.

فاستمر عيسى في حديثه قائلاً: سوف تنتبهون إلى فداحة هذا الإثم، إذا تذكرتم ما قاله الله، وما كتب موسى ويوشع في الناموس. قال الله مخاطباً بني إسرائيل:

لا تصنعوا لأنفسكم تمثالاً من الأشياء التي توجد في السماء، أو التي تحت السماء، أو التي فوق الأرض، أو التي تحت الأرض، أو التي فوق الماء، أو التي تحت الماء. لأني أنا الله ربكم غيور ومقتدر، أنتقم لهذا الإثم من الآباء ومن الأولاد حتى إلى الجيل الرابع.

تذكروا حين اتخذ بنو إسرائيل العجل إلهاً وعبدوه، أخذ يوشع وقبيلة لاوي السيوف بأمر من الله، وقتلوا ١٢٠,٠٠٠ من الذين لم يشتاقوا إلى رحمة الله. كم كان حكم الله مخيفاً ومرعباً على المشركين وعباد الأوثان!

سقوط إبليس بسبب غروره

ثم تكلم عيسى عن إبليس وسقوطه بسبب غروره فقال: الحق أقول لكم: إن إبليس صار فاسداً شريراً منبوذاً، لا لشيء إلا لمعصية الغرور. وكما قال أشعياء النبي وهو يعيره ويعنفه قائلاً: كيف سقطت من الجنان وكنت جمال الملائكة، وأشرقت بنورك كالفجر! ألا إن أنف غرورك قد تحطم وسقط على الأرض!

الحق أقول لكم: إذا فهم الإنسان تعاسته على الأرض، قضى عمره باكياً منتحباً، واعتبر نفسه حقيراً. ولهذا السبب قضى آدم وحواء مئة عام، بدون انقطاع، في النحيب والبكاء، يتوسلان من الله رحمته. لأنهما عرفا أين كانا وإلى أين هبطا بسبب غرورهما.

وفي ذلك اليوم بقي الناس مذهولين لعظمة ما قاله عيسى، بيد أن الكهنة والكتاب زاد حقدهم وكراهيتهم وعداوتهم لعيسى، لا لشيء إلا لأنه تكلم ضد تقاليد أكابر القوم وأعرافهم. وكفرعون مصر قست قلوبهم، وتحينوا الفرص لقتل عيسى، ولكنهم لم يجدوه.

غادر عيسى القدس وتجاوز الأردن إلى الصحراء. وتجمع الحواريون حوله وسألوه: أيها المعلم أخبرنا كيف سقط إبليس بسبب غروره. لأننا علمنا بأنه سقط بسبب العصيان والتمرد، ولأنه يغري الإنسان دائماً باقتراف السوء.

أجاب عيسى: لقد خلق الله كتلة من الأرض وتركها على حالتها لمدة ٢٥،٠٠٠ عاماً. وكان إبليس كاهناً ورئيساً للملائكة. وكان قد علم بسبب فهمه الحاد بأن الله قد خلق كتلة الأرض، وأنه قد أخذ الميثاق من ١٤٤،٠٠٠ نبي، ومن خاتمهم رسول الله الذي خلق روحه ٦٠،٠٠٠ عاماً قبل أي شيء آخر.

وكان إبليس ساخطاً حانقاً، فلهذا وسوس إلى الملائكة قائلاً: احذروا! إن الله سوف يقضي يوماً بأن نبجل هذه الأرض. واعلموا أننا أرواح ولا يليق بنا ذلك.

فتنصل جمع كثير من الملائكة عن طاعة الله. ولهذا قال الله يوماً للملائكة جميعهم حينما احتشدوا في حضرته: من كان منكم يقر بربوبيتي فليوقر هذه الأرض فوراً. فأذعن وانحنى من كان منهم يحب الله، بيد أن إبليس ومن كان على شاكلته قالوا: يا رب نحن أرواح وليس من العدالة أن نبجل الطين.

فمسخ الله إبليس إلى شكل مرعب مخيف وكذلك أتباعه. وأخذ الله منهم الجمال الذي وهبهم إياه عند خلقهم، بسبب هذا التمرد والعصيان. وحينما رفع الملائكة المقدسون رؤوسهم، ورأوا كيف مسخ الله إبليس وأتباعه، خفضوا وجوههم إلى الأرض خشية من الله.

فقال إبليس: يا رب ليس من العدالة أن تمسخني، بيد أنني قانع بذلك، لأنني أرغب في أن أبطل كل ما تفعله. وقالت الشياطين: يا إبليس لا تسمه رباً، لأنك أنت الرب.

فقال الله لأتباع إبليس: اندموا على فعلتكم هذه وأقروا بربوبيتي فأنا خالقكم.

فأجابوا: نحن نادمون على أننا كرمناك لأنك لست عادلاً، وأن إبليس هو العادل وهو البريء وهو ربنا.

فقال الله: إنكم من المرجومين وعليكم لعنتي إلى يوم الدين، لأني لن أرحمكم.

وعندما غادر إبليس، بصق على كتلة الأرض. فأزال جبرائيل ذلك البصاق، وأزال معه قسماً من الأرض. فلهذا تواجدت سرة في بطن الإنسان.

أهميـة الصلاة

وقف الحواريون مذهولين أمام تمرد الملائكة وعصيانهم.

فقال عيسى: الحق أقول لكم: من لا يصلي هو أخبث من الشيطان، وهو يتعرض لعذاب أليم. لأن الشيطان قبل سقوطه لم يكن يوجد له مثل أعلى لخشية الله يتأسى به، ولا بعث الله إليه نبياً كي يدعوه إلى الندم والتوبة، بيد أن الإنسان اليوم، على الرغم من أن لديه مثل العدل الإلهي العليا، التي لا تُعد ولا تُحصى، يعيش بلا مبالاة وبلا خوف، كأن الله لا يوجد. وذلك لأن أنبياء الله جميعهم قد بعثوا، إلا رسول الله خاتم الأنبياء، الذي سوف يأتي من بعدي بمقتضى المشيئة الربانية، وأتمنى أن أمهد طريقه.

هذا الإنسان تكلم عنه النبي داود قائلاً: هذا الأحمق يقول في قلبه: الله لا يوجد. مثل هؤلاء الناس ممقوتون بغيضون كريهون يقترفون الفساد ولا أحد منهم يفعل الخيرات.

أيها الحواريون صلوا بلا توقف حتى تنالوا فيض الله. لأن من طلب وجد، ومن قرع باباً فتح له، ومن سأل نال. وإذا صليتم لا تكثروا من الكلام، لأن الله ينظر إلى قلوبكم كما قال على لسان سليمان النبي: يا عبدي اعطني قلبك.

الحق أقول لكم: بحق الحي الذي لا يموت، إن المنافقين يتظاهرون بكثرة الصلاة في كل أرجاء المدينة، حتى يراهم الجمهور ويعتبروهم قديسين. بيد أن قلوبهم ملئت خبثاً، لذلك فإنهم لا يعنون ما يقولونه بلسانهم في صلاتهم. **من الضروري أن تعني ما تقوله في صلاتك، حتى تصل صلاتك إلى ربك.**

أخبروني من منكم يذهب إلى الحاكم الروماني أو إلى هيرود ليلقاه ويحدثه، ثم لا يهيئ نفسه لملاقاة من يذهب إليه، وللغرض الذي من أجله يذهب اليه؟ بالتأكيد لا أحد يفعل ذلك. وإذا كان هذا هو الحال لملاقاة بشر مثلك، فما بالك بالتحدث إلى الله، وطلب الرحمة منه والغفران لذنوبك، وشكره على كل النعم التي منحك إياها!

الحق أقول لكم: القليل منكم يقيم صلاة صادقة. أما الآخرون فإن الشيطان يهيمن عليهم. إن الله لا يحب من يكرمه بلسانه فقط، ولا يحب أولئك الذين يسألون رحمته في المعبد بلسانهم، في حين أن قلوبهم تظهر الاستهجان لله.

ولهذا قال الله لأشعياء النبي: أخرج هؤلاء الناس المملين المتعبين لي، الذين يكرمونني بلسانهم، في حين أن قلوبهم بعيدة عني.

الحق أقول لكم: إن الذين يصلون بدون حضور القلب يسخرون من الله.

قولوا لي من منكم يذهب إلى هيرود، ثم يدير ظهره له، ويتكلم أمامه عن حسنات الحاكم بيلات، الذي يكرهه هيرود كرهاً شديداً؟ طبعاً لا أحد. **ولكن ما أكثر الذين يذهبون إلى الصلاة، ولا يهيئون أنفسهم لها، ثم**

يديرون ظهورهم لله، ويقيمون وجوههم نحو الشيطان، ويتكلمون عنه خيراً! هؤلاء يهيمن حب الظلم على قلوبهم، ولا يظهرون ندمهم من ذلك.

اذا آذاك أحد ثم قال لك بلسانه: سامحني! في حين أنه يستمر في ضربك بيديه، هل من الممكن أن تسامحه؟ فكيف يمكن أن يتغمد الله برحمته أولئك الذين يقولون بألسنتهم: ربنا ارحمنا، ثم إنهم في قلوبهم يحبون الجور والظلم، ويفكرون في آثام جديدة!

فبكى الحواريون حينما سمعوا كلام عيسى، والتمسوا منه قائلين: أيها المعلم علمنا الصلاة.

أجاب عيسى: كيف تتصرفون إذا ألقى الحاكم الروماني القبض عليكم ليعدمكم؟ هكذا تصرفوا حينما تستعدون للصلاة. قولوا في صلاتكم ودعائكم:

اللهم يا ربنا العظيم تقدست أسماؤك! أدخلنا في ملكوتك. اجعل رضانا دائماً في مشيئتك. فكما تحكم مشيئتك في السماء فلتحكم على الأرض. ارزقنا الكفاف من العيش. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن ذنوب غيرنا. أبعد عنا الإغراءات والوساوس، ونجنا من كل سوء، لأنك أنت ربنا، وحدك لا شريك لك، ولك المجد ولك الحمد دائماً أبداً.

فقال جون: أيها المعلم دعنا نغسل أنفسنا كما أمر الله على لسان موسى.

أجاب عيسى: أتفكرون أنني جئت لتخريب الناموس وما قاله الأنبياء؟ الحق أقول لكم: بحق الحي الذي لا يموت، إنني ما جئت لتدمير قانون

الله بل للحفاظ عليه. لأن كل نبي قد راعى الناموس، وراعى ما قاله الله على لسان الأنبياء.

بحق الحي الذي لا يموت، والذي روحي بحضرته، لا يسر الله نقض كلمة من ناموس موسى، بل الذي يتصدى لمثل هذه المخالفة، يهبط مقامه في ملكوت الله. والحق أقول لكم: إن نقض حرف من قانون الله يلازمه ذنب عظيم. من الضروري مراعاة ما قاله الله على لسان اليسع: اغسل نفسك وكن نظيفاً، واصرف أفكارك عن عيوني.

الحق أقول لكم: كل مياه البحار لا يمكنها أن تغسل إنسانا طبع قلبه على الظلم. وأيضاً أقول لكم: لا تكون أي صلاة مرضية لله من دون وضوء، وستثقل روحه بذنب شبيه بالشرك.

صدقوني إذا كان الدعاء إلى الله كما يجب أن يكون، يحصل العبد على كل ما يريد. تذكروا عبد الله موسى، كيف نكل بمصر بدعائه، وكيف فتح طريقه في البحر الأحمر بدعائه، وكيف أغرق فرعون وجيشه بدعائه. وتذكروا يوشع كيف أوقف الشمس بدعائه. وتذكروا ساموبل كيف أرعب جيش الفلسطينيين الجرار وأدخل الخوف فيهم بدعائه. وتذكروا إلياس كيف جعل السماء تمطر ناراً بدعائه. وتذكروا اليسع كيف بعث الميت إلى الحياة بدعائه.

وأيضاً الكثير من أنبياء الله المقدسين، الذين حصلوا بدعائهم على ما أرادوا. بيد أن هؤلاء لم يلتمسوا شيئاً لأنفسهم، بل كان كل اهتمامهم منصباً على نصرة الله وحده.

سعادة الإنسان في الفردوس

ثم قال جون: أيها المعلم لقد أجدت وأحسنت في كلامك، بيد أننا لم نعلم بعد كيف أذنب الإنسان بغروره.

أجاب عيسى: بعد ما طرد الله إبليس، ونظف جبرائيل تلك الكتلة من الأرض، حيث بصق إبليس، خلق الله كل شيء حي، من الحيوانات التي تطير، ومن التي تمشي، ومن التي تسبح، وزين الدنيا كما هي الآن.

وبعد ما نفخ الله في الإنسان من روحه، وغنت الملائكة المقدسون جميعهم: إلهنا وربنا تقدست أسماؤك!

وقف آدم على قدميه، ورأى في الهواء كتابة تضيئ كالشمس مضمونها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفتح آدم فمه قائلاً: أحمدك يا إلهي إذ خلقتني، ولكن أدعوك أن تخبرني ما معنى محمد رسول الله؟ هل كان هناك ناس آخرون قبلي؟

قال الله تعالى: يا عبدي آدم! أرحب بك، وأخبرك بأنك أول إنسان خلقته، وذاك الذي رأيت اسمه مكتوباً، إنما هو ولدك الذي سوف يأتي إلى الدنيا بعد سنوات كثيرة، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل

شيء، الذي حينما يأتي سيهب العالم النور، والذي وضع روحه في جلال وبهاء سماوي ٦٠,٠٠٠ عاماً قبل أن أخلق أي شيء.

التمس آدم ربه قائلاً: يا رب ضع هذه الكتابة على أظافر أصابع يدي. فوهب الله الإنسان الأول على إبهاميه تلك الكتابة: على ظفر إبهام يده اليمنى كلمة (لا إله إلا الله) وعلى ظفر إبهام يده اليسرى كلمة (محمد رسول الله).

ثم لثم الإنسان الأول هذه الكلمات بعاطفة أبوية، وفرك عينيه وقال: مبارك ذلك اليوم الذي ستأتي فيه إلى هذا العالم.

وعندما رأى الله الإنسان وحيداً قال: لا يجوز ان يبقى آدم وحيداً. لذلك نومه وأخرج ضلعاً من ناحية قلبه، وملأ ذلك المكان باللحم. ومن ذلك الضلع خلق الله حواء، وأعطاها لآدم كي تكون له زوجة.

ثم نصب الله آدم وحواء رئيسين في الجنة وقال لهما: أنا أعطيكما كل فاكهة لتأكلوها إلا التفاح والذرة. فإياكما أن تأكلاهما، كي لا يخالطكما الدنس والرجس! فإن فعلتما فلن أسمح لكما أن تبقيا هنا، بل سأخرجكما من الجنة، وسوف تعانيان بؤساً وتعاسة وشقاء وضنكاً وفاقة وإملاقاً.

قصة
سقوط الإنسان

وحينما سمع إبليس ذلك استشاط غضباً، فاقترب من بوابة الجنة، وكان هناك ثعبان مخيف يحرس الباب، وكان له رجلان كرجلي الجمل، وأظافر قدميه حادة ذات حدين. فقال له: أجز لي أن أدخل الجنة.

فأجاب الثعبان: وكيف أسمح لك بالدخول، والله قد أمرني أن أخرجك منها؟

فأجاب إبليس: ما أهونك على الله، إذ جعلك خارج الجنة، كي تحرس قطعة من الطين وهو الإنسان! وإذا سمحت لي بأن أدخل الجنة، سأجعلك هائلاً مريعاً، بحيث يهرب منك الجميع، وستبقى في الجنة كما يروق لك.

فقال الثعبان: وكيف أحملك إلى داخل الجنة؟

قال إبليس: إنك عظيم حقاً. افتح فمك وسأدخل في جوفك، ثم تدخل أنت في الجنة، وتضعني قرب تلكين القطعتين من الطين، اللتين تواجدتا حديثاً في الجنة.

ففعل الثعبان ذلك، ووضع إبليس قرب حواء. لأن زوجها آدم كان نائماً. فعرض إبليس نفسه أمام المرأة كملك جميل، وقال لها: لماذا لا تأكلي التفاح والذرة؟

أجابت حواء: لقد قال الله لنا بأننا إذا أكلنا منهما، سنكونان دنسين، وسيخرجنا من الجنة.

فأجاب إبليس: إنه ليس صادقاً، واعلمي أن الله خبيث وحسود، ولا يطيق شريكاً، بل يجعل كل أحد عبداً له. وقد قال ذلك لكما، كي لا تصبحا شريكين له. ولكنك وزوجك إذا اتبعتما مشورتي، وأكلتما من تلك الفواكه، لن تكونا تابعين لأحد، بل ستكونان مثل الله، تميزان الخبيث من الطيب، وستفعلان ما يروق لكما، لأنكما ستكونان كفوأين لله.

فأكلت حواء من تلك الفواكه. وعندما أفاق زوجها من نومه أخبرته بكل ما قال لها إبليس. فقدمت له حواء الفاكهة، فأكل آدم منها. وعندما كان ينزل الطعام في حلقومه، تذكر كلام الله، وتمنى أن يوقف الطعام، فوضع يده في حلقومه، حيث ترك علامة في كل رجل.

فانتبها إلى عريهما، وشعرا بالخجل، فأخذا يخصفان عليهما من أوراق التين كي يسترا العورة. وبعد الزوال تجلى لهما الله ونادى آدم قائلاً: أين أنت يا آدم؟

أجاب آدم: يا رب أخفيت نفسي لئلا أظهر في حضرتك، لأني وزوجتي عريانان، ولهذا نستحي من الظهور أمامك.

فقال الله: ومن سلبكما البراءة، اللهم إلا أن يكون قد أكلتما من تلك

الفاكهة، وبسبب ذلك أصبحتما دنسين، ولا يمكنكما البقاء أكثر في الجنة؟

أجاب آدم: يا رب! إن الزوجة التي أعطيتني إياها طلبت مني أن آكل، ولذا أكلت منها.

فقال الله للمرأة: من أين أتيت بهذا الطعام وقدمته لزوجك؟

أجابت حواء: إن إبليس قد خدعني، وبسبب ذلك أكلت منها.

فقال الله: كيف دخل هذا الفاسد الشرير المنبوذ إلى الجنة؟

أجابت حواء: الثعبان الذي يقف على البوابة الشمالية حمله إلى هنا.

فقال الله لآدم: لأنك أنصت إلى نداء زوجتك وأطعتها وأكلت من الفاكهة، فاللعنة على عنصر الأرض في أعمالك وتوجهاتك! فهذا العنصر هو الذي سوف يسبب لك أشواك الصعوبات العظمى، وأشجاراً شائكة معقدة من كيد الشيطان، وستأكل خبزك من عرق جبينك. وتذكر أنك من الأرض وإلى الأرض مرجعك.

ثم تكلم الله إلى حواء قائلاً: وأنت أنصت إلى إبليس وأطعتيه، وأعطيت الطعام لزوجك. ستبقين تحت سطوة زوجك، والذي سوف يستعبدك، وسوف تلدين الأولاد تحت عناء المخاض.

ثم نادى الله ميكائيل حامل سيف الله وقال له: أخرج هذا الثعبان الشرير الخبيث من الجنة، وعندما يكون خارج الجنة ابتر أرجله، حتى إذا أراد المشي جرجر جسده على الأرض.

ثم نادى الله إبليس الذي أتاه ضاحكاً وقال له: لأنك شرير وفاسد ورجيم من رحمتي، وقد خدعت هؤلاء وجعلتهم دنسين، لذلك جرت

مشيئتي بأن كل رجس ودنس منهم ومن ذريتهم، والذي ينطلق من أجسادهم، سيدخل فمك حتى تشبع بالرجس. علماً بأنهم يجب عليهم أن يتوبوا من الرجس توبة نصوحاً، وأن يخدموني ويعبدوني.

فزمجر إبليس زمجرة هائلة وقال: لأنك تريد أن تجعلني في وضع أسوء، سأبذل قصارى جهدي لإغوائهم.

فقال له الله: اخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين!

فخرج إبليس. ثم خاطب الله آدم وحواء الذين كانا ينتحبان قائلاً: اخرجا من الجنة واندما وتوبا ولا تيأسا من روح الله. وإني سوف أبعث من ذريتك رسول الله، حتى يرفع هيمنة الشيطان وسلطانه عن الجنس البشري، لأن رسولي إذا جاء سأعطيه كل شيء.

فأصبح الله عن العيون مخفيا!

وأخرجهم ميكائيل من الجنة. وحينما استدار آدم حول نفسه، رأى على باب الجنة مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فانفجر باكياً وقال: يا ولدي عسى أن تخرج عاجلاً، وتخرجنا من الشقاء، ويكون في ذلك رضا الله!

قال عيسى: وهكذا اقترف إبليس وآدم ذنبهما بسبب آفة الغرور. أحدهما طغى لعداوته وكراهيته للإنسان، والآخر غوى لأنه تمنى أن يكون لله شريكاً!

فبكى الحواريون وعيسى من هذا الحديث.

الجنة تزهق لها أرواح الطيبين شوقا إليها

ومما قاله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام عن وصايا الله عز وجل لعيسىعليه السلام[١]:

قال: كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى ابن مريمعليه السلام أن قال له:

يا عيسى شمر، فكل ما هو آت قريب[٢]، واقرء كتابي وأنت طاهر، وأسمعني منك صوتاً حزيناً. يا عيسى لا خير في لذاذة لا تدوم، وعيش من[٣] صاحبه يزول.

يا بن مريم لو رأت عينك[٤] ما أعددت لأوليائي الصالحين، ذاب قلبك، وزهقت نفسك شوقاً إليه. فليس كدار الآخرة دار، تجاور فيها

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٩٩ ـ الأمالي: ٣١٢ ـ روضة الكافي: ١٤١.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٨٩): فكل آت قريب.......

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٠): وعيش عن صاحبه يزول.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٠): يا بن مريم! لو رأت عيناك...

الطيبون، ويدخل عليهم فيها الملائكة المقربون، وهم مما يأتي يوم القيامة من أهوالها آمنون. دار لا يتغير فيها النعيم، ولا يزول عن أهلها.

يا بن مريم نافس فيها مع المتنافسين، فإنها أمنية المتمنين، حسنة المنظر. طوبى لك يا بن مريم، إن كنت لها من العاملين، مع آبائك آدم وإبراهيم في جنات ونعيم، لا تبغي لها بدلاً ولا تحويلاً[١]، كذلك أفعل بالمتقين.

يا عيسى اهرب إلي مع من يهرب، من نار لهب، ونار ذات أغلال وأنكال، لا يدخلها روح، ولا يخرج منها غم أبداً، قطع كقطع الليل المظلم، من ينج منها يفز، ولن ينجو منها من كان من الهالكين. هي دار الجبارين والعتاة الظالمين، وكل فظٍّ غليظ، وكل مختال فخور.[٢]

يا عيسى بئست الدار لمن ركن إليها[٣]، وبئس القرار دار الظالمين. إني أحذرك نفسك فكن بي خبيراً.

---

(١) يا بن مريم! نافس فيها مع المتنافسين، فإنها أمنية المتقين، حسنة المنظر، طوبى لك يا ابن مريم، إن كنت لها من العاملين، مع آبائك آدم وإبراهيم في جنات ونعيم، لا تبغى بها بدلاً ولا تحويلاً، كذلك أفعل بالمتقين.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٠): يا عيسى! اهرب إلي مع من يهرب، من نار ذات لهب، ونار ذات أغلال وأنكال، لا يدخلها روح، ولا يخرج منها غم أبداً، قطع كقطع الليل المظلم، من ينج منها يفز، وليس ينجو من كان من الهالكين، وهي دار الجبارين والعتاة الظالمين، وكل فظ غليظ، وكل مختال فخور.

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩١): يا عيسى! بئست الدار لمن إليها...

يا عيسى كن حيثما كنت مراقباً لي، واشهد علي أني خلقتك وأنت عبدي، وأني صورتك وإلى الأرض أهبطتك.[(١)]

يا عيسى لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الأذهان.

يا عيسى لا تستيقظن عاصياً ولا تستنبهن لاهياً[(٢)]، وافطم نفسك عن الشهوات الموبقات. وكل شهوة تباعدك مني فاهجرها. واعلم أنك مني بمكان الرسول الأمين، فكن مني على حذر، واعلم أن دنياك مؤديتك إلي[(٣)]، وأني آخذك بعلمي. وكن ذليل النفس عند ذكري، خاشع القلب حين تذكرني، يقظاناً عند نوم الغافلين.

يا عيسى هذه نصيحتي إياك وموعظتي لك، فخذها مني فإني رب العالمين. يا عيسى إذا صبر عبدي في جنبي، كان ثواب عمله علي، وكنت عنده حين يدعوني، وكفى بي منتقماً ممن عصاني. أين يهرب مني الظالمون؟

يا عيسى أطب الكلام، وكن حيثما كنت عالماً متعلماً. يا عيسى أفض بالحسنات إلي، حتى يكون لك ذكرها عندي، وتمسك بوصيتي، فإن فيها شفاء للقلوب.

---

(١) وفي نصر الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩١): يا عيسى! كن حيثما كنت على إقبالي، واشهد على أني خلقتك وأنت عبدي وأني صورتك وإلى الأرض أعيدك.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩١): ولا تشبهن لاهيا...

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩١): واعلم أن دنياك موديتك...

موسى وإلياس
في حضور عيسى

ثم جاء ناس كثيرون كانوا يبحثون عن عيسى فوجدوه هناك. كان رؤساء الكهنة قد ارتأوا فيما بينهم أن يبعثوا ورائه اللاويين وبعضاً من الكتبة، لاستغفاله وإحراجه في الحديث معه فسألوه: من أنت؟

واعترف عيسى ونطق بالحقيقة قائلاً: أنا لست مسيحاً.

فسألوه: هل أنت إلياس أو إرميا أو أي من الأنبياء الأقدمين؟

فقال عيسى: كلا

فسألوه من أنت إذن؟ قل الحقيقة حتى نشهد عند رؤساء الكهنة.

عندها قال عيسى: أنا صوت يدوي في كل منطقة يهودا قائلاً: مهدوا الطريق لرسول الله، كما هو مكتوب في سفر أشعياء.

فقالوا: إذن أنت لست المسيح ولا إلياس ولا أحداً من الأنبياء، فكيف تعلم الناس عقيدة جديدة، وتعرف نفسك على أنك أكبر قدراً من المسيح؟

أجاب عيسى: المعجزات التي يحققها الله على يدي تثبت أن ما أقوله هو مطابق للمشيئة الربانية. ولست أعرف نفسي على أني أكبر قدراً من المسيح، لأني لا أستحق أن أفك شريط حذاء رسول الله، الذي تسمونه المسيح، والذي خلق قبلي، وسيأتي من بعدي بكلام هو الحقيقة عينها، وستبقى عقيدته خالدة.

ورجع اللاويون والكتاب وهم في حيرة وارتباك من أمرهم، وقصوا على رؤساء الكهنة ما قاله عيسى. فقالوا: إن على ظهره شيطاناً يحدثه بكل شيء.

ثم قال عيسى للحواريين: الحق أقول لكم إن رؤساء الكهنة وأكابر القوم يتحينون الفرص ضدي.

فقال بطرس: لهذا السبب لا تذهب إلى أورشليم مرة أخرى.

فقال له عيسى: أنت أحمق ولا تعرف ماذا تقول. من الضروري أن أعاني من الاضطهادات، لان الأنبياء والقديسين عانوا أيضاً. ولكن لا تخف! هناك من هو معنا، وهناك من هو ضدنا.

وعندها غادر عيسى إلى جبل تابور، وصعد الجبل بمعية بطرس وجيمس وأخيه جون وبرنابا. وهناك أضاء فوق رأسه نور عظيم، وتحول لون ملابسه إلى أبيض ناصع كالثلج، وتلألأ وجهه نوراً كالشمس.

وحضر هناك موسى وإلياس، وشرعا في الحديث مع عيسى، بشأن ما سوف يجري على الجنس البشري وعلى المدينة المقدسة!

وهنا تحدث بطرس قائلاً: أيها المعلم ما أروع أن نكون هنا! لو أردت

لصنعنا لكم ثلاثة خيم: واحدة لك والثانية لموسى والثالثة لإلياس. وفي هذا الأثناء غشيهم غيمة بيضاء، وسمعوا صوتاً يقول لهم: انظروا إلى عبدي الذي أنا عنه راض، واسمعوا وأنصتوا لما يقول.

فانتاب الحواريين خوف عظيم، وخروا سجداً كالموتى. وانحنى عيسى نحو حوارييه ورفعهم قائلاً: لا تخافوا فإن الله يحبكم، وقد فعل هذا كي تصدقوا كلامي.

نزل عيسى إلى الحواريين الثمانية الذين كانوا ينتظرونه في سفح الجبل. وأخبر الحواريون الأربعة أقرانهم بكل ما رأوه وعاينوه. فرفع في ذلك اليوم الشك في عيسى عن قلوب الحواريين، إلا يهوذا الاستخريوطي الذي لم يكن مؤمناً من البداية.

محمد
هو المسيح

جلس عيسى وحواريوه عند سفح الجبل، وأكلوا من الفواكه البرية لعدم وجود الرغيف.

وهنا تكلم أندرو قائلاً: لقد أنبأتنا الشيء الكثير عن المسيح. لذلك تفضل علينا وأخبرنا كل شيء بوضوح. كذلك التمسوه باقي الحواريين.

فقال عيسى: كل واحد منا يعمل للهدف الذي يجد فيه رضى ذاته، وهذا بالطبع غير موجود عند الله، لأن الله لا يحتاج شيئاً لسد حاجاته، لأنه كامل بحق ويملك عين مرضاته[1]. ولأن مشيئته عين مرضاته، فلذلك فقد خلق روح رسوله قبل كل شيء، لأنه عزم على أن يخلق له الكل، كي تحظى مخلوقاته بالسعادة والبركة والنعمة في الله. ومن هذا المعين ينبثق

---

(١) رضا الله جزء من ذاته، كما أن مشيئة الله جزء من ذاته. فإذا تخلق الإنسان بخلق الله(حسب أمر النبي محمدﷺ: تخلقوا بأخلاق الله) وأصبح راضياً مرضياً، كان رضاه رضا الله، وكان رضاه صفة مكتسبة أضيفت إلى ذاته، كما أنه إذا أصبح تسليماً مطلقاً لمشيئة الله بحيث صارت مشيئته مشيئة الله، فتلك صفة مكتسبة أضيفت إلى ذاته.

ابتهاج رسول الله في جميع مخلوقات الله، التي سخرها الله جميعاً لأجله، وجعل جميعها عبيده. وما كان ذلك إلا لأنه سبحانه كذلك جرت مشيئته.

الحق أقول لكم: إن كل نبي بعث، إنما وضع نصب عينيه دمغة الرحمة الإلهية لقوم واحد فقط. ولذلك كان خطابه موجهاً إلى القوم الذي بعث اليه. إلا أن رسول الله الذي سوف يأتي، سيعطيه الله خاتم يده، بحيث يحمل الخلاص والفلاح والنجاة والرحمة إلى جميع شعوب العالم، التي تتلقى عقيدته وتقبله.

سوف يتغلب بقوة على ما هو غير إلهي، وسوف يدمر أساس الشرك، بحيث أن الشيطان يغدو حائراً مرتبكاً مبلبلاً مخزياً.

كذلك وعد الله إبراهيم قائلاً: إني سأبارك كل شعوب العالم برجل من ذريتك. وكما أنك يا إبراهيم قد حطمت الأصنام قطعاً قطعاً، كذلك هو سوف يصنع نفس الشيء.

فقال جيمس: أيها المعلم أخبرنا في من سوف يتحقق وعد الله؟ لأن اليهود يقولون سيتحقق في إسحاق، في حين أن الإسماعيليين يقولون سيتحقق في إسماعيل.

أجاب عيسى: قل لي من نسل من كان داود؟

أجاب جيمس: من نسل إسحاق لأن إسحاق كان أبا يعقوب، وكان يعقوب أبا يهودا، ومن نسل يهودا كان داود.

فقال عيسى: وإذا جاء رسول الله فمن نسل من سيكون؟

أجاب الحواريون: من نسل داود.

عند ذلك قال عيسى: أنتم تخدعون أنفسكم، لأن داود يسميه في عالم الأرواح رباً وسيداً. وقد قال داود: إن الله قال لربي: اجلس على يميني حتى أجعل أعدائك موطئ قدمك. إن الله سينشر سلطتك وصولجانك ليكون لها السيادة على أعدائك.

وإذا كان رسول الله الذي تسمونه المسيح هو ابن داود فكيف يسميه داود ربا؟ صدقوني الحق أقول لكم: إن وعد الله كان في إسماعيل وليس في إسحاق.

عندئذ قال الحواريون: أيها المعلم إنه مكتوب في كتاب موسى أن الوعد كان في إسحاق.

أجاب عيسى بأنةٍ وتأوه: كذلك هو مكتوب. بيد أن موسى لم يكتبه ولا كتبه يوشع، وإنما كتبوه أحبارنا الذين لا يخافون الله. الحق أقول لكم: إذا اعتبرتم قول جبرائيل، ستكتشفون بأنفسكم خبث الكتاب والمطببين. لأن جبرائيل قال: يا إبراهيم كل العالم سيعلم مدى حب الله لك، ولكن كيف سيعلم العالم مدى حبك أنت لله؟ بالتأكيد من الضروري أن تعمل شيئاً من أجل حب الله.

فأجاب إبراهيم: هو ذا عبدك يا رب مستعد لفعل أي شيء يريده الله.

فتكلم الله إلى إبراهيم: خذ ولدك الأول اسماعيل، وتعال إلى أعلى الجبل للتضحية به. كيف يكون إسحاق الولد الأول في حين أنه كان عمر إسماعيل ٧ سنوات حينما ولد إسحاق؟

فقال الحواريون: إن خديعة المطببين واضحة. لهذا أخبرنا أنت الحقيقة لأننا نعلم أنك مرسل من قبل الله.

هنالك قال عيسى: الحق أقول لكم إن الشيطان ينشد إبطال قوانين الله. لهذا هو بمعية أتباعه المنافقين والأشرار ـ المنافقين لعقيدتهم الكاذبة والأشرار لفجورهم وفسادهم ـ قد أفسدوا اليوم كل شيء تقريباً، بحيث لا تكاد الحقيقة أن تبين. **اللعنة على المنافقين! لأن مديح الناس لهم سيتحول إلى الإهانات والعذاب في نار جهنم.**

لذا أقول لكم إن رسول الله هو جلال الله الذي سوف يضيف بهاء ومجداً وفرحاً وسروراً إلى كل ما صنعه الله تقريباً. لأنه مزين بروح الفهم والنصيحة، وبروح الحكمة والاقتدار، وبروح الخوف والمحبة، وبروح الفطنة والحصافة والبصيرة، وبروح العفة وضبط النفس، وبروح الرحمة والإحسان، وبروح العدالة والتقوى، وبروح اللطف والصبر ـ المثل العليا التي نالها من الله بثلاثة أضعاف ما أعطاه الله لكل مخلوقاته.

مبارك ذلك الزمان الذي سيأتي فيه إلى هذا العالم! صدقوني لقد رأيته[١] وبجلته وكرمته، كما أن الأنبياء جميعهم قد رأوه، وبهذه الرؤية الروحانية يهبهم الله النبوة. وعندما رأيته امتلأ روحي راحة وسلواناً وقلت له: يا محمد الله معك، ويا ليتني جعلني الله مستحقاً لفك شريط حذائك، لأني بذلك سأكون نبياً عظيماً مقدساً من قبل الله!

وعندها قدم المسيح حمده وشكره إلى الله.

---

(١) وأنا أيضاً رأيته وهو يحدق في وجهي قائلاً من دون كلام: أما تحب أن تقذف بنفسك في حوض الأئمة؟ وكان الحوض ورائه. فانتهزتها فرصة، وما أعظمها من فرصة! وما أروعها من فرصة! إذ إنني قذفت بنفسي فوراً في الحوض، وشربت مائه بنهم شديد، أبتلعه ابتلاعاً. وكأنني أنتظر هذه الفرصة على جمر من نار العشق!

تعنيف المنافق

ثم جاء جبراتيل إلى عيسى وكلمه بحيث سمع الحواريون صوته قائلاً: قم واذهب إلى أورشليم!

فذهب عيسى إلى أورشليم، ودخل المعبد في يوم السبت، وبدأ يعلم الناس. عند ذلك هرع الناس إلى المعبد، ومعهم الكهنة ورئيسهم، والذين اقتربوا منه قائلين: أيها المعلم لقد قيل لنا بأنك تذمنا، فاحذر أن لا يصيبك محذور.

فأجاب عيسى: الحق أقول لكم: إني أذم المنافقين. لذلك فإن كنتم منافقين فأنا أذمكم.

فقالوا: أوضح لنا من هو المنافق؟

فقال عيسى: الحق أقول لكم: إن المنافق هو الذي يعمل خيراً، كي يراه الناس، وهو الذي يخدم الله بلسانه ويخدم الناس بقلبه.

أيها الإنسان الشقي! الذي يخسر عند الموت كل مكافآته.

وقد قال داود: لا تعول على الأمراء ولا على الناس وأولادهم، لأن

لا خلاص ولا فلاح لك في إرضائهم، لأنك ستخسر تقديرهم عند موتهم.

بل إنك ستخسر تقدير الناس حتى في حياتك، لأن الإنسان غير ثابت، كما قال نبي الله أيوب، بحيث إنه إذا مدحك اليوم فسوف يشتمك غداً، وإذا أراد مكافأتك اليوم، سيكون غداً مسروراً بنهبك وسلبك.

الويل للمنافقين ما أكبر خسارتهم، لأن مكافأتهم التي ينشدونها سراب في سراب وعبث وسدى وباطل!

بحق الحي الذي لا يموت والذي روحي في حضوره، المنافق كاللص ينتهك الحرمات باستخدامه الناموس لإبراز صلاحه، ويسرق مجد الله الذي له وحده الحمد والمجد دائماً أبداً.

وإضافة إلى ذلك، أقول لكم إن المنافق لا إيمان له، لأنه إذا آمن بأن الله يرى كل شيء، وأنه سيعاقب الخبث بدينونته وحكمه الرهيب، لطهر قلبه من الشر. ولأنه لا إيمان له، يبقى قلبه ملوثاً بالظلم.

الحق أقول لكم: إن المنافق كالقبر ظاهره أبيض، وباطنه الديدان والتعفن.

لا تحكم
حتى لا يحكم عليك

في يوم السبت دخل عيسى الكنيس، وهرع الناس جميعا كي يستمعوا اليه. قرأ الكاتب في ذلك اليوم من مزامير داود قوله: سأحكم بالعدل في حينه. بعدئذ تكلم عيسى قائلاً:

يا إخواني لقد استمعتم إلى كلمات أبينا النبي داود، بأنه سيحكم بالعدل في حينه. أقول لكم بصدق، هناك ناس كثيرون يحكمون ويقضون، ثم يسقطون في حكمهم وقضائهم، لا لسبب إلا لأنهم يحكمون بما لا يعنيهم، وإذا كان يعنيهم لا يقضون في حينه. ومن ثم صرخ علينا رب آبائنا على لسان نبيه داود قائلاً: احكموا بالعدل يا أولاد الرجال!

الأشقياء هم الذين يقفون على زاوية الطريق، ولا عمل لهم إلا الحكم على الناس، الذين يمرون بهم قائلين: هذا جميل وذاك قبيح، وهذا طيب وذاك شرير. اللعنة عليهم! لأنهم ينزعون صولجان قضاوة الله من يد الله، الذي قال: أنا الشاهد وأنا القاضي، وهذا شرفي لا أعطيه لأحد!

الحق أقول لكم: إنهم يشهدون بما لم يروه ولم يسمعوه، ويحكمون

من دون أن يكونوا قضاة معينين منصوبين. لذا فهم ممقوتون على الأرض في عين الله، الذي سيصدر عليهم حكما رهيبا في يوم القيامة.

اللعنة عليك اللعنة عليك! أنت الذي تتكلم عن الشرير خيرا، وعن الصالح شرا. لأنك تدين الله الذي هو أصل كل خير بأنه شرير، وتزكي الشيطان الذي هو منبع كل شر بأنه طيب. تأمل وفكر في العقوبة التي تنتظرك، كم هو مريع ومرعب وشنيع أن تسقط في حكم الله، الذي يقع على من يزكي الخبيث من أجل ماله، ولا يحكم لصالح اليتامى والأرامل!

الحق أقول لكم: إن الشياطين ترتعد فرائصهم من مثل هذا الحكم الرباني، وكم هو هائل ومرعب ومخيف وفظيع ومريع! أيها القاضي لا تعتبر أي شيء في حكمك وقضاوتك: لا القريب ولا الصديق، ولا الشرف ولا الربح، ولكن اجعل خوف الله والخشية منه نصب عينك، وانظر إلى الحق والصواب فقط لا غير، والذي يجب أن تنشده بإخلاص، في جد واجتهاد وكد ونشاط، لأن في هذا أمانك من حكم الله يوم لا أمان إلا أمانه. ولكن حذار حذار! من حكم بدون رحمة حكم عليه بدون رحمة.

أخبرني أيها الإنسان الذي تحكم على إنسان آخر، أما تعرف أن أصل الناس جميعهم من نفس التراب؟ أما تعرف أن لا طيب إلا الله وحده؟ لذلك فإن كل إنسان آثم كذاب. صدقني إذا كنت تحكم على الآخرين لعيب يوجد فيهم، فقلبك أحرى أن تحكم عليه[1].

---

(١) أتحسب أنك الميزان الكامل والمحور الذي يدور حوله هذا العالم، وأنك صاحب الاستقامة والكمال، مهما بلغت من علمك، ومن ثروتك ومالك، ومن جاهك=

ما أخطر الحكم والقضاء! كم من الناس هلكوا لحكمهم الكاذب! الشيطان حكم على الإنسان بأنه أرذل منه. لأجل ذلك تمرد ضد الله خالقه، ولم يتب ولم يندم، كما علمت من حديثي معه. آباؤنا الأوائل حكموا على كلام الشيطان بالصدق، ولذلك طردوا من الجنة، وتسببوا في إدانة ذريتهم جميعاً.

الحق أقول لكم: بحق الحي القيوم الذي روحي بحضوره، الحكم الكاذب أبو الآثام جميعها[١]. لأن لا أحد يأثم من دون إرادة، ولا يريد

= ومقامك؟ هيهات هيهات! لا يوجد إنسان على هذه البسيطة إلا وهو آثم بينه وبين الله على الأقل! وكم في قلبك من عيوب وفي رأسك من شرور وفي نفسك من ذنوب! أليس الأجدر بك أيها الإنسان أن لا تحكم على غيرك، وأن تدين نفسك فقط، في حزن دائم وبكاء مرير، على هذا القلب المحجوب وعلى هذا النفس المعيوب وعلى هذا الهوى الغالب! أما سمعت إمامك علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره. طوبى لمن لزم بيته وبكى على خطيئته! ما هي إلا أيام معدودة ثم تحاسب. فلماذا لا تحاسب نفسك الآن قبل أن تحاسب؟ ما أجهل الإنسان! إن كان له علم يغتر بعلمه، وإن كان له مال يغتر بماله، وإن كان له أولاد يغتر بأولاده، وإن كان له جاه ومقام يغتر بجاهه ومقامه! ماذا ينفعه هذا الغرور وأيامه في هذه الدنيا قليلة، وأمامه حساب عسير وعذاب أليم! أليس الأجدر به أن ينصب اهتمامه الآن على قلبه المحجوب ونفسه المعطوب، ويبقى في هذه الأيام القليلة الباقية من عمره، يسأل الله الهداية والمغفرة والفلاح والخلاص، من صميم قلبه، فلعل الله ينظر إليه بعين العطف والرفق ويعتقه من نار جهنم!

(١) لماذا الحكم الكاذب أبو الآثام جميعها؟ فانظر كيف يأثم المرء، ومن أين ينطلق في ارتكاب الذنوب واقتراف الجرائم. من المسلم أن الله هو العالم وأن الإنسان لا يعلم شيئاً، اللهم إلا إذا حكم لنفسه بشيء كاذب، وظن أنه الصواب. وعلى هذه المعرفة الكاذبة تنبني بقية أحداث القصة. فيبادر الإنسان إلى إرادة ذلك الشيء الذي يظن أنه=

أحد شيئاً من دون أن يعرفه، اللهم إلا إذا حكم لنفسه بشيء كاذب. وما أكثر الحكم الكاذب!

لهذا اللعنة على الآثم الذي، بحكمه وقضاوته، يزكي الإثم على أنه وجيه، ويدين الصلاح على أنه غير وجيه! وعلى هذا الأساس ينبذ الصلاح ويختار الإثم. بالتأكيد هذا الآثم سيتحمل عقاباً لا يطاق، في يوم يزن الله فيه العالم بميزان عدله وقسطه.

ما أكثر من هلكوا بسبب الأحكام الكاذبة؛ وما أكثر من قاربوا الهلاك! فرعون حكم على موسى وعلى بني إسرائيل بالعقوق. جالوت حكم على داود بأنه يستحق الموت. أخآب (زوج ايزابل) حكم على إلياس. نبوخدنصر حكم على الأطفال الثلاثة الذين لم يعبدوا الآلهة الكاذبة. سوزانا (بطلة قصة دانيال) حكم عليها من قبل اثنين من أكابر القوم. وكل الأمراء عباد الأوثان حكموا على الأنبياء ظلماً وجوراً وعدواناً.

ما أعظم حكم الله! يهلك قاض وينجو آخر. وهل يكون ذلك إلا بسبب التهور في إصدار الأحكام الكاذبة على الأبرياء!

وكم من الطيبين قاربوا الهلاك لقضاوتهم الكاذبة! انظر إلى إخوان

= الصواب، ثم يتصرف على هذا المبنى. وما بني على خطأ وباطل فهو خطأ وباطل، وهذا هو الإثم بعينه. حتى تعليمات الأنبياء يفهمها الإنسان بفهم خاطئ، ثم يتصرف حسب هذا الفهم الخاطئ، وهل ينتج الفهم الخاطئ إلا الآثام والذنوب والمعاصي! وما أكثر من الأمم التي هلكت، على الرغم من أنها انطلقت من تعليمات الأنبياء، ولكن بفهم خاطئ! فلذلك يقول الإمام زين العابدين‌عليه‌السلام: هلك من لم يكن له حكيم يرشده. أو كما يقول الله جل وعلا: ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

يوسف الذين باعوه للمصريين، وإلى هارون ومريم أخت موسى الذين حكما على أخيهما. وانظر إلى أصدقاء أيوب الثلاثة الذين حكموا على البريء أيوب خليل الرحمن. وانظر إلى داود الذي حكم على مفيبوشث وعلى اوريا (زوج باتشيبا). وانظر إلى سيروس الذي حكم على دانيال كي يكون طعاماً للأسود، وإلى الكثيرين غيرهم الذين قاربوا الهلاك بسبب زلاتهم(١).

ولهذا أقول لكم: **لا تحكموا حتى لا يحكم عليكم.**

وعندما انتهى عيسى من كلامه، ندم ناس كثيرون على ذنوبهم ومعاصيهم، وبدأوا يندبون على خطاياهم. وكانوا مشتاقين لترك كل شيء من أجل مصاحبته، لولا أن عيسى قال لهم: **ابقوا في منازلكم، واتركوا الذنوب والمعاصي، واخدموا الله في خوف وخشية، وكذلك تنجون. لأني لم أبعث كي أخدم بل بالأحرى كي أخدم.**

ثم ترك الكنيس والمدينة، وذهب إلى الصحراء، كي يتفرغ للصلاة ومناجاة ربه، **لأنه كان يحب العزلة والخلوة والوحدة كثيراً.**

---

(١) كل هؤلاء من الصالحين الطيبين، ولولا رحمة ربي لهلكوا. وكم من الصالحين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، ولكن كانت تظللهم غمامة رحمة الله، ففوراً ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على ما فعلوا. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. إنهم العاملون حقاً، ولكن يا ترى ما هو عملهم الصالح الذي أنقذهم من الهلاك، إلا ذكر الله والاستغفار وعدم الإصرار على ما فعلوا! وكلها أشياء باطنية يراها الله ولا يراها الناس المحجوبون عن نور الله. وما أقل من يرى بنورالله!

.

استحالة التوبة على الشيطان

بعد الصلاة ومناجاته ربه اجتمع الحواريون حوله وقالوا: أيها المعلم نريد أن نعرف شيئين:

أولاً: أخبرنا كيف تكلمت مع الشيطان الذي تقول عنه أنه غير نادم.

وثانياً: أخبرنا كيف سيحكم الله في يوم المعاد.

فأجاب عيسى: الحق أقول لكم: كنت أشفق على الشيطان لسقوطه وهلاكه، وكنت أحنو على الإنسان الذي أغواه الشيطان. لهذا صمت النهار وقمت الليل وناجيت ربي، فتكلم إلي ربي بلسان جبرائيل سائلاً: ماذا تريد يا عيسى وما هو طلبك؟

أجبت: ربي إنك تعلم ما هو الشر الذي سببه الشيطان، وكيف أن الكثيرين يهلكون بسبب إغواءاته. إنه يا رب مخلوقك الذي خلقته، لذلك ارحمه يا رب.

فأجاب الله: يا عيسى إني سأعفو عنه! فقط دعه يقول: ربي الله لقد آثمت فارحمني! وسأعفو عنه وأرده إلى سابق مقامه.

قال عيسى: ففرحت كثيراً حينما سمعت ذلك، وكنت أعتقد أنني توصلت إلى صيغة الصلح. لهذا ناديت الشيطان فجاء إلي قائلاً: ماذا تريدني أن أفعل لك يا عيسى؟

فأجبته: أيها الشيطان افعله لنفسك، لأني لا أحب خدماتك، ولكني ناديتك كي تعمل شيئاً لصالحك.

أجاب الشيطان: إذا أنت لا ترغب في خدماتي، فأنا بالأحرى لا أرغب في خدماتك، لأني أنبل منك، لذلك فأنت غير جدير بأن تخدمني، لأنك من الطين وأنا من النار.

فقلت له: دعك من هذا، وأخبرني أليس الأولى لك أن ترجع إلى جمالك الأول وإلى مقامك الأول. إنك تعلم أن ميكائيل في يوم القيامة سوف يضربك بسيف الله ١٠٠،٠٠٠ ضربة، وأن كل ضربة سوف تذيقك عذاب الجحيم عشرة أضعاف.

فأجاب الشيطان: سنرى في ذلك اليوم من الغالب. سيكون على جانبي ملائكة كثيرون، وجل الوثنيين المقتدرين، الذين سيزعجون الله ويضايقونه. وسيعلم الله فداحة خطئه، إذ طردني من أجل قطعة من الطين سافلة دنيئة.

فقلت له: أيها الشيطان إنك ضعيف العقل، ولا تعلم ماذا تقول.

فقال الشيطان في سخرية مبصبصاً برأسه: تعال فاعمل الصلح بيني وبين الله. إنك سليم العقل يا عيسى. فقل لي ماذا يجب أن أعمل؟

فأجبت: النطق بكلمتين فقط.

فأجاب الشيطان: أي الكلمتين؟

فأجبت: أن تقول: لقد أثمت فارحمني.

فقال الشيطان: سأصالح الله عن طيب خاطر، إذا قال الله لي هاتين الكلمتين.

فقلت له: اغرب بوجهك عني أيها اللعين، لأنك أصل الخبث والظلم والآثام جميعها، وإن الله عادل ومنزه عن الذنوب.

فانصرف الشيطان عني وهو يزعق ويصرخ: إنه ليس كذلك يا عيسى، ولكنك تكذب كي ترضي الله.

والآن قولوا لي أيها الحواريون: كيف سيجد الشيطان الرحمة!

فأجابوا: مستحيل يا سيدنا، لأنه غير نادم بتاتاً.

حكم الله
في يوم القيامة

ثم قال الحواريون: حدثنا الآن عن يوم القيامة أيها المعلم.

فقال عيسى: الحق أقول لكم: إن يوم القيامة سيكون رهيباً، بحيث أن الأشرار سيختارون عشرة أضعاف الجحيم، على أن يسمعوا كلام الله ينصب عليهم غضباً، وأن يروا كل مخلوقات الله يشهدون ضدهم.

الحق أقول لكم: ليس الأشرار وحدهم هم الذين سوف يخافون في ذلك اليوم، ولكن أيضاً القديسون والمصطفون من قبل الله. حتى أن إبراهيم سوف لا يثق في صلاحه، ولا أيوب يثق في براءته. ناهيك عن نفسي! حتى رسول الله سوف يخاف، لأن الله سوف يظهر في ذلك اليوم جلاله وعظمته ومهابته، بحيث يحرم رسول الله من الذاكرة، حتى أنه سوف لا يتذكر كيف أن الله قد أعطاه كل شيء.

الحق أقول لكم: إن قلبي يرتعش لأن أهل الدنيا سوف يسمونني الله، وأنا سوف أتعرض للمسائلة بسبب ذلك. بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، أنا بشر كسائر البشر فان غير خالد. انا عبد الله بعثني الله نبياً

إلى بني إسرائيل، لشفاء الواهنين وإصلاح الآثمين. وأنتم تشهدون لي كيف أتكلم ضد الأشرار، الذين سوف يحرفون رسالتي، ويدنسون كتابي بعد ممأتي بوسوسة من الشيطان الرجيم.

ولكنني سوف أرجع حين يقارب العالم النهاية، وسوف يأتي معي أخنوخ وإلياس، وسوف نشهد ضد الأشرار، الذين سيكون عاقبتهم شراً.

عندئذ أذرف عيسى الدموع، بيد أن الحواريين استرسلوا في البكاء بصوتٍ عال، ورفعوا أصواتهم قائلين: اللهم ارحم عبدك البريء.

وقال عيسى: آمين آمين!

ثم قال عيسى: الحق أقول لكم: في ذلك اليوم الرهيب، لا تمر ثرثرة ولا كلام فارغ، ولا لغو ولا خنى، ولا فكر تافه عقيم، من دون عقاب.

الحق أقول لكم: في ذلك اليوم الرهيب سوف تشرق المسوح والأقمشة الخشنة مثل الشموس، وأي قملة حملها الرجل في حب الله سوف تتحول إلى لؤلؤة.

في ذلك اليوم الرهيب تتراكم غبطة الفقراء وسعادتهم ثلاثة أضعاف بل أربعة أضعاف، الذين خدموا الله من صميم قلوبهم في فقر صادق، لأنهم في هذه الدنيا عاشوا مجردين من الاهتمامات الدنيوية، ومن حرص الدنيا وهمومها وغمومها، ولهذا تحرروا من آثام كثيرة ، ولا يكون لزاماً عليهم أن يقدموا الحساب فيما صرفوه من ثرواتهم، بل على العكس سوف يجازون على صبرهم وفقرهم.

الحق أقول لكم: لو أن أهل الدنيا عرفوا ذلك، لرجحوا القماش

الخشن على النسيج الأرجواني، ولاختاروا القمل على الذهب، والصوم على الولائم والمآدب.

وبعد الحساب يقول الله لرسوله: يا خليلي انظر إلى عظم خبثهم ولؤمهم! فإنني أنا خالقهم، سخرت كل شيء في خدمتهم، بيد أنهم في كل شيء أهانوني وهتكوا حرمتي. لذا من كمال العدل أن لا أرحمهم. فيجيب رسول الله: يا ربي ويا إلهي الجليل إنك صادق فيما تقول. لا أحد من أخلائك وعبيدك يطلبون منك أن ترحمهم وترفق بهم. وأنا عبدك، قبل كل أحد، أطلب منك أن تعاملهم بالعدل.

ثم قام جميع الملائكة وجميع الأنبياء وجميع الأولياء والقديسين، وصرخوا بشهادتهم ضد عديمي التقوى، وطلبوا أن يطبق عليهم العدل، وكذلك فعلت العناكيب والذباب والحجارة والتراب وغيرها.

فبكى الحواريون بكل مرارة، وكذلك عيسى بكى وأذرف الدموع بغزارة.

ثم سأل جون: أيها المعلم نريد أن نعرف شيئين. أولاً: هل من الممكن أن رسول الله، رسول الرحمة والشفقة، سوف لا يشفق على الأشرار الفاسدين في يوم القيامة، نظرا إلى أنهم من نفس الطين الذي هو منه؟

وثانياً: كيف نفهم أن كل ضربة من سيف ميكائيل ستذيق الشيطان عذاب الجحيم عشرة أضعاف. فهل توجد أكثر من جهنم واحد؟

أجاب عيسى: ألم تسمعوا ما قاله النبي داود، كيف أن العادل سوف

يضحك على المذنبين الهالكين ويستهزء بهم قائلاً: لقد رأيت الرجل الذي عول على قوته وعلى ثروته ونسي الله.

الحق أقول لكم: إن إبراهيم سوف يسخر من أبيه، وآدم سوف يستهزء بجميع الأشرار الفاسدين. وهذا سوف يتحقق، لأن أولياء الله والقديسين سوف يبعثون في أوج الكمال وذروته، متحدين مع الله، فانين في الله، بحيث لا يخطر على بالهم أدنى شيء ضد عدالة الله. فلهذا سوف يطالبون بالعدل، وعلى الأخص رسول الله.

بحق الحي القيوم والذي نفسي بيديه، على الرغم من أني أبكي الآن رحمة على الجنس البشري، إلا أنني في ذلك اليوم سوف أطالب بالعدالة، من دون رحمة، ضد أولئك الذين يحتقرون كلامي ويزدرونه ويستخفون به، وعلى الأخص أولئك الذين يدنسون إنجيلي ويحرفونه.

عذاب جهنم

قال عيسى: أيها الحواريون إن جهنم واحدة، والملعونون سوف يقاسون فيها ويعانون العذاب الأبدي. إلا أن لها سبع طبقات أو سبع مناطق، كل طبقة أو منطقة أعمق من الأخرى، والذي يذهب إلى أعمق طبقة أو منطقة في جهنم، سوف يعاني العذاب الأكبر.

وإنني قلت عين الحق حينما تكلمت عن سيف ميكائيل، لأن من اقترف إثماً يستحق جهنما، ومن اقترف إثمين يستحق جهنمين. لهذا فإن الأشرار سوف يعاقبون في جهنم واحدة، كما لو أنهم في عشر جهنمات، أو في مئة جهنم أو في ألف جهنم، كل حسب إثمه.

والله القدير بسطوته واقتداره ومنطق عدله، سوف يعاقب الشيطان بنيران كأنها نيران مليون جهنم، والباقي كل حسب إثمه وخبثه.

فقال بطرس: أيها المعلم إن عدل الله حقا عظيم، وحديث اليوم قد جعلك حزيناً. لهذا نلتمس منك أن تستريح. وغداً أخبرنا ما هي جهنم.

فأجاب عيسى: يا بطرس أنت تقول لي أن أستريح! يا بطرس أنت لا

تفقه ماذا تقول، وإلا ما نطقت به. الحق أقول لكم: إن الراحة في هذه الحياة الدنيا سم التقوى، وهي النار التي تلتهم كل عمل صالح.

هل نسيت كيف أن نبي الله سليمان وسائر الأنبياء عيروا الكسل؟ إنه أصاب عين الحق والحقيقة عندما قال: إن الكسول لن يباشر العمل في التربة لخوفه من البرد، وسوف يستجدي العمل في الصيف! ولأجل ذلك قال: اعمل بلا راحة ما استطاعت يدك أن تعمل.

وهل نسيت ما قاله أيوب خليل الله البريء: كما أن الطير قد ولد ليطير كذلك الإنسان ولد ليعمل؟ الحق أقول لكم إنني أكره الراحة فوق كل شيء.

واستمر عيسى في كلامه: إن جهنم واحدة، وهي على نقيض الجنة، كما أن الشتاء على نقيض الصيف، والبرد على نقيض الحر. إن الذي يصف تعاسة جهنم وبؤسها وشقائها، لا بد أنه قد رأى الجنة والمباهج الإلهية.

إنه مكان ملعون من طرف العدل الإلهي للعنة على الجاحدين والأشرار والفاسدين وشتيمتهم وسبهم. وقد قال عنه خليل الله أيوب: لا يوجد هناك نظام، بل خوف مقيم دائم أبدي! وقال أشعياء النبي ضد الأشرار الفاسدين المقيمين في نار جهنم: إن نيران لهيبها لن تطفأ ولن تخمد ولن تروى ولن تنقع، وإن ديدانهم لن تموت.

وقال أبونا داود ضدهم وهو يبكي وينتحب: سوف يمطر الله عليهم البرق والصواعق، ومعادن الكبريت والعواصف الشديدة.

يا أيها الآثمون الأشقياء! سوف تتقززون وتشمئزون من اللحوم الشهية اللذيذة، ومن الحلل الثمينة، ومن المضاجع الناعمة، ومن الموسيقى الساحرة! كيف سوف تتضورون جوعا، وكيف سوف تمرضون من اللهيب المحترق، ومن الجمرة الوالعة، ومن العذاب القاسي الذي سوف يصاحبه البكاء المرير!

وعندها أن عيسى أنيناً محزناً وقال: حقا كان الأفضل أن لا يخلقوا أبداً من أن يعانوا هذا العذاب الأليم. تصوروا إنساناً يقاسي من العذاب في كل جزء من بدنه، ثم لا يرأف عليه أحد، بل يلقى سخرية واستهزاء من كل أحد. أخبروني ألا يكون هذا ألماً عظيماً؟

أجاب الحواريون: ألم ما فوقه ألم.

ومن ثم قال عيسى: إنما هذا انشراح الخاطر، مقارنة مع جهنم. لأني أقول لكم الحق: إذا وضع الله في كفة ميزان، كل الآلام التي عاناها جميع البشر في هذه الدنيا وسوف يعانونها إلى يوم القيامة، ووضع في كفة أخرى، عذاب ساعة واحدة من جهنم، سيفضل الأشرار الآثمون، من دون شك، المحن والبلايا والشدائد الدنيوية، لأنها من صنع الإنسان، في حين أن عذاب جهنم هو من صنع العفاريت، الذين تجردوا بالكامل من الرأفة والشفقة والرحمة.

ما أقسى النيران التي يسلطونها على الآثمين الأشقياء! وحتى البرد القارس ما أمره! والذي لا يستطيع أن يلطف وأن يخفف نار السعير! ما أقسى صرير أسنانهم وبكائهم وعويلهم! إن مياه نهر الأردن أقل من الدموع التي سوف تجري من عيونهم في كل لحظة. إن ألسنتهم سوف تسب كل

مخلوق خلق، وتلعن آبائهم وأمهاتهم، وتشتم الخالق الذي تبارك اسمه إلى الأبد.

ربح الأفكار وخسارتها للروح

ثم قال عيسى: هل يوجد أب لعائلة، يعلم أن لصاً يخطط لافتحام منزله والدخول عنوة، هل من الممكن أن ينام! كلا بالتأكيد! لأنه سوف يحرس منزله ويقف مستعداً كي يقتل السارق.

ألا تعلمون أن الشيطان، كالأسد الزائر المزمجر، يبحث عن فريسة، كي يبتلعها وينهش لحمها؟ هو ذا يتربص لكل إنسان حتى يذنب.

الحق أقول لكم: **لو أن الإنسان عمل كتاجر، لما خاف في ذلك اليوم العصيب، لأنه سوف يعد العدة لذلك اليوم الموعود.**

إن الذي يحب أن يعيش حياة طيبة، يجب أن يأخذ العبرة من التاجر، الذي يقفل محله، ويحرسه ليل نهار بجد واجتهاد، والذي يفرح بأن يربح من بيع أي شيء قد اشتراه. لأنه إذا فهم أن هناك خسارة، سوف لن يبيع بضاعته حتى إلى أخيه.

وعلى هذا المنوال يجب أن تعملوا. اعلموا أن الروح هو التاجر، والجسد هو المحل، وما يتلقاه الجسد من الخارج، عبر الحواس الخمسة،

يتم البيع والشراء بواسطته. واعلموا أن الحب هو النقود. **فاحذروا أن لا تبيعوا ولا تشتروا بحبكم أي فكر، مهما صغر، إلا بربح لروحكم. وكرسوا كل أفكاركم وأحاديثكم وأعمالكم من أجل حب الله. وبهذا سوف تحصلون على الأمن والأمان في ذلك اليوم العصيب، في يوم القيامة والعدل الإلهي.**

الحق أقول لكم: كثيرون هم من يتوضؤون ويذهبون للصلاة، وكثيرون هم من يصومون ويعطون الصدقات، وكثيرون هم من يدرسون ويعظون غيرهم، إلا أن عاقبتهم أنهم سوف يكونون بغيضين ممقوتين عند الله، لأنهم ينظفون أجسادهم لا أرواحهم، ويصرخون إلى الله بأفواههم لا بقلوبهم، ويمتنعون عن أكل اللحوم، بيد أنهم يلوثون أرواحهم بالذنوب.

هم يعطون لغيرهم أشياء لا يحبونها، حتى يقول الناس عنهم أنهم طيبون. هم يدرسون حتى يتعلموا كيف يتكلمون لا كيف يعملون. هم يعظون غيرهم بما لا يفعلون، وبذلك يدينون أنفسهم بألسنتهم.

والذي نفسي بيديه، إنهم لا يعرفون الله بقلوبهم، لأنهم إذا عرفوه أحبوه، ولأن ما لدى الإنسان هو من الله سبحانه، لذا يجب على الإنسان أن ينفق كل ما لديه في سبيل حب الله.

ابغني عند وسادك تجدني[1]

وممـا قـالـه جعفر بن محمد الصادقعليه السلام عن وصايا الله عز وجل

---

(١) إن الله في كل مكان، وفي الإمكان أن تجده في كل مكان. إلا أنه يحجب عنا في روتين الحياة، إلا من رحم ربي، وما أقلهم! بيد أنه أكثر وضوحا ورؤية في المنعطفات الحادة من حياتنا، مثل حالات الحوادث، وحالات المرض، وحالات العمليات الجراحية، وحالة الإحتضار، وعلى الأخص، مثل النوم الذي هو صنو الموت، كما قال الرسول الأكرم ص. يقول الإمام الحسينعليه السلام في دعاء عرفة: (إلهي) أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك. والنوم يتكرر عندنا كل مرة، كما أن اليقظة تتكرر عندنا كل مرة، وهما رمزان بارزان في حياتنا للموت والبعث جعلهما الله أمام عيوننا آيات ظاهرات بينات تتكرر في حياتنا. إلا أن الموت والبعث لا يتكرر كما في حالة النوم واليقظة، اللتين جعلهما الله في حياتنا معلمين واضحين، كي يذكرنا كل يوم وليلة بالموت والبعث. يقول الله عز وجل في كتابه الكريم عن النوم: هو الذي يتوفاكم بالليل.... ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى. وذكر الله اسمه العظيم (هو) لا اسم أي ملك من ملائكته ولا أي واسطة من الوسائط. فظهوره سبحانه وتعالى عند النوم واليقظة واضح بين، إلا أنه ينبغي لك أن تبغي الله حتى تجده، لا أن تفكر في همومك وغمومك الدنيوية وفي خبث أفكارك على الوسادة عند النوم.

لعيسى عليه السلام[١]:

قال: كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى ابن مريم عليهما السلام أن قال له:

يا عيسى لا تأمن إذا مكرت مكري، ولا تنس عند خلوتك بالذنب[٢] ذكري[٣]. يا عيسى حاسب نفسك بالرجوع إلي، حتى تتنجز ثواب ما

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٩٩ ـ الأمالي: ٣١٢ ـ روضة الكافي: ١٤١.

(٢) الناس يقولون هذا معصوم وذاك غير معصوم، وكيف يخلو عيسى بالذنب، وهو من أولي العزم من الرسل، ولا يفقهون أن الذنب هو الغفلة عن الله ولو للحظة. فلو ذكرت الله عند الغفلة زالت الغفلة وزال الذنب. الناس يجمدون الدين ويحجرونه بأحكام خاطئة كاذبة، وينسون أن الإنسان كائن حي لا جامد ولا حجر. وأن الذنب لا بد أن يعقبه ندم وتوبة وبكاء ونحيب، ثم غفران الله ورضوانه وما أحلاها! والله يحب حزنك وبكائك على ذنوبك، ويحب أن تتملقه وتبصبص فيه. وهذه عملية مستمرة حتى نتنفس هواء الغفران، ونستنشق نسيم الرضوان. يجب أن نكون مع الله دائماً أبداً سرمداً! ولا نغفل عن أننا خلقنا من عنصر الأرض، الذي يلازمه الرجس والدنس، وأننا تغلبنا على معظمه، بعد ذكر مديد وجهاد طويل وعيش مع الله هنيئ مريئ. ثم لا نركن إلى كل ذلك، ولا نأمن مكر الله بعد ذلك، فالمؤمنون يفتنهم الله فتونا. يقول الله جل وعلا: أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: لو لم تذنب لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم ويدخلهم الجنة. وقال صلى الله عليه وآله أيضا: لو لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك العجب العجب. وما أكثر ما ابتليت الأمة بالعجب العجب! كل يفكر أنه طاهر وغيره مذنب، ناسياً أن الله وحده هو الطاهر، وكل يفكر أنه عالم وغيره جاهل، غافلاً عن أن الله وحده هو العالم. وأدهى وأمر، أن معظم الناس يمارسون العجب وهو أعظم الذنوب، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأن الإنسان الجاهل يفكر أن العجب ليس ذنباً ولا إثماً، ناسياً أنه من كبريات المعاصي، وأن العجب والغرور قد ركب الشيطان، وتسبب في طرده من الجنان، ورجمه من رحمة الله العزيز الديان.

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٢): ولا تنس عند الخلوات ذكري.

عمله العاملون[١]. أولئك يؤتون أجرهم، وأنا خير المؤتين.

يا عيسى[٢] ولدتك مريم بأمري المرسل إليها روحي جبرائيل الأمين من ملائكتي، حتى قمت على الأرض حياً تمشي. كل ذلك في سابق علمي.

يا عيسى زكريا بمنزلة أبيك وكفيل أمك، إذ يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقاً. ونظيرك يحيى من خلقي[٣]، وهبته لأمه بعد الكبر من غير قوة بها، أردت بذلك أن يظهر لها سلطاني، وتظهر فيك قدرتي، أحبكم إلي أطوعكم لي[٤] وأشدكم خوفاً مني.

يا عيسى تيقظ ولا تيأس من روحي، وسبحني مع من يسبحني، وبطيب الكلام فقدسني. يا عيسى كيف يكفر العباد بي، ونواصيهم في قبضتي، وتقلبهم في أرضي؟ يجهلون نعمتي، ويتولون عدوي، وكذلك يهلك الكافرون.

يا عيسى إن الدنيا سجن منتن الريح وحش، وفيها ما قد ترى مما قد

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٢): يا عيسى! خلص نفسك بالرجوع إلي حتى [illegible] ما عمله العاملون.....

(٢) وفي نص [illegible] (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٢): هناك زيادة في نص الكليني كالتالي: يا عيسى كن خليقاً بكلامي، ولدتك مريم.......

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٢): ونظيرك يحيى من خلقه.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٣): أحبكم إلي أطوعكم، وأشدكم خوفاً مني.

ألح عليه الجبارون[١]. وإياك والدنيا! فكل نعيمها يزول، وما نعيمها إلا قليل.

يا عيسى ابغني عند وسادك تجدني، وادعني وأنت لي محب، فإني أسمع السامعين، أستجيب للداعين إذا دعوني. يا عيسى خفني وخوف بي عبادي، لعل المذنبين أن يمسكوا عما هم عاملون به، فلا يهلكوا إلا وهم يعملون[٢]. يا عيسى ارهبني رهبتك من السبع، والموت الذي أنت لاقيه، فكل هذا أنا خلقته، فإياي فارهبون.

يا عيسى إن الملك لي وبيدي، وأنا الملك، فإن تطعني أدخلتك جنتي في جوار الصالحين. يا عيسى إني إن غضبت عليك، لم ينفعك رضى من رضي عنك، وإن رضيت عنك لم يضرك غضب المغضبين. يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكرني في ملئك[٣] أذكرك في ملأ خير من ملأ الآدميين.

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٣): يا عيسى! إن الدنيا سجن منتن الريح، وحش فيها ما قد تذابح عليه الجبارون...

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٣): فلا يهلكوا إلا وهم عاملون.

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٤): واذكرني في ملأ....

الانتقام رذيلة

بعد بضعة أيام مر عيسى قرب بلدة السامريين، ولم يسمحوا له بدخول البلدة، ولا حتى ببيع الرغيف إلى الحواريين. لأجل ذلك قال جيمس وجون: أيها المعلم هل يروقك أن ندعوا الله بأن ينزل على هؤلاء الناس ناراً من السماء؟

أجاب عيسى: إنكم لا تعرفون أي نفس بشرية تسوقكم لإطلاق مثل هذا الكلام. تذكروا أن الله عزم على تخريب نينوى، لأنه لم يجد أحداً يخاف الله في تلك البلدة، التي كانت خبيثة جداً، بحيث أن الله بعث النبي يونس إليها. فخاف يونس من سكانها، ورضي من تلقاء نفسه بأن يهرب إلى طرطوس. لأجل ذلك سبب الله له أن يرمى في البحر، وأن يبتلع من قبل الحوت، والذي تقيأه قرب نينوى. فوعظهم يونس، وندم الناس هناك وتابوا، ومن ثم تاب الله عليهم ورحمهم.

اللعنة على من يدعو بالانتقام! لأن هذا الدعاء سوف يكون ضد نفسه ويمسك بتلابيبه، لأن كل إنسان يحمل بذرة السبب لانتقام الله في نفسه.

والآن قولوا لي هل خلقتم هذه البلدة وسكانها؟ بالتأكيد لا أيها الحمقى! لأن جميع المخلوقات إذا اتحدوا لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابة واحدة.

لو أن الله سبحانه وتعالى، الذي خلق هذه البلدة، يحافظ عليها الآن، فلماذا أنتم ترغبون في تخريبها؟ لماذا لم تقولوا: هل يروقك أيها المعلم أن ندعوا الله بأن يهدي هؤلاء الناس إلى التوبة؟ بالتأكيد هذا هو العمل الصحيح لحواريي، أن يدعوا به الله لأولئك الأشرار الآثمين.

كذلك فعل هابيل في حق أخيه قابيل اللعين، حينما بسط إليه يده ليقتله. كذلك فعل إبراهيم في حق فرعون الذي سلبه امرأته، فلم يقتله ملك من ملائكة الله، بل أصابه بضعف ومرض. وكذلك فعل زكريا الذي قتل في المعبد بمرسوم ملك كافر. وكذلك فعل إرميا وأشعياء وحزقائيل ودانيال وداود وكل أخلاء الله وجميع الأنبياء المقدسين.

أخبروني لو كان لكم أخ مصاب بالجنون هل ستقتلونه، لأنه قذف وشتم وضرب الآخرين الذين تواجدوا بقربه؟ بالتأكيد لن تفعلوا ذلك. بل ستعملون كل ما في وسعكم لمعالجته بالأدوية التي تناسب مرضه.

بحق الحي الذي لا يموت والذي روحي بين يديه، إن الآثم عقله ضعيف حين يضطهد شخصاً آخر. أخبروني هل يوجد هناك أحد يكسر رأسه من أجل تمزيق عباءة عدوه؟ والآن كيف يكون عاقلاً ذاك الذي يبتعد عن الله، الذي هو رأس روحه، كي يؤذي جسم عدوه؟

والآن أخبرني أيها الإنسان من هو عدوك؟ بالتأكيد جسدك والذي يمدحك. إن كنت عاقلاً لقبلت يد أولئك الذين يشتمونك، ولقدمت الهدايا لأولئك الذين يضطهدونك ويضربونك ضرباً مبرحاً. **لأنك أيها الإنسان كلما اضطهدوك وشتموك في هذه الحياة الدنيا من أجل ذنوبك، كان أمرك أسهل في يوم الجزاء.**

أخبرني أيها الإنسان إذا كان القديسون وأنبياء الله قد ظلموا وافتري عليهم من قبل أهل الدنيا، على الرغم من براءتهم، فماذا يعمل بك أيها الآثم؟ وإذا كانوا قد تحملوا كل ذلك بالصبر الجميل، داعين خيراً لظالميهم، فماذا تفعل أيها الإنسان الذي تستحق نار جهنم؟

أما تعلمون أيها الحواريون بأن شمعي لعن نبي الله وعبده داود، ورماه بالحجارة؟ وما الذي قال داود لأولئك الذين رغبوا في قتل شمعي؟ ماذا دهاك يا يوآب، لماذا تريد قتل شمعي؟ دعه يلعنني! لأنها مشيئة الله الذي يبدل النقمة نعمة. وكذلك كان! لأن الله عاين صبر داود، وأنقذه من ظلم ابنه آبشالوم.

بالتأكيد لا تتحرك ورقة من دون مشيئة الله. لأجل ذلك عندما تكون في محنة، لا تفكر كم طال تحملك، ولا بمن أصابك بالمحنة، بل فكر كم ذا تستحق من أجل ذنوبك وآثامك، أن تعاقب على أيدي عفاريت جهنم.

أنتم ساخطون على هذه المدينة، لأنهم لم يرحبوا بنا، ولم يبيعوا لنا رغيفاً. أخبروني هل أهل هذه المدينة عبيدكم؟ وهل أنتم الذين وهبتموهم هذه المدينة؟ وهل أنتم الذين وهبتموهم ذرتهم؟ أم هل أنتم الذين ساعدتموهم على حصادها؟

كلا بالتأكيد! لأنكم فقراء وغرباء عن هذه الأرض. فماذا أنتم قائلون؟

فأجاب الحواريون: يا سيدنا لقد أثمنا، ليت الله يرحمنا!

فأجاب عيسى: آمين.

مخاطر الكلام

ذهب عيسى إلى المعبد، واجتمع جمهور كبير حوله للاستماع إليه. وكان الكهنة يشتعلون حسداً. وجاء أحدهم إلى عيسى قائلاً: أيها المعلم الطيب إنك تعلم الناس جيداً وبصدق وحرارة. أخبرني ما هي المكافأة التي يعطينا الله في الجنة؟

أجاب عيسى: إنك تسميني طيباً، ولا تعلم بأن الله وحده هو الطيب. أما سمعت خليل الله أيوب يقول: (طفل عمره يوم واحد ليس نظيفاً، وحتى الملائكة ليسوا بلا عيب في حضور الله). فما بالنا نحن! ألا إن الجسد يجتذب الإثم، ويمتص الظلم، كمثل الإسفنج يمتص ماء.

وظل الكاهن ساكتا حيرانا مرتبكا. ثم قال عيسى: الحق أقول لك: لا شيء أخطر من الكلام. أما سمعت سليمان يقول: الحياة والموت منوطان باللسان.

ثم استدار إلى حوارييه وقال: احذروا أولئك الذين يباركونكم، لأنهم يخدعونكم. إن الشيطان بارك آدم وحواء بلسانه، ولكن تبعات كلماته كانت كارثية. كذلك عقلاء مصر باركوا فرعون، وجالوت بارك الفلسطينيين، وكذلك ٤٠٠ نبي كذاب باركوا أخآب. بيد أن مدحهم كان

كاذباً، ولذلك هلك الممدوحون وهلك المادحون. ولأجل ذلك لم يكن كلام الله على لسان أشعياء النبي بلا سبب حيث قال: إن شعبي الذين يباركونك إنما هم يخدعونك.

اللعنة عليكم أيها الكتاب والفريسيون! واللعنة عليكم أيها الكهنة واللاويون! لأنكم أفسدتم ضحية الله. فالذين يأتون للتضحية يعتقدون أن الله يأكل اللحم المطبوخ كالإنسان.

إنكم تقولون لهم: ائتوا إلى معبد الله بالخرفان والثيران والأغنام، ولا تأكلوا كلها، بل آتوا الله نصيباً مما آتاكم.

ثم إنكم لا تخبرون الناس بحقيقة أصل التضحية من أين نشأت. إنها أتت كي تكون شهادة للحياة، التي أعطيت لابن أبينا إبراهيم، كي يبقى في ذاكرتنا إيمان أبينا إبراهيم وطاعته، وكذلك الوعود والبركة والسعادة والنعمة، التي أعطيت له من قبل الله سبحانه.

ألم يقل الله على لسان حزقائيل النبي: نحوا عني تضحياتكم، إن ضحاياكم ممقوتون بغيضون كريهون عندي؟

إنه يوشك أن يجيئ زمان ذكره الله على لسان هوشع النبي: سأصطفي من بين أقوام لم أصطف منهم. ويوشك أن يجيئ زمان ذكره الله على لسان حزقائيل النبي: إن الله سيعهد عهداً جديداً مع شعبه، لا كعهد أعطي لآبائكم الذين لم يراعوه. وسيأخذ من شعبه قلباً كالحجارة، كي يضع مكانه قلباً آخر.

وكل هذا سوف يحدث، لأنكم لا تراعون الآن قانون الله، وأن عندكم

المفتاح، بيد أنكم لا تفتحون الباب، بل تسدون الطريق على من يريد الدخول في الناموس.

وكان الكاهن على وشك أن يغادر كي يبلغ الكاهن الأكبر، الذي كان يقف قرب المعبد، بكل ما قاله عيسى. ولكن عيسى ناداه قائلاً: توقف حتى أجيب على سؤالك.

عقوق بني إسرائيل ونكرانهم للجميل

إنك سألتني بأن أخبرك ماذا سيعطينا الله في الجنة. الحق أقول لك: إن من يفكر في الأجور لا يحب سيده. إن الراعي الذي يرعى قطيعاً من الغنم، يستعد للدفاع عن الغنم، عندما يرى الذئب قادماً. وعلى العكس من ذلك الأجير، فإنه إذا رأى ذئباً، ترك القطيع وهرب.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، لو كان رب آبائنا هو ربك لما فكرت في السؤال: ماذا سوف يعطيني الله؟ بل كنت تقول كما قال نبي الله داود: **ماذا سأعطي الله في مقابل كل ما أعطاني إياه**.

ولتقريب الموضوع إلى ذهنك، سأقدم لك أمثولة أو حكاية ترمز إلى مغزى. كان هناك ملك يسير في الصحراء، إذ وقعت عينه على رجل، مطروحاً على قارعة الطريق، سلبه اللصوص ملابسه، وأثخنوه جراحاً مميتة. فأخذت الملك الرأفة والشفقة بهذا الرجل، وأمر عبيده أن يحملوه إلى المدينة ويعتنوا به. وفعل العبيد ما قاله الملك بكل دقة وإخلاص. وحمل الملك في قلبه حباً عظيما لهذا الرجل المريض، بحيث زوجه ابنته ونصبه وريثاً له.

إن هذا الملك كان رحيماً جداً بكل تأكيد. بيد أن الرجل المريض كان يضرب العبيد، ويستخف بالأدوية ويحتقرها، ويسيئ المعاملة مع زوجته، ويقذف الملك ويذمه، ويحرض موالي الملك وتابعيه على الثورة ضده. وكلما طلب الملك منه خدمة اعتاد أن يقول: بماذا يكافئني الملك على هذه الخدمة؟

وعندما سمع الملك ذلك، ترى ماذا فعل بهذا الرجل العاق الناكر للجميل الجاحد للمعروف!

أجاب الجميع: اللعنة عليه! لأن الملك جرده من كل مزاياه وعاقبه عقاباً شديداً.

ومن ثم قال عيسى: يا أيها الكهنة والكتاب والفريسيون، ويا رئيس الكهنة، الذي تسمع صوتي جيداً، أنا أعلن أمامكم ما قاله الله لكم على لسان أشعياء النبي: أنا ربيت العبيد وغذيتهم وأطعمتهم ومجدتهم وعظمتهم، بيد أنهم استخفوا بي واحتقروني.

الملك هو الله ربنا، وقد وجد بني إسرائيل، في هذه الدنيا، يعانون الشقاء والتعاسة والبؤس والفاقة، فوهبهم لعبيده يوسف وموسى وهارون، الذين اعتنوا بهم ورعوهم وحافظوا عليهم.

ثم إن الله حمل في قلبه مثل هذا الحب العظيم لبني إسرائيل، حتى أنه أصاب مصر بآفة وابتلاها، وأغرق فرعون، ودحر ١٢٠ ملكا من الكنعانيين والمدينيين وقهرهم، وكل ذلك من أجل بني إسرائيل. ثم أعطى الله لبني إسرائيل قوانينه، وجعلهم وارثين لكل هذه الأرض، التي سكنها قومنا وشعبنا.

ولكن ماذا فعل بنو إسرائيل في المقابل؟

كم من الأنبياء قد قتلوا! كم من النبوءات قد دنسوا! كيف انتهكوا قانون الله؟ كم من الناس لهذا السبب، ابتعدوا عن الله وذهبوا لخدمة الأوثان! كل هذا بسبب ذنوبكم أيها الكهنة، وما تهتكون به حرمة ربكم ليل نهار، بنمط حياتكم المغاير للناموس!

وأنت الآن تسألني: بماذا يكافئنا الله في الجنة؟ أما كان الأحرى أن تسألني: ماذا سيكون عقاب الله لكم في نار جهنم؟ وماذا يجب عليكم أن تعملوا الآن، للندم والتوبة النصوح، كي يتداركم الله برحمته؟

وهذا ما أستطيع أنا فعله، ولهذا بعثت إليكم.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إنك لن تتلقى مني المداهنة والتمليق، بل الحق الصريح والحقيقة الصارخة. ولهذا أقول لك: اندم وتب إلى الله، كما فعل آباؤنا بعد المعاصي والذنوب، ولا تدع للقسوة إلى قلبك سبيلا.

واستشاط الكهنة غضباً من هذا الحديث، وأخذتهم العزة بالإثم، بيد أنهم لم ينطقوا ببنت شفة خوفاً من الجمهور.

واستمر عيسى في حديثه قائلاً: أيها المطببون أيها الكتاب أيها الفريسيون أيها الكهنة أخبروني! إنكم تبتغون الخيول كالفرسان، بيد أنكم لا تبتغون الإنطلاق إلى الحرب. إنكم تشتهون الملابس الأنيقة كالنساء، بيد أنكم لا تشتهون الغزل وتربية الأطفال. إنكم ترغبون في فواكه المزارع، بيد أنكم لا ترغبون في فلاحة الأرض. إنكم تشتهون أسماك البحار، بيد

أنكم لا تشتهون صيد الأسماك. إنكم تبتغون الشرف والكرامة كالمواطنين، بيد أنكم لا تبتغون تحمل مسؤوليات الحكومة. إنكم ككهنة ترغبون في عشور الأموال وفي باكورة الفواكه، بيد أنكم لا ترغبون بحق وصدق في خدمة الله.

إذن ماذا يفعل الله بكم، وهو يراكم تشتهون هنا كل الطيبات، من دون المشقات؟

الحق أقول لكم إن الله سوف يعطيكم مكانا، تجدون فيه المشقات، ولا تجدون فيه الطيبات.

علامات ظهور رسول اللّه

و بالليل تكلم عيسى سرا مع حوارييه قائلاً: الحق أقول لكم: إن الشيطان يود أن يغربلكم كما تنخل الحنطة. وقد التمست من ربي أن لا يهلك منكم إلا واحداً، وهو الذي يحاول أن يوقعني في الشرك. وكان يعني بذلك يهوذا الإسخريوطي، لأن جبرائيل أنبأه كيف أن يهوذا يتآمر مع الكهنة ضد عيسى، ويبلغهم كل ما يقوله عيسى.

واقترب إليه برنابا وهو يذرف الدموع قائلاً: أيها المعلم أخبرني من الذي سوف يخونك؟

أجاب عيسى: يا برنابا لم يحن الوقت الآن لتعرفه، ولكن سرعان ما يفضح الخبيث نفسه، لأني سوف أودع الدنيا.

فبكى الحواريون وقالوا: أيها المعلم لماذا تتركنا؟ الأفضل لنا أن نموت من أن تتركنا.

أجاب عيسى: لا تضطربوا ولا تخافوا! لأني لم أخلقكم. إنما الله خالقنا الذي خلقكم هو الذي سوف يحميكم. أما أنا فقد أتيت إلى هذا العالم، كي أمهد الطريق لظهور رسول الله، الذي سوف يأتي بالخلاص

والفلاح لهذا العالم. ولكن حذار أن تنخدعوا! لأنه سوف يأتي أنبياء كذابون، الذين سوف يتلاعبون بأقوالي ويدنسون إنجيلي.

وعندها قال أندرو: أيها المعلم أعطنا علامة كي نعرف بها رسول الله.

أجاب عيسى: سوف لا يأتي في زمانكم، ولكن بعد زمانكم، عندما يكون إنجيلي قد أبطل، وبالكاد يكون عدد المؤمنين الصادقين قد وصل الثلاثين. في ذلك الزمان، سيرحم الله هذا العالم، وسيبعث رسوله الذي سوف تستقر غمامة بيضاء فوق رأسه، وبذلك سوف يعرف بالمصطفى، وبه سوف يظهر الله جلياً على العالم.

سوف يأتي رسول الله بقدرة عظيمة ضد المشركين والكافرين، الذين لا يؤمنون بالله. وسوف يبيد الوثنية على الأرض ويدمرها. وأنا أبتهج وأفرح لأن الله سوف يعرف ويمجد ويعظم من خلاله، وسوف يعلن للعالم بأنني نبي صادق، وسوف ينتقم من أولئك الذين يقولون بأنني أكثر من بشر.

الحق أقول لكم إن القمر سيكون وسيلته للنوم في صباه، وعندما يكبر سيأخذ القمر بيديه. فليحذر العالم من طرده، لأنه سوف يقتل الوثنيين. إن عدداً أكبر منهم كان قد قتلهم موسى ويوشع، وأحرقا مدنهم، وقتلا أولادهم. لأن الجرح القديم لا ينفع معه إلا النار.

سوف يأتي بالصدق أكثر وضوحاً وجلاء من سائر الأنبياء، وسوف يزجر وينتهر من يستخدم العالم في غير موضعه. الحق أقول لكم: عندما يأتي رسول الله، فإن أبراج مدينة أبينا سوف تحيي بعضها البعض من كثرة الفرح، وإن الأوثان سوف تسقط على الأرض، وسيعترف بي كإنسان مثل سائر الناس.

آثام الأفكار
في باطن الإنسان

ثم قال عيسى: الحق أقول لكم: لو حاول الشيطان أن يجعلكم بالظاهر من رجال الدين، ثم إذا فرض إرادته عليكم، لسمح لكم أن تنزلقوا حسب أهوائكم! علما بأن أعداء الدين لا يهاجمون بلدتهم من الخارج بل من الداخل.

بيد أنه قد علم بأنكم حقاً أعداء الشيطان، فلذا فهو سوف يؤذيكم ويضركم كي تهلكوا. ولكن لا تخافوا، لأن الشيطان سوف يكون ضدكم كالكلب المقيد بالسلاسل، لأن الله قد استجاب دعائي.

فقال جون: أيها المعلم إن الشيطان لا يستهدفنا نحن فحسب، بل أيضاً يستهدف كل من يعتقد بالإنجيل. أخبرنا كيف أن الوسواس الخناث يضع مصائده لصيد الإنسان؟

أجاب عيسى: إن الشيطان يغري ويغوي بأربع طرق: الأول: إنه يغوي بالأفكار. الثاني: إنه يغوي بكلام خدامه وأعمالهم. الثالث: إنه يغوي بالعقيدة الكاذبة. الرابع: إنه يغوي بالرؤية الكاذبة.

فانظر كيف ينبغي للإنسان أن يكون محتاطاً! وعلى الأخص إن جسد الإنسان يميل إلى الشيطان، ويحب الآثام، كما أن المصاب بالحمى يحب الماء.

الحق أقول لكم: **لو خاف الإنسان ربه لانتصر على كل شيء.** فقد قال نبي الله داود: كل من حافظ على الطريقة منكم، فإن الله يجعل **الملائكة حراساً عليه، حتى لا يسبب له الشيطان عثرة. سوف يسقط الف من جنود الشيطان على يده اليسرى، وعشرة آلاف على يده اليمنى، حتى لا يقتربوا من ذاك الذي حافظ على الطريقة.**

وإضافة إلى ذلك، فإن الله بحبه العظيم، قد وعدنا على لسان داود بأن يحفظنا ويرعانا قائلاً: أنا أعطيكم الفهم الذي سوف يعلمكم، وسوف تكونون بعيني في السبل التي سوف تمشون فيها.

ناهيك عما قاله الله على لسان أشعياء النبي: هل تنسى أم طفلها الذي كان في رحمها؟ وإني أقول لكم: إذا نست الأم طفلها فإني سوف لا أنساكم.

ثم قال عيسى: أخبروني من ذا يخاف الشيطان إذا كانت الملائكة له حراسا، وكان الله الحي القيوم له حامياً؟ ورغم ذلك يحذرنا سليمان النبي: (يا بني، الخائف من الله، أعد روحك للإغراءات).

الحق أقول لكم: إنه ينبغي للإنسان أن يفحص أفكاره بدقة، كما يفحص المصرفي النقود، حتى لا يذنب ولا يأثم ضد الله خالقه.

الصعود في الباطن
يسبب وادياً من الدموع

ثم قال عيسى: هناك الكثيرون الذين لا يعتبرون الأفكار آثاماً، وهم في الحقيقة قد وقعوا في خطأ جسيم. قولوا لي كيف أذنب الشيطان؟ بالتأكيد إنه في البداية قد أثم وأذنب في فكره، بأنه أفضل من الإنسان.

إن سليمان أثم في فكره، عندما دعى إلى وليمته جميع مخلوقات الله، ثم انبرى له حوت يصححه، حينما التهم كلما هيأ وجهز سليمان في وليمته الكبرى. لهذا لم يكن بدون سبب قول أبينا داود: **الصعود في الباطن يسبب وادياً من الدموع.**

لماذا يصرخ الله على لسان أشعياء النبي قائلاً: **أبعدوا أفكاركم السيئة عن عيوني؟** ولماذا يقول سليمان النبي: **احفظوا باطنكم بكل ما أوتيتم من قوة؟**

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، **إن بذرة اقتراف المعصية هي في الأفكار، لأنه من دون الأفكار لا تقترف الآثام.**

أخبروني عندما يزرع الفلاح الكرم، هل يزرعها في العمق؟ بالتأكيد

نعم. كذلك يفعل الشيطان الذي يزرع المعصية. إنه لا يضعها في البداية أمام أنظار الناس وتحت أسماعهم، بل يضعها في القلب، الذي هو منزل الله، كما قال الله على لسان عبده موسى: سأستقر فيهم[1] كي يراعوا قانوني.

أخبرني إذا وهبك الملك هيرود منزلاً كي تضع فيه أشياء يحبها، هل تسمح لعدوه باليت[2] أن يدخل المنزل، أو يضع فيه بضاعته؟ بالتأكيد لا! فكيف تسمح للشيطان أن يدخل قلبك، أو يضع أفكاره فيه، آخذاً بعين الاعتبار بأن قلبك منزل الله، وأن الله قد وهبك قلبك، كي تحافظ عليه؟

---

(١) يقول الله في حديثه القدسي: لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن المنكسر.

(٢) هو بونتيوس باليت (بين عامي ٢٦ إلى ٣٦) الحاكم الروماني ليهودا، الذي أمر بصلب عيسى. أو بيلاطس البنطي ولد في ١٠ قبل الميلاد. كان الحاكم الروماني لمقاطعة أيوديا أو اليهودية بين عامي ٢٦ إلى ٣٦. وحسب ما هو مكتوب في الأناجيل الأربعة المعتمدة من قبل الكنيسة، فإنه قد تولى محاكمة عيسى وأصدر الحكم بصلبه. كان بيلاطس البنطي والياً على ولاية أيوديا في عهد قيصر طيباريوس الامبراطور الروماني. وكان بيلاطس شخصية ذات مكانة، حيث كان في الحرس الملكي الخاص بالقيصر. وقد اختير ليكون والياً على اليهودية سنة ٢٦ ميلادي. وقد أمضى في منصبه هذا حوالي عشرة أعوام. وخلال هذه الفترة تمت محاكمة عيسى تلبية لرغبة اليهود. وقد اتسم عهد بيلاطس البنطي بالكثير من الثورات اليهودية، وقد تلطخت يداه بالكثير من الدماء، لذا لم يحبه اليهود أبداً. وقد أصدر الحكم بصلب عيسى، ليس عن قناعة بذنبه، بل كما تخبرنا الأناجيل، خوفاً من اليهود، الذين هددوا برفع الأمر إلى الامبراطور، واتهام بيلاطس بالخيانة، بسبب تبرأته ساحة عيسى، الذي يقال بأنه صرح بأنه ملك، وهي تهمة سياسية خطيرة تحت حكم الرومان.

أما ترى كيف أن المصرفي يتعامل مع نقوده! إنه يتأكد في حيطة وحذر، ما إذا كانت صورة قيصر صحيحة أم لا، وما إذا كانت الفضة أصلية أو زائفة، وما إذا كان وزن الفضة صحيحاً أم لا، ولأجل ذلك يقلب النقود كثيراً في يديه.

آها يا دنيا! خدامك فطنون متحذرون في تجارتهم، في حين أن خدام الله مهملون متوانون في خدمتهم لله! ألا تتهمين خدام الله وتعيريهم بالتهاون والتواني في يوم القيامة؟

أخبرني الآن من منكم يتفحص جوانب فكره في أعماق نفسه[١]، كما يتفحص المصرفي سكته الفضية؟ بالتأكيد لا أحد.

فقال جيمس: أيها المعلم كيف تقارن تفحص الفكر بتفحص السكة الفضية؟

أجاب عيسى: التقوى في الفكر كالفضة الصالحة. لأن أي فكر عديم التقوى هو من الشيطان، ولذلك يقارن بالفضة الزائفة. أما صورة قيصر الصحيحة فتضرب مثلاً للأنبياء والقديسين، الذين يجب علينا اتباعهم. أما وزن الفكر فهو محبة الله، التي يجب أن تسري في أعمالنا.

لأجل ذلك يحاول عدوك الشيطان إدخال الأفكار الملحدة العاقة في قلبك ضد التقوى، وهي أفكار دنيوية لإفساد الجسد، ويحاول إدخال أفكار حب الدنيا في قلبك كي يفسد محبة الله.

---

(١) من منكم يتفحص مدى التقوى ومدى عشق الله في جوانب فكره في أعماق نفسه!!!

كيف نتغلب على الشيطان

فقال بارتولوميو: أيها المعلم كيف نسيطر على أفكارنا، كي لا نقع في أحابيل الإغراءات؟

أجاب عيسى: هناك شيئان يجب مراعاتهما: أولاً أن تتمرن كثيراً بأن لا تفكر وثانياً أن تتكلم قليلاً. لأن الكسل كالبالوعة تتجمع فيها الأفكار الغير النظيفة. والكلام الكثير هو كالإسفنج يمتص الآثام والشرور. لذلك يجب عليك ليس فقط أن تعمل كي ينشغل بدنك، بل أيضاً أن تذكر الله لإشغال روحك، لذا يجب عليك أن لا تتوقف عن ذكر الله.

أضرب لكم مثلاً: كان هناك إنسان صعب في دفع أجور الفلاحين، بحيث إن الذي كان يعرفه، لم يكن ليذهب معه لفلاحة حقوله. لذلك فقد فكر بخبث قائلاً: سأذهب إلى السوق لأجد الكسالى، الذين لا نشاط لهم، كي آتي بهم لفلاحة حقولي. فانطلق الرجل من داره، ووجد ناساً غرباء كثيرين يقفون كسالى، وليس عندهم نقود. فتكلم إليهم، وقادهم إلى مزارع كرمته. بيد أن الذين كانوا يعرفونه، وقد عملوا في حقوله سابقاً، لم يذهبوا معه.

هذا الرجل الخبيث هو الشيطان، الذي هو صعب في دفع الأجور،

لأن من ينخدع ويعمل له يتلقى العذاب المهين، ويحترق في نهاية المطاف في نيران جهنم خالداً فيها.

لهذا انطلق الشيطان من الفردوس، وذهب يبحث عن عمال يعملون له، وزج بناس كسالى في أتون أعماله، أياً ما كان، وزج بأكبر عدد منهم من أولئك الذين لا يعرفونه. لذلك ليس كافياً أن تعرف الشر كي تتحاشاه، بل إن تعمل صالحاً كي تتغلب على الشيطان.

أضرب لكم مثلاً: كان هناك رجل ثري، وعنده ثلاثة من مزارع الكرمة، وأجرها لثلاثة من الفلاحين. الفلاح الأول لم يكن يعرف الزراعة، لهذا لم ينتج إلا الأوراق. الفلاح الثاني علم الفلاح الثالث كيف يزرع الكرم، والذي استمع إلى نصائحه بنباهة تامة، وفلح أرضه جيداً، حتى آتت بكرم كثير. أما الفلاح الثاني فلم يستطع زراعة كرمه، لأنه كان يصرف وقته في الكلام.

وعندما حان وقت دفع الإيجار إلى مالك المزرعة قال الأول: يا سيدي أنا لا أعرف كيف أزرع الكرم، ولهذا لم أحصل على العنب في هذه السنة. فأجاب المالك: أيها الأحمق إذا كنت لا تعرف، فلماذا لم تسأل الفلاح الثاني الذي يعرف جيداً كيف يزرع الكرم؟ لذلك يجب أن تدفع لي الإيجار من غير بد.

فحكم عليه بالعمل في السجن، حتى يدفع الإيجار بالكامل إلى سيده. فأشفق عليه المالك لبساطته فأطلق سراحه قائلاً: اغرب عني، فإني لن أدعك تعمل في مزرعتي أكثر من هذا. يكفيني أني أسامحك القرض.

وجاء الفلاح الثاني الذي استقبله المالك بحفاوة قائلاً: مرحباً أيها

المزارع الماهر. أين الفواكه التي أنت مدين لي بها؟ بالتأكيد إن مزرعة الكرمة عندك قد آتت عنباً كثيراً، لأنك تعرف كيف تشذب العنب.

فأجاب الفلاح الثاني: يا سيدي إن مزرعتك لم تنتج كفاية، لأني لم أقضب الخشب ولا فلحت التربة. ولأن مزرعتك لم تنتج عنباً، فلا أستطيع أن أدفع لك الإيجار.

فاستغرب المالك من كلامه، ونادى الفلاح الثالث وقال له متعجباً: لقد أخبرتني أن هذا الرجل الذي وكلت إليه المزرعة الثانية، قد علمك جيداً كيف تفلح مزرعة الكرمة، التي وكلتها إليك. فكيف أن مزرعة ال... التي وكلتها إليه لم تؤت ثماراً، رغم أن التربة هي نفس التربة؟

فأجاب الفلاح الثالث: سيدي الكرم لا تفل... بالكلام وحده، لكن من أراد العنب لزم عليه أن يعرق قميصاً واحداً كل يوم. كيف ... وقع يا سيدي أن تنتج مزرعته كرماً، وهو يمضي وقته في الكلام؟ بالتأكيد يا سيدي لو فعل ما يقوله لغيره، وطبق كلامه ونصائحه على نفسه، لأعطاك إيجار خمس سنوات، نظراً إلى أني أنا الفلاح المبتدئ، الذي لا أتكلم كثيراً، استطعت أن أعطيك إيجار سنتين!

فاستشاط المالك غضباً وقال بازدراء واحتقار للفلاح الثاني الماهر: لقد عملت عملاً كبيراً في عدم قطع الخشب وتسطيح التربة، لذلك فأنت مدين لي بمكافأة كبيرة! فنادى عبيده فضربوه وعزروه من دون رحمة. ثم زج به في السجن تحت حراسة حارس قسي القلب، والذي كان يضربه كل يوم. ولم يكن المالك مستعداً لإطلاق سراحه بشفاعة أصدقائه.

علم بلا عمل
وبال على العالم

عندئذ قال عيسى: الحق أقول لكم: إنه سيأتي كثيرون في يوم القيامة ويقولون لربهم: يا رب لقد وعظنا غيرنا وعلمناهم ناموسك وقانونك. في ذلك اليوم العصيب، حتى الأحجار سوف تزعق ضدهم قائلين: إن كنتم وعظتم غيركم بلسانكم، فقد أدنتم أنفسكم، أيها الآثمون الظالمون.

بحق الحي الذي لا يموت، إن الذي يعرف الحق ويعمل ضده، سوف يعاقب عقاباً فظيعاً، بحيث إن الشيطان نفسه يكاد أن يشفق عليه. أخبروني الآن هل أعطانا الله قانونه للعلم أم للعمل؟ الحق أقول لكم: إن العلم في نهاية المطاف يتضمن الحكمة بأن يعمل المرء بكل ما يعلمه، ويطبق علمه بحذافيره.

أخبروني إذا كان المرء يجلس على المائدة، ويشاهد بعينيه اللحوم اللذيذة، ثم إنه بيديه يختار الأشياء القذرة ويأكلها، ألا يعتبر مجنوناً؟

قال الحواريون: نعم بالتأكيد.

فقال عيسى: أيها المجنون الذي فاق المجانين جنوناً! إنك بفهمك قد

تعرفت على الفردوس، ثم إنك تختار بيديك الأرض! وإنك بفهمك قد تعرفت على الله، ثم تشتهي بعاطفتك الدنيا! وإنك بفهمك قد تعرفت على مباهج الجنة، ثم تختار بأعمالك تعاسة الجحيم!

أيها الجندي الشجاع الذي يحارب في وطيس الحرب بغمد السيف، ويترك السيف!

ألا تعرف أن الذي يمشي في ظلام الليل إلى خانه ونزله، يحتاج إلى النور، لا لأجل النور، بل لكي تستبين له في عتمة الليل معالم الجادة، حتى يمر بسلام إلى الفندق؟

أيتها الدنيا الشقية! التي تستحق آلاف المرات الازدراء والبغض والإحتقار والمقت! لقد أراد الله على لسان أنبيائه أن يعطيك للبشر، كي يعرفوا طريقهم إلى عالم الخلود، وإلى دار مقرهم ومستقرهم في الآخرة.

ولكنك أيها الإنسان الخبيث لا تنشد السعادة في دار الخلود، بل الأسوء من ذلك، أنك تمقت حتى النور الذي يمكن أن تستضيئ به، في طريقك إلى دار مقرك ومستقرك في الخلود.

ما أصدق مثل الجمل الذي لا يحب شرب الماء الزلال، حتى لا يرى وجهه القبيح! كذلك يعمل الملحد الكافر، الذي يرتكب السيئات والقبائح، ويمقت النور، حتى لا تفضح أعماله الشريرة.

ولكن ما أشبه من يتلقى الحكمة، بالذي يتلقى الهدايا والعطايا من واهب كريم! وما أشبه من لا يعمل بالحكمة، بل الأسوء من ذلك، من

يستغل الحكمة لأغراضه السيئة الشريرة، بالذي يستعمل الهدايا والعطايا كآلات لقتل واهب الهدايا والعطايا!

الحق أقول لكم: إن الله لم يشفق على الشيطان لسقوطه، كما أشفق على آدم لسقوطه. ألا يكفيك أن تعاين الهاوية التي يسقط فيها، كل من عرف الباقيات الصالحات، ثم عمل السيئات، وارتكب المنكرات!

تعلموا العلم ولو في الصين

فقال أندرو: أيها المعلم إنه شيء حسن أن نترك التعلم جانباً، كي لا نبتلى بمثل هذه المشقات والعواقب البائسة.

أجاب عيسى: إذا كان العالم حسناً من دون شمس، والإنسان من دون عيون، والروح من دون فهم، لكان حسناً أن نكون من دون علم!

الحق أقول لكم: ليس الرغيف حسناً لهذه الدنيا الزائلة، بمقدار ما هو التعلم للحياة الخالدة. ألا تعلم أن التعلم فريضة من الله؟ وكذا قال ربنا: اسألوا كباركم حتى يعلموكم. وقال ربنا عن الناموس: ضعوا فرائضي نصب أعينكم، وعندما تجلسون وتمشون، وتأملوا في أوامري في كل الأوقات.

وربما الآن قد انتبهت إلى مدى الخطأ الفادح في عدم التعلم. وكم هو شقي ذلك الذي يمقت الحكمة، لأنه بكل تأكيد سوف يفقد الحياة الخالدة!

فقال جيمس: أيها المعلم إننا نعلم أن إبراهيم وأيوب لم يتعلما من معلم، وعلى الرغم من ذلك، صارا من الأنبياء القديسين.

أجاب عيسى: الحق أقول لكم: من كان من بيت العريس، لا يحتاج إلى دعوة الزواج، لأنه يعيش في نفس المنزل الذي يقام فيه الزواج. بيد أن الغرباء البعيدين عن منزل العريس، يحتاجون إلى دعوة الزواج. أما تعلمون أن أنبياء الله هم في بيت رحمة الله ورضوانه، ولذلك فإن قانون الله يتجسد في وجودهم. وقد قال أبونا داود: إن قانون الله في قلبه، لذلك لا يحتاج إلى من يمهد له الطريق.

الحق أقول لكم: إن الله قد خلق الإنسان، ولم يكتف بأن يجعله صالحاً قويماً مستقيماً، بل إنه أدخل في قلبه نوراً ليرشده، بأنه من اللائق خدمة الله. وحتى إذا عتم هذا النور بسبب المعصية، إلا أنه لا ينطفئ. لأن كل أمة ترغب في خدمة الله، رغم أنها فقدت الله، وخدمت الآلهة الكاذبة الباطلة.

وبناءً عليه فإنه من الضروري أن يتعلم الإنسان من أنبياء الله، لأنهم يحملون مصباحاً ونبراساً واضحاً لتنوير الطريق إلى الجنة، والتي هي مدينتنا، وذلك بخدمة الله بأحسن وجه. كما أنه من الضروري، الأخذ بيد الضالين، ومساعدتهم وهدايتهم.

شوق الله
في الأمم

فقال جيمس: وكيف يعلمنا الأنبياء إذا كانوا موتى، أم كيف يتعلم المرء وهو لا يعلم شيئاً عن الأنبياء؟

أجاب عيسى: إن عقيدتهم مكتوبة ومدونة، ولذلك يجب أن تدرس، لأنها كتبت من أجلك. الحق والحق أقول لكم، إن الذي يمقت النبوة لا يمقت الأنبياء فحسب، بل أيضاً يمقت الله الذي بعث الأنبياء.

أما أولئك الذين لا يعلمون شيئاً عن الأنبياء، فإني أقول لك، إذا كان هناك رجل منهم لا يعلم شيئاً عن الأنبياء، بيد أنه يستضيئ بهداية من قلبه، ولا يحب لغيره ما لا يحب لنفسه، ويعطي جاره ما يحب أن يأخذ منه، مثل هذا الرجل لا تخذله رحمة الله، ولا يخرج عن كنف الرحمة الربانية. ولهذا سوف يعطيه الله ناموسه عند موته بفضل منه ورحمة، إن لم يكن أسرع من ذلك.

أتظن أن الله قد أعطى الناموس حباً في الناموس؟ بالتأكيد هذا غير صحيح، بل الصحيح هو أن الله قد أعطى قانونه حتى يعمل الإنسان

الصالحات حباً لله. كذلك إذا رأى الله إنساناً يعمل الصالحات حباً لله، هل من الممكن أن يمقته الله؟ بالتأكيد لا! بل الأحرى به أن يحبه أكثر من أولئك الذين أعطاهم الناموس.

أضرب لك مثلاً: كان هناك رجل ثري صاحب أملاك، وكان في منطقته أرض مهجورة، لا تنتج إلا الحشائش. وفي يوم من الأيام، عندما كان يمشي في هذه الأرض المتروكة، وقعت عينه بين هذه الحشائش على غرس يحمل فواكه لذيذة. فقال في نفسه: كيف ينبت هذا الغرس مثل هذه الفواكه الشهية؟ بالتأكيد لن أقطعه ولن أحرقه، كما أفعل بالحشائش الأخرى. فنادى عبيده وأمرهم أن ينقلوا ذلك الغرس إلى حديقته.

كذلك يفعل الله لحماية أولئك، الذين يعملون الصالحات، من نيران جهنم، أياً كانوا وفي أي مكان كانوا وفي أي أمة كانوا.

أخبرني أين كان يقيم أيوب؟ كان يقيم في اوز بين الوثنيين. وماذا كتب موسى عن أيام الطوفان؟ لقد قال موسى: (وجد نوح بصدق رحمة الله من قبل ربه). أبونا إبراهيم كان له أب لا إيمان له، إذ كان يصنع الأوثان ويعبدها. لوط أقام بين أسوء قوم على وجه الأرض. دانيال وحنانيا وعزاريا وميزائيل كان عمرهم سنتين حين أسرهم نبوخذنصر، ثم تربوا في أحضان حشد من العبيد عابدي الأوثان.

بحق الحي الذي لا يموت، كما أن النار تلتهم الأشياء اليابسة، ولا تفرق بين أشجار النخيل والزيتون والسرو، كذلك الله ينشر رحمته على كل من يعمل الصالحات، ولا يفرق بين اليهود والسكيثيين واليونانيين والإسماعيليين.

ولكن حذار يا جيمس! عندما يبعث الله نبياً، فإنه من الضروري تماماً أن تنكر قضاوتك وحكمك، وأن تتبع النبي، ولا تقل: لماذا قال كذا؟ أو لماذا منع كذا وأمر بكذا؟ ولكن قل: كذا شاء الله وكذا أمر الله.

قل لي ماذا قال الله لموسى حينما ازدرئ بنو إسرائيل موسى واحتقروه واستخفوا به؟ قال: إنهم لم يحتقروك ولكنهم احتقروني.

الحق أقول لكم: إنه لا يجب على الإنسان أن يقضي جميع أوقات حياته في تعلم الخطابة أو تعلم القراءة، بل أن يتعلم كيف يعمل الصالحات إرضاء لربه.

بالله عليك هل يوجد عبد من عبيد هيرود لا يعنيه أن يتعلم في جد واجتهاد كيف يرضي هيرود بخدمته أحسن خدمة!

اللعنة على أولئك الذين يتعلمون فقط كيف يرضون جسداً مصنوعاً من الطين والروث، ولا يتعلمون كيف يرضون الله الذي صنع كل شيء، بل ينسون أن يخدموا الله ويسبحوه ويمجدوه ويشكروه ويحمدوه!

وعندي دار خير مما يجمعون

ومما قاله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن وصايا الله عز وجل لعيسى عليه السلام[١]:

قال: كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى ابن مريم عليه السلام أن قال له:

يا عيسى ادعني دعاء الغريق[٢]، الذي ليس له مغيث. يا عيسى لا تحلف باسمي كاذباً، فيهتز عرشي غضباً. يا عيسى الدنيا قصيرة العمر، طويلة الأمل، وعندي دار خير مما يجمعون[٣].

يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل: كيف أنتم صانعون، إذا أخرجت لكم كتاباً ينطق بالحق، فتنكشف سرائر قد كتمتموها، وأعمال كنتم بها عاملين[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٩٩ ـ الأمالي: ٣١٢ ـ روضة الكافي: ١٤١.

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٤): يا عيسى! ادعني دعاء الغريق الحزين....

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٤): يا عيسى لا تحلف بي كاذباً، فيهتز عرشي غضباً، الدنيا قصيرة العمر، طويلة الأمل، وعندي دار خير مما تجمعون.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٤): إذا أخرجت لكم كتاباً ينطق=

يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل: غسلتم وجوهكم ودنستم قلوبكم، أبي تغترون[(١)] أم علي تجترئون؟ تتطيبون بالطيب لأهل الدنيا، وأجوافكم عندي بمنزلة الجيف المنتنة، كأنكم أقوام ميتون[(٢)].

يا عيسى قل لهم: قلموا أظفاركم من كسب الحرام، وأصموا أسماعكم عن ذكر الخناء، وأقبلوا علي بقلوبكم، فإني لست أريد صوركم.

يا عيسى افرح بالحسنة، فإنها لي رضاً، وابك على السيئة، فإنها لي سخط، وما لا تحب أن يصنع بك فلا تصنعه بغيرك، وإن لطم خدك الأيمن فأعط الايسر[(٣)]، وتقرب إلي بالمودة جهدك، وأعرض عن الجاهلين.

يا عيسى ذل لأهل الحسنة وشاركهم فيها، وكن عليهم شهيداً، وقل لظلمة بني إسرائيل: يا أخدان[(٤)] السوء والجلساء عليه، إن لم تنتهوا، أمسخكم قردة وخنازير.

يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل: الحكمة تبكي فرقاً مني وأنتم

= بالحق، وأنتم تشهدون بسرائر قد كتمتموها، وأعمال كنتم بها عاملين؟

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٤): أبي تغترون، أم علي تجترئون؟.........

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٤): كأنكم قوم ميتون.

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٥): يا عيسى! وما لا تحب أن يصنع بك فلا تصنعه بغيرك، وإن لطم أحد خدك الأيمن فأعطه الايسر...

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٥): يا إخوان السوء......

بالضحك تهجرون! أتتكم براءتي، أم لديكم أمان من عذابي، أم تتعرضون لعقوبتي! فبي حلفت لأتركنكم مثلاً للغابرين[١].

يا عيسى إن الدنيا حلوة، وإنما استعملتك فيها لتطيعني، فجانب منها ما حذرتك، وخذ منها ما أعطيتك عفواً.

انظر في عملك نظر العبد المذنب الخاطئ، ولا تنظر في عمل غيرك نظر الرب، وكن فيها زاهداً، ولا ترغب فيها فتطعب[٢].

يا عيسى اعقل وتفكر، وانظر في نواحي الأرض، كيف كان[٣] عاقبة الظالمين.

يا عيسى كل وصيتي نصيحة لك، وكل قولي حق، وأنا الحق المبين. وحقا أقول: لئن أنت عصيتني بعد أن أنبأتك، ما لك من دوني ولي ولا نصير.[٤]

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٥ إلى ٣٩٨): هناك زيادة عن محمد رسول الله ﷺ، بعد هذه العبارة، في نص الكليني، فتحت لها فصلاً خاصاً تحت اسم (محمد رحمة للعالمين).

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٨): يا عيسى! انظر في عملك نظر العبد المذنب الخاطئ، ولا تنظر في عمل غيرك بمنزلة الرب، كن فيها زاهداً، ولا ترغب فيها فتطعب.

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٨): كيف كانت عاقبة الظالمين.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٨): يا عيسى! كل وصيتي لك نصيحة، وكل قولي لك حق، وأنا الحق المبين. فحقا أقول: لئن عصيتني بعد ما أنبأتك، ما لك من دوني من ولي ولا نصير.

يا عيسى ذلل قلبك بالخشية، وانظر إلى من هو أسفل منك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، واعلم أن رأس كل خطيئة وذنب حب الدنيا[١]، فلا تحبها فإني لا أحبها.

يا عيسى أطب بي قلبك[٢]، وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أن سروري أن تبصبص إلي، وكن في ذلك حياً ولا تكن ميتاً.

يا عيسى لا تشرك بي شيئاً، وكن مني على حذر، ولا تغتر بالصحة، ولا تغبط نفسك، فإن الدنيا كفيئ زائل، وما أقبل منها كما أدبر، فنافس في الصالحات جهدك، وكن مع الحق حيثما كان، وإن قطعت وأحرقت بالنار، فلا تكفر بي بعد المعرفة، ولا تكن مع الجاهلين[٣].

يا عيسى صب الدموع من عينيك[٤]، واخشع لي بقلبك.

يا عيسى استغفرني في حالات الشدة[٥]، فإني أغيث المكروبين، وأجيب المضطرين، وأنا أرحم الراحمين.

---

(١) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٩ ـ ٣٩٨): يا عيسى! أذل إلي قلبك بالخشية، وانظر إلى من هو دونك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، واعلم أن رأس كل خطيئة أو ذنب هو حب الدنيا...

(٢) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٩): يا عيسى! أطب لي قلبك...

(٣) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٩): وإن قطعت وحرقت بالنار، فلا تكفر بي بعد المعرفة، ولا تكونن مع الجاهلين. فإن الشيئ يكون مع الشيء.

(٤) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٩): يا عيسى! صب لي الدموع من عينيك.

(٥) وفي نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٩): يا عيسى! استغث بي في حالات الشدة...

امرأة
من سامراء

في يوم ما في الصباح الباكر، وصل عيسى قرب بئر حفره يعقوب ووهبه لابنه يوسف. وكان عيسى متعباً من السير والسياحة، فأرسل حوارييه إلى المدينة لابتياع الطعام. ثم جلس قرب البئر على صخرة. وهنالك أتت امرأة سامرية لتسحب الماء من البئر.

فقال عيسى للمرأة: اعطيني شربة ماء. فأجابت المرأة: ألا تخجل أنت العبري أن تطلب الماء مني وأنا امرأة سامرية؟

أجاب عيسى: أيتها المرأة لو كنت تعرفين من طلب الماء منك، كان من الممكن أن تطلبي منه شربة من ماء.

فقالت المرأة: كيف تستطيع أن تعطيني شربة من الماء، وأنت لا تحمل الدلو والحبل لسحب الماء، في حين أن البئر عميق؟

أجاب عيسى: أيتها المرأة من شرب من هذا البئر يظمئ، ومن شرب من الماء الذي أنا أعطيه لن يظمئ أبداً، ولا أعطي ماء الحياة الذي عندي إلا لعطاشى الحياة الخالدة.

فقالت المرأة: يا سيدي أعطني جرعة من ماء الحياة الذي عندك.

أجاب عيسى: اذهبي ونادي زوجك وأنا أعطي الماء لكليكما.

فقالت المرأة: ليس لي زوج.

أجاب عيسى: لقد قلت الحقيقة، لأنه كان عندك خمسة أزواج، والذي عندك الآن ليس زوجك.

فارتبكت المرأة حينما سمعت ذلك وقالت: سيدي أحس أنك نبي. إذن ألتمس منك أن تخبرني أين تكون العبادة الصادقة، ومن هم العباد الحقيقيون؟

إن العبريين يصلون على جبل صهيون في المعبد الذي بناه سليمان في اورشليم، ويقولون هناك فقط لا في مكان آخر، يجد المرء الرحمة الربانية. في حين أن السامريين يعبدون على هذه الجبال، ويقولون إن العبادة يجب أن تكون على جبال سامراء لا في مكان آخر.

فتأوه عيسى وبكى قائلاً: اللعنة عليك يا يهودا! إنك تتباهين قائلة: معبد الله معبد الله! وتعيشين كما أن الله لا يوجد، منهمكة بكل وجودك في ملذات الدنيا ومكاسبها. إن هذه المرأة سوف تدينك بنار جهنم في يوم الجزاء، لأنها تبحث عن الرحمة الربانية أين تجدها.

ثم استدار إلى المرأة قائلاً: أيتها المرأة أنتم السامريون تعبدون رباً لا تعرفونه، أما نحن العبريون فنعبد رباً نعرفه. الحق أقول لك: **إن الله هو الروح والصدق، فيجب عبادته بالروح والصدق**. إن وعد الله قد أعطي في اورشليم وفي معبد سليمان لا في مكان آخر. ولكن صدقيني سوف يأتي

زمان سيشمل الله برحمته بلداً آخر، وكل مكان يمكن عبادته فيه بصدق، وأن الله سيتقبل برحمته كل صلاة صادقة في كل مكان.

فقالت المرأة: نحن نبحث عن المسيح الذي سيعلمنا حينما سيأتي.

أجاب عيسى: هل تعلمين يا امرأة أن المسيح سوف يأتي؟

فأجابت: نعم سيدي.

فابتهج عيسى فرحاً وقال: أنت امرأة مؤمنة[١] كما يبدو لي. فاعلمي أن كل المصطفين سينقذون بإيمان المسيح. لهذا من الضروري أن تعلمي بمجيئ المسيح.

فقالت المرأة: يمكن أن تكون أنت المسيح يا سيدي.

---

(١) هي نفس المرأة التي قال عنها عيسى قبل قليل، بأنها كان عندها خمسة أزواج، والذي عندها الآن ليس زوجها. يعني أنها زانية. والآن يقول عنها عيسى بأنها امرأة مؤمنة كما يبدو له. فيا ترى ما هو معيار الأنبياء للنظر إلى الناس! أعتقد أنه نفس المعيار الذي عبر عنه خاتم المرسلينﷺ حين يقول: إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة. أو كما يقولﷺ في مكان آخر: إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار. وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم عمله بعمل أهل الجنة. ومن حديث لهﷺ يتكلم عن بني آدم وكيف خلقوا على طبقات شتى: ومنهم من يولد كافرا ويحيى كافراً ويموت مؤمناً. إن النبي يقول: كما يبدو لي. ثم إن الناس أيضاً يقولون: كما يبدو لي. وشتان ما بينهما! وشتان ما بين الرؤيتين! وكم هو سهل على الناس أن يصدروا أحكاماً خاطئة كاذبة زائفة ظالمة! ـ والتي ذكرنا آنفاً أن عيسى قد قال: **الحكم الكاذب أبو الآثام جميعها** ـ أليسوا هم مسؤولين عن كل ما يصدر عن أفواههم؟ ايه والله! إنهم لمسؤولون! يقول الرسولﷺ لمعاذ: وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟

أجاب عيسى: بعثت حقاً كنبي الإنقاذ والخلاص إلى بني إسرائيل، ولكن سيأتي المسيح من بعدي مبعوثاً من قبل الله إلى العالمين، ومن أجله خلق الله العالمين. وببركة هذا المسيح سوف يعبد الله، وسوف تستمطر الرحمة، كما ينزل الله السماء على الناس مدراراً.

وتركت المرأة ركوتها وجرت إلى المدينة، لتعلن للناس هناك، كل ما سمعته من عيسى.

وفي أثناء حديثه مع المرأة وصل الحواريون وتعجبوا من أن عيسى كان يتكلم هكذا مع امرأة[١]. رغم ذلك لم يقل له أحد: لماذا تتكلم هكذا مع امرأة سامرية؟

عندما غادرت المرأة قالوا له: أيها المعلم تعال وكل.

أجاب عيسى: يجب أن آكل طعاماً آخر.

فتحاور الحواريون مع بعضهم البعض قائلين: يمكن أن يكون عابر سبيل قد تكلم مع عيسى، وذهب ليجد له طعاماً. وسألوا برنابا: هل كان أحد هنا، وربما أتاه بطعام؟ فأجاب برنابا: لم يكن هنا سوى المرأة التي رأيتموها، والتي أتت بهذه الركوة الخالية لتملأها ماء. فوقف الحواريون مذهولين ينتظرون تدفق الكلمات من فم عيسى المقدس.

فقال عيسى: أنتم لا تعلمون بأن الطعام الصادق هو العمل بمشيئة

---

(١) تعجب الحواريون من أن عيسى كان يتكلم هكذا مع امرأة. ويظهر أن الحواريين لم يكونوا قد وصلوا النضج الروحاني، كي تتحقق لهم الرؤية القدسية كما ذكرنا قبل قليل عن رؤية عيسى عليه السلام ورؤية خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله.

الله. ليس الخبز قوتاً يسد جوع الإنسان ويمده بالحياة، بل كلمة الله بمشيئته هي التي تمدنا بالحياة. ولهذا السبب فإن الملائكة المقدسين لا يأكلون، بل تغذيهم مشيئة الله فقط. وكذلك أنا وموسى وإلياس وآخر بتنا أربعين يوماً وليلة من دون طعام.

ثم رفع رأسه وقال: متى يكون الحصاد؟

أجاب الحواريون: بعد ثلاثة أشهر.

فقال عيسى: انظروا الآن كيف أن الجبل صار أبيضاً بالقمح. الحق أقول لكم: إن اليوم هو يوم حصاد عظيم.

بعد ذلك أشار إلى جمهور الناس وهم يتدفقون صوبه كي يروه. لأن المرأة حين دخولها المدينة استحثت جميع من فيها قائلة: أيها الناس تعالوا وشاهدوا نبياً جديداً بعث من قبل الله إلى بني إسرائيل. وقد حكت لهم كل ما سمعت من عيسى. وعندما وصلوا توسلوا إلى عيسى أن يمكث عندهم. فدخل عيسى المدينة، وأقام فيها يومين، يبرئ كل المرضى، ويعلم الناس كل شيء عن ملكوت الله.

فقال المواطنون للمرأة: نحن نعتقد في كلامه ومعجزاته أكثر مما رويت لنا عنه. إنه حقاً قديس من قبل الله، ونبي بعث لخلاص الذين يؤمنون به.

فكر ربانيا
ولا تفكر بشرياً

قال عيسى للحواريين: هل رأيتم يوماً الروث مخلوطاً مع البلسم؟

قالوا: لا يا سيدنا! من هذا المجنون الذي يفعل ذلك؟

فقال عيسى: أخبركم الآن أن في هذا العالم جنوناً أكبر من هذا. **يخدمون الله ثم يخلطون مع صلاتهم خدمة الدنيا. ما أكثر الأبرياء الذين خدعهم الشيطان! يصلون ثم يعملون بالتجارة أثناء صلاتهم، فيمقتون من قبل الله.**

أخبروني حينما تتوضؤون للصلاة هل تأخذون حذركم أن لا يمسكم شيء نجس؟ قالوا: بلى! قال عيسى: ماذا أنتم فاعلون أثناء الصلاة؟ تغسلون أرواحكم من المعاصي برحمة الله، ثم تسمحون لأنفسكم أن تتكلموا عن الأمور الدنيوية أثناء الصلاة. حذار أن تفعلوا ذلك! لأن أي كلمة دنيوية، تصبح روثاً يلقيه الشيطان على صفاء أرواحكم.

واستأنف عيسى حديثه قائلاً: اللعنة على هذه الدنيا لكثرة المعاصي! من الطبيعي أن تكثر الذنوب والمعاصي، لأن الدنيا تطفح بالخبث والشر

والأذى. ولكن الويل للإنسان الذي يسبب غضب الرب! من الأفضل أن يعلق حجر الطاحونة حول عنقه، ويغرق نفسه في أعماق البحر، من أن يؤذي جاره.

إذا كانت عينك تسبب غضب الرب فاقلعها، فالأجدر بك أن تذهب إلى الجنة بعين واحدة فقط، من أن تذهب بعينين إلى نار جهنم. وإذا كانت يدك أو رجلك تسبب غضب الرب فافعل كذلك، فالأجدر بك أن تذهب إلى مملكة السماء برجلٍ واحد أو بيد واحدة، من أن تذهب إلى الجحيم بيدين ورجلين.

فقال بطرس: يا سيدي كيف أفعل ذلك؟ من المؤكد أنني في فترة قصيرة سوف أكون مبتور الأعضاء.

أجاب عيسى: يا بطرس اطرح جانباً الفطنة البشرية، وستجد طريقك فوراً إلى الحقيقة الربانية. فكر ربانياً ولا تفكر بشرياً. إن الذي يعلمك هو عينك، والذي يساعدك على العمل هو قدمك، والذي يخدمك ويعينك هو يدك. فإذا كانت هذه الأعضاء تهيئ لك الفرصة للذنوب فاتركها.

فالأفضل لك أن تذهب إلى الجنة جاهلاً فقيراً قليل العمل، من أن تذهب إلى الجحيم عاقلاً ثرياً وصاحب أعمال عظيمة. كل شيء يمنعك عن خدمة الله فانبذه عنك، كما أنك ترمي بعيداً عن نفسك كل شيء يعرقل رؤيتك.

الحاكم العادل
سلطان اللّه في أرضه

قال برنابا: اللعنة على الأمراء! لأنهم سيذهبون إلى الجحيم.

فزجره عيسى قائلاً: أنت أحمق يا برنابا بسبب كلامك هذا. الحق أقول لك: إن الأمير ضروري للحكومة، أكثر بكثير من الاستحمام للبدن، أو الشكيمة للفرس، أو ذراع الدفة للسفينة. إذن لماذا أعطى الله سيفه لموسى ويوشع وساموئيل وداود وسليمان وكثيرين غيرهم، الذين كانت بأيديهم أمور الحل والفصل؟ إن الله أعطاهم سيفه لاستئصال الظلم واقتلاعه.

فقال برنابا: كيف تعطى القضاوة لبشر، وكيف بإمكانه أن يدين أو يعفو؟

أجاب عيسى: يا برنابا ليس بإمكان كل أحد أن يكون قاضياً. يا برنابا إدانة الآخرين تختص بالقاضي وحده. إن القاضي يدين المجرم، كما أن الأب الحنون يأمر ببتر عضو متعفن من ولده، حتى لا يتعفن الجسم كله.

الرحمة على التوبة لا على الأعمال

قال بطرس: كم ذا أصبر على أخي حتى يندم من ذنوبه؟

أجاب عيسى: بقدر ما تحب أن يصبر عليك للندم من ذنوبك؟

فقال بطرس: ليس كل أحد يستطيع أن يفهم ذلك. تكلم بشكل أوضح.

أجاب عيسى: اصبر على أخيك بقدر ما يصبر الله عليه.

فقال بطرس: ليس كل أحد يقدر على فهم هذا أيضاً.

أجاب عيسى: اصبر عليه بقدر ما يسمح الوقت له للندم.

فاكتئب بطرس وكذلك الحواريون لأنهم لم يفهموا المعنى.

لذلك تكلم عيسى وقال: لو كنتم على قدر من الفهم المتين، ولو علمتم بأنكم بأنفسكم كنتم مذنبين، لما فكرتم أبداً في أن تتوقفوا عن الرحمة والشفقة على المذنبين. لذلك أقول لكم بصورة واضحة بأنه ينبغي الصبر على المذنب حتى يتوب، ما دام الروح يدب في جسمه. لأن الله الرحيم القدير يصبر عليه كذلك.

لم يقل الله: إنني اعفو عن المذنب في الساعة التي فيها يصوم ويتصدق ويصلي ويحج، لأن كثيراً من الناس يفعلون ذلك، بيد أن الله يقضي عليهم بنار جهنم. لكن الله سبحانه وتعالى قال: حينما يبكي المذنب على ذنوبه ندما وحسرة، عندها سوف لا أذكر من جانبي آثامه وذنوبه التي اقترفها. هل فهمتم؟

أجاب الحواريون: فهمنا بعضها ولم نفهم البعض الآخر.

فقال عيسى: ما هو البعض الذي لم تفهموه؟

أجابوا: إن كثيراً من الذين يصلون ويصومون قضي عليهم بنار جهنم.

فقال عيسى: الحق أقول لكم **إن المنافقين يصلون ويتصدقون ويصومون أكثر بكثير من رجال الله. ولأنهم لا إيمان لهم، لذلك فإنهم لا يميلون إلى الندم والتوبة حباً في الله، ولذلك فهم ملعونون.**

الشيطان يكره الإيمان ويشجع الأعمال

فقال جون: أيها المعلم كلمنا عن الإيمان وحب الله.

فقال عيسى: الإيمان خاتم يختم الله به المصطفين من عباده. وهذا الخاتم أعطاه لرسوله، وعلى يديه يتلقى المصطفون الإيمان. وكما أن الله واحد، كذلك الإيمان واحد. لأجل ذلك عندما خلق الله رسوله قبل كل شيء، كذلك أعطاه الإيمان قبل كل شيء، وهو مثال الله، بل مثال مجسد لكل ما فعله الله ويفعله، ولكل ما قاله الله ويقوله.

المؤمن يرى بإيمانه أفضل من غيره الذي يرى بعينيه، لأن العيون يمكنها أن تخطئ، بل الأحرى أنها فعلاً تخطئ في معظم الأحيان، بيد أن الإيمان لا يخطئ أبداً، لأن أساسه الله وكلام الله. صدقوني إن خلاص المصطفين من قبل الله يتم بالإيمان. ومن المؤكد أنه يستحيل على أحد أن يرضي الله من دون الإيمان.

لذلك فالشيطان غير مهتم بإبطال الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل إنه على العكس من ذلك، يحث على رعاية الأعمال والأحكام، لأنه عدو الإنسان، ويسره أن يراه يعمل ويكد ويتعب من دون أجر. بيد أنه يبذل

قصارى جهده أن يبطل الإيمان ويعدمه بكل جد واجتهاد.

لذلك فالإيمان، بطور أخص، يجب أن يحرس ويحافظ عليه بكل دقة وإخلاص. وأسلم طريق لهذا الغرض أن يترك المؤمن كلمة (لماذا)[١]، لأن كلمة (لماذا) أخرجت الإنسان من الجنة، وحول الشيطان من ملاك جميل إلى عفريت مريع.

فقال جون: وكيف نهجر كلمة (لماذا)، في حين أن هذه الكلمة هي بوابة المعرفة؟

أجاب عيسى: **لا! إنها بوابة جهنم.**

عندئذ صمت جون في حين أن عيسى أضاف قائلاً: **أيها الإنسان عندما تعرف أن الله قال شيئاً من أنت حتى تقول: يا رب لماذا قلت كذا ولماذا فعلت كذا؟ هل يمكن للفخاريات أن تخاطب صانعها قائلة: لماذا صنعتني للماء ولم تصنعني للبلسم؟**

الحق أقول لكم: إنه من الضروري أن تقاوموا الإغراء والوسوسة الشيطانية بأن تقووا أنفسكم بهذه الكلمات: (قال الله كذا) و(فعل الله كذا) و(إن شاء الله)، لأنكم بهذا سوف تعيشون في أمن وسلام.

---

(١) إذا أردت أن تعاين وتشاهد كيف تتحق معجزات الله في حياتك، اترك كلمة (لماذا)، واستقر في الله الذي خلقك وخلقني. استقر في مشيئة الله وشاهد السينما. شاهد الإعجاز الذي يتحقق في حياتك، الذي كنت عنه من الغافلين. إذا كانت كلمة (لماذا) للإعتراض على مشيئته عز وجل فأنت أحمق. أما ترى أنك لا تستطيع أن توقف شيئاً من مشيئته! فمن أراد المحال فهو أحمق أخرق، وأنه ليس أبدع مما كان! وأن الخير فيما وقع! أما ترى أن الإعتراض لا يغير من الواقع شروى نقير! إلا أنك أنت الأحمق، الذي تتضرر من هذا الإعتراض الأخرق، وتعاني وتعاني وتعاني في حياتك بسبب ذلك.

وما من دابة في الأرض إلا على اللّه رزقها

قيل في كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ :

قال عيسى ابن مريم صلوات الله تعالى عليه : يا معشر الحواريين ، إن ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل ، هو في ثلاث منها واثق ، وهو في الرابعة سيئ الظن ، يخاف خذلان الله إياه .

فأما المنزلة الأولى ، فإنه خلق في ظلمات ثلاثة : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، فوفاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن ، فإذا أخرج من ظلمة البطن ، وقع في اللبن ، لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ، ولا يتناوله بيد ، ولا ينهض إليه بقوة ، بل يكره إليه إكراهاً ، ويوجر إيجاراً ، حتى ينبت عليه لحمه ودمه ، فإذا ارتفع عن اللبن ، وقع في المنزلة الثالثة من الطعام من أبويه ، يكسبان عليه من حلال وحرام ، فإن ماتا عطف عليه الناس ، وهذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يأويه وهذا يكسوه . فاذا وقع في المنزلة الرابعة ، واشتد واستوى وكان رجلاً ، خشي أن لا يرزق ، فيثب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ، ويغصبهم أموالهم ، مخافة خذلان الله تعالى إياه[1] .

---

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ : صفحة ٢٠٢ .

فتنة في إسرائيل بشأن ماهية عيسى

في هذا الأثناء كان هناك ثورة واضطراب وشغب وهياج في منطقة يهودا بشأن ماهية عيسى، لأن الجنود الرومان، بفعل وسوسة الشيطان، قد استفزوا العبريين وأثاروهم وهيجوهم قائلين: إن عيسى هو الله، وقد نزل إلى الأرض ليزور الناس.

لذلك قامت ثورة وفتنة وأعمال شغب وتمرد وعصيان في جميع يهودا لمدة ما يقارب ٤٠ يوماً. وتسلح الناس، بحيث إن الولد قام ضد أبيه، والأخ ضد أخيه، لأن البعض كان يقول: عيسى هو الله قد نزل إلى الأرض، والبعض الآخر كان يقول: بل هو ابن الله، والآخرون كانوا يقولون: إن الله لا يشبه الإنسان في شيء، فهو لم يلد ولم يولد، ولأجل ذلك فإن عيسى الناصري نبي الله.

وحدث كل ذلك بسبب المعجزات الكبيرة التي تحققت على يدي عيسى.

عندئذ ولأجل إسكات الناس، كان من الضروري أن يخرج الكاهن

الأعظم في موكب، وهو في كسوته الرسمية، واسم الله المقدس على جبينه. وكذلك خرج الحاكم بيلات والملك هيرود.

فاجتمعت الجيوش الثلاثة في ميزبا، كل جيش يتألف من ٢٠٠،٠٠٠ جندي مسلحين بالسيوف. فتكلم هيرود إلى الناس، ولكنهم لم يهدؤوا. ثم تكلم الحاكم والكاهن الأعظم قائلين: يا إخواني هذا الحرب من عمل الشيطان، لأن عيسى حي يرزق، فينبغي الرجوع إليه كي نسأله، حتى يشهد على نفسه، ومن ثم نعتقد به حسب كلامه.

فهدأ الناس وتركوا أسلحتهم، وتعانقوا كل يقول لصاحبه: سامحني يا أخي!

وبناء عليه فإن كل واحد من هؤلاء الناس صمم على الاعتقاد بعيسى حسب كلام عيسى نفسه. وعين الحاكم والكاهن الأكبر جوائز كبرى لمن يعلن عن محل وجود عيسى.

في ذلك الوقت كان عيسى وحواريوه قد ذهبوا إلى جبل سينا بأمر من جبرائيل. وهناك أمضوا ٤٠ يوما للعبادة. وبعدئذ جاء عيسى قريباً من نهر الأردن، كي يستعد للسفر إلى اورشليم.

وهناك وجده واحد ممن كانوا يعتقدون بأن عيسى هو الله. فهرع إلى المدينة، وهو في فرح عظيم صارخاً: لقد جاء ربنا! وعندما وصل المدينة، هيج الناس واستفزهم صارخاً: يا اورشليم لقد جاء ربنا، فتهيئوا لاستقباله! وهنالك أدلى بشهادته بأنه وجد عيسى قرب نهر الأردن.

فخرج كل الناس صغيرهم وكبيرهم من المدينة لرؤية عيسى، بحيث

أن المدينة قد أخليت، وحتى النساء خرجت تحمل أطفالها، ونسوا أن يأخذوا طعامهم معهم.

فوصلت الأخبار إلى الحاكم والكاهن الأعظم، وخرجا كل في موكبه، وبعثا إلى هيرود كي يخرج في موكبه، لاستقبال عيسى، من أجل إطفاء نار الفتنة.

وبحثوا عنه لمدة يومين في الصحراء، قرب نهر الأردن. وفي اليوم الثالث عند الظهيرة، وجدوه هو وحوارييه يغتسلون في النهر، استعداداً للصلاة حسب كتاب موسى.

فاندهش عيسى كثيراً من منظر الجماهير، التي غطت الأرض، وقال لحوارييه: يمكن أن الشيطان قد أثار فتنة وشغباً في يهودا. يا ليت ربي سلب الشيطان سلطته على المذنبين!

اعتراف عيسى
بأنه بشر

واقتربت الجماهير، وعندما عرفوه صرخوا قائلين: مرحباً بإلهنا! وبدأوا يبجلونه كما يبجلون الله. فأن عيسى أنينا عظيماً وقال: ابتعدوا عني أيها المجانين، لأني أخاف أن تنشق الأرض، وتبتلعني وإياكم لكلامكم المقيت هذا! وجزع الناس ورعبوا، وبدأوا يبكون وينتحبون.

ورفع عيسى يده كي يسكتوا وقال: يا بني إسرائيل لقد أخطأتم خطأ عظيماً حينما ناديتموني ـ أنا الإنسان ـ إلهاً. إني أخشى، بسبب هذا الضلال، أن يبتلي الله المدينة المقدسة بكارثة وبلاء، ويدخلها تحت سلطة الأجانب وفي عبوديتهم. ألا لعنة الله على الشيطان، الذي سبب هذه الفتنة والاضطراب والشغب والهياج!

ولطم عيسى على وجهه بكلتي يديه، وضج الناس بالبكاء والنحيب، حتى لم يعودوا يسمعوا كلامه. ومرة ثانية رفع عيسى يده كي يصمت الناس، فتوقفوا عن البكاء وقال: أعترف أمام السماء، وأشهد جميع من في الأرض، بأني بريءٌ مما تقولون.

إنما أنا بشر، ولدتني أم فانية غير خالدة، وأنا محكوم علي بقضاء الله وقدره، وأعاني شقاء الأكل والنوم والبرد والحر كسائر البشر. وفي يوم القيامة، يكون كلامي هذا كالسيف، يخرق كل أحد يعتقد بأني أكثر من بشر.

وفي هذه الأثناء، رأى عيسى حشوداً عظيمة من الفرسان، ولاحظ مواكب الحاكم بيلات والملك هيرود والكاهن الأعظم.

فقال عيسى: يمكن أن يكونوا هم أيضاً قد أصبحوا مجانين.

فاجتمعوا حوله، وكون الحاكم وهيرود والكاهن الأعظم حلقة حول عيسى، بحيث إن الجنود لم يستطيعوا منع الناس من الاقتراب منهم، لاشتياقهم العظيم إلى استماع محاورة عيسى مع الكاهن الأعظم.

فاقترب عيسى من الكاهن بإجلال وتبجيل، إلا أن الكاهن أراد أن ينحني أمامه ويعبده، ولكن عيسى صاح قائلاً: حذار أن تفعل ذلك، فأنت كاهن الرب الحي، ولا يمكن أن تقترف خطيئة بحق ربنا العظيم!

فأجاب الكاهن الأعظم: إن أهل يهودا قد دهشوا وانبهروا من معجزاتك ومن تعاليمك وهم يصرخون قائلين بأنك الله. لأجل ذلك، وتحت ضغط الشعب، أتيت هنا عندك مع الحاكم الروماني والملك هيرود. نتوسل إليك بقلوبنا أن تنهي هذه الفتنة التي قامت على حسابك. لأن البعض يقول: إنك الله، والبعض الآخر يقول: إنك ابن الله، والآخرون يقولون: إنك نبي.

فأجاب عيسى: وأنت أيها الكاهن الأعظم لماذا لم تطفئ هذه الفتنة؟

أيمكن أن تكون أنت أيضاً قد فقدت عقلك؟ كيف ذهبت النبوءات وقانون الله إلى سلة النسيان! أي يهودا ما أشقاك! كيف انطلت عليك خديعة الشيطان!

ثم قال بصوتٍ عالٍ مرة أخرى:

أعترف أمام السماء، وأشهد جميع من في الأرض، بأني بريءٌ مما يقوله الناس عني بأني أكثر من بشر. إنما أنا بشر ولدتني أم فانية غير خالدة، وأنا محكوم علي بقضاء الله وقدره، وأعيش هنا كسائر البشر، ومعرض للشقاء والتعاسة والبؤس والفاقة والضنك والإملاق مثلهم.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، لقد اقترفت أيها الكاهن إثماً عظيماً بما قلته. ألا تنزل النقمة الكبرى على المدينة المقدسة، بسبب هذا الإثم!

فقال الكاهن: نسأل الله أن يعفو عنا، وأن تدعو لنا بالعفو والغفران.

معجزات الأنبياء بإذن اللَّه

عندئذ قال الحاكم وهيرود: إنه من المستحيل أن يصنع إنسان ما تصنعه أنت، ولذلك فنحن لا نفهم ما تقول.

فأجاب عيسى: أنتما صادقان فيما تقولان، فكما أن الله يعمل خيراً في الإنسان، كذلك الشيطان يعمل شراً فيه. إن الإنسان كالحانوت، فأيهما دخل هناك ـ برضا الإنسان طبعاً ـ عمل وباع بضاعته.

أيها الحاكم وأيها الملك، أنتما تقولان ذلك لأنكما غريبان عن قانوننا. إنكما إذا قرأتما التوراة وعهد الله وميثاقه، ستريان أن موسى بعصاه حول الماء إلى دم عبيط، والغبار إلى براغيث، والطل إلى عاصفة، والنور إلى ظلام. لقد غطى موسى أرض مصر بالضفادع والفئران، وشق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، وأغرق فرعون في البحر.

وأنا لم أصنع شيئاً من هذه المعجزات. وكلنا نقر بأن موسى ميت في الوقت الحاضر.

ويوشع أوقف الشمس عن الحركة، وشق نهر الأردن، ما لم أصنعه أنا

حتى الآن. وكلنا نقر بأن يوشع ميت في الوقت الحاضر.

وإلياس أنزل النيران من السماء بطور مرئي وأمطرها. وهذا لم أصنعه أنا. وكلنا نقر بأن إلياس بشر.

وكذلك جميع الأنبياء والقديسين ورجال الله، الذين صنعوا المعجزات بإذن الله وحوله وقوته، ما لا تستطيع العقول، التي لا تعرف الله ربنا القدير الرحيم، أن تدركها، الذي تقدست أسماؤه إلى الأبد.

عقيدة التوحيد
في التوراة

ثم طلب الحاكم والكاهن والملك من عيسى أن يصعد مكاناً مرتفعاً، ويتكلم إلى الشعب كي يهدئهم. ففعل ذلك وقال بصوتٍ عالٍ: دعوا كاهننا يصعد مكاناً مرتفعاً، حتى يؤكد أمام الناس كلامي. وفعل الكاهن ذلك، فخاطبه عيسى بكلام واضح جلي، حتى يسمعه كل الحاضرين قائلاً:

إنه مكتوب في التوراة، وفي ميثاق الله الحي القيوم وعهده، بأن ربنا ليس له بداية ولن تكون له نهاية.

فأجاب الكاهن: وهو كذلك.

فقال عيسى: وهو مكتوب هناك، بأن ربنا خلق كل شيء بكلمته فحسب.

فأجاب الكاهن: وهو كذلك.

فقال عيسى: وهو مكتوب هناك، بأن الله غير مرئي، وهو مخفي عن العقل البشري، وهو روحي لا مادي، لا جسد له، وغير مركب، ولا يتغير أبداً.

أجاب الكاهن: وهو حقاً كذلك.

وقال عيسى: وهو مكتوب هناك، بأن ربنا أزلي سرمدي لانهائي وغير متناهي، وكيف أن السماوات والأرضين لا تستطيع احتوائه.

أجاب الكاهن: يا عيسى هكذا قال نبي الله سليمان.

فقال عيسى: وهو مكتوب هناك، بأن الله غني عن العالمين، بحيث أنه لا يأكل ولا ينام، وهو كامل لا ينقصه شيء.

أجاب الكاهن: هو كذلك.

فقال عيسى: إنه مكتوب هناك، بأن ربنا في كل مكان، وأن لا إله إلا هو، وهو المحيي وهو المميت، وهو يفعل ما يشاء.

أجاب الكاهن: وهو كذلك مكتوب هناك.

فرفع عيسى يديه إلى السماء قائلاً:

يا ربنا يا إلهنا هذه عقيدتي، لا أحيد عنها أبداً إلى يوم القيامة، وهي شهادتي ضد أي أحد يعتقد غير هذا. ثم استدار إلى الناس وقال:

اندموا وتوبوا! أما لاحظتم الإثم العظيم الذي ارتكبتموه، من كل ما قاله الكاهن الأعظم بأنه مكتوب في كتاب موسى وميثاق الله الأبدي؟ أما **ترون أني بشر مرئي، وقطعة من الطين تمشي على الأرض، وفان غير خالد، كسائر البشر، وكانت لي بداية، وستكون لي نهاية، وأنا غير قادر حتى على خلق ذبابة؟**

فضج الناس بالبكاء والنحيب وقالوا: يا إلهنا لقد أثمنا في حقك

فارحمنا! وطلبوا من عيسى أن يدعو الله لسلامة المدينة المقدسة، وأن لا يصب الله جام غضبه عليهم، بحيث يدع مدينتهم المقدسة تداس وتوطئ تحت أقدام الغزاة من الأمم.

فرفع عيسى يديه إلى السماء، ودعا الله أن يحفظ المدينة المقدسة، ويحفظ الناس. وأعلى الناس أصواتهم قائلين: آمين.

عيسى رسول من أولي العزم

وعندما انتهت الصلاة، قال الكاهن بصوتٍ عالٍ مخاطباً عيسى: يا عيسى انتظر، لأننا نريد أن نعرف من أنت، كي يهدأ الشعب.

أجاب عيسى: أنا عيسى ابن مريم من ذرية داود، وأنا بشر فانٍ غير خالد، وأخشى الله، **وألتمس كل المجد والفخر والشرف والكرامة والجلال والبهاء والعظمة لله وحده**.

فقال الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى، بأن الله سوف يبعث المسيح، الذي يعلن لنا مشيئة الله، وسيأتي إلى العالم برحمة من الله. لذلك أطلب منك أن تخبرنا هل أنت حقاً المسيح الموعود الذي ننتظره؟

أجاب عيسى: إنه صحيح بأن الله قد وعد بمجيئ المسيح، ولكني لست المسيح، لأنه خلق قبلي وسوف يأتي من بعدي.

فقال الكاهن: إنه واضح وبين من كلامك ومعجزاتك، بأنك نبي قديس من قبل الله، ونحن نعتقد بذلك. لأجل ذلك أطلب منك باسم جميع يهودا وإسرائيل أن تخبرنا، حباً في الله، كيف سيأتي المسيح؟

أجاب عيسى: بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، أنا لست المسيح، الذي تنتظره جميع قبائل الأرض، كما وعد الله سبحانه أبانا إبراهيم قائلاً: سيكون من ذريتك من سأبارك به جميع قبائل الأرض.

ولكن بعد موتي سيثير الشيطان هذه الفتنة الملعونة مرة أخرى، بحيث أن ناساً عديمي التقوى سوف يعتقدون بأني الله وابن الله، وسوف يدنسون كلامي ويفسدون عقيدتي، بحيث لا يكاد يبقى من المؤمنين إلا ثلاثون.

وعندئذ سوف يرحم الله هذا العالم، وسوف يبعث رسوله، الذي خلق جميع الأشياء من أجله. سوف يأتي من الجنوب، باقتدار وقوة، ونفوذ وصولة، وسلطة وسطوة، وسلطان ودولة، وسوف يحطم الأصنام ويدمرها ويخربها، ويبيد الوثنيين ويهلكهم ويفنيهم.

وسوف يزعزع ملك الشيطان وسلطانه وسيطرته، وسؤدده ونفوذه وسلطته. وسوف يأتي برحمة من الله، لإنقاذ أولئك الذين آمنوا به وخلاصهم. طوبى لمن صدق كلامه وآمن به!

ورغم أني لا أستحق أن أحل شريط حذائه، إلا أنني رأيته برحمة من الله وفضله ومنته.

فقال الكاهن والحاكم والملك: لا تغتم يا عيسى أيها القديس من قبل الله! إن هذه الفتنة لن تقع في زماننا، لأننا سنكتب إلى مجلس الشورى الروماني المقدس، أن يصدروا مرسوماً قيصرياً، يحرم على الناس أن يسموك الله أو ابن الله.

أجاب عيسى: إنني لا أجد السلوان في كلامكم، لأن الظلام سوف

يأتي من حيث تأملون أن يأتي الضياء. ولكنني أجد السلوان في قدوم رسول الله، الذي سوف يبطل أي فكر زائف عني، وأن عقيدته سوف تمسك بالعالم أجمع، وسوف تنتشر، كما وعد الله أبانا ابراهيم. والذي يسليني ويعزيني ويواسيني هو أن عقيدته لا نهاية لها، وستبقى مصونة حريزة من قبل الله.

فقال الكاهن: وهل سيأتي بعد رسول الله أنبياء آخرون؟

أجاب عيسى: لن يأتي بعده أنبياء حق من قبل الله، بل سيأتي عدد كبير من الأنبياء الزائفين، وهذا ما يحزنني. لأنه حق القول من الله، أن الشيطان سوف يثير أنبياء الباطل، الذين سوف يتخفون وراء الادعاءات الباطلة، ويتعللون بإنجيلي.

فقال هيرود: وكيف هو حق القول من الله، أن عديمي التقوى سوف يأتون!

أجاب عيسى: هو بهذه البساطة، أن كل من لا يعتقد بصدق خلاصه[1]، يجب أن يعتقد بكذبة هلاكه. ولهذا أقول لكم: إن أهل الدنيا

---

(١) إن العالم محكوم بالجبر، إلا أن عالم الإنسانية محكوم بالجبر والاختيار معاً، لا بالجبر المطلق ولا بالاختيار المطلق بل أمر بين الأمرين، كما قال الإمام الباقر ﷺ. إنه في علم الله، وفي حق القول من الله، ما سيحدث في عالم الاختيار الوسيع من البلايا والمنايا. يقول الله عز وجل عن الناس: وأكثرهم فاسقون. وأكثرهم للحق كارهون. وأكثرهم لا يعلمون. إن تتبع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيله، إلى آخره.
فواضح جداً أن أهل الدنيا يحتقرون أنبياء الحق، ويحبون أنبياء الباطل، ويحتقرون أولياء الحق ويحبون أولياء الباطل، ويحتقرون علماء الحق ويحبون علماء الباطل، =

....

= لأن الطيور على أشكالها تقع. إنه من الطبيعي أن الفاسق يميل إلى الفاسق، وأن الكاره للحق يميل إلى الكاره للحق، وأن الجاهل يميل إلى الجاهل. فالواضح الجلي أن عديمي التقوى كثيرون كثيرون، وهم لا يعتقدون بأن المثل العليا لهم.

فإذا وقع أحدهم مثلاً في محنة وقلت له: اصبر ولا تجزع، كما صبر الإمام الحسين عليه السلام أو كما صبرت أخته زينب عليها السلام، يقول لك: مستحيل مستحيل أن أصل إليهم. وبذلك يتنصل عن العمل ويبرر لنفسه الجزع وعدم الصبر. وكذلك في المثل العليا الأخرى، فإنه يعتقد جزماً بأنها تختص بالأئمة فقط. وأنا لا أفهم كيف أن الأئمة عليهم السلام هم القدوة لهم، بيد أنهم يعتبرونها من المستحيلات أن يقتدوا بهم وأن يحتذوا بهم حذو النعل بالنعل!!! وإذا قلت لواحد منهم، ولو كان من مثقفيهم ومطوعيهم، يجب أن يكون هدفك في الحياة، الذي يجب أن تعمل له ليل نهار، (النفس المطمئنة، والرضا المطلق برضا الله، والتسليم المطلق لمشيئة الله وقضائه وقدره)، وأن الإمام الحسين عليه السلام ـ الذي هو قدوتك ـ كان على هذه المبادئ إلى آخر نفس من حياته، يقول لك: مستحيل مستحيل أن أصل إليهم. وبذلك يتنصل من العمل، لأنه يكره العمل.

أما الأقوال فما شاء الله، فإنه يحفظ معظم النصوص ظهرا عن قلب، ويفكر أن حفظه هذا يدخله الجنة. وأنا أعرف أن مسجلات الصوت تحفظ النصوص أحسن منه. ولا أفهم كيف أن المسجلات لا تدخل الجنة! وأنا أعرف أن الفاسقين هم بالعمل لا بالكلام، وأن الكارهين للحق هم بالعمل لا بالكلام، وأن الجاهلين هم بالعمل لا بالكلام. وأنا أعرف أن الفاسقين يدعون أنهم صالحون، وأن الكارهين للحق يدعون أنهم أهل الحق، وأن الجهلة يدعون أنهم عالمون. وعلى الأخص الجاهلون، أصحاب الجهل المركب، الذين هم في قمة الجهل، فإنهم يفكرون بأنهم من العلماء الأعلام. ولأنهم يكرهون العمل، فمن الطبيعي أن لا يعتقدوا بخلاصهم بصدق. وماذا غير الخلاص إلا الهلاك! وماذا غير الحق إلا الضلال!

وما أقل الاعتراف حقا بالخطيئة، والندم والتوبة النصوح على الخطيئة، والبكاء =

يحتقرون أنبياء الحق، ويحبون أنبياء الباطل، كما كان في زمن النبيين ميخا وإرميا، لأن الطيور على أشكالها تقع.

عندئذ سأل الكاهن: ما هو اسم المسيح وما هو علامة ظهوره؟

أجاب عيسى: اسم المسيح هو محمد، لأن الله أعطاه هذا الاسم، حينما خلق روحه متجلية في جلال سماوي. وخاطبه الله سبحانه وتعالى قائلاً:

انتظر يا محمد! لأني لأجلك سأخلق الجنان والأكوان، وجمعاً عظيماً من المخلوقات، والتي سأقدمها هدية لك، بحيث إن من باركك أجعله مباركا، ومن لعنك أجعله ملعوناً. وحينما أبعثك إلى العالم، سوف أبعثك كرسولي للخلاص والنجاة والفلاح، وسيكون كلامك الحق والصدق، بحيث أن السماوات والأرض ستزولان، بيد أن عقيدتك لن تزول أبداً.

واسمه المبارك هو محمد.

ثم إن الحشود العظيمة رفعت أصواتها قائلة: يا ربنا ابعث رسولك: ويا محمد عجل في قدومك لخلاص العالم!

= والنحيب على الخطيئة، ناهيك عن قلب نمط الحياة الشريرة رأساً على عقب، من نمط الأهواء الأرضية، إلى نمط الحياة السماوية، حيث الطهارة القلبية والروحية والوجدانية، وجلال الذكر الإلهي وبهائه، والجمع على الله بخدمة توصله إليه، وحب الله واختيار جواره! فلو وجدوا، فهم والله أهل الجنة، إذا استمروا في جوار الله، إلى آخر نفس من الحياة.

معجزة إطعام
الألوف من الناس

غادرت الحشود مع الكاهن والحاكم وهيرود، وهم منهمكون في حوار عنيف حول عيسى وعقيدته. فالتمس الكاهن من الحاكم أن يكتب إلى مجلس الشورى في روما ويشرح لهم كل ما حصل في ذلك اليوم. ففعل الحاكم ذلك، وأشفق المجلس على بني إسرائيل، وأصدر مرسوماً منع بموجبه أن يسمي أحد نبي اليهود عيسى الناصري، إلهاً أو ابن إله، وإلا حكم عليه بالإعدام. ونقش المرسوم على نحاس، حيث وضع في المعبد، وأحيط الناس علماًبذلك.

وعندما غادر معظم الناس، بقي هناك حوالي خمسة آلاف رجل ـ غير النساء والأطفال ـ وقد أنهكهم السفر، وبقوا يومين من دون طعام، لأنهم في غمرة اشتياقهم لرؤية عيسى، نسوا أن يأتوا بالطعام معهم. فأكلوا هناك الأعشاب الخام، ولم يستطيعوا أن يغادروا مثل الآخرين.

وعندما علم عيسى بذلك أشفق عليهم وقال لفيليب: أين نجد لهم طعاما لئلا يهلكوا من الجوع؟

أجاب فيليب: يا سيدي مئتان قطعة من الذهب لا تكفي لابتياع طعام بحيث يتذوق كل واحد منهم اليسير منه. فقال أندرو: يوجد هنا طفل عنده خمس أرغفة وسمكتان، ولكن كيف يكفي هذا القليل لإطعام هذا الحشد العظيم!

فأجاب عيسى: دع الناس يجلسون. فجلسوا على الكلأ، في مجموعات تتشكل من أربعين إلى خمسين شخصاً. فقال عيسى: بسم الله! ثم أخذ رغيفاً، وتوسل إلى الله، ثم كسر الرغيف، وأعطاه إلى حوارييه، ومن ثم وزع الحواريون على الجمهور. وكذلك فعلوا بالأسماك. فأكل الجميع وشبعوا.

ثم قال عيسى: اجمعوا بقايا الطعام. فجمع الحواريون الشظايا، وملأوا بها اثنتي عشرة سلة. وبقي الجميع مذهولين، كل واحد واضعاً يده على عينيه قائلاً: هل أنا يقظان أم حلمان؟ وبقوا كذلك لساعة من الزمن، مبهوتين من عظمة المعجزة.

ثم شكر عيسى الله، وسرح الجميع، إلا اثنين وسبعين رجلاً، أصروا على عدم تركه. فأدرك عيسى قوة إيمانهم واصطفاهم كحواريين.

اللَّه غيور

ثم جمع عيسى حوارييه الاثنين والسبعين مع الاثني عشر، وجلس على حجر وقال وهو يتأوه: لقد وجدنا في هذا اليوم شراً عظيماً في يهودا وفي إسرائيل، بحيث إن قلبي لا زال يرتعش في صدري من خشية الله.

الحق أقول لكم: إن الله غيور لشرفه ومجده وكرامته، وهو يحب إسرائيل. وأنتم تعرفون أنه إذا أحب شاب امرأة، ثم إنها لم تحبه، بل أحبت شخصاً آخر، يغضب الشاب ويسخط ويحنق وربما قتل منافسه.

وكذلك يفعل الله! فإذا أحبت إسرائيل شيئاً، ثم نست الله بسبب ذلك الشيء، فإن الله قد يجعل أعز شيء عنده لا شيء. وأي شيء أعز عند الله من الكهانة ومن المعبد المقدس؟

ففي زمان إرميا النبي، حينما نسوا بنو إسرائيل الله، وتباهوا بالمعبد وحده ـ لأنه لم يكن هناك في كل العالم شيء مثله ـ غضب الله عليهم. وقام نبوخدنصر ملك بابل، وغزا بجيشه الجرار المدينة المقدسة، وأحرقها وأحرق المعبد المقدس، بحيث إن الأشياء المقدسة التي ارتعش الأنبياء من لمسها، كانت تداس تحت أقدام الكفار الأشرار.

وإبراهيم أحب ابنه إسماعيل أكثر مما يجب. فأمره الله أن يقتل ابنه، كي يستأصل ذلك الحب المتعاظم المذموم من قلب إبراهيم. وكان على وشك أن يقتله، لولا أن السكين لم يعمل في رقبته، لأنه لم يكن حاداً بالكفاية.

وداود أحب ابنه آبشالوم حباً شديداً. فقضى الله أن يثور ابنه ضده، وعلق من شعره على غصن شجرة، ثم قتل من قبل يوآب. ما أقسى حكم الله، لأن آبشالوم أحب شعره فوق كل شيء، وحول الله ذلك الشعر إلى حبل علق به أبشالوم على غصن شجرة!

وأيوب البريء أحب أولاده السبعة وبناته الثلاثة حتى أوشك أن يجتاز حدود الاعتدال في حبه، فسلمه الله بيد الشيطان، الذي لم يجرده من أولاده ومن ثروته في يومٍ واحد فحسب، بل أصابه أيضاً بمرضٍ عضال، بحيث أنه في السنوات السبعة التالية، كانت الديدان تخرج من لحمه.

وأبونا يعقوب أحب يوسف أكثر من إخوانه. فقضى الله أن يباع يوسف، وأن يخدع أبناء يعقوب أباهم، بحيث إنه صدقهم، بأن الذئب قد قتل يوسف، ثم أقام عشر سنوات في الحزن الشديد على يوسف.

بحق الحي الذي لا يموت، إنني لأخاف من غضب الله علي. لهذا يجب عليكم أن تذهبوا إلى يهودا وإسرائيل، وتعظوا الحق والحقيقة لقبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، حتى لا ينطلي خداع الشيطان عليهم.

فأجاب الحواريون بخوف ورعب وهم ينتحبون: سنفعل كل ما تأمرنا به.

فقال عيسى: سنصلي ونصوم ثلاثة أيام، وفي كل مساء حين يشرق النجم الأول سنصلي إلى الله ثلاث مرات، ونتضرع إليه من أجل رحمته ثلاث مرات، لأن ذنب إسرائيل أفجع وأفظع من الذنوب الأخرى بثلاثة أضعاف.

فأجاب الحواريون: سمعاً وطاعة.

وفي صباح اليوم الرابع، جمع عيسى حوارييه ورسله وقال لهم: سيبقى معي برنابا وجون. واذهبوا أنتم جميعاً إلى جميع مناطق سامراء ويهودا وإسرائيل، وعلموا الناس كيف يندموا ويتوبوا. إن الفأس يوشك أن يقطع الشجرة. وادعوا لشفاء المرضى، لأن الله قد أعطاني القدرة على كل مرض.

محمد رحمة للعالمين[١]

ثم أوصيك يا بن مريم البكر البتول، بسيد المرسلين وحبيبي، فهو أحمد صاحب الجمل الأحمر والوجه الأقمر المشرق النور الطاهر القلب الشديد البأس الحيي المتكرم، فإنه رحمة للعالمين سيد ولد آدم يوم يلقاني، أكرم السابقين علي وأقرب المرسلين مني، العربي الأمي الديان بديني الصابر في ذاتي المجاهد المشركين ببدنه عن ديني أن تخبر به بني إسرائيل وتأمرهم أن يصدقوا به وأن يؤمنوا به وأن يطيعوه وينصروه.

قال عيسى: إلهي! فمن هو حتى أرضيه، فلك الرضا؟ قال:

هو محمد رسول الله إلى الناس كافة، أقربهم مني منزلة وأوجبهم عندي شفاعة، طوبى له من نبي، وطوبى لأمته إن هم لقوني على سبيله.

---

(١) هذا النص غير موجود في أمالي الصدوق، بيد أنه موجود في نص الكليني (من كتاب كلمة الله صفحة ٣٩٥ إلى ٣٩٨). وهذا النص رواه العلامة محمد بن يعقوب الكليني، عن علي بن إبراهيم القمي، عن أبيه، عن علي بن أسباط، عنهمﷺ. ومقتضى إسناد الكليني: أن الحديث مروي عن الإمام الرضا، أو الإمام الجواد، لأن علي بن أسباط من أصحابهما وهو ثقة. وفي النص الذي رواه الكليني زيادة على النص الذي رواه الصدوق.

يحمده أهل الأرض ويستغفر له أهل السماء، أمين ميمون طيب مطيب، خير الباقين عندي، يكون في آخر الزمان، إذا خرج أرخت السماء عزاليها، وأخرجت الأرض زهرتها، حتى يروا البركة، وأبارك لهم فيما وضع يده عليه، كثير الأزواج قليل الأولاد، يسكن مكة موضع أساس إبراهيم.

يا عيسى! دينه الحنيفية وقبلته مكية وهو من حزبي وأنا معه، فطوبى له ثم طوبى له! له الكوثر والمقام الأكبر في جنات عدن، يعيش أكرم معاش ويقبض شهيداً.

له حوض أبعد من بكة إلى مطلع الشمس، من رحيق مختوم، فيه آنية شبه نجوم السماء وأكواب مثل مدر الأرض، ماؤه عذب، فيه من كل شراب وطعم كل ثمار في الجنة، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، وذلك من قسمي له وتفضيلي إياه.

أبعثه على فترة بينك وبينه، يوافق سره علانيته وقوله فعله، لا يأمر الناس إلا بما يبدأهم به، دينه الجهاد في عسر ويسر، تنقاد له البلاد، ويخضع له صاحب الروم على دينه ودين أبيه إبراهيم.

يسمي عند الطعام ويفشي السلام ويصلي والناس نيام، له كل يوم خمس صلوات متواليات، ينادي إلى الصلاة نداء الجيش بالشعار، ويفتح بالتكبير ويختم بالتسليم، ويصف قدميه في الصلاة كما تصف الملائكة أقدامها، ويخشع لي قلبه ورأسه.

النور في صدره، والحق على لسانه، وهو على الحق حيثما كان، أصله يتيم ضال برهة من زمانه عما يراد به، تنام عيناه ولا ينام قلبه، له الشفاعة وعلى أمته تقوم الساعة، ويدي فوق أيديهم إذا بايعوه، فمن نكث

فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه وفيت له بالجنة.

فمر ظلمة بني إسرائيل أن لا يدرسوا كتبه ولا يحرفوا سننه، وأن يقرؤوه السلام، فإن له في المقام شأناً من الشأن.

يا عيسى! كل ما يقربك مني فقد دللتك عليه، وكل ما يباعدك مني فقد نهيتك عنه، فارتد لنفسك.

التوبة والندامة حباً في اللّه

سأل برنابا: أيها المعلم إذا سأل الناس الحواريين عن الطريقة التي بها يندمون ويتوبون، فماذا يكون جوابهم؟

أجاب عيسى: إذا أضاع الإنسان محفظته، هل يدير عينه فقط للنظر إليها، أو يمد يده فقط لالتقاطها، أو يحرك لسانه فقط للسؤال عنها؟ بالتأكيد لا! بل إنه يدير كل بدنه، ويستعمل كل طاقة في وجوده، كي يجد المحفظة. هل هذا صحيح؟

أجاب برنابا: صحيح جداً.

فقال عيسى: التوبة هي قلب نمط الحياة الشريرة رأساً على عقب. لأن كل حاسة يجب أن تقلب رأساً على عقب، من حالتها الآثمة إلى حالة الصلاح والسداد، بحيث يجب أن يتحول الفرح والسرور إلى حزن وحداد، والضحك إلى نوح ونحيب وبكاء، والمرح والطرب والعربدة إلى صيام، والنوم إلى قيام الليل وصلاة وسهاد، وأوقات الفراغ إلى نشاط، والشهوة والشبق إلى ورع وعفة وطهارة وسداد، واللغو إلى صمت ومناجاة

الله وصلاة، والطمع والبخل وحب المال إلى إحسان وزكاة.

فأجاب برنابا: وإذا سألوهم كيف نحزن، وكيف نبكي وننوح، وكيف نصوم، وبأي نشاط نقوم، وكيف نبقى طاهرين عفيفين ورعين، وكيف نصلي وندعو ونناجي، وكيف نحسن ونتصدق ونزكي، فماذا يكون جوابهم؟ وكيف يتوبون بالضبط، إذا كانوا لا يعرفون طريقة الندم؟

أجاب عيسى: خيراً سألت يا برنابا. وأنا أريد أن أجيبك بالكامل، إذا كان رضا ربي في ذلك. فاليوم سأتحدث عن التوبة والندامة على وجه العموم.

فاعلموا أن التوبة يجب أن تكون قبل كل شيء خالصاً مخلصاً صرفاً محضاً لحب الله، وإلا فالندم سيكون عملاً عبثاً. وأضرب لذلك مثلاً:

أي عمارة إذا أزيل أساسها، تحولت إلى حطام وأنقاض. هل هذا صحيح؟

أجاب الحواريون: بلى صحيح.

فقال عيسى: أساس خلاصنا هو الله، والذي بدونه لا يكون خلاصاً ولا فلاحاً. فلو اقترف الإنسان إثماً ومعصية، فقد أضاع أساس نجاته. فالواجب عليه أن يبدأ بالأساس.

أخبروني إذا أخطأ عبيدكم بحقكم، وعلمتم بأنهم لم يأسفوا ولم يحزنوا على إساءتهم إليكم، بيد أنهم أسفوا وحزنوا على خسرانهم مكافأتكم، هل ستعفون عنهم؟ بالتأكيد لا! **لذا أخبركم بأن الله لن يعفو عن أولئك الذين ندموا لخسرانهم الجنة.**

انظروا إلى الشيطان الذي هو عدو كل عمل صالح، فقد ندم ندماً شديداً على خسارته الجنة ونيله نار جهنم. رغم ذلك فإنه لن ينال رحمة الله بسبب هذه الندامة. هل تعلمون لماذا؟ لأنه لا يحب الله، بل بالعكس إنه يبغض خالقه.

الحق أقول لكم: إن كل حيوان، بحسب غريزته، إذا خسر ذلك الشيء الذي يرغب فيه، فإنه يحزن على ما ضاع منه. لذلك فإن الآثم الذي يتوب بصدق، يجب أن تكون عنده رغبة ملحة، لمعاقبة كل توجه واهتمام في ذاته ضد خالقه.

لذلك فالذي يصلي ويدعو ويناجي ربه، كيف يتجاسر أمام الله بإظهاره الشوق والحنين إلى الجنة، وطلبه المكافأة من الله، وتحريره من النار! يجب عليه بدل ذلك أن يخر ساجداً لله، في وجل وخزي وخجل، يدعو ويناجي ربه قائلاً:

يا ربي انظر إلى هذا المجرم أمامك بعطف ورفق ورأفة، الذي أساء إليك بدون سبب بدل أن يخدمك. ألتمس منك أن تعاقبني لمعصيتي، بيدك لا بيد عدوك الشيطان، كي لا يشمت بي الكافر، ويفرح ويبتهج لعقابي الملحد. يا ربي اقتص مني، وعاقبني كما يسرك ويرضيك، لأن عذابك مصحوب برحمتك، لا كعذاب الشيطان الشرير المصحوب بالقسوة والجفاء.

وبهذه الطريقة من التوبة والندامة، سيجد الآثم رحمة الله ورفقه وعطفه ورأفته، أكثر بكثير من ذاك الذي يطلب المكافأة، ولا يسأل الله من فضله.

حقاً إن ضحك الآثم انتهاك مقيت لحرمات الله، بحيث إن هذا العالم المقيت قد سماه بحق أبونا داود وادياً من الدموع.

الحزن والبكاء على الخطايا

كان هناك ملك قد تبنى أحد عبيده، وجعله سيداً على كل ممتلكاته. واتفق أن وشى به رجل شرير، بحيث تعرض هذا المسكين لسخط الملك وحنقه. فعانى بؤساً وفاقة وشقاء وتعاسات كثيرة، لا في ثروته وتدني معيشته فحسب، بل في أن الملك قد احتقره واستخف به، وجرده من كل ما كسب بعرق جبينه. هل يمكن لمثل هذا الشخص أن يضحك!

أجاب الحواريون: كلا بالتأكيد! لأن الملك إذا سمع بأنه يضحك قتله بسبب ضحكه وسخريته من سخط الملك. بل يحتمل أن هذا المسكين سوف يبكي وينتحب ليل نهار.

فبكى عيسى وقال: اللعنة على أهل هذه الدنيا، لأنهم حقاً يساقون إلى عذاب أبدي! يا أيها الإنسان الشقي ما غرك بربك الكريم! فقد انتخبك وعاملك كابن مدلل ووهبك الجنة! فتعرضت أيها الشقي، بوسوسة الشيطان، لسخط الله وحنقه، وطردت من الجنة، وأدنت بالعيش في عالم دنس نجس وسخ قذر، تكدح فيه لأي شيء، وتخسر فيه أي عمل صالح، بارتكابك المستمر للمعاصي والآثام.

وأهل الدنيا يضحكون بهذه البساطة! والأسوء من ذلك أن المجرم والشرير الأكبر يضحك أكثر من الباقين. وكما قلتم فإن الله سبحانه وتعالى سوف يحكم على من يضحك على معاصيه، ولا يبكي عليها، بالخسران والعذاب الأبدي.

إن بكاء الآثم ينبغي أن يكون كبكاء الأب الحنون، الذي ينتحب على ولده الذي يحتضر. وما أكبر جنونك أيها الإنسان! تبكي على الجسد الذي يفارقه الروح، ولا تبكي على الروح الذي تفارقه رحمة الله بسبب الذنوب!

أخبروني إذا كان البحار قد كسرت سفينته وحطمت وأغرقت، بسبب العواصف، وكان بإمكانه أن يسترجع كل ما خسره ببكائه ونحيبه، ماذا كان سيفعل؟ من دون ريب ولا شك، لكان يبكي بمرارة.

الحق أقول لكم: إن الرجل إذا بكى على أي شيء دنيوي فهو آثم، ما عدا ذاك الذي يبكي على ذنوبه ومعاصيه من خشية الله. لأن كل المصائب والبلايا، التي يبتلى بها الإنسان، تأتي من الله لخلاصه وإنقاذه، ولذلك ينبغي له أن يبتهج لها ويتهلل. بيد أن الذنوب تأتي من الشيطان لهلاك الإنسان. فكيف لا يحزن هذا الإنسان من الذنوب! حقاً ستلاحظون كيف أن الإنسان ينشد الخسارة لا الربح.

فقال بارتولوميو: يا سيدي ماذا يفعل ذاك الرجل الذي لا يستطيع البكاء، لأن قلبه لا يستسيغ البكاء؟

أجاب عيسى: يا بارتولوميو ليس كل من يذرف الدموع يبكي. بحق الحي الذي لا يموت، هناك أشخاص لم تذرف من عيونهم دمعة، بيد

أنهم بكوا بمقدار يزيد عن ألف شخص أكثر من أولئك الذين يذرفون الدموع.

بكاء الآثم هو استنفاد العاطفة البشرية بشدة الحزن. فكما أن ضوء الشمس يحفظ الشيء من التعفن، إذا وضع ذلك الشيء في مكان أعلى وأكثر ارتفاعاً، كذلك استنفاد عاطفة الحزن يحفظ الروح من الذنوب.

لو أن الله من على أهل التوبة النصوح دموعاً، لكانوا اشتاقوا إلى ذرف الدموع، بمقدار يفوق مقدار مياه البحر. كذلك هذا الشوق يستنفد الدمعة الصغيرة، التي تذرف باشتياق ورغبة، كما يستهلك الأتون المتوهج قطرة من الماء. بيد أن أولئك الذين تتفجر دموعهم بسهولة، مثلهم كمثل الحصان، كلما خف حمله زادت سرعته.

هناك حقاً ناس ذوو عاطفة باطنية ودموع ظاهرية معاً، وهكذا كان إرميا النبي. **إن الله ينظر إلى الحزن في بكاء عباده، أكثر مما ينظر إلى الدموع.**

فقال جون: أيها المعلم كيف أن الناس يخسرون في البكاء على أشياء أخرى غير الذنوب؟

أجاب عيسى: إذا أودعك هيرود عباءة كأمانة، ثم استردها، أيكون ذلك مبرراً لك للبكاء؟

قال جون: كلا!

فقال عيسى: **أيها الأحمق! فالأحرى أن لا يكون هناك مبرر للبكاء على أشياء يودعك الله أمانة، ثم يستردها منك، لأن كل شيء يأتي من يد**

الله. أليس لله حق في أن يتصرف بأشياء أودعها أمانة، متى ما شاء ذلك؟ والذي تمتلكه أنت أيها الأحمق هو ذنوبك وحدها فقط، التي ينبغي لك البكاء عليها لا شيء آخر.

الله غير متناهي
وغير محدود

فقال ماتيو : أيها المعلم لقد اعترفت أمام يهودا كلها ، بأن الله لا يشبه الإنسان في شيء ، ثم تقول الآن بأن الإنسان قد استلم من يد الله . فإذا كان لله يد فهو يشبه الإنسان .

أجاب عيسى : يا ماتيو إنك تخطئ كما يخطئ الكثيرون ، الذين لا يعرفون معنى الكلمات . لا ينبغي لك أن تنظر إلى الشكل الظاهري للكلمات ، بل انظر إلى المعاني ، لأن اللغة البشرية هي الترجمان بيننا وبين الله .

ألا تعلم عند ما أراد الله أن يتكلم إلى آبائنا على جبل سينا صرخوا قائلين : يا موسى تكلم أنت إلينا ، ولا تدع الله يتكلم إلينا لئلا نموت؟ وماذا قال الله على لسان أشعياء النبي : كما أن السماء بعيدة عن الأرض ، كذلك فإن طرق الله بعيدة عن طرق الناس ، وأفكاره بعيدة عن أفكار الناس؟

إن الله غير متناهي وغير محدود ، ولا يقاس بشيء ، حتى أنني ترتعد فرائصي لوصفه . بيد أنه من الضروري أن أطرح لكم رأياً يقرب إلى أذهانكم شيئاً من عظمته .

أقول لكم: إن السماوات تسعة، وكل سماء تبعد عن الأخرى، كبعد السماء الأولى عن الأرض، التي تبعد بمقدار رحلة ٥٠٠ عاماً. على هذا فإن بعد الأرض عن السماء التاسعة، هو بمقدار رحلة ٤٥٠٠ عاماً.

وأقول لكم أيضاً: كيف هو سن الإبرة بالنسبة إلى الأرض، كذلك هو الأرض بالنسبة إلى السماء الأولى، والسماء الأولى هي بالنسبة إلى السماء الثانية، وكذلك كل سماء بالنسبة إلى السماء التي تعلوها، بحيث إن كل سماء هي كسن الإبرة بالنسبة إلى السماء التي تعلوها. بيد أن مجموع حجم الأرض والسماوات كلها، بهذه الأحجام الهائلة التي لا تتصورها العقول، هو كسن الإبرة بالنسبة إلى حجم الجنة، بل قل كحبة رمل. أليست هذه العظمة لامتناهية وغير محدودة!!!

أجاب الحواريون: بكل تأكيد!

فقال عيسى: بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إن الكون كله أمام الله صغير ووضيع كحبة رمل، بل إن الله أعظم أضعافاً مضاعفة، مما إذا ملأنا الجنة وجميع الكون، بأرضه وسماواته، وأكثر من ذلك بكثير، بهذه الحبات من الرمل، التي كل حبة منها تساوي الكون!!!!!!!!

والآن خذوا بعين الاعتبار، مدى ضآلة هذا الإنسان، الذي هو قطعة من الطين تمشي على الأرض، أمام عظمة خالقه. حذار حذار! إذا كنتم تودون الحياة الأبدية الخالدة، فعليكم أن تفهموا المعاني، ولا تلتصقوا بالكلمات الجافة.

فاجاب الحواريون: **الله وحده يستطيع أن يعرف نفسه، وكما قال**

أشعياء النبي حقاً وصدقاً: هو مخفي عن حواس الإنسان.

أجاب عيسى: كذلك هو حقاً. وعندما نكون في الجنة، سنعرف الله كما يعرف أحدنا البحر، من قطرة الماء المالح.

ورجوعاً إلى حديثي أقول لكم: ينبغي البكاء على ذنوبنا، لأننا بالذنوب والمعاصي نهجر خالقنا[١]. ولكن كيف يبكي وينتحب من يحضر مجالس البطالين، ومجالس المرح والطرب والعربدة والولائم والمآدب! سيبكي كما تسيل المياه من ذوبان الجليد! لا بد أن تحولوا العربدة إلى صيام، إذا أردتم السيادة والهيمنة على حواسكم، كما يمارس الله هيمنته[٢].

---

(١) والعكس هو الصحيح. فإذا رأيت نفسك بعيداً عن الله، فمعناه أنك محجوب عن الله بالذنوب والمعاصي. عندها لا بد أن تجهد وتكد كي تتعرف على هذه الذنوب والمعاصي الكامنة في أعماق نفسك. أو بالأحرى إن غياب الله عنك هو المعصية بعينها، بل هي المعصية الكبرى في وجودك.

(٢) يعني يجب عليك أن تتناغم مع الله. فإذا أردت هيمنة الله عليك، فيجب أن تهيمن أنت على حواسك، وعلى أفكارك، بل على كل ذرة من وجودك. وهذا مشوار طويل للجهاد الأكبر. فاعمل أيها الكسلان في صميم وجودك في جد وكد وجهد، إذا أردت الحياة الخالدة في جوار مليك مقتدر. وهذا هو عمل الصالحات الذي يذكرها الله في أماكن كثيرة من كتابه المجيد. فاعلم أن الصلاة والصوم وغيرها، إن كانت بلا محتوى من الإيمان والذكر المستمر والجهاد الأكبر، فهي كحمار الطاحونة، يكدح فيها الحمار ليل نهار، ثم إنه في آخر المطاف، يرى نفسه حيث كان، لم يتحرك من مكانه قيد أنملة، حتى إذا كد وجد لآلاف السنين.

مكونات الإنسان الأساسية

فقال ثادايوس: إذن الله عنده الحواس التي يهيمن عليها.

أجاب عيسى: لا زلتم تكررون مقالتكم: الله عنده كذا والله هو كذا! أخبرني هل للإنسان حواس؟

فقال الحواريون: بلى.

فقال عيسى: هل يوجد إنسان تدب فيه الحياة، بيد أن حواسه لا تعمل؟

فقال الحواريون: كلا.

أجاب عيسى: أنتم تخدعون أنفسكم. لأن الأعمى الأصم الأبكم المشلول، أين توجد حواسه؟ أو أين توجد حواس الإنسان عندما يغمى عليه؟

فارتبك الحواريون.

عندئذٍ قال عيسى: **الإنسان يتكون من ثلاث: الروح والحواس والجسد، كل على حدة. إن الله قد خلق الروح والجسد، كما سمعتم سابقاً، بيد أنكم لم تسمعوا بعد كيف خلق الله الحواس. سأخبركم غداً إن شاء الله تعالى.**

وبعد صلاة الفجر جلس عيسى تحت نخلة، واقترب الحواريون منه. ثم تكلم قائلاً: بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إن الكثيرين قد خدعوا في فهم حقيقة حياة الإنسان. ولأن الروح والحواس مرتبطة عن قرب مع بعضها البعض، لذلك فإن أكثرية الناس يؤكدون بأن الروح والحواس هي شيء واحد، وهم يقسمونها بحسب الوظيفة، لا بحسب الجوهر، ويسمونها الروح الحاسة، أو الروح الخاملة، أو الروح العاقلة.

الحق أقول لكم: إن الروح واحدة، وهي التي تحيى وتفكر[١]. أيها الحمقى! أين سيجدون الروح العاقلة من دون حياة؟ إن ذلك مستحيل! بيد أنهم سيجدون الحياة من دون حواس بكل سهولة، كما في الصم البكم العمي المشلولين، وفي حالة الإغماء والغشية وفقدان الوعي، حينما تفارق الحواس الإنسان.

فقال ثاديوس: أيها المعلم حينما تغادر الحواس الحياة، يكون الإنسان من دون حياة.

أجاب عيسى: إن ذلك غير صحيح، لأن الإنسان يجرد من الحياة حينما تغادر الروح البدن، لأن الروح لا ترجع إلى البدن مرة أخرى إلا بمعجزة. بيد أن الحواس تغادر البدن بسبب خوف الروح، أو بسبب الحزن العميق التي تصاب به الروح.

---

(١) وهذه الروح التي تحيى وتفكر، تنتقل بعد موت الإنسان من هذه النشأة إلى نشأة الآخرة، حية مفكرة، كما كانت في الحياة الدنيا. راجع محاورة الإمام الصادق عليه السلام مع جابر بن حيان في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود).

إن الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرات، واللهو والبسط والملذات، والحظ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج[١] وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الروح بالعلم والمعرفة والعشق والمودة والمحبة.

إن هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمردة ضد الروح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجردها وحرمانها من مباهج جنات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم. لهذا فإن هناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحية، بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تغذيتها بالملذات الشهوانية. هل تفهمون؟

الحق أقول لكم: إن الله سبحانه وتعالى خلق الحواس، وحكم عليها بالعذاب في نار جهنم، وأدانها بالعذاب في صقيع الجليد، الذي لا يطاق، لأنها قالت بأنها الله. ولكن عندما حرمها الله من التغذية، بإبعاد قوتها وغذائها عنها، هنالك اعترفت وأقرت بأنها مجموعة من عبيد الله وخلقه وصناعة يديه.

والآن أخبروني كيف تعمل الحواس عند الكافرين الذين لا يؤمنون بالله؟ بالتأكيد إنهم يتبعون الحواس ولا يتبعون الله، نابذين المنطق وقانون الله وراء ظهورهم. لذلك فهم بغيضون كريهون ممقوتون، لا يعملون الصالحات مهما عملوا وكدوا واجتهدوا.

---

(١) وهذه الحواس التي تتغذى بمباهج الحياة، كما ذكرها عيسى عليه السلام، مطابقة لبرازخ الروح التي ذكرتها في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود)، وذكرت استقلاليتها عن الروح، في أن لها وظائف أساسية في حياة الإنسان. وهذه الحواس متعطشة لمباهج=

= الحياة، في هذه النشأة وفي النشأة الأخرى، أي في دار الخلود. إن هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمردة ضد الروح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجردها وحرمانها من مباهج جنات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

ولهذا فإن المباهج تتضاعف أضعافا مضاعفة في الجنة، لخلوها من الغيظ والحنق والسخط والغضب والحرمان، الذي تحسه هذه الحواس في هذه الدنيا، بسبب حرمان أبينا آدم من جنات الفردوس، إثر المعصية التي ارتكبها بوسوسة الشيطان. أو كما ذكر عيسى بالنص في مكان آخر: ودع التائب يذكر حواسه بمباهج الجنة وملذاتها، فهي عظيمة جدا، بحيث إن مثقال ذرة من مباهج الجنة وملذاتها، أعظم من كل المباهج والملذات الدنيوية مجتمعة.

وعلى صعيد آخر، فإن عذاب الحرمان يتضاعف أضعافا مضاعفة في نار الجحيم، لغيظ الحواس وحنقها وسخطها وغضبها من حرمانها المضاعف من جنات النعيم. أو كما قال عيسى بالنص في مكان آخر: فدع التائب يذكر الحواس بحالة الجحيم، حيث لا ملذات البتة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود.

ضوابط التوبة
وصوم الحواس

واستمر عيسى قائلاً: أول شيء يتبع الحزن والأسى والشجى على المعاصي والآثام هو الصوم. إن المرء إذا رأى طعاماً معيناً يسبب له المرض، ومن ثم الموت الذي يخاف منه، يحزن ويندم ويغتم ويتكدر ويؤنبه ضميره، لأكله ذلك الطعام. فأول شيء يفعله المرء، هو أنه يترك ذاك الطعام، كي يتحاشى المرض.

وكذا ينبغي للمذنب أن يفعل!

فإذا لاحظ الخاطئ الأثيم، أنه بمباشرته الشهوة والملذات الدنيوية، قد أثم في حق خالقه، لأنه وقع في شراك حواسه، ينبغي له أن يحزن على آثامه، لأنها تبعده عن الله وعن الحياة، وتؤدي به إلى العذاب الأبدي.

ولأن الإنسان في حياته الدنيوية، يحتاج إلى هذه الملذات الشهوانية، لذا فإن الصيام واتباع الضوابط ضروري، كي يستطيع أن يكبح جماح حواسه، وكي يعرف بأن لله الولاية والسيادة عليه.

وإذا رأى أن الحواس تكره الصيام وتبغضه وتمقته، **فدعه يذكرها**

بحالة الجحيم، حيث لا ملذات البتة، بل حزن وشجى غير متناهٍ وغير محدود. ودعه يذكرها بمباهج الجنة وملذاتها، فهي عظيمة جداً، بحيث إن مثقال ذرة من مباهج الجنة وملذاتها، أعظم من كل المباهج والملذات الدنيوية مجتمعة. وبذلك يسهل عليك تهدئة الحواس وكبح جماحها.

فالأحسن أن تقنع بالقليل في هذه الدنيا، لنيل الكثير في الآخرة، من أن تطلق العنان للقليل، ثم تجرد وتحرم من كل الملذات والمباهج في الجحيم، وتبقى في عذاب جهنم خالداً فيها.

ينبغي لكم أن تتذكروا الثري المتنعم، محب القصف والمآدب والولائم، حتى تصوموا جيداً. لأنه اتبع على الأرض حياة الترف، والتذ بأشهى الأطعمة وألذها، وفي الآخرة ودار الخلود، حرم إلى الأبد حتى من قطرة ماء واحدة، يبلل بها شفاهه. في حين أن لازاروس كان قانعاً على الأرض بلباب الخبز، فعاش في حياة الخلد في فيض كامل، ووفرة وغزارة من مباهج الجنة وملذاتها.

ولكن ينبغي للتائب أن يكون محتاطاً. فالشيطان يبحث عن كل وسيلة لإبطال العمل الصالح وإلغائه، وفي التائب أكثر من غيره، لأن التائب تمرد ضد الشيطان، وشق عصا الطاعة، وأظهر العصيان، وتحول من عبد مطيع أمين، إلى خصم عاص وعدو لدود.

فالشيطان ينشد أن يتسبب في أن لا يصوم التائب، كيفما كان، تحت عذر المرض. وإذا لم تجد محاولاته ولم تثمر، سيدعوه إلى الصوم القاسي، بمنتهى القسوة والشدة، كي يمرض التائب، وبعدئذ يعاود ترفه في أشهى الأطعمة وألذها. وإذا لم ينجح الشيطان في محاولاته، فسوف

ينشد أن يقتصر الصائم على الصوم عن الطعام فقط، كي يكون الصائم مثل الشيطان نفسه، الذي لا يأكل أبداً، بل يذنب دائماً سرمداً.

بحق الحي الذي لا يموت، كم هو مقيت بغيض كريه، أن تصوم عن الطعام وحده، وفي الوقت نفسه، تملؤ روحك بالعجب والغرور والتكبر، وتحتقر أولئك الذين لا يصومون، وتستخف بهم، وتعتبر نفسك أحسن من الآخرين!

أخبروني هل أن الرجل المريض يتباهى ويتفاخر بالحمية، التي فرضت عليه من قبل الطبيب، ثم يسمى أولئك الذين لم تفرض عليهم الحمية بالمجانين؟ بالتأكيد لا! ولكنه يحزن لمرضه، الذي كان السبب في الحمية التي لا بد منها، والتي فرضت عليه بالضرورة.

ولنفس السبب أقول لكم بأنه لا ينبغي للتائب أن يتفاخر بصيامه، ويستخف بأولئك الذين لا يصومون. بل ينبغي له أن يحزن ويغتم لذنوبه، التي بسببها فرض عليه الصيام. وأيضاً لا ينبغي للتائب الذي يصوم، أن يهيئ لنفسه الأطعمة الفاخرة، بل يجب عليه أن يكون قانعاً بالخشن الجشب من الطعام.

والآن قولوا لي، هل يعطي الإنسان الكلب الذي يعض، أو الفرس الذي يرفس برجله، أطعمة فاخرة؟ كلا بالتأكيد! لأنه يفعل العكس تماماً. فاكتفوا الآن بما أوضحت لكم عن الصيام.

لا تنس اللّه
أبداً سرمداً

قال عيسى للحواريين: أنصتوا إلي جيداً، فإني أكلمكم الآن في موضوع المراقبة(١). هناك نوعان من النوم: نوم الجسد ونوم الروح. وحينما تراقبون بالجسد، ينبغي لكم أن تراقبوا بالروح أيضاً، وأن تنتبهوا جيداً بأن يكون الروح متيقظاً غير نائم. لأن نوم الروح خطأ محزن مؤلم مفجع فظيع.

أضرب لكم مثلاً: هناك رجل يمشي على الصخور، ويصاب بالخدوش في رجليه، وتحاشياً لأن لا يصاب أكثر، يضرب برأسه على الصخور. أخبروني عن حالة هذا الرجل؟

---

(١) المراقبة في اصطلاح العرفاء، هو الرياضة المحببة عند الأولياء، أو عملية تمرينية تستغرق معظم ساعات الليل والنهار، يركز فيها الولي على الله وحده، بالروح قبل الجسد، حتى يبقى متيقظاً حذراً منتبهاً بذكر الله الخفي، لا ينسى فيها الله أبداً سرمداً، ويعيش في خشية دائمة من الله الواحد القهار، يوم يسألون لمن الملك اليوم؟ فيجيبي الجواب: لله الواحد القهار. وهذا ديدن العلماء الحقيقيين، الذين يقول الله فيهم: إنما يخشى الله من عباده العلماء. فهم في خشية دائمة، ترتعد فرائصهم من خشيته، ويستجلبون بل يستمطرون رحمته وغفرانه ورضوانه ليل نهار.

فأجاب الحواريون: إنه رجل بائس مختلط العقل.

فقال عيسى: حسناً خيراً أجبتم. **أقول لكم إن من يراقب بجسده، وينام بروحه، رجل مختلط العقل. ألا إن علة الروح ومرضه وضعفه أفجع من علة الجسد ومرضه وضعفه. وعلاج الروح أصعب من علاج الجسد. أيمكن لهذا البائس أن يتباهى بتيقظ الجسد، الذي هو قدم الحياة، في حين أنه لا يلاحظ تعاسته بنومه بالروح، الذي هو رأس الحياة[1]؟**

نوم الروح هو نسيان الله ومعاده المخيف المريع. الروح الذي يراقب، هو الروح الذي يرى الله في كل شيء، وفي كل مكان، ويشكر الله العظيم ذا الجلال والإكرام، في كل شيء، ومن خلال كل شيء، وفوق كل شيء، عالماً عارفاً بأنه يتلقى رحمة الله ونعمته وفضله ومنته دائماً أبداً، وفي كل لحظة.

ومن ثم وفي غمرة خشية الولي المراقب، وخوفه من الله العظيم ذي الجلال والإكرام، فإن صوت الملائكة يرن في أذنيه دائماً ويدوي: أيها المخلوقات تعالوا إلى يوم المعاد والجزاء، لأن الخالق يريد محاسبتكم.

ألا إن الروح الذي لا ينام، تجري في دمائه هذه الكلمة أبداً سرمداً: إلهي اجمعني عليك بخدمة توصلني إليك[2].

---

(١) أولئك الذين يتباهون بصلاة الليل، حالتهم هي كما وصفها عيسى عليه السلام. يلتزمون بظاهر الصلاة والركوع والسجود، في حين أن روحهم متسخة بالمشاغل الدنيوية. إن الكثير منهم يبكون وينتحبون حقاً، ولكن لا لذنوبهم، بل لخساراتهم المالية في النهار.

(٢) هذا الروح الذي لا ينام، يعيش دائماً أبداً سرمداً في عشق الله وخدمته، كيفما كان وأيا ما كان. يقول دائماً أبداً سرمداً: إلهي اختصني لنفسك. فوقته في ليله ونهاره مسخر=

بالله عليكم أخبروني ماذا تفضلون: الرؤية في نور النجوم، أو الرؤية في ضوء الشمس؟

أجاب أندرو: طبعاً الرؤية في ضوء الشمس. لأننا تحت نور النجوم لا نستطيع أن نرى الجبال المجاورة، في حين أننا تحت ضوء الشمس نستطيع أن نرى أصغر حبة من حبات الرمال. لذا فإننا نمشي في خوف ووجل تحت نور النجوم، في حين أننا نمشي في أمن وأمان تحت ضوء الشمس.

أجاب عيسى: أقول لكم: ينبغي أن تراقبوا الله بروحكم، تحت ضوء العدالة والإنصاف[1]، ولا تتفاخروا بالمراقبة بوسيلة الجسد. إنه لعمل صحيح أن تتحاشوا نوم الجسد، قدر الإمكان، بيد أنه من المستحيل أن تلغوا النوم كلياً، لأن الطعام يثقل كاهل الحواس والبدن، والمشاغل الدنيوية تثقل كاهل العقل. فالذي يريد أن ينام قليلاً، ينبغي له أن يتحاشى كثرة المشاغل والإفراط في الطعام.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إنه حلال مباح أن تنام قليلاً كل ليلة، بيد أنه غير حلال وغير مباح أن تنسى الله ومعاده المخيف المريع. ألا إن نوم الروح هو هذا النسيان وهذه الغفلة.

= لخدمة الله، وهداية المستحقين من البشر، الذين هم ضالتهم هي الحكمة، وعشقهم هو في الوصول إلى الله، وتكميل المسيرة إلى الله العزيز الحكيم.

(١) إن من يراقب الله بروحه، تحت ضوء العدالة والإنصاف، ينصف نفسه أولاً وأخيراً، فلا يتوانى قيد أنملة في قبول عيوبه وذنوبه في إنصاف مطلق، والبكاء والنحيب على نفسه. وهو يفتش في أعماق نفسه المظلمة، وتحت ضوء شمس المعرفة والعرفان، دائماً أبداً سرمداً، ويستخرج كل مكائد الشيطان، ومصائده الكامنة في وجوده، ومكره وحيله الكثيرة المتشعبة، التي لا تخفى على العارف، بقوة الله وحوله.

ذكر اللّه الخفي الدائم

فقال برنابا: أيها المعلم! كيف يمكن أن يكون الله دائماً في ذاكرتنا؟ إن هذا الأمر حقاً يبدو لي مستحيلاً.

أجاب عيسى: يا برنابا! إن هذه أكبر تعاسة يعاني منها البشر. لأن الإنسان على هذه المعمورة، لا يستطيع أن يجعل خالقه، وهو الله تعالى، دائماً نصب عينيه وذاكرته، **ما عدا القديسين الذين يجعلون الله نصب عينيهم وذاكرتهم دائماً أبداً سرمداً، لأنه يسطع في وجودهم نور حسن الله وجماله، بحيث إنه ليس بمقدورهم نسيان الله**[١].

أرغب في أن تكون قديساً، إذا كنت تريد أن تتغلب كلياً على تعاسة النسيان والغفلة. إنه من المؤكد بأن الماء يشق أعتى الصخور، بقطرة فريدة تصدم الصخور، بطور متواصل، لمدة طويلة.

هل تعلم يا برنابا لماذا لم تتغلب على هذه التعاسة؟ **لأنك لا تعتبر هذا الأمر الخطير ذنباً**[٢].

---

(١) أروع وصف القديسين في كلام عيسى!!!! هذا هو المعيار الذي يتميز به القديس عن غيره من البشر. فمن تحقق فيه هذا الوصف، فطوبى له وحسن مآب!!!

(٢) ذكرنا آنفاً أن غياب الله عنك هو المعصية بعينها، بل هي المعصية الكبرى في وجودك.

أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم! لماذا هذه الغفلة عن الله، وجفاء ذاكرتك له، وهو الذي يهبك دائماً أبداً، من فضله ونعمه ومننه وعطاياه وهباته ورحمته ورأفته ومغفرته[1]! فإذا كان أمير من الأمراء يهبك هدية، أليس من الخطأ الجسيم، أن تغمض عينيك أمامه، وتدير له ظهرك؟

أخبرني ألا يهبك الله الكريم المفضال هباته وعطاياه دائماً أبداً؟ بلى وألف بلى! وكمثال صغير، ألا يهبك الله أنفاسك باستمرار، وبدون انقطاع، التي لولاها لم تعش على هذه الأرض لحظة واحدة؟ **الحق والحق أقول: كلما تناول بدنك نفساً، في كل لحظة من لحظاته، ينبغي لقلبك أن يصرخ قائلاً: ربي لك الحمد ولك الشكر!**

فقال جون: أيها المعلم إنك بالتأكيد على حق. ولذا علمنا كيف ننال هذا المقام المحمود.

أجاب عيسى: الحق أقول لك: لا يستطيع الإنسان نيل هذا المقام بقوته البشرية، بل بعون من الله وحوله ومنته وفضله. ينبغي للمرء حقاً أن يرغب في الطيبات، كي يعطيه الله الطيبات. حقا إنك لن تنال شيئاً لا ترغب فيه.

إن الله قادر على أن يجعلك قديساً، إذا كنت ترغب في ذلك، في أقل من لمحة بصر، ولكن قضت مشيئته أن تصبر وتطلب بإصرار، حتى تقدر

---

(١) وأقل هباته وعطاياه ومننه ونعمه الأنفاس والزفير والشهيق، التي تتنفسها باستمرار ليل نهار، وحتى أثناء نومك وأنت في سبات عميق وعن الوعي بعيد. فلو انقطعت عنك لفارقت هذه الحياة، يا أيها الشقي الغافل اللاهي والبطران المتمرد الساهي.

الهدية المقدسة حق قدرها، وتقدر الله الوهاب المعطي حق قدره.

هل رأيت أولئك الذين يتمرنون على إصابة الهدف في الرماية؟ إنهم يرمون سهامهم مرات عديدة، ولكن لا يصيبون الهدف. ورغم ذلك فإنهم لا يرغبون في أن يرموا سهامهم عبثاً، بل يأملون دائماً دأباً في إصابة الهدف.

فيا من تشتاق إلى ذكر الله الخفي الدائم، افعل كذا الآن! وعندما تنسى الله، اندب واحزن على ذلك، فإن الله في نهاية المطاف، سوف يعطيك من فضله، وسوف تنال كل ما قلته لك.

وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول لأصحابه[(١)]:

يا بني آدم اهربوا من الدنيا إلى الله، وأخرجوا قلوبكم عنها، فإنكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم، ولا تبقون فيها ولا تبقى لكم. هي الخداعة الفجاعة، المغرور من اغتر بها، المغبون من اطمأن إليها، الهالك من أحبها وأرادها، فتوبوا إلى بارئكم، واتقوا ربكم، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

اين آباؤكم؟ أين أمهاتكم؟ أين إخوتكم؟ أين أخواتكم؟ أين أولادكم؟ دعوا فأجابوا، واستودعوا الثرى، وجاوروا الموتى، وصاروا في الهلكى، وخرجوا عن الدنيا، وفارقوا الأحبة، واحتاجوا إلى ما قدموا، واستغنوا عما خلفوا.

فكم توعظون، وكم تزجرون، وأنتم لاهون ساهون! مثلكم في الدنيا

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٣٢ ـ بحار الأنوار: ١٤/ ٢٨٩.

مثل البهائم، همتكم بطونكم وفروجكم. أما تستحيون ممن خلقكم، وقد أوعد من عصاه النار، ولستم ممن يقوى على النار؟ ووعد من أطاعه الجنة، ومجاورته في الفردوس الأعلى.

فتنافسوا فيه، وكونوا من أهله، وأنصفوا من أنفسكم، وتعطفوا على ضعفائكم، وأهل الحاجة منكم، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، وكونوا عبيداً أبراراً، ولا تكونوا ملوكاً جبابرة، ولا من العتاة الفراعنة، المتمردين على من قهرهم بالموت.

جبار الجبابرة، رب السماوات ورب الأرضين، وإله الأولين والآخرين، مالك يوم الدين، شديد العقاب، أليم العذاب، لا ينجو منه ظالم، ولا يفوته شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يتوارى منه شيء، أحصى كل شيء علمه، وأنزله منزلته في جنة أو نار.

ابن آدم الضعيف، أين تهرب ممن يطلبك، في سواد ليلتك، وبياض نهارك، وفي كل حال من حالاتك؟ قد أبلغ من وعظ، وأفلح من اتعظ.

المراقبة والصوم والبكاء

قال عيسى لحوارييه: الصوم والمراقبة الروحية مرتبطان ببعضهما البعض، بحيث إن الواحد إذا قطع المراقبة، فإن الصوم سيفطر فوراً. لأن الإنسان أثناء المعصية ينسى الله، ويفطر صوم الروح. لذا فإن المراقبة والصوم دائماً ضروريان لنا جميعاً، بما يخص الروح، لأنه لا يجوز لكل واحد منا أن يرتكب معصية ما.

بيد أن الصوم الجسدي والمراقبة الجسدية لا يتيسران لكل أحد في كل الأوقات. لأن هناك مرضى، وكبار السن، ونسوة يربين أطفالاً، ورجالاً تحت الحمية، وأطفالاً وغيرهم ذوي بنية ضعيفة. فكما أن كل أحد منكم يلبس لباساً يناسب قده، كذلك يختار كل أحد منكم صوما يناسبه. فكما أن ملابس الأطفال لا تليق برجال في الثلاثين من العمر، كذلك فإن مراقبة واحد منكم وصومه لا تليقان بالآخر.

ولكن احذروا من الشيطان، لأنه يتصيد ذوي المراقبة في الليل، ويستعمل كل قواه لابتلاء العبد بالنعاس، في الوقت الذي يفترض فيه، أن يكون مصلياً ومصغياً لكلام الله بأمر من الله.

أخبروني هل يروقكم أن يأكل صديقكم لحماً، ثم يعطيكم عظاماً؟

أجاب بطرس: كلا أيها المعلم! لأن مثل هذا الشخص لا يجوز أن نسميه صديقاً، بل ساخراً مستهزئاً.

فقال عيسى متأوهاً: لقد قلت الحقيقة يا بطرس! لأن كل من يراقب بالجسد أكثر من اللازم، ثم ينام أو تأخذه سنة من النوم، في الوقت الذي يفترض فيه أن يصلي أو ينصت إلى كلام الله، فإن مثل هذا الشقي يسخر من الله خالقه، ومن ثم فهو متعرض لاتهامه بالمعصية. بالإضافة إلى ذلك، فهو لص بالنظر إلى أنه يسرق الوقت المخصص لله، ويقضيه كما يروق له.

إذا كان هناك إناء يحتوي أحسن الشراب، وسقى منه العبد أعداء سيده، طالما كان الشراب في أحسن حاله، ثم في نهاية المطاف، سقى سيده من رواسب الشراب وبقاياه، ماذا تراه فاعلاً بعبده، إذا علم السيد ذلك، وكان العبد حاضراً عنده! لا جرم أن السيد في حالة سخطه وحنقه وغيظه وغضبه، سيضربه ضرباً مبرحاً، وسيقتله حسبما يقتضيه قانون الدنيا.

والآن ماذا سيفعل الله برجل يقضي أحسن أوقاته في التجارة، وأسوء أوقاته في الصلاة ومناجاة الله، ودراسة قانون الله؟ اللعنة على أهل الدنيا، لأنهم بهذه المعصية، وتلك التي هي أعظم من أختها، وهي سرقة الوقت المخصص لله، يثقلون كاهل قلوبهم عند الصلاة ومناجاة الله!

ولهذا وعندما قلت لكم إن الضحك يجب أن يتحول إلى بكاء، والولائم إلى صيام، والنوم إلى مراقبة، فإني قد لخصت لكم في ثلاث

كلمات، كل ما سمعتم، بأنكم على هذه الأرض، ينبغي لكم أن تبكوا وتندبوا دائماً أبداً، وأن بكائكم يجب أن يتدفق من صميم قلوبكم، لأن الله خالقنا قد أسيئ إليه، وأنه ينبغي لكم أن تصوموا، كي تهيمنوا على حواسكم، وأن تكونوا في حالة مراقبة، كي لا تذنبوا، وأن بكاء الجسد وصيام الجسد ومراقبة الجسد يجب أن يراعى، كل حسب بنيته وتركيب جسده.

أسرار عيسى العظام

وأجهش عيسى بالبكاء وقال لبرنابا وقد اختلى به: يا برنابا! إنه من الضروري أن أكشف لك أسراراً عظاماً، التي يجب أن تكشفها بعد رحيلي عن هذه الدنيا.

أجاب برنابا: اسمح لي أن أبكي أيها المعلم وكذلك غيري لأننا مذنبون. أما أنت فلا يليق بك أن تبكي بهذه الغزارة، لأنك قديس ونبي من قبل الله.

أجاب عيسى: صدقني يا برنابا إنني لا أستطيع أن أبكي كثيراً كما ينبغي. لو أن الناس لم يسموني الله، لرأيت ربي هنا كما يرى في الجنة، ولكنت في أمان من الخوف في يوم الجزاء. ولكن ربي يعلم أنني بريءٌ، لأنني لم أضمر في نفسي أبداً، بأنني أكثر من عبد فقير.

ولو لم يسموني الله لدخلت الجنة بعد رحيلي عن الدنيا مباشرة، في حين أنني الآن لن أدخلها قبل يوم الجزاء. هل عرفت الآن سبب بكائي الغزير؟

واعلم يا برنابا! ولأجل ذلك سوف أضطهد اضطهاداً عظيماً، وسوف

أباع من قبل أحد حواريي بثلاثين قطعة من النقود. وأنا متأكد بأن الذي يبيعني سوف يقتل بدلاً عني، لأن الله سوف يرفعني عن الأرض، وسوف يغير ملامح الخائن وصوته، حتى يظن الناس أنه عيسى. وعلى الرغم من ذلك، حينما يموت الخائن ميتة سيئة، سوف يبقى العار والهوان ملتصقاً بي مدة طويلة في هذا العالم.

ولكن عندما يأتي محمد رسول الله المقدس، سيرفع عني العار والشنار. وسيفعل الله ذلك، لأنني اعترفت وأقررت بحقيقة المسيح، الذي سوف يكافئني على ذلك، وسأعرف بأنني حي، وأنني غريب عن موت العار والشنار.

فقال برنابا: أيها المعلم أخبرني من هذا الخائن الشقي، لأني سأخنقه حتى الموت فرحاً مسروراً.

أجاب عيسى: هدئ من روعك، لأن الله شاء ذلك، ولن يفعل غير ذلك. ولكن إذا رأيت أمي محزونة مهمومة مغمومة جراء ذلك الحادث، فأخبرها الحقيقة حتى يهدأ بالها.

فقال برنابا: سأفعل كل ذلك أيها المعلم إن شاء الله تعالى.

لولا الكسل لرزقكم اللّه من فوقكم ومن تحتكم

وخاطب عيسى الحواريين قائلاً: سأعلمكم الآن ما إذا ذهبتم إلى كل مناطق إسرائيل، عرفتم كيف تعظون الندامة والتوبة، حتى يشفق الله على بني إسرائيل، ويتغمدهم بالغفران والرضوان. أيها الواعظون احذروا من الكسل، وعلى الأخص، فليحذر أيضاً أولئك الذين يندمون ويتوبون من الكسل، **لأن كل شجرة لا تثمر الطيبات ستقطع ويرمى بها إلى النار**.

كان هناك مواطن يملك مزرعة عنب، وكان في وسط المزرعة حديقة، وكان فيها شجرة التين الجميلة. ورغم جمالها إلا أنها لم تثمر لمدة ثلاث سنوات. ولما رأى المالك أن كل شجرة تثمر ما عدا شجرة التين، أمر البستاني بأن يقطعها، لأنها صارت وبالاً على التربة.

فقال البستاني: تمهل قليلاً يا سيدي، إنها شجرة جميلة.

فأجاب المالك: امسك لسانك! إني لا أهتم بالجمال الذي لا ينفع. يجب أن تعرف أن النخل والبلسم أنبل من التين، وقد زرعت في فناء منزلي شجرة النخل وشجرة البلسم، وسورتهما بحيطان ثمينة، بيد أني

أزلتهما حينما لم تثمرا، وتراكمت عليهما الأوراق، وسببتا الفساد والتعفن أمام منزلي. ويا ترى كيف أني أغفر الآن لشجرة التين، التي هي بعيدة عن منزلي، والتي تثقل حديقتي ومزرعتي، حيث كل الأشجار مثمرة! لا جرم أني لن أسمح لها أكثر من هذا.

فقال البستاني: يا سيدي هذه التربة خصبة جداً. تمهل عاماً واحداً، لأني سوف أشذب أغصان شجرة التين، وأبعد عنها خصوبة التربة، وأستبدل ذلك بأحجار وتربة غير خصبة، وبذلك سوف تثمر.

فأجاب المالك: اذهب وافعل ذلك، إني سوف أنتظر، ويجب أن تثمر شجرة التين.

هل فهتم هذا المثال؟

أجاب الحواريون: كلا يا سيدي! لطفاً أوضح لنا المثال.

فقال عيسى: الحق أقول لكم: إن المالك هو الله، وإن البستاني هو قانون الله. كان لله في الجنة شجرة النخل وهو الشيطان، وشجرة البلسم وهو آدم، فطردهما من الجنة، لأنهما لم يثمرا الصالحات من الأعمال، بل نطقا بالكفر، فحق بذلك العقاب على ملائكة كثيرين وناس كثيرين.

وإن لله الآن على الأرض إنساناً، في وسط مخلوقاته، التي تخدم الله، كل حسب وظيفته التي قررها الله، إلا أن الإنسان الذي لا يثمر ثمرة، يريد الله أن يحصده، وأن يحكم عليه بالنار، نظراً إلى أنه تعالى لم يغفر للملك، ولم يغفر لآدم، بل عاقب الملك بهلاك أبدي، وعاقب آدم إلى حين.

لهذا قال قانون الله: إن في الإنسان أملاً كبيراً في هذه الحياة، فلهذا من الضروري أن يعاني هنا المحن والبلايا والشدائد، وأن يحرم من متاع الدنيا، كي ينتبه ويعمل الصالحات. فالله يصبر حتى يندم الإنسان ويتوب.

الحق أقول لكم إن الله قد أدان الإنسان بالعمل. فقد قال نبي الله وخليله أيوب: كما أن الطير قد خلق ليطير والسمك ليسبح كذلك الإنسان قد خلق ليعمل. وقال أيضاً أبونا نبي الله داود: إذا أكلنا من كد أيدينا، نكون مستغنين سعداء مباركين. فليعمل كل أحد حسب صنفه. أخبروني إذا كان أبونا داود وابنه سليمان قد عملا بأيديهما، فما بال المذنب؟

قال جون: أيها المعلم إن العمل شيء مناسب، ولكن الفقير ينبغي له أن يعمل.

أجاب عيسى: إن الفقير لا يمكنه أن يفعل غير ذلك. ولكن ألا تعرف أن الصالح إذا أراد أن يبقى صالحاً، يجب أن يكون مستغنياً؟ إن الشمس والكواكب الأخرى لا تقوى إلا بأوامر الله وتدبيره، ولذلك لا يمكنها أن تفعل غير ما تفعل، فلذلك فهي بلا جدارة.

عندما أمر الله بالعمل لم يقل: إن الفقير يجب أن يعيش من عرق جبينه. ولم يقل أيوب: كما أن الطير قد خلق ليطير كذلك الفقير قد خلق ليعمل. ولكن الله قال للإنسان: يجب أن تأكل من عرق جبينك. وقال أيوب: كذلك الإنسان قد خلق ليعمل.

فلهذا فإن غير الإنسان فقط قد تحرر من هذا الفرض. لا جرم أن الغلاء لا سبب له غير الحشود الكبيرة من الكسالى. فإذا عمل بعضهم في حرث الأرض، والبعض الآخر في صيد الأسماك، لكان هناك وفرة وغزارة

عظيمة في كل شيء في العالم. وبشأن أي نقصان في طعام الناس، سوف يحاسب الكسالى في يوم القيامة.

مفاسد الشبق والشهوات

واستمر عيسى في كلامه قائلاً: دع الإنسان يقول لي، ماذا أتى به معه إلى هذا العالم، حتى يعيش هنا في كسل؟ لقد ولد عرياناً عاجزاً عن فعل أي شيء. وهو ليس مالك أمواله وممتلكاته، بل مجرد متصرف في ممتلكاته وأمواله. وسوف يحاسب على ذلك في يوم الجزاء المهول المخيف المريع الفظيع.

حذار حذار من الشبق البغيض الكريه المقيت، الذي يمسخ الإنسان، ويجعله كالبهايم الوحشية الشرسة! إن عدوك معك يصاحبك حيثما ذهبت. كم من الناس قد هلكوا بفعل الشهوات! لقد أنزل الله عذاب الطوفان بسبب الشبق والشهوات، بحيث إن العالم قد هلك، قبل أن تنزل رحمة الله، ولم يعش ولم يبق على قيد الحياة غير نوح و٨٣ من البشر.

وبسبب الشبق والشهوات، أغرق الله ثلاثة مدن شريرة وخبيثة، ولم ينج إلا لوط واثنان من أولاده. وبسبب الشبق والشهوات، أبيدت قبيلة بنيامين جميعها. والحق أقول لكم: لو أني قصصت عليكم كم من الأقوام قد تلاشوا واضمحلوا بسبب الشهوات، لما كفاني لذلك مدة خمسة أيام.

فقال جيمس: أيها المعلم ماذا يعني الشبق؟

أجاب عيسى: الشبق هو الرغبة الجنسية الملحة، الغير المكبوح جماحها. ولأن العقل والمنطق لا يلجمها، ولا يستطيع توجيهها، فإنها تتجاوز حدود العقل والعاطفة، بحيث إن الإنسان ينسى نفسه، ويحب الشيء الذي ينبغي له أن يكره ويبغض.

صدقوني إن الإنسان ليعتبر زانياً، ومرتكباً للفاحشة، إذا أحب شيئاً، وكأنه مالك ذلك الشيء، لا كأن الله قد أعطاه وخوله إياه. لأن الروح الذي ينبغي أن يرتبط بخالقه ارتبط بالمخلوق. ولذا ينوح الله على الإنسان ويبكي وينتحب ويرثي ويندب على لسان أشعياء النبي قائلاً: لقد ارتكبت الزنى مع الكثيرات من العشيقات. ورغم ذلك ارجع إلي واندم وتب، لأنني سأرحب بك.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، لو لم يكن الشبق الداخلي موجوداً في القلب، لما ارتمى الإنسان في أحضان الشهوات، لأن الجذور إذا أزيلت، ماتت الشجرة سريعاً.

فليقنع الإنسان نفسه بزوجته، التي أعطاه الله إياها، ولينس غيرها من النساء.

فسأل اندرو: وكيف ينسى الإنسان النساء، إذا كان يسكن المدينة حيث هناك الكثيرات من النساء؟

أجاب عيسى: يا اندرو إنه من الأكيد، أن المدينة تضر بساكنيها، لأنها كالإسفنج تمتص كل الآثام، وتجذب اليها كل الشرور. إذا كان الإنسان يعيش في المدينة، فينبغي له أن يكون مثل الجندي، الذي يعيش في القلعة المحاطة بالأعداء، حيث لزم عليه أن يدافع عن نفسه، ضد أي

هجوم خارجي، ويخشى دائماً خيانة المواطنين، الذين هم داخل القلعة، ويأخذ منهم حذره.

يجب عليه أن يدرء عن نفسه الإغراءات الخارجية، ويخشى حواسه، لأن فيها رغبة ملحة للقذارات والوساخات والنجاسات. وكيف يدافع عن نفسه، وهو لا يستطيع إلجام بصره، الذي هو منبع الشهوات الجنسية؟

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، من كان بلا عينين، لا يتلقى العقاب إلا إلى الدرجة الثالثة، في حين أن الذي له عينين، يتلقى العقاب إلى الدرجة السابعة.

قصة إلياس مع الأعمى

في زمان إلياس النبي، اتفق أن مر إلياس برجل أعمى وهو يبكي، وكان يبدو أنه ميسور الحال. فسأله إلياس: لماذا تبكي يا أخي؟ أجاب الأعمى: أبكي لأني لا أستطيع رؤية إلياس النبي القديس من قبل الله.

فانتهره إلياس قائلاً: توقف عن البكاء أيها الرجل، لأنك تأثم ببكائك.

أجاب الأعمى: هل رؤية نبي مقدس، الذي أحيى الموتى، وأنزل النار من السماء يعتبر إثماً؟

أجاب إلياس: أنت لست صادقاً يا أخي، لأن إلياس لا يستطيع أن يفعل كل هذا، لأنه إنسان مثلك. إن كل الناس على هذه المعمورة لو اجتمعوا لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابة.

فقال الأعمى: أيها الرجل أنت تقول ذلك، لأنه يمكن أن يكون إلياس قد زجرك لمعصية ارتكبتها، ولذلك فأنت تبغضه.

أجاب إلياس: أنت صادق في كلامك يا أخي، فكلما أبغضت إلياس، أحببت الله، وكلما زاد بغضي لإلياس، زاد حبي لله.

فاستشاط الأعمى غضباً وقال: بحق الحي الذي لا يموت، أنت رجل عديم التقوى! هل يحب الله من يكره أنبياء الله؟ إليك عني فورا، لأني لن أستمع إليك أكثر من هذا!

أجاب إلياس: يا أخي ربما ترى الآن بعقلك آفة الرؤية الجسدية. لأنك تبتغي البصر كي ترى إلياس، ولكنك تكره إلياس بروحك.

فأجاب الأعمى: اعزب عني الآن! لأنك الشيطان، وتريدني أن أرتكب الإثم ضد قديس من قبل الله.

فتأوه إلياس وقال ودموعه تنهمر: أنت صادق فيما تقول يا أخي، **لأن جسدي الذي تريد أن تراه، يبعدك عن الله.**

فقال الأعمى: أنا لا أريد رؤيتك، ولو كان لي بصر لأغمضت عيني، كي لا أراك.

فقال إلياس: اعلم يا أخي بأنني أنا إلياس!

فأجاب الأعمى: إنك غير صادق.

فقال حواريو إلياس: يا أخي إنه حقاً نبي الله إلياس.

فقال الأعمى: إذا كان نبياً فليخبرني نسبي وسبب عماي وفقد بصري.

أجاب إلياس: أنت من قبيلة ليفي، ولأنك عند دخولك معبد الله، نظرت بشهوة إلى امرأة، وكنت قريباً من المحراب، لذلك أخذ الله منك بصرك.

فقال الأعمى منتحباً: سامحني يا نبي الله المقدس، لأني أثمت في

كلامي معك، ولو كان لي بصر، لما أخطأت في حقك.

أجاب إلياس: سامحك الله يا أخي، لأنك كنت صادقاً في كلامك عني، نظراً إلى أني كلما زاد بغضي لنفسي، زاد حبي لله، ولو كنت رأيتني، لابتغيت رؤيتي الجسدية، وذاك عمل لا يرضي الله في شيء. لأن إلياس ليس خالقك، بل الله هو خالقك[١].

واستمر إلياس باكياً منتحباً وهو يقول: أما ما يخصك، فإني حقا بالنسبة إليك شيطان، لأني أبعدتك عن خالقك.

فابك على نفسك يا أخي، لفقدانك نور البصيرة، الذي يميز الحق عن الباطل. فلو كان هذا النور فيك، لما استخففت بعقيدتي. ولأجل ذلك أقول لك: هناك الكثيرون الذين يرغبون في رؤيتي، ويأتون من مكان بعيد لرؤيتي، بيد أنهم يحتقرون كلامي.

لذا من أجل خلاصهم، كان الأفضل أن لا يكون لديهم عينان، نظراً إلى أن من يلتذ برؤية المخلوق، أياً كان، ولا ينشد اللذة في رؤية الله، قد خلق صنماً في قلبه، ونبذ الله وراء ظهره.

---

(١) نعم كلما زاد بغضي لنفسي زاد حبي لله. أما آن الأوان يا أخي أن تبغض نفسك، وتنظر في أعماق نفسك، بكل إنصاف وبدون أي تحيز. ما أنت إلا حمال الروث والعذرة، يمشي على الأرض! بدأت نطفة، وتسير إلى مصيرك المحتوم جيفة! وأنت بين هذا وذاك، تحمل في أمعائك ليل نهار عذرة نتنة! وتحمل في رأسك قذارات وساخات ونجاسات! فاعرض نفسك على الله خالقك، وابك وانتحب على نفسك، عله يمحو آثامك، ويعفو عن سيئاتك.

وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون[١]

ثم قال عيسى متأوهاً: هل فهمتم كل ما قاله إلياس؟

فأجاب الحواريون: لقد فهمنا حقا ما قاله إلياس، **وقد أشبعنا الآن علما، بأن الأقلية القليلة من الناس موحدون غير وثنيين.**

فقال عيسى: أنتم صادقون فيما تقولون. لقد كان بنو إسرائيل راغبين الآن في تأسيس الوثنية، التي تعشعش في قلوبهم، بظنهم الباطل بأني الله. الكثيرون منهم الآن يستخفون بتعاليمي قائلين: كان باستطاعتي أن أصبح سيد يهودا كلها، لو اعترفت وأقررت بأني الله، وبأني حقاً مجنون بأن أعيش في الفقر، في الصحاري والقفار، وأن لا أقيم دائماً مع الملوك والأمراء، في يسر ورفاهية.

ما أنحس البشر! يثمنون النور الذي تشترك فيه الذباب والنمل، ويحتقرون النور الذي يختص بالملائكة والأنبياء والقديسين من قبل الله.

---

(١) أواخر سورة يوسف من القرآن الكريم.

لهذا يا اندرو يجب أن تراقب النظر والبصر، وإلا فمن المستحيل تحاشي التهور في مغامرات الشهوة والشبق.

لهذا كان النبي إرميا يجهش بالبكاء ويقول: إن بصري هو السارق الذي يسرق روحي.

ولهذا كان أبونا داود يدعو ويناجي ربنا الله باشتياق عظيم، بأن يصرف بصره عن الزهو والعجب والغرور والخيلاء. لأن كل ما له نهاية عبث وباطل.

أخبرني إذا كان عندك درهمان لشراء رغيف من الخبز، هل تصرفهما في شراء الدخان؟ بالتأكيد لا! نظرا إلى أن الدخان يضر بالعينين ولا يغذي بدنك. كذلك ينبغي للإنسان أن يفعل، بأن يصرف البصر الظاهري في العينين والبصيرة الباطنية في القلب، في نشدان معرفة خالقه، والاستمتاع بمشيئته، وأن لا يكون المخلوق هدفه، بحيث يتسبب في فقدانه الله خالقه.

الحق أقول لكم: إذا انشغل الإنسان بشيء، وتعلق قلبه به، بحيث ينسى خالقه، الذي صنع ذلك الشيء له، فإنه آثم مذنب. إذا أعطاك صديق شيئاً لحفظ ذكراه، فإن أنت نسيت صديقك، وبعت ذلك الذكرى، فإنك بحق قد أسأت إلى صديقك، بل إنك قد اعتديت عليه.

كذلك الإنسان الذي تعلق بمخلوق ما حبا فيه، ونبذ ذكر الخالق، الذي خلق ذلك المخلوق من أجله، مذنب في حق الله خالقه، بعدم الشكر ونكران الجميل وجحود المعروف.

كذلك فالرجل آثم عاص مذنب، إذا تعلق قلبه بامرأة، وأحبها واشتهاها، ونسي الله الذي خلق المرأة لصالحه، وتشتد شهوته، ويندلع شبقه ويندفع، بحيث إنه يحب كل شيء يخص تلك المرأة. ومن ثم يرتكب المعصية ويقترف الفاحشة، التي هي مدعاة للخجل.

فالأحرى بالإنسان أن يلجم عينيه، ويكون سيد حواسه، بحيث لا يشتهي المرأة، إلا إذا عرضت له كزوجة. وبذلك يقع الجسد تحت هيمنة الروح. فالجسد من دون الحواس لا يذنب، كما أن السفينة من دون الرياح لا تتحرك.

الدعاء يحفظ الروح من المعصية

بعد ذلك سيكون ضرورياً للتائب، أن يغير اللغو والثرثرة إلى دعاء ومناجاة. وهذا ما يرينا العقل والمنطق، إضافة إلى أنه أمر من الله. فالإنسان يذنب بكل كلمة لغو وثرثرة وكلام فارغ، والله يمحو السيئات بسبب الدعاء والمناجاة.

فالدعاء مدافع عن الروح، وهو دواء الروح، ودفاع القلب، وسلاح الإيمان، ولجام الحواس. وهو بمثابة ملح اللحوم، فكما يحفظ الملح اللحوم من الفساد والتعفن، كذلك الدعاء يحفظ الروح من تعفن المعاصي.

وأقول لكم إن الدعاء والمناجاة هي أيادي الحياة، والتي بواسطتها سوف يدافع الإنسان عن نفسه في يوم القيامة. إن الدعاء على هذه الأرض يغيظ الشيطان ويحفظ الروح من الذنوب والآثام، ويحفظ القلب من أن لا تمسه الشهوات والرغبات. لأن الدعاء يضع الحواس في إطار قانون الله، ويتسبب في أن يبقى الإنسان باراً صالحاً مستقيماً عادلاً مقسطاً قويماً، يتلقى من الله سبحانه وتعالى استجابة لكل ما يسأل الله في دعائه.

بحق الحي الذي لا يموت والذي أنفسنا بين يديه، إن الرجل من دون

دعاء ومناجاة، لا يستطيع أن يعمل عملاً صالحاً، ويبقى في الباقيات الصالحات.

بالله عليكم كيف يدافع الأبكم عن قضيته أمام الأعمى، وكيف يبرئ الناسور من دون مرهم ودهان، وكيف يدافع الرجل عن نفسه من دون حركة، وكيف يهاجم الرجل الآخر من دون أسلحة، وكيف تبحر السفينة من دون سكان ودفة، وكيف يحفظ الرجل اللحم الميت من دون ملح!

الحق أقول لكم: إن إنساناً من دون يد، لا يستطيع أن يتناول أو يقبض شيئاً.

ماذا لو أن الإنسان استطاع أن يحول الروث والعذرة إلى ذهب، والطين والتراب إلى سكر، كيف يتصرف؟ ثم توقف عيسى عن الكلام.

فأجاب الحواريون: الكل سوف ينشغل، من دون استثناء، بممارسة صناعة الذهب والسكر.

فقال عيسى: فلماذا لا يحول الإنسان الثرثرة الحمقاء إلى دعاء ومناجاة؟ هل أعطي الوقت من قبل الله كي يغيظ الله؟ هل من الممكن أن أميراً من الأمراء يسلم مدينته إلى رعيته، كي يعلنوا الحرب عليه؟

مفاسد اللغو والثرثرة

بحق الحي الذي لا يموت، لو علم الرجل كيف يتلوث روحه ويفسد ويتعفن، بسبب اللغو والثرثرة والكلام الفارغ، لعض لسانه، وصمت عن الكلام.

يا أيتها الدنيا البائسة الشقية التعيسة! إن الناس اليوم لا يجتمعون للدعاء والصلاة إلا في دهاليز المعبد، وفي المعبد نفسه يقعد الشيطان لهم بالمرصاد، ويشجع على اللغو والثرثرة والكلام الباطل، وعلى ما هو أسوء من ذلك بكثير، بحيث لا أستطيع أن أتكلم عنه من دون خجل.

إن اللغو والثرثرة يتسبب في ضعف العقل والمنطق والقوى الذهنية، بحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يتقبل الحق والحقيقة. فالفرس الذي عودناه على حمل القليل من نفاية القطن، كيف يمكن له أن يحمل أثقالاً من الحجارة!

والأسوء من ذلك، أن الإنسان يمضي أوقاته في المزاح والهزل، بحيث أنه حتى في الصلاة، يوسوس له الشيطان، ويهمس في أذنيه نفس المزاح والهزل، ومن ثم الضحك، ما يغيظ الله ويغضبه، في الوقت الذي ينبغي له أن يبكي على ذنوبه، كي يستمطر رحمة الله وعفوه وغفرانه على معاصيه.

فمن الطبيعي أن يعاقبه الله على ذلك ويعذبه ويعنفه ويطرده من رحمته.

اللعنة إذن على أهل الهزل والمزاح، وعلى أهل اللغو والثرثرة!

ولكن إذا كان الله يبغض أهل المزاح واللغو والثرثرة ويمقتهم، فما بالك بالذين يتذمرون ويفترون على جيرانهم! وفي أي داهية يسقطون ويهلكون، أولئك الذين يتعاملون مع الذنوب والمعاصي، على أنها ضرورية جداً، كأعمالهم التجارية!

يا أيتها الدنيا القذرة الدنسة! لا أستطيع أن أتصور، كم سيكون عقاب الله عليك فظيعاً مؤلماً مفجعاً!

إذن يجب على التائب، أن يطلق كلاماً بقيمة الذهب.

فقال الحواريون: ومن يشتري كلام البشر بقيمة الذهب؟ بالتأكيد لا أحد. وأنى له أن يتوب! من المؤكد أنه سيكون طماعاً جشعاً، إذا رأى أن كلامه يعادل الذهب في قيمته!

أجاب عيسى: إن قلوبكم ثقيلة بحيث يصعب علي رفعها. لذلك لزم علي أن أخبركم بمعنى كل كلمة أقولها. ولكن اشكروا الله ربكم، الذي تفضل عليكم بنعمة أسرار الله.

إنني لا أقول بأن التائب يجب عليه أن يبيع كلامه، بل أقول بأنه إذا تكلم اقتصد فيه، كما يقتصد في صرف الذهب. فكما أن الذهب يصرف على أمور ضرورية، كذلك لزم عليه أن يتكلم في أمور ضرورية أيضاً. وكما أن الذهب لا يصرفه الإنسان ليؤذي جسده، كذلك لا يجوز للتائب أن يتكلم، بحيث يؤذي روحه.

إذا قبض الحاكم على السجين، وبدأ بمحاكمته ومساءلته، في حين أن هناك كاتباً شرعياً، يكتب كل ما يقوله السجين، فقولوا لي كيف سيتكلم السجين؟

أجاب الحواريون: سيتكلم بخوف واحتياط، وما يفي بالغرض المقصود فقط لا غير، حتى لا يثير الشكوك حوله، ويحتاط أن لا يقول شيئاً يسخط الحاكم ويكدره، بل يتكلم بحيث يساعده الكلام على إطلاق سراحه.

فقال عيسى: كذلك ينبغي للتائب أن يفعل، كي لا يخسر روحه. فإن الله قد وكل ملكين على كل إنسان، أحدهما لتوثيق سيئاته، والآخر لتوثيق حسناته. وإذا كان التائب يريد أن ينال رحمة ربه، فالأحرى به أن يزن كلامه أكثر من الذهب.

مفاسد الطمع وحب المال

واستمر عيسى في حديثه قائلاً: يجب على الإنسان الطماع البخيل، المولع بجمع المال، أن يحول الطمع وحب المال إلى الإحسان وإنفاق الزكوة والصدقات.

الحق أقول لكم: كما أن الثقالة المتدلية نهايتها الوسط، كذلك الطماع البخيل، المنغمس في حب المال، نهايته نار جهنم، لاستحالة أن ينال نصيباً من الجنة. هل تعرفون لماذا؟ سأخبركم الآن.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إن الطماع البخيل، رغم صمته باللسان، إلا أنه بأعماله يقول: لا يوجد إله آخر غيري. إنه فرح مسرور أن يصرف كل ما عنده باشتياق ورغبة، لأجل لهوه ولعبه وملذاته وشهواته، حسب إرادته ورغبته، ومتى ما شاء، غير ملتفت ومنتبه إلى بدايته ونهايته، بأنه ولد عارياً، وأنه سوف يترك كل شيء وراء ظهره، عندما يموت.

والآن أخبروني إذا منحكم هيرود حديقة كأمانة، وأنكم بكل اشتياق ورغبة، فرضتم أنفسكم عليها كمالكين، ولم ترسلوا ثمارها إلى هيرود، وحينما بعث هيرود وراء الثمار، طردتم رجاله ورسله، أخبروني ألستم

تريدون أن تفرضوا أنفسكم كملوك على الحديقة؟ بالطبع بلى.

والآن أخبركم بأن الطماع البخيل، المنغمس في حب المال، يفرض نفسه كالله على كل ماله وثروته، التي منحه الله إياها.

الطمع وحب المال هو عبارة عن عطش الحواس، حيث تحيط الحواس نفسها بالخيرات الدنيوية، وبمتاع الدنيا وزينتها وزبرجها وزخرفها، وترى فيها فائدتها ومنفعتها، لأنها خسرت الله بكثرة الذنوب، لعيشها في اللهو واللعب والملذات والشهوات، ولا تستطيع الآن أن تبتهج بالله، لأنه سبحانه وتعالى مخفي عنها. وكلما ابتعدت الحواس عن الله، زاد عطشها للدنيا وملذاتها وشهواتها.

وكما أن العاصي المذنب يبتعد عن الله، كذلك يسهل الله عليه الندامة والتوبة بفضله ومنته. وكما قال أبونا داود: هذا التغير والتحول يأتي من يد الله اليمنى.

أعلمكم لتعملوا لا لتعجبوا بأنفسكم

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[١]:

طوبى للمتراحمين، أولئك هم المرحومون يوم القيامة. طوبى للمصلحين بين الناس، أولئك هم المقربون يوم القيامة. طوبى للمطهرة قلوبهم، أولئك يزورون الله يوم القيامة. طوبى للمتواضعين في الدنيا، أولئك يرثون منابر الملك يوم القيامة. طوبى للمساكين، لهم ملكوت السماء. طوبى للمحزونين، هم الذين يسرون. طوبى للذين يجوعون ويظمأون خشوعاً، هم الذين يسبقون.

طوبى للمسبوبين من أجل الطهارة، فإن لهم ملكوت السماء. طوباكم إذا حسدتم وشتمتم، وقيل فيكم كل كلمة قبيحة كاذبة، حينئذ فافرحوا ابتهجوا، فإن أجركم قد كثر في السماء.

وقال: يا عبيد السوء، تلومون الناس عن الظن، ولا تلومون أنفسكم على اليقين؟ يا عبيد الدنيا، تحلقون رؤوسكم، وتقصرون قمصكم،

---

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ٣١٧/١٤.

وتنكسون رؤوسكم، ولا تنزعون الغل من قلوبكم! يا عبيد الدنيا، مثلكم كمثل القبور المشيدة، يعجب الناظر ظهرها، وداخلها عظام الموتى، مملؤوة خطايا. يا عبيد الدنيا، إنما مثلكم كمثل السراج، يضيئ للناس ويحرق نفسه!

يا بني إسرائيل زاحموا العلماء في مجالسهم، ولو جثوا على الركب، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر. يا بني إسرائيل قلة المنطق حكم عظيم، فعليكم بالصمت، فإنه دعة حسنة وقلة وزر، وخفة من الذنوب.

فحصنوا باب العلم، فإن بابه الصبر، وإن الله يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء إلى غير إرب، ويحب الوالي الذي يكون كالراعي، لا يغفل عن رعيته. فاستحيوا الله في سرائركم، كما تستحيون الناس في علانيتكم. واعلموا أن كلمة الحكمة ضالة المؤمن، فعليكم قبل أن يرفع، ورفعه أن يذهب رواته.

يا صاحب العلم عظم العلماء لعلمهم، ودع منازعتهم، وصغر الجهال لجهلهم، ولا تطردهم، ولكن قربهم وعلمهم.

يا صاحب العلم، اعلم أن كل نعمة عجزت عن شكرها، بمنزلة سيئة تؤاخذ عليها. يا صاحب العلم، اعلم أن كل معصية عجزت عن توبتها، بمنزلة عقوبة تعاقب بها. يا صاحب العلم، كرب لا تدري متى تغشاك، فاستعد لها قبل أن تفجأك.

وقال لأصحابه: أرأيتم لو أن أحداً مر بأخيه، فرأى ثوبه قد انكشف عن عورته، أكان كاشفاً عنها، أم يرد على ما انكشف منها؟ قالوا: بل يرد

على ما انكشف منها. قال: كلا بل تكشفون عنها! فعرفوا أنه مثل ضربه لهم، فقالوا: يا روح الله وكيف ذاك؟ قال: ذاك الرجل منكم يطلع على العورة من أخيه فلا يسترها.

بحق أقول لكم: أعلمكم لتعملوا ولا أعلمكم لتعجبوا بأنفسكم. إنكم لن تنالوا ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، ولن تظفروا بما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلوب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة. طوبى لمن جعل بصره في قلبه، ولم يجعل قلبه في نظر عينه. لا تنظروا في عيوب الناس كالأرباب، وانظروا في عيوبهم كهيئة عبيد الناس. إنما الناس رجلان: مبتلى ومعافى، فارحموا المبتلى، واحمدوا الله على العافية.

ماهيةُ الإنسان

قال عيسى لحوارييه: إنه من الضروري أن أخبركم عن ماهية الإنسان، إذا ابتغيتم أن تعرفوا كيف ينبغي للتوبة أن تكون. فاليوم نقدِّم حمدنا وشكرنا إلى الله العزيز الحميد، الذي منحنا نعمة إفشاء مشيئته عبر كلامي هذا.

ثم رفع عيسى يديه إلى السماء، ودعا ربه قائلاً: يا إلهنا القدير الرحيم، الذي خلقتنا في بحبوحة رحمتك، وفي مقام عبادك من الإنس، وفي مقام إيمان رسولك الصادق، نشكرك على نعمك الكثيرة الوفيرة، التي لا تعدُّ ولا تحصى، ونعبدك ونهيم فيك وحدك لا شريك لك، في رغبةٍ واشتياق، في كل أيام عمرنا، ونحن نبكي على ذنوبنا، ونصلِّي وندعوك ونناجيك، ونقدم الزكاة والصدقات ونصوم، وندرس كلامك المقدّس ونتدبره، ونعلم الجاهلين مشيئتك، ونعاني من أهل الدنيا حباً فيك، ونضحي بحياتنا حتى الموت، كي نخدمك يا رب العالمين.

يا ربنا ويا إلهنا احفظنا من الشيطان، وقنا من رغبات الجسد، واحمنا من مغريات الدنيا، كما حَفِظت ووقيت وحَميت المصطفين من عبادك، الذين اصطفيتهم لحبك ولحب رسولك، الذي من أجله خلقتنا، ولحب جميع أنبيائك والقديسين من أوليائك.

فأجاب الحواريون: آمين آمين يا رب العالمين يا رحمن يا رحيم.

وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة بعد الصلاة، جمع عيسى حوارييه وقال لهم: تعالوا اجلسوا عندي، فكما أن الله قد خلق الإنسان من طين الأرض، في مثل هذا اليوم، كذلك سأخبركم عن ماهية الإنسان، إن شاء الله تعالى.

وعند ما جلسوا جميعا قال عيسى: إن الله قد خلق الإنسان مركباً من أربعة عناصر، كل عنصرٍ مضادٍ للآخر، كي يلطِّف كل عنصر مضاده، وذلك كي يظهر لمخلوقاته رحمته وإحسانه وعدله وجوده وكرمه وسخائه وقدرته على كل أمر. وهذه العناصر الأربعة هي الأرض والهواء والماء والنار.

ثم صنع لهذه العناصر الأربعة وعاءً، ألا هو الجسد البشري، المكون من اللحم والعظام والدم والنخاع والجلد والأعصاب والعروق والشرايين وباقي الأعضاء الباطنية. فجعل الروحَ والحواس كيدين لحياة الإنسان. وأودع الحواس في كل أجزاء البدن، منتشرة فيها كما ينتشر الزيت. وأودع الروح في القلب، حيث ساد على حياة الإنسان كلها، في اتحادٍ مع الحواس.

ثم أودع في الإنسان نوراً ألا هو العقل، الذي وحَّد الجسد والحواس والروح جميعا لهدف واحد، وهو العمل لخدمة الله.

ثم أودع هذا الإنجاز الرائع في الجنة، حيث أغوت الحواس العقل، بفعل وسوسة الشيطان. وفقد الجسد راحته، والحواس ابتهاجها وانشراحها وبسطها وفرحها وسرورها، والتي هي قوتُ عيشها. وفوق كل ذلك، فقد الروح جماله.

فوقع الإنسان في ورطةٍ، لأن الحواس لا تجد راحة في الكد والجهد والعمل، بل في مباهج الحياة. وحينما رأت الحواس بأن العقل لا يكبح جماحها، تبعت النور الذي تريه العينان. وحيث أن العينين لا تستطيع رؤية شيءٍ غير الزهو والعجب والغرور والخيلاء، انخدعت الحواس وطغت، وعصت وأثمت وأذنبت، باختيارها متاع الدنيا.

فمن الضروريّ كي يتوب المذنب وينيب، أن يستنير العقل مجدداً برحمةٍ من الله وفضله، ويُميِّز الخبيث من الطيب، ويهتدي إلى مباهج الحياة الحقيقية. ولذلك حقاً أقول لكم: إذا لم يُنوِّر الله قلب الإنسان، فإن عقل الإنسان يبقى متخبطاً في استنتاجاته.

فقال جون: ما هو الهدف الذي يتحقق من الكلام ومن التبليغ؟

أجاب عيسى: الإنسان كبشر لا يستطيع أن يهدي أحداً إلى التوبة. ولكنّ الله إذا أراد أن يهدي أحداً، جعل الإنسان وسيلةً لهدايته. ونظرا إلى أن الله يعمل من أجل خلاص المذنب وفلاحه، بطريقته السرِّية الخاصة، لذلك ينبغي لطالب الهداية، أن يستمع لكل أحد، حتى يميز الشخص الذي من خلاله يتكلم الله إليه[١].

---

(١) قال الله تعالى في سورة الزمر الآيتان ١٧ - ١٨: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الذين يستمعون القول ويتّبعون أحسنه

فسأل جيمس: أيها المعلم ربما أتانا نبيٌّ زائفٌ ومعلم كذّاب أفاك، يدَّعي التعاليم الإلهية، فماذا نفعل؟

أجاب عيسى بالأمثلة: إنَّ الرجل ليذهب لصيد الأسماك، بواسطة شبك، ويصيد أسماكاً كثيرة. ولكنه يرمي بالأسماك الفاسدة بعيداً.

أو أنّ الرجل يذهب لزراعة القمح، ولكن القمح الذي يزرع في أرض خصبة، يعطي بذرة طيبة.

هكذا يجب أن تفعلوا. استمعوا إلى الكل، واتّبعوا أحسن القول، نظراً إلى أن الحق وحده يثمر ثماره، في الحياة الأبدية الخالدة.

فسأل اندرو: وكيف نعرف الحق والحقيقة؟

أجاب عيسى: كل شيءٍ يُطابق كتاب موسى فهو حق، نظراً إلى أن الله واحد، وأن الحق واحد، وأن العقيدة واحدة، وأن معنى العقيدة واحد، وأن الإيمان واحد.

الحق أقول لكم: لو أن كتاب موسى لم يحرّف، لما أنزل الله على

أبينا داود كتاباً آخر. ولو أن كتاب داود لم يحرَّف، لما أنزل الله عليَّ الإنجيل. نظراً إلى أن الله واحدٌ لا يتغير، وأن رسالة الله التي بعثها إلى جميع الأنبياء واحدة. وحينما يأتي رسول الله، سوف يرفع دنس الأشرار الطالحين عن كتابي.

فقال برنابا: أيها المعلم ماذا ينبغي أن نفعل، حينما نجد الناموس يُدنَّس، والنبي الزائف يتكلم؟

أجاب عيسى: يا برنابا إن سؤالك عظيم. **ما أقل الناجين حينما يُدنَّس قانون الله وناموسه! نظراً إلى أن الناس يخطئون الهدف وهو الله تعالى. بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، أي عقيدة تبعدك عن الله، فهي عقيدة شريرة فاسدة. فلهذا هناك ثلاثة أشياء، يجب أخذها بعين الإعتبار في العقيدة وهي:**

حب الله والشفقة على الجار وبغض النفس، التي أسائت إلى الله وغاظته، والتي تغيظ الله كل يوم. لذلك ابتعدوا عن أي عقيدةٍ، تخالف هذه الأصول الثلاثة، لأنها سوف تكون عقيدةٌ شريرة فاسدة.

فضل الزكاة والصدقات إلى اللّه

قال عيسى: سأرجع الآن إلى موضوع الطمع وحبِّ المال وأقول لكم: عندما تقتني الحواس شيئاً، أو تتمسك بشيء، برغبةٍ واشتياق، يجب على العقل أن يقول: مثل هذا الشيء لا بد أن يكون له نهاية. ومن المؤكد إذا كان الشيء له نهاية، فإنه من الجنون أن تحبه، بل يجب أن تحب شيئاً ثابتاً دائماً خالداً لا نهاية له، وأن تحتفظ وتتمسك بذلك الشيء، في رغبةٍ واشتياق.

دعوا رذيلة الطمع وحبّ المال تتغير إلى فضيلة الإحسان وإنفاق الزكاة والصدقات. من اللائق للمال الذي جُمع بظلم وجور وحيف، أن يوزع بين الفقراء والمستحقين بحقٍ وعدل وإنصاف. وإذا أنفقتم المال باليد اليمنى، ينبغي لليد اليسرى أن لا تعرف.

إن المنافقين إذا أنفقوا الزكاة والصدقات، يحبون أن يجاهروا به، ويتمنون أن يحمدوا على ذلك. والحق أقول لكم: إن أعمالهم تذهب سدى، نظراً إلى أن من يعمل لأحد يستلم أجره منه. فالذي يحب أن يتناول الأجر من الله، يجب أن يعمل خالصاً مخلصاً لله وحده. وإذا أنفقتم الزكاة والصدقات، فاعتبروا أنكم تنفقونها إلى الله، وفي سبيل حب الله. إذن لا

تباطؤوا في البِرّ والإحسان، وأنفقوا مما تحبون وفي سبيل حب الله.

أخبرني هل ترغب في أن تنال شيئاً سيئاً من الله؟ بالتأكيد لا! يا من خُلقت من الغبار والرماد! كيف تعتقد أنك مؤمن، إذا كنت تنفق شيئاً سيئاً في سبيل حب الله؟

إنه من الأحسن أن لا تنفق شيئاً، من أن تنفق شيئاً سيئاً، لأنك إذا لم تنفق فالعالم يعذرك، أما إذا أنفقت شيئاً تافهاً لا قيمة له، واحتفظت بما أحببت لنفسك، فما هو عذرك؟

وهذا كل ما أردت أن أقوله لكم عن التوبة.

فسأل برنابا: كم ينبغي للتوبة أن تدوم؟

أجاب عيسى: طالما الإنسان في حالة الذنوب، ينبغي له دائماً أن يندم على ذنوبه، وأن يتوب ويُنيب. ولأنّ الحياة البشرية دائماً في حالة الذنوب والمعاصي، لذا ينبغي للإنسان أن يكون في توبةٍ دائمة، اللهم إلا إذا كنت تراعي وتحسب حساب نعليك أكثر من روحك، لأنك دائماً تصلح نعالك، إذا أصابها عطل وتلف.

موعظة أورشليم

غادر عيسى الصحراء ودخل أورشليم، حيث هرع الناس إلى المعبد لرؤيته. وبعد قراءةِ زبور داود، صعد عيسى المنبر، وأشار بيده إلى الجمهور أن اصمتوا، ثم قال:

يا إخواني تبارك اسم الله المقدس، الذي خلقنا من طين الأرض، لا من النفس الملتهبة. لأننا إذا أذنبنا طلبنا رحمة الله فنُعطى، في حين أن الشيطان الذي خُلق من النفس الملتهبة، لا يجد إلى رحمة الله سبيلاً، لأنه غير قابلٍ للتقويم والإصلاح، لعجبه وكبريائه وعزة نفسه وغروره وتجبُّره وتكبُّره، حيث يعتقد دائماً أبداً بأنه شريفٌ ونبيلٌ وسامٍ ورفيع.

هل سمعتم يا إخواني ماذا قاله أبونا داود عن الله؟ قال: إن الله يذكُّرنا بأننا خُلقنا من الغبار، وأن روحنا إذا ذهب لا يرجع مرةً أخرى، ولذلك جعلنا موضع شفقةٍ ورحمة.

ما أسعد أولئك الذين سمعوا هذه الكلمات ووعوها، إنهم سوف لا يذنبون في حق ربهم أبداً، نظراً إلى أنهم بعد كل خطيئة سوف يندمون، ولذلك فإن ذنوبهم سوف لا تبقى وسوف تُمسح عنهم!

اللعنة على أولئك الذين يستشعرون العظمة في نفوسهم، لأن الله سوف يكبهم على مناخرهم في نار جهنم! أخبروني يا إخواني ما هو سبب تبجيل النفس ومدح الذات؟ هل من الممكن أن يكون هناك متاعٌ ذو قيمةٍ في هذه الدنيا؟ كلا بالتأكيد! لأن كل شيءٍ تحت الشمس باطل، كما قال نبيُّ الله سليمان.

واذا كان متاع هذه الدنيا وزينتها وزبرجها وزخرفها، لا يبرِّر لنا استشعارالمجد والعظمة في نفوسنا، فالأحرى لحياتنا على هذه الأرض، أن لا تبرِّر ذلك أيضاً، لأنها مثقلةٌ بالبؤس والشقاء والتعاسة والفاقة والضنك والإملاق، فإننا دائماً عرضةً للمخاطر، من جانب كل المخلوقات الحقيرة حوالينا.

آه! كم منّا من هلك بفعل حرارة الصيف الملتهبة! كم منّا من هلك بفعل الصقيع وبرد الشتاء القارس! كم منّا من هلك بفعل البرق والبرد! كم منّا من غرق في البحر بفعل ضراوة الرياح! كم منّا من مات من الوباء والطاعون! كم منّا من مات من الجوع! كم منّا من ابتلعتهم الحيوانات المفترسة! كم منّا من نكزتهم الحيات ولدغتهم الثعابين! كم منّا من غصَّ بالطعام ومن شرق بالماء!

ما أنحسك وأسوء حظك يا أيها الإنسان! تستشعر العظمة، وقد أثقلتْ كاهلك الأيام والليالي، وتترصدك كل المخلوقات في كل مكان!

ولكن يا ترى ماذا أقول عن الجسد، وعن الحواس التي ترغب فقط في الإثم والشر والجور والظلم والعسف! ماذا أقول يا ترى عن الدنيا، والتي لا تَعرض على البشر غير الذنوب والآثام! ماذا أقول يا ترى عن

الأشرار الذين يخدمون الشيطان، ويضطهدون أي شخصٍ يريد أن يعيش طبق قانون الله وناموسه!

طبعاً ومن غير شكٍ يا إخواني، إنَّ الإنسان ليرعوي عن الذنب، إذا استشعر الدار الآخرة في حياته، كما قال أبونا داود.

إذا استشعر الإنسان المجد والعظمة في نفسه، فقد سدَّ على نفسه أبواب رحمة الله وشفقته ورأفته. بالله عليكم كيف ينال الإنسان العفو والغفران، إذا كان لا يطلبه ولا يلتمسه ولا ينشده!

إن أبانا داود يقول: إن الله يذكِّرنا بأننا خلقنا من التراب، وأن روحنا إذا ذهب لا يرجع مرةً أخرى. فكل من يستشعر العظمة في نفسه، يُنكر بسلوكه وتصرفاته بأنه خلق من التراب، ومن ثم لا يتعرف على حاجته، فلهذا لا يطلب النجدة من الله. فكيف لا يغضب الله عليه!

بحق الحيِّ الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إن الله يريد أن يعفو عن الشيطان، إذا عرف الشيطان تعاسته، وطلب الرحمة والغفران من خالقه سبحانه وتعالى.

وبناءً عليه يا إخواني، أقول لكم بأني بشر، وقطعةٌ من الطين تمشي على الأرض، وأقول لكم: توبوا إلى الله بارئكم، وتعرَّفوا على ذنوبكم. أقول لكم يا إخواني: إن الشيطان قد أغواكم، على لسان الجنود الرومان، حينما قلتم بأني الله. فحذار حذار أن تصدقوهم، نظراً إلى أنهم ملعونون من قبل الله، لأنهم يعبدون آلهةً زائفة!

لذلك فإن أبانا داود استنزل اللعنة عليهم حيث قال: إن آلهة الشعوب

مصنوعةٌ بأيديهم من الفضة والذهب، لها عينان ولكن لا تريان، وأذنان ولكن لا تسمعان، وأنوف ولكن لا تشم، وفم ولكن لا يأكل، ولسان ولكن لا ينطق، ويدان ولكن لا تمسان، وقدمان ولكن لا تمشيان. يا إلهي فليكونوا مثل آلهتهم، لأنهم صنعوها واعتقدوا بها!

ما أنحس كبرياء البشر! خلقهم الله من التراب، ثم أنهم ينسون حقيقتهم، ويصنعون آلهتهم حسب إرادتهم، في اشتياقٍ ورغبة! هم في الحقيقة يسخرون من الله في صمت، كما لو كانوا يقولون: لا فائدة من عبادة الله. وهذا الموقف تثبته أعمالهم.

والى حالة البؤس هذه يا إخواني، أراد الشيطان أن يوصلكم إليها، بأن يجعلكم تعتقدون بأني الله. أنا لا أقدر على خلق ذبابة، وإنني ميتٌ وزائل، ولا أستطيع أن أعطيكم شيئاً ذا فائدة، نظراً إلى أني بنفسي بحاجةٍ مدقعةٍ إلى كل شيء، فكيف أستطيع أن أساعدكم في كل شيء؟ إن هذا يليق بمقام الله وحده!

أليس الأحرى بنا أن نسخر من الوثنيين وآلهتهم، لأننا نعتزُّ بإلهنا، بالله العظيم الذي خلق الكون كله بكلمةٍ منه؟

دخل رجلان إلى المعبد للصلاة: أحدهما فريسي والآخر خمّار. اقترب الفريسي من المحراب، ورفع وجهه، وتمتم بالصلاة قائلاً: أشكرك يا رب لأني لست من المذنبين كسائر الناس، الذين يقترفون أي خبث، وخصوصاً هذا الخمَّار، لأني أصوم مرتين في الأسبوع، وأعطي العشور من مالي.

وبقي الخمَّار بعيداً عن المحراب، وانحنى إلى الأرض لاطماً صدره،

وقال ورقبته مائلة: يا إلهي أنا لا أستحق أن أنظر إلى محرابك، ولا أن أتطلَّع إلى جنتك، لأنني اقترفت ذنوبا كثيرة. فارحمني يا رب برحمتك الواسعة!

الحق أقول لكم: بأن الخمَّار خرج من المعبد، وحالته أحسن بكثير من الفريسي، لأن ربنا الله زكاه وغفر له كل ذنوبه. في حين أن الفريسي خرج من المعبد في حالةٍ أسوء من الخمَّار، لأن الله رفضه ماقتا أعماله.

هل يمكن للفأس أن يتباهى بأنه قطع الغابة حتى يقيم الإنسان هناك حديقته؟ بالتأكيد لا! لأن الإنسان قد فعل كل ذلك بنفسه، لا بل صنع الفأس أيضاً بيديه.

وأنت أيها الإنسان، أيمكن أن تتباهى بأنك قد عملت الصالحات، نظرا إلى أن الله هو الذي خلقك من الطين، وصنع فيك كل عملٍ صالح!

ولماذا تستخف بجارك؟ ألا تعرف أنه لو لم يحفظك الله من الشيطان، لكنت أسوء من الشيطان؟ ألا تعلم بأن ذنباً واحداً حوَّل أجمل مَلَك إلى أشنع وأقبح عفريت، تشمئزُ منه النفوس، وحوَّل أكمل إنسانٍ على وجه البسيطة، وهو آدم، إلى إنسانٍ شقيٍّ تعيس، وعرضه لما نعانيه نحن وجميع ذريته من آلامٍ ومكابدةٍ ونكدٍ في هذه الدنيا؟ ما هو الأمر العالي الذي تملكه، والذي بسببه يمكنك أن تعيش كما يروق لك، من دون أي خوف؟

اللعنة عليك يا طين الأرض! إن الشيطان لك بالمرصاد، يترصَّد لك بأن يخزيك ويذلُّك ويحقِّرك ويشينك وينزلك ويحطك تحت أقدامه، لأنك رفعت نفسك فوق الله الذي خلقك!

مريم المجدليَّة

وسمع الكهنة والكُتَّاب موعظة اورشليم، فرأوا فيما جاء فيها فرصةً للوشاية بعيسى، لأنهم كانوا يكرهونه أشدَّ الكره، وكانوا يتحيَّنون الفرص لقتله ولم يجدوها، لأنهم كانوا يخافون من الناس. فأخبروا الجنود الرومان ما قاله عيسى ضد آلهتهم.

واستضاف سيمون عيسى إلى منزله للطعام، وكان عيسى قد أبرأه من الجُذام. فدخل عيسى منزل سيمون، وجلس على المائدة. وفي أثناء الطعام شاهد امرأةً اسمها مريم، قد دخلت المنزل، وكانت عاهرةً معروفة، فألقت بنفسها على أقدام عيسى، وغسلت أقدامه بدموعها، ودهنتها بدهانٍ فاخرٍ نفيس، ثم مسحتها بشعرها. وشعر سيمون وضيوفه بالفضيحة، وقالوا في نفوسهم: إذا كان هذا الرجل نبياً، سيعرف المرأة ومهنتها، ولن يسمح لها بمساسه.

فقال عيسى: يا سيمون عندي شيءٌ أقوله لك.

أجاب سيمون: تكلم أيها المعلم فأنا أريد أن أسمعك.

فقال عيسى: كان هناك رجلٌ وله مدينان: أحدهما مدينٌ له بخمسين

ديناراً والآخر بخمسمائة. ولأنهما لم يستطيعا دفع الديون، أشفق الدائن عليهما وسامحهما الدين. فقل لي يا ترى مَنْ مِنَ المدينين سيحب الدائن أكثر؟

أجاب سيمون: المدين الذي سامحه الدائن مبلغاً أكبر.

فقال عيسى: كلامك صحيح. مثلك ومثل هذه المرأة كمثل المدينين. لأن كليكما كنتما مدينين لله: واحدٌ بجذام البدن، والآخر بجذام الروح، الذي هو الإثم.

إن الله قد أشفق عليكما بشفاعتي، فأراد أن يبرئ جسمك وروحها. فأحببتني أقل من هذه المرأة، لأنك تناولت هديةً أصغر. ولذلك حين دخلتُ منزلك لم تقبلني ولم تدهن رأسي. بيد أن هذه المرأة ألقت بنفسها على أقدامي فور دخولها المنزل، وغسلتها بدموعها، ودهنتها بدهانٍ فاخرٍ نفيس.

الحق أقول لك إن الله قد غفرَ لها معظم آثامها، لأنها أحبتني كثيرا.

ثم استدار إلى المرأة وقال: اذهبي بسلام، لأن الله قد غفر لك ذنوبك. ولكن لا ترجعي إلى المعصية مرة أخرى. إن إيمانك قد أنقذك.

كيف نتحرَّرُ من الغرور

واقترب الحواريون من عيسى بعد صلاة الليل وقالوا: أيها المعلم كيف نتخلّص من الغرور؟

أجاب عيسى: هل رأيتم فقيراً مدقعاً مدعواً إلى الطعام في منزل الأمير؟

أجاب جون: لقد أكلتُ الطعام في منزل هيرود. فلقد كنتُ في السابق صياد أسماك، قبل أن أتشرف بلقياك، وكنت أبيع السمك إلى عائلة هيرود. وفي يومٍ من الأيام، كانت عنده وليمة، وكنت قد أتيت بسمكةٍ جميلةٍ، فدعاني إلى الطعام.

فقال عيسى: الله يسامحك يا جون! وكيف أكلت الطعام مع الكفار؟ ولكن أخبرني كيف كانت تصرفاتك على مائدتهم؟ هل اخترت الصدر على المائدة بجانب هيرود؟ هل طلبت أشهى الطعام وألذه؟ هل كنت تتكلم على المائدة إلا عند السؤال؟ هل كنت تعتبر نفسك أجدر وأولى من الآخرين للجلوس على المائدة؟

أجاب جون: بحق الحي الذي لا يموت، لم أكن أتجرأ على رفع

عيني، بالنظر إلى أني كنت صياداً فقيراً أشعث أغبر، جالساً وسط حاشية الملك. وعندما أعطاني الملك قطعةً صغيرةً من اللحم، ظننت أن العالم قد وقع على رأسي، لعظمة إحسان الملك ومنته وفضله وكرمه. والحق أقول لكم: لو كان الملك على ديننا، لخدمته طول حياتي بكل رغبةٍ واشتياق.

وزعق عيسى صارخاً: صه يا جون! فإني أخاف من الله ألا يرمي بنا إلى الهاوية لغرورنا[1]، كما فعل بأبيرام!

فارتعدت فرائص الحواريين من الخوف من صراخ عيسى، حينما كرر كلامه قائلاً: فلنخش الله العلي القدير، لئلا يلقينا وينبذنا في الهاوية لغرورنا وتكبُّرنا.

يا إخواني هل سمعتم كلام جون عن سلوك الناس، في منزل أمير دنيويٍّ صغير؟ اللعنة على الذين يأتون إلى هذه الدنيا، ويعيشون مغرورين

---

(١) إن مثال جون وهو فقيرٌ أشعث أغبر على مائدة الملك، ينطبق علينا تماماً نحن الفقراء الشعث الغبر على مائدة الله في هذه الدنيا. أتعجب كيف نتجرأ على رفع عيوننا في حضرة الملك القدُّوس القاهر فوقنا، والذي هو يذلنا ويقهرنا بالموت والفناء! وكيف لا نقدِّر ونثمِّن عظمة إحسان الله الملك الديان، وفضله وكرمه علينا، ونعمه ومننه التي لا تعد ولا تحصى! وأتعجب كيف لا نخشاه وبيده نواصينا، يستطيع أن يفعل بنا ما يشاء، وهو فعلا يفعل بنا ما يشاء، ونحن تحت سطوته وسلطانه بالتمام والكمال، لا نستطيع أن نركن إلى نعمه ومننه ولا نأمن مكره! إلى من الهروب إلا إليه! وهو سندي حيث لا سند سواه، وهو ظهري حيث لا ظهر سواه، وهو ملجئي حيث لا ملجأ سواه، وهو صخرتي في لجج البحار حيث لا صخرة سواه، وهو عدتي في كربتي حيث لا عدة لي سواه!

مزهوين في عجبٍ وخيلاء! لأنهم كلما عاشوا في عجبٍ وفخرٍ وتباهي وكبرياء، ماتوا في خزيٍ وعار واستخفاف وازدراء، وماتوا وهم مبلسون[١].

ألا إن هذه الدنيا هي دار مأدبة الله ووليمته، أولم الله فيها الناس، وأكل منها أوليائه وأنبيائه. والحق أقول لكم: كل ما يناله الإنسان، إنما يناله من عند الله. لذلك ينبغي للإنسان أن يعيش في هذه الدنيا، في خضوعٍ وخشوع، وذلةٍ مدقعة، وضعةٍ صادقة، عالماً عارفاً واقفاً على دنائته وسفالته وحقارته أمام عظمة الله، وعظمة نعمه وهباته وعطاياه، التي أغدقها علينا جميعاً بكرمه وجوده وإحسانه.

لذلك فإنه غير مباحٍ للإنسان بتاتاً أن يضجر ويتذمر في هذه الدنيا ويقول: آه! أف! لماذا صار كذا؟ ولماذا قال كذا؟ ويا ليته لم يصر! ويا ليته لم يقل وهلم جرا! بل الأحرى بالإنسان أن يعتبر نفسه حقاً غير جدير وغير لائقٍ للجلوس على مأدبة الله في هذه الدنيا.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، في مقابل كلُ نعمةٍ من قبل الله، مهما صغُرت في هذه الدنيا، يجب علينا أن نقضي عمرنا في حب الله وخدمته وعبادته.

بحق الحي الذي لا يموت، إنك لم ترتكب معصيةً يا جون،

---

(١) يقول الله عز وجل في سورة الإنعام: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون). يعني في ضيق ويأس شديد.

بحضورك مائدة هيرود، لأنه كان من تدبير الله عز وجل أن تفعل ذلك، كي تكون معلماً لنا ولكل من يخشى الله.

فكذلك يا حواريي! عيشوا جميعا في هذه الدنيا كما عاش جون في منزل هيرود، عندما أكل الطعام معه، كي تكونوا حقاً أحراراً ومتحررين من كل غرور.

موعظة الأمثال

عندما كان عيسى يمشي على ساحل بحر الجليل، وإذا بجمهورٍ عظيم من الناس قد تجمَّعوا على الساحل لسماع كلامه. فركب قارباً صغيراً وأرساه قرب الساحل، بحيث تستطيع الناس سماع كلامه. فاقتربوا جميعهم إلى البحر، وجلسوا على الساحل، ينتظرون كلامه.

فتكلم عيسى قائلاً: ذهب مزارعٌ لبذر البذار. وعندما كان ينثر البذور، سقطت بعضها على الطريق العام، فداستها أقدام المارة، وأكلت منها الطيور. وسقطت بعضها على الأحجار، وعندما نبتت احترقت تحت الشمس، لفقدانها الرطوبة. وسقطت بعضها وسط سياج الأشواك، وعندما نمت خنقتها الأشواك. وسقطت بعضها على الأرض الخصبة، فأثمرت ثلاثين ضعفاً بل ستين ضعفاً بل مئة ضعف.

وقال عيسى ثانية: كان هناك أبٌ طيب، ورب أسرةٍ حنون، زرع بذوراً طيبةً في حقله. وكان يحرس الحقل عبيدٌ مخلصون. وعندما ناموا تسلل عدو الأب الطيب، وألقى بذور العوسج والحنظل على البذور الطيبة. وعندما نبت القمح، نبتت في وسط القمح، كمياتٌ كبيرةٌ جداً من العوسج والحنظل.

فأتى العبيد إلى الأب الطيب وقالوا: يا مولانا أما زرعت بذوراً طيبة في حقلك؟ إذن من أين نبتت كمياتٌ كبيرةٌ جداً من العوسج والحنظل في وسط القمح؟ فأجاب الأب الطيب: أنا زرعت البذور الطيبة، بيد أن الحراس ناموا، فتسلل عدوي إلى الحقل، وزرع بذور العوسج والحنظل على بذور القمح الطيبة.

فقال العبيد: هل تسمح لنا أن نقتلع العوسج والحنظل من وسط القمح؟

أجاب الأب الطيب الحنون: لا تفعلوا ذلك، لئلا يُقتلع القمح الطيب سهواً من غير عمد. ولكن انتظروا حتى وقت الحصاد، وعندئذٍ اسحبوا العوسج والحنظل من وسط القمح، وألقوها في النار حتى تحترق، واجعلوا القمح الطيب في مخزن غلالي وفي صومعتي.

وتكلَّم عيسى مرةً أخرى قائلاً: ذهب مزارعون كثيرون إلى السوق، لبيع محصولهم من التين. بيد أنهم حين وصلوا إلى السوق، وجدوا أن الناس يبحثون عن الأوراق الجميلة، بدل التين الطيب. لذلك فإن المزارعين لم يتمكنوا من بيع محصولهم من التين.

فقام أحد الأشرار وقال: لا جرم سأصبح غنيا. ثم دعا ولديه وقال لهما: انطلقا واجمعا كمياتٍ كبيرة جداً من الأوراق مع التين الفاسد. فباعوا بضاعتهم مقابل الذهب والفضة، لأن الناس انجذبوا بقوةٍ إلى الأوراق، وشروها فرحين. فأكل الناس التين الفاسد، ومرضوا بشكلٍ فظيع.

وقال عيسى ثانية: كان هناك رجلٌ يمتلك ينبوعاً من الماء، وكان

يعطي الماء لجيرانه، كي يغسلوا ملابسهم الوسخة، بيد أن الرجل نفسه سمح لملابسه أن تبقى نتنة متعفنة.

وتكلَّم عيسى مرةً أخرى قائلاً: انطلق رجلان لبيع التفاح. وكان أحدهما يبيع قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، وكان لا يعتني بجودة التفاح. بيد أن الثاني كان يريد بيع تفاحه في مقابل خبزٍ يسيرٍ لقوت سفره. ولكنَّ الناس كانوا يشترون قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، ولا يعتنون بالرجل الثاني، بل كانوا يحتقرونه، على الرغم من أنه كان حاضراً لبيع تفاحه الجيد برغبةٍ واشتياق.

وهكذا تكلَّم عيسى في ذلك اليوم إلى الجمهور بالأمثال. وبعد ما صرف الناس وسرحهم، ذهب في معية حوارييه إلى نايين، البلدة التي أحيى فيها ابن الأرملة. وهنالك ضيَّف الإبن وأمه عيسى وخدماه.

تفسير موعظة الأمثال

اقترب الحواريون من عيسى وسألوه: أيها المعلم أخبرنا معاني الأمثال التي ضربتها للناس.

أجاب عيسى: إن ساعة صلاة المغرب قد اقتربت، فلذا سأخبركم معاني الأمثال بعد الصلاة.

وبعد الصلاة اقترب الحواريون من عيسى فقال لهم: الرجل الذي ينثر البذور على الطريق العام وعلى الأحجار وعلى الأشواك وعلى الأرض الطيبة، هو الذي يُبلِّغ كلام الله، الذي يسمعه عدد كبير من الناس.

إن كلام الله يقع على الطريق العام، عندما يسمعه البحارون والتجار، فينسونه بفعل الشيطان، بسبب رحلاتهم الطويلة، وتنوُّع الأمم التي يتعاملون معها.

وإن كلام الله يقع على الأحجار، عندما يسمعها جلساء الأمراء، فلا يستوعبونها، بسبب قلقهم وانشغال بالهم الكبير بخدمة الأمراء. فهم رغم تذكُّرهم لهذه المواعظ، إلا أنهم ينسونها، فور تعرضهم للمحن والبلايا والخطوب والشدائد، نظراً إلى أنهم لا يراودهم الأمل في رحمة الله، لخدمتهم غير الله.

وإن كلام الله يقع وسط الأشواك، عندما يسمعها أولئك الذين يعيشون في بحبوحة من العيش، وعلى الرّغم من أن كلام الله يؤثر فيهم ويجتذبهم، إلا أن الشهوات الجسدية، حينما تزداد، تخنق بذور كلام الله الطيبة، لأن التسلية الشهوانية تتسبب لهم في نبذ كلام الله وراء ظهورهم.

وإن كلام الله يقع على الأرض الخصبة الطيبة، عندما يسمعه أولئك الذين يخشون الله، فتنبت فيهم ثمرة الحياة الأبدية. الحق أقول لكم: عندما يخشى الإنسان الله، فإن كلام الله في كل الأحوال يُثمر فيه.

أما الأب الطيب ورب الأسرة الحنون، فهو الله حقاً أبو المخلوقات، لأنه خلق المخلوقات جميعهم. ولكنه ليس أباً بمعنى الأب في الطبيعة. فهو الله الملك الحق، يزرع بذر كلامه في حقل الجنس البشريّ. ولأن المعلمين مهملون في تعليم كلام الله، بسبب انشغالهم بمشاغل الدنيا، فإن الشيطان يتسلل إلى قلوب الناس، ويزرع الأخطاء المختلفة، التي منها ينشأ عددٌ لا يحصى من مذاهب العقيدة الفاسدة.

فالأولياء والأنبياء والقديسون يصرخون قائلين: يا رب ألم تعط الناس العقيدة الحقة؟ إذن من أين أتى هذا العدد الذي لا يُحصى من الأخطاء؟

أجاب الله تعالى: لقد أعطيت الناس العقيدة الحقة، بيد أن الشيطان تسلل خلسة إلى قلوبهم، وزرع الأخطاء، كي يبطل ناموسي وقانوني ويعدمه، بسبب انصياع الناس واستسلامهم للباطل والزهو والعجب والغرور والخيلاء.

وقال القديسون: يا رب اسمح لنا أن نقشع هذه الأخطاء ونبددها، بإهلاك الناس وإفنائهم.

أجاب الله: لا تفعلوا ذلك، لأن المؤمنين لهم صلةُ القرابةِ الوطيدة مع الكافرين، بحيث أن المؤمنين سيفنون، إذا أُبيد الكافرون وأهلِكوا. ولكن انتظروا إلى يوم القيامة، حينما يجمع ملائكتي الكافرين، ويُلقون بهم وبالشيطان في نار الجحيم. في حين أن المؤمنين الصادقين سوف يأتون إلى ملكوتي.

ومن المؤكد أنَّ الكثيرين من الكافرين سيلدون الأبناء المؤمنين، ولأجلهم ينتظر الله، كي يتوب المخطئون ويندموا على آثامهم.

أما أولئك الذين يبيعون محصولهم من التين الطيب، فهم المعلِّمون الصادقون، الذين يعظون العقيدة الحقة، بيد أن أهل الدنيا الذين تسرُّهم الأكاذيب، ينشدون أوراق الكلمات الجميلة، وكلام المداهنة والتملُّقِ والنفاق والمدح والإطراء من معلميهم.

ونظرا إلى ذلك، يقوم الشيطان بمعية ولديه الجسد والحواس، ويأتي بكمياتٍ كبيرةٍ من الأوراق، أي كمياتٍ من متاع الدنيا وزينتها وزبرجها، كي يغطوا بها آثامهم، وبذلك يمرض الإنسان، ويستعد للهلاك الخالد، وللنار التي هم فيها خالدون.

أما الرجل الذي يمتلك ينبوعاً من الماء، ويهَبُ الماء لجيرانه، كي يغسلوا ملابسهم الوسخة، بيد أنه يسمح لملابسه أن تبقى نتنة متعفنة، فهو المعلِّم الذي يعلم الآخرين التوبة والندامة، بيد أنه نفسه لا يزال باقياً على الذنوب والمعاصي والآثام، ولا يتوب عنها ولا يندم عليها.

ما أشقى مثل هذا الإنسان! يعلن بلسانه عقابه المناسب له، قبل أن تعلنه الملائكة!

ماذا لو وُجد مخلوقٌ على هذه البسيطة يكون عنده لسان فيل، بيد أن بقية جسده بحجم النمل، أما يكون مثل هذا المخلوق وحشاً غريب الخلقة! بلى بالتأكيد. الحق أقول لكم: إن الذي يعظ الآخرين التوبة والندامة، في حين أنه بنفسه لا يندم على آثامه ولا يتوب عنها ولا يُنيب، لأشنع وأمسخ وأفظع وأغرب خلقةً من ذلك المخلوق.

أما الرجلان اللذان يبيعان التفاح: فالواحد منهما يعظ حباً في الله، ولا يداهن ولا ينافق ولا يتملّق، بل يُعلّم التعاليم الإلهية بصدقٍ وإخلاص، ولا يبتغي إلا الكفاف من الرزق ومعيشة الرجل الفقير. بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إن مثل هذا الرجل لا يعبأ به أهل الدنيا، بل على العكس يحتقرونه ويستخفُّون به.

أما الرجل الثاني الذي يبيع قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، ويرمي بلباب التفاح بعيداً، فهو الذي يعظ الناس، كي يسرُّهم ويفرحهم، بدل أن ينبههم من سباتهم باللوم والتوبيخ والتعنيف. وبنفاقه ومداهنته وتملقه هذا، يدمّر ويفسد روح مستمعيه، الذين يتبعونه ويحتذون به، ويستسيغون مداهنته وتملّقه ونفاقه. يا ترى كم من الناس هلكوا لهذا السبب[١]!

(١) هذه الظاهرة هي التي تحكم مجتمعاتنا، وتدمر وتفسدُ روح الناس، وتسوقهم سوقاً إلى الهلاك. فالخطباء على المنابر يبيعون قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، ويرمون بلباب التفاح بعيداً. وهدفهم رضاية خاطر مستمعيهم وانبساط بالهم بالمداهنة والتملّق والنفاق، ولا يحاولون تنبيههم من سباتهم بالموعظة الحقة. فالموعظة الباطلة صارت تباع في أيامنا مقابل أجر. في حين أن الأنبياء والقديسين وأولياء الله الصالحين لا يريدون من الناس أجراً في مقابل مواعظهم وتعليماتهم. وتبعا لذلك، فإنهم يُقصَون عن المنابر إقصاءً من قبل هؤلاء، الذين يمارسون الموعظة في مقابل أجرٍ ماديّ، أو بعبارةٍ=

....

= أخرى، يتعاملون مع الموعظة معاملةً تجارية. وفي نهاية المطاف، الكفة الغالبة هي الدنيا وحب المال والعلو في الأرض، التي تجعلهم ينتخبون مثل هذه المهنة، كي يمتهنوها ويكسبوا من ورائها مالاً وجاهاً. وقد ضاعت في خضم حب المال والجاه كلمة الحق.

يقول الله تعالى في أواخر سورة التوبة: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).
ومن المؤكد أن هذه الآية الشريفة تشير إلى الموعظة الحقة، لهدف إنذار قومهم، أو بعبارة أخرى، لهدف تنبيه قومهم من سباتهم، باللوم والتوبيخ والتعنيف؛ حتى يحذروا من عواقب أعمالهم السيئة التي يتداولونها كل يوم. ثم أن التفقه في الدين هو التفقه في الأصول لا في الفروع، كما ذكر السيد حسين العالم في كتابه (المجالس)، وذكرته في كتابي: قدوة الفقهاء والعارفين، تحت فصلٍ خاص.
ما يحدث في مجتمعاتنا، هو أن الموعظة الحقة وكلمة الحق ضائعة، وأن الموعظة أصبحت تجارةً في مقابل الأجر والمال، وأصبحت الظاهرة العامة هي النفاق والمداهنة والتملُّق.

وما هي النتيجة؟ تدمير وفساد روح الناس في مجتمعاتنا، الذين يتبعون الخطباء ويحتذون بهم، ويستسيغون مداهنتهم وتملُّقهم ونفاقهم. يا ترى كم من الناس هلكوا لهذا السبب! الواضح أنهم، بحكم هذا الجو، منشغلون بالأعمال، ومحجوبون عن الإيمان، تماماً كما يريده الشيطان. وكما قال عيسى بن مريم: إن خلاص المصطفين من قبل الله يتم بالإيمان. ومن المؤكد أنه يستحيل على أحدٍ أن يُرضي الله من دون الإيمان. لذلك فالشيطان غير مهتم بإبطال الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل إنه على العكس من ذلك، يحث على رعاية الاعمال والأحكام، لأنه عدو الإنسان، ويسرّه أن يراه يعمل ويكد ويتعب من دون أجر. بيد أنه يبذل قصارى جهده أن يبطل الإيمان ويعدمه بكل جدٍ واجتهاد. لذلك فالإيمان، بطورٍ أخص، يجب أن يحرس ويحافظ عليه بكل دقةٍ وإخلاص.

ضعوا كنوزكم في السَّماء

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[١]:

يا بني إسرائيل أما تستحيون من الله؟ إن أحدكم لا يسوغ له شرابه، حتى يصفيه من القذى. ألم تسمعوا أنه قيل لكم في التوراة، صلوا أرحامكم، وكافوا أرحامكم؟

وأنا أقول لكم: صلوا من قطعكم، وأعطوا من منعكم، وأحسنوا إلى من أساء إليكم، وسلموا على من سبكم، وأنصفوا مَن خاصمكم، واعفوا عمن ظلمكم، كما أنكم تحبون أن يُعفى عن إساءتكم، فاعتبروا بعفو الله عنكم.

ألا ترون أن شمسه أشرقت على الأبرار والفجار منكم، وأن مطره ينزل على الصالحين والخاطئين منكم؟ فإن كنتم لا تحبون إلا من أحبكم، ولا تحسنون إلا إلى من أحسن إليكم، ولا تكافئون إلا من أعطاكم، فما فضلكم إذن على غيركم؟ قد يصنع هذا السفهاء الذين ليست عندهم فضولٌ ولا لهم أحلام.

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ١٤/ ٣١٧.

ولكن إن أردتم أن تكونوا أحباء الله وأصفياء الله، فأحسنوا إلى من أساء إليكم، واعفوا عمن ظلمكم، وسلموا على من أعرض عنكم. اسمعوا قولي، واحفظو وصيتي، وارعوا عهدي، كيما تكونوا علماء فقهاء.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ قلوبكم بحيث تكون كنوزكم، وكذلك الناس يحبون أموالهم، وتتوق إليها أنفسهم، فضعوا كنوزكم في السماء، حيث لا يأكلها السوس، ولا ينالها اللصوص.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ العبد لا يقدر على أن يخدم ربين، ولا محالة إنه يؤثر أحدهما على الآخر وإن جهد، كذلك لا يجتمع لكم حب الله وحب الدنيا.

بحقٍ أقول لكم: إن شر الناس لرجلٌ عالمٌ آثر دنياه على علمه، فأحبها وطلبها وجهد عليها، حتى لو استطاع أن يجعل الناس في حيرةٍ لفعل. وماذا يغني عن الأعمى سعة نور الشمس وهو لا يبصرها؟ كذلك لا يغني عن العالم علمه إذا هو لم يعمل به.

ما أكثر ثمار الشجر وليس كلها ينفع ولا يؤكل! وما أكثر العلماء وليس كلهم ينتفع بما علم! وما أوسع الأرض وليس كلها تُسكن! وما أكثر المتكلمين وليس كل كلامهم يُصدَّق!

فاحتفظوا من العلماء الكذبة، الذين عليهم ثياب الصوف، منكسوا رؤوسهم إلى الأرض، يطرفون من تحت حواجبهم كما ترمق الذئاب، وقولهم يخالف فعلهم. وهل يُجتنى من العوسج العنب؟ ومن الحنظل التين؟ وكذلك لا يؤثر قول العالم الكاذب إلا زوراً. وليس كل من يقول يصدق.

بحقٍ أقول لكم: إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، وكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار. ألم تعلموا أنه من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن خفض برأسه عنه استظل تحته وأكنه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه، ومن تواضع لله رفعه.

إنه ليس على كل حال، يصلح العسل في الزقاق، وكذلك القلوب ليس على كل حال تعمر الحكمة فيها. إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل، فسوف يكون للعسل وعاء، وكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، ويدنسها الطمع، ويقسيها النعيم، فسوف تكون أوعيةً للحكمة.

كيف نتعرَّف على كلام اللّه

فسأل برنابا: كيف نُميِّز كلام الله من كلام البشر؟ وكيف نُميِّز من كان يعظ حبا لله خالصا مخلصا من غيره؟

أجاب عيسى: أنصت إلى من يعظ العقيدة الصالحة، كما لو أن الله يتكلَّم، لأن الله يتكلَّم من خلال لسانه. إن الذي لا يزجر المذنبين ولا ينتهرهم ولا يلومهم ولا يعيرهم، احتراماً لأشخاص، أو مداهنة لناسٍ معينين، فحذار حذار منهم! ابتعد عنهم كما تبتعد عن الأفعى المريع المرعب المخيف! فإنه حقاً يسمِّم الأذن البشري.

أما فهمت ما أقول يا برنابا؟ الحق أقول لك: فكما أن الرجل الجريح ليس بحاجةٍ إلى ضمادات جميلةٍ ليضمد جراحه ويربطها، بل إلى مرهمٍ طيبٍ مفيدٍ وشافي، ولو كان محرقاً، كذلك المذنب ليس بحاجة إلى كلامٍ طيبٍ جميل، بل إلى تعييرٍ وتعنيفٍ ولومٍ وتوبيخ، ولو كان موجعاً، كي يتوقف عن الذنوب والمعاصي.

موعظة دمشق

أقام عيسى في دمشق، بعد أن أراد أهل نايين أن ينصِّبوه ملكاً عليهم، ففرَّ منهم إلى أن وصل إلى دمشق. وبحث عنه الحواريون[1] وعددهم ٨٤ فوجدوه، واحد تلو الآخر، وعرفوا منه أنه سيرحل من هذا العالم. فبكوا وانتحبوا، فتكلَّم عيسى إليهم قائلاً:

بالتأكيد إن الشقيَّ من مشى في هذا العالم ولم يدر إلى أين يتجه. أما الأشقى فهو ذلك الذي يعرف كيف يصل إلى خانٍ ونزلٍ ومأوى، وهو قادرٌ عليه، ورغم ذلك يريد ويرغب في الإقامة على طريقٍ موحلٍ طيني، تحت المطر المنهمر، وفي معرض خطر اللصوص وقطاع الطرق.

أخبروني يا إخواني هل هذه الدنيا هي وطننا الأصلي ومسقط رأسنا؟ بالتأكيد لا! لأن الرجل الأول أُبعد إلى منفاه في هذه الدنيا، حيث عانى السقاء عقاباً على معصيته. هل يمكن أن يوجد منفيٌّ يكابد الفقر في منفاه، لا يطمح إلى الرجوع إلى وطنه الغني؟ التجربة تثبت أنه لا يطمح، بيد أن

(١) كان عدد الحواريين في الأصل ١٢ ولكن بعد حادثة إطعام أكثر من ٥٠٠٠ رجل وامرأة وطفل بخمسة رغائف وسمكتين فقط، انضم إليه ٧٢ حواريٌّ آخر، فصار عددهم ٨٤.

العقل ينكر ذلك. **أما ترى عشاق الدنيا لا يفكرون في الموت بتاتاً! أما ترى أنهم لا ينصتون إلى من يذكرهم بالموت!**

صدّقوني أيها الناس، لقد أتيت إلى هذا العالم، بمزية[1] لا توجد عند أحدٍ غيري، ولا حتى عند رسول الله، بالنظر إلى أن الله قد خلق الإنسان للجنة لا لهذه الدنيا. لا جرم أن الذي لا يأمل في أن يحصل شيئاً من الرومان، لأنهم يدينون بدين غير ديننا، لا يمكن أن يترك وطنه بكل ما عنده، ثم يذهب ليعيش في روما، ولا يعود إلى بلاده قط، وعلى الأخص ذاك الشخص الذي أساء إلى قيصر وغاظه وأزعجه.

الحق أقول لكم، ونبي الله سليمان يصرخ معي قائلاً: **أيها الموت ما أمر ذكرك عند أولئك الذين ركنوا إلى ثرواتهم!** لا أقول هذا لأنني سوف أموت قريباً. إنني واثقٌ من أني سوف أعيش حتى يقترب العالم من نهايته[2].

---

(١) أتمنى على عيسى أن يوضح لي هذه المزية ما هي: إما في الرؤيا الصادقة أو في شهود علني. لأنني في الحقيقة لا أفهم هذه المزية، التي لا توجد عند أحد غيره ولا حتى عند رسول الله ص. فإذا كانت المزية هي أنه قد رفع إلى السماء، فإن إلياس أيضا قد رفع إلى السماء. وإذا كانت المزية هي موته قبل أن تقترب نهاية العالم، وأنه سيهبط إلى الأرض قبل نهاية العالم، فإن أخنوخ وإلياس ونبياً آخر أيضا سيموتون قبل أن تقترب نهاية العالم، وإن إلياس أيضا سيهبط إلى الأرض قبل نهاية العالم. أما بالنسة لتوضيحه بأن الله قد خلق الإنسان للجنة لا لهذه الدنيا، فإن رسول الله ﷺ أولى بالمزية عن غيره، لأنه دخل موطنه الأصلي وهو الجنة فور التحاقه بالملأ الأعلى، في حين أن عيسى لن يدخل الجنة إلا في يوم القيامة، كما ذكر هو بنفسه في مكان آخر.

(٢) أتعجب جداً كيف أن كلام هذا القديس يؤثر الآن علي بكل قوة، **عبر ألفي عام من** =

لكنني أتكلَّم إليكم في هذا الموضوع، كي تتعلموا كيف تموتون[١].

بحق الحيِّ الذي لا يموت، كل شيءٍ يقع خطأً حتى لمرةٍ واحدة، يظهر لنا كيف أن ممارسة الشئ على وجهه الصحيح، يحتاج إلى تمرينٍ وتدريب. أما رأيتم الجنود، كيف أنهم في أيام السلم، يتمرنون ويتدربون على أساليب الحرب والقتال مع بعضهم البعض؟ ولكن كيف للإنسان أن يموت ميتةً طيبة، إذا لم يتعلم عملياً كيف يموت ميتةً طيبة؟

يقول نبيُّ الله داود: ما أندر مشهد موت القديس بعين الله وأفخره وأنفسه وأجله وأعظمه! هل تعلمون لماذا؟ سأخبركم: كما أن الأشياء النادرة فاخرة ونفيسة، كذلك مشهد موت الذين يموتون ميتةً طيبةً نادر، ولذلك فهو فاخرٌ ونفيس، بعين الله وفي منظور الله.

عندما يبدأ الإنسان مشروعا ما، يهتم في رغبةٍ واشتياقٍ عظيمين، لا

= التاريخ، وكأنه الآن أمامي حيٌّ يرزق، وكأنه نهرٌ جارف، يتكلّم إلي بكل حماسةٍ وغيرةٍ وحميةٍ وحرارةٍ عجيبةٍ وغريبةٍ جداً! وكم أجهشت بالبكاء عند قراءتي هذه الكلمات المقدسة القوية، بل بالأحرى عند سماعي إياها من فمه الشريف! وكم قلت لنفسي، إنه حيٌّ يرزق، ويتكلم إلي الآن! إن ما يقوله عيسى عليه السلام بأنه سوف يعيش حتى يقترب العالم من نهايته، تؤيده الرواية الإسلامية، بأنه حيٌّ يرزق في السماء الرابعة، وسوف يهبطُ إلى الأرض، في آخر الزمان، ليصلي وراء الحجة المنتظر ع، ويدعو النصارى في العالم إلى الإسلام.

(١) نبينا محمد صلى الله عليه وآله قال في حديثه المشهور: موتوا قبل أن تموتوا. وكيفية الموت قبل الموت يمارسها السالكون، الذين هم في السير والسلوك إلى الله، لأنها ضرورية جدا للفلاح والخلاص، ذكرتها بالتفصيل في كتابي السموات السبع صفحة ٦١ تحت فصل (قال ارجعوني) وبعدها من الفصول.

فقط في إكمال ذلك العمل، بل يهتم ويبذل قصارى جهده، ويكدُّ ويكدح ويجاهد ويكافح، كي ينهي ويكمل خطته وتصميمه، على أحسن وجه، وفي حسن العاقبة ومسك الختام.

ما أشقى الإنسان الذي يثمِّن ملابسه أكثر من نفسه! لأنه حين يقرض القماش، يهتم بقياسه وتفصيله قبل أن يقصه، وبعد القص يهتم بخياطته على أحسن وجه.

ولكن ماذا يفعل الإنسان بحياته، التي ولدت لتموت، حيث أنّ الذي لم يولد لا يموت؟ ألا يجدر بالإنسان أن يكيل ويعاير حياته بالموت!

ألا تلاحظون البنائين حين يبنون كيف أن عيونهم دائماً متجهةً إلى أساس البيت في كل حجرٍ يضعونه؟ هم يهتمون بالأساس أن يبقى مستقيماً ولا يتعوج، كيلا يقع الجدار على الأرض.

يا لشقاء الإنسان! لأن بناء حياته سيتحول إلى خرائب وأطلال، وإلى دمارٍ عظيم، لأنه لم يهتم ولم يعتن بأساس حياته وهو الموت، ولم يجعل عينه على موته أثناء حياته!

أخبروني حينما يولد الإنسان كيف يولد؟ لا جرم أنه يولد عارياً. ثم أنه إذا وُضع في لحده ميتا، ماذا يأخذ معه؟ يُلف بنسيجٍ أبيض حقير! وهذه هي جائزته التي تقدمها له الدنيا.

إنَ أي مشروعٍ يجب أن تكون أدواته متناسبةً مع بدايته ونهايته، كي ينجز بأحسن وجه، وتكون خاتمته حسن العاقبة ومسك الختام، فماذا يا ترى هي نهاية الإنسان، الذي يحب الدنيا وثرواتها! إنه سيموت كما قال نبيُ الله داود: إنَ المذنب يموت ميتةً، في أقصى النحس والشؤم.

اذا كان المرء يخيط القماش، بأعمدةٍ من حديد، بدل الخيط في الإبرة، فكيف ينجز عمل الخياطة؟ وكيف تكون خاتمة هذا العمل؟ لا جرم أن عمله سوف يذهب سدى، وسوف يكون موضع احتقار جيرانه. أما ترى أن الإنسان يعمل نفس الشيء باستمرار، حينما يجمع المال ويكدس متاع الدنيا وزينتها وزخرفها وزبرجها!

إنّ الموت هو إبرة خياطة الحياة، ولا يمكن خياطة حلة الحياة بالأعمدة، التي هي متاع الدنيا. رغم ذلك فالإنسان في جنونه، يكد ويكدح باستمرارٍ لإنجاح عمله، في خياطة حلة حياته، ولكن يذهب جهده سدى.

وكل من لا يُصدِّقني، دعوه يذهب إلى القبور، ويشاهد ما فيها، فهنالك سوف يجد الحق والحقيقة. فمن كان يرغب باشتياقٍ، في أن يكون عاقلا وخائفا من الله، أكثر من غيره، فعليه أن يدرس كتاب القبور، لأنه سوف يجد هناك العقيدة الحقة، للتمهيد لفلاحه وخلاصه.

فهنالك سوف يتعلم كيف يحترس من الدنيا، ومن رغبات الجسد، وملذات الحواس، حيث يجد أن جسد الإنسان بلحمه وعظمه وجميع أنواع أنسجته قد ادخر من قبل الله كي يكون طعاماً للديدان.

أخبروني لو كان هناك طريقٌ، بحيث أنَّ الإنسان إذا مشى في وسطه سلم، وإذا مشى على جانبيه هلك، فماذا تقولون لو أنكم رأيتم الناس، يتنافسون بشدةٍ على الاقتراب من حافتيّ الطريق، ويقتلون أنفسهم بسبب ذلك؟ كم ذا تكون دهشتكم وحيرتكم وذهولكم! لا جرم أنكم تقولون: إنهم مجانين ومعتوهون، وإذا لم يكونوا معتوهين، فإنهم مستقتلون متهورون.

أجاب الحواريون: إنَّ هذا صحيحٌ حقا.

فأجهش عيسى بالبكاء وقال: إنَّ أهل الدنيا ومحبيها هم كذلك. فلو أنهم عاشوا حسب معايير العقل والمنطق، وتمسكوا بالاعتدال والوسطية، لاتبعوا قانون الله، وأنقذوا أنفسهم من الهلاك والعذاب الخالد.

ولأنهم يتبعون إغرائات الدنيا، ورغبات الجسد، فإنهم حقاً معتوهون وأعداء ألداء لأنفسهم، حيث يبذلون قصارى جهدهم، ويتنافسون بشدة، كي يعيشوا بعجرفةٍ وغطرسةٍ وزهوٍ وعجبٍ وكبرياء، ويمارسوا الشهوانية والدعارة أكثر من غيرهم.

ماهية الفريسيين

ثم جاء عيسى إلى الناصرة بأمرٍ من جبرائيل، وأقام في بيت أحد المرابين واسمه زكا. فتذمَّر الفريسيون وقالوا للحواريين: لماذا يذهب معلمكم إلى بيت المرابين والمذنبين ليأكل الطعام معهم؟

أجاب عيسى: لماذا يدخل الطبيب في بيت أحدكم؟ أجيبوني حتى أخبركم لماذا دخلت إلى هذا البيت.

أجاب الفريسيون: حتى يعالج المرضى.

قال عيسى: صدقتم! لأنَّ الأصحاء لا يحتاجون إلى دواء، بل المرضى فقط بحاجةٍ إلى علاج.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إن الله يبعث أنبيائه وأوليائه إلى هذه الدنيا، كي يتوب المذنبون ويندموا على أفعالهم، وإنه لا يبعثهم إلى الصالحين، لأنهم ليسوا بحاجةٍ إلى التوبة والندامة، كما أن الرجل النظيف ليس بحاجةٍ إلى مغسل ليستحم.

والحق أقول لكم: لو كنتم حقاً فريسيين، لاستبشرتم بدخولي إلى بيت المذنبين، لخلاصهم ونجاتهم. أخبروني هل تعرفون أصلكم، ومنذ

متى عرف العالم الفريسيين؟ لا جرم أني سأخبركم، نظرا إلى أنكم لا تعرفون ذلك. لهذا أنصتوا إلي جيدا.

إنَّ أخنوخ كان خليل الله، وكان مع الله بصدق، ولا يحسب لهذه الدنيا حساباً، فنقله الله إلى الجنة، حيث يقيم إلى يوم القيامة. وأنه حينما تقترب نهاية العالم، سيرجع إلى هذه الدنيا، بمعية إلياس ونبيٌّ آخر.

وعندما علم أولئك الذين يرغبون في الجنة بذلك، بدأوا بالبحث عن الله بارئهم. لأن لفظ (الفريسي) باللغة الكنعانية يعني (يبحث عن الله). وهكذا بدأت هذه التسمية بالسخرية من الرجال الصالحين، لأن الكنعانيين كانوا عُبَّاد الأوثان، التي تصنعها أيدي البشر.

وكان الكنعانيون حينما يشاهدون رجلاً من رجالنا، الذين اعتزلوا الدنيا لعبادة الله، كانوا يسخرون منه قائلين: هذا فريسي، يعني أنه يبحث عن الله، كما لو كانوا يقولون: أيها المجنون ليس عندك تماثيل من الأوثان، بل إنك لا تعبد إلا الهواء، فانظر إلى عاقبتك، وتعال واعبد آلهتنا.

الحق أقول لكم: إنَّ كل القدِّيسين وأنبياء الله كانوا فريسيين، لا بالإسم مثلكم بل بالعمل، لأنهم في كل أعمالهم، كانوا يبحثون عن الله بارئهم وفاطرهم. وفي حب الله وعشقه، تركوا مدنهم وممتلكاتهم وأمتعتهم التي باعوها، ووهبوها للفقراء، حباً وعشقاً في الله.

كتاب إلياس

واستمر عيسى قائلاً: بحق الحيِّ الذي لا يموت، إنه كان هناك في زمن نبيِّ الله إلياس، اثنا عشر جبلا، يقطنها ١٧٠٠٠ أو سبع عشر الف فريسي، لم يوجد فاسدٌ واحدٌ بينهم، بل الكل كانوا ممن اصطفاهم الله واختارهم لخدمته وعبادته.

بيد أنه الآن، وحينما يكون في إسرائيل أكثر من مئة ألف فريسي، هل يُرضي الله أن يكون هناك واحدٌ فقط من كل الف فريسي، من المصطفين من قبل الله تعالى!

فأجاب الفريسيون في سخطٍ وغضبٍ وغيظٍ وحنق: إذن نحن كلنا فاسدون وأشرار! أنت تستهجن ديننا وتنكره.

أجاب عيسى: إنني لا أستهجن دينكم، بل بالعكس أستحسن دين الفريسيين الصادقين، وأنا حاضرٌ لأن أموت دونهم. تعالوا ننظر إذا كنتم فريسيين أو لا! إنَّ خليل الله إلياس، بالتماس من حواريه اليسع، كتب كتيباً وضمَّنه جميع الحكمة البشرية وناموس الله.

وارتبك الفريسيون وانزعجوا عند سماعهم اسم كتاب إلياس، لأنهم

كانوا يعرفون ذلك الإسم من خلال تقاليدهم الدينية، بيد أنهم لم يلتزموا بتلك العقيدة ولم يراعوها. لذلك رغبوا باشتياقٍ في المغادرة، بحجة الأعمال الشخصية.

فقال عيسى: لو كنتم فريسيين حقاً، لتركتم كل أعمالكم الشخصية، لتنصتوا إلى كتاب إلياس، لأن الفريسي يبحث عن الله فقط. فارتبكوا وتحيَّروا وأصيبوا بخزيٍ وخجل، ومن ثم تأخروا وتمهلوا، حتى ينصتوا إلى عيسى. فقال عيسى ثانية:

إنَّ عبد الله إلياس (وكذلك يبدأ الكتيب) يكتب هذه الوصايا، لكل من اشتاق إلى السير والسلوك إلى الله بارئهم:

كل من أراد أن يتعلم الكثير، كانت خشيته من الله جد قليل[1]. لأن من يخشى الله يقنع بأن يعرف ما يشاؤه الله فقط لا غير.

كل من يبحث عن الله، لا ينشد الكلمات الجميلة، لأنَّ الله لا يريد منا شيئاً، غير أن نوجه اللوم والتوبيخ لأنفسنا على آثامنا وذنوبنا ومعاصينا[2].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ﴾. والعلماء الحقيقيون هم الذين يركزون على النقطة. قال الإمام الباقر عليه السلام: العلم نقطة كثرها الجاهلون. وهناك علماء مجازيون كثر، ولكنهم مشتتون في التكثير والتكاثر، ومن ثم الجهل، وابتعدوا عن النقطة مسافاتٍ شاسعة.

(٢) العلماء المجازيون تعلموا كل شيء إلا هذا. ومن منهم من يعتبر هذا علماً! ومع الأسف الشديد! يكتنزون العلوم المختلفة، ثم يغفلون عن أنفسهم، وعن لومها وتوبيخها، والتوجه إلى ذنوبهم وآثامهم ومعاصيهم، وما أكثرها في نظر الله! إنهم لا يفعلون ذلك، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً! ياليتهم انتبهوا إلى هذا، وقضوا حياتهم في البكاء والنحيب على ذنوبهم، حتى يرفق بهم ربهم ويتغمدهم برحمته! وإن لم =

إن بيت الله في قلبك، حيث يوجد حب الله. فكل من اشتاق إلى الله، أغلق أبواب بيته وشبابيكه[١] وأوثق إقفالها، لأنَّ الله لا يسمح لنفسه، بأن يتواجد خارج بيته، حيث لا يوجد حب الله. فاحفظ حواسك، وعليك بقلبك، لأن الله لا يوجد خارجنا في هذه الدنيا التي تبغض الله.

اذا أردت أن تعمل عملاً صالحاً[٢] فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل

= يفعلوا ذلك، بقيت ذنوبهم وآثامهم لاصقةً بروحهم، سوداء داكنة لا تغادرها. بيد أنهم إذا فعلوا ذلك، عفا الله عنهم ومحا ذنوبهم وآثامهم. يقول الإمام علي عليه السلام: طوبى لمن لزم بيته وبكى على خطيئته!

إليك قصة ملا صدرا الشيرازي الذي كتب الكثير مما نسميه المعارف الإلهية أو العرفان النظري، بيد أنه في آخر عمره قال: يا ليتني لم أقض ثلاثين سنة من عمري، في كتابة المعارف الإلهية، بل اكتفيت بهذه الآية الشريفة، وعملت بها ليل نهار وهو قوله تعالى: قد أفلح من زكاها.

(١) بمعنى جمع شمله، وركز على النقطة النورانية في قلبه. أو بعبارة أخرى، مارس الرياضات للتخلص من التشتت والتبعثر في أفكاره، وملك أفكاره وخواطره، واجتمع في داخله، وانشغل بنفسه عما حوله، وركّز على النقطة النورانية في قلبه. أو باصطلاح العرفاء انشغل بمراقبة القلب. أو باصطلاح القرآن الكريم: إقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً. كتابك في نفسك فاقرأه ليل نهار. وأين العلوم الكثيرة من هذه الحقيقة الصادمة!

(٢) المشكلة الكبيرة أنَّ الناس، وعلى رأسهم العلماء المجازيون، يفكرون أنَّ الأعمال الصالحة، هي العمل الظاهري بأحكام الدين من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها، وإذا فعلوها دخلوا الجنة. لا جرم أنها واجبة على المسلم، وضرورية جداً، ولكن لا بد أن تؤتي ثمارها. فالصلاة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا صلاة إلا بحضور القلب. وقال صلى الله عليه وآله: الصلاة معراج المؤمن. فأين نحن من حضور القلب، ومن معراج المؤمن! ثم نحسب أننا نحسن صنعاً وندخل الجنة! إنها تمريناتٌ فرضها الله علينا، =

إذا اهتديت، ولا ينفعك أن تربح العالم كله، ثم تخسر نفسك.

كل من أراد أن يعلم الآخرين فليكن أصلح من غيره، لأنه لا يمكن لنا التعلُّم ممن هو أقل صلاحاً منا. فكيف يصلح المذنب نفسه، حينما يجد الذي يعظه أسوء منه؟

كل من نشد الله فليتجنب محاورة الناس. لأن موسى على جبل سينا، في عزلته الكاملة عن الناس، وجد الله، وتكلَّم مع الله، كما يتكلَّم الخليل إلى خليله.

كل من التمس الله، يكفيه مرةً في كل ثلاثين يوماً، أن يزور أهل الدنيا، لأنه يكفيه يومٌ واحد، أن يُنجز فيه أعمال سنتين، بكل ما يتخص بمتطلبات من يبحث عن الله.

اذا مشى فلينظر فقط إلى قدميه، وليغضَّ الطرف عن كل شيءٍ سواه.

اذا تكلم فليمسك لسانه إلا عما هو ضروري.

اذا أكل الطعام، فليَقم عن المائدة وهو لا زال جائعاً، وليعمل لآخرته كأنه يموت غداً، وليقض وقته شاكراً، مع كل زفرة وشهقة من نفسه.

فليكتف بلباسٍ واحدٍ من جلد الحيوانات.

فلينم ككتلة أرضٍ على أرضٍ عارية، وليكتف بساعتين من النوم في كل ليلة.

= كي ننفذ إلى أعماق أنفسنا، ونلزمها ونواظب عليها، كي لا نخسر أنفسنا ونربح غيرها.

فليبغض نفسه فقط لا غير، وليستنكر ويذم نفسه فقط لا غير.

فليقف في الصلاة في خشيةٍ من ربه، كما أنه أمام الله في يوم القيامة.

فاعمل بهذه الوصايا وبالناموس، الذي أنزله الله على موسى، من أجل خدمة الله وعبادته. وإذا فعلت سوف تجد الله، بحيث أنك في كل مكانٍ وزمان، ستشعر بأنك في الله وأنَّ الله فيك.

أيها الفريسيون هذا هو كتاب إلياس، وأقول لكم مرة أخرى، إن كنتم فريسيين، لاستبشرتم بقدومي، لأنَّ الله أنزل رحمته على المذنبين، بسبب قدومي.

الملائكة تستبشر بالمذنب حين يندم

قال زكا لعيسى: يا سيدي سوف أنفق في سبيل حب الله أربعة أضعاف ما كسبته من الربا.

فقال عيسى: في هذا اليوم حظيَ هذا البيت بالخلاص والفلاح. الحق أقول لكم: إنَّ كثيراً من المرابين والخمَّارين والمومسات والمذنبين والمذنبات سيدخلون ملكوت الله، في حين أن الذين يحسبون أنفسهم صالحين، سيذهبون إلى نار جهنم وبئس المصير. وعند سماع ذلك غادر الفريسيون في سخطٍ وغضبٍ وغيظٍ وحنق.

ثم تكلم عيسى إلى الحواريين، وأولئك الذين تابوا وندموا من الفريسيين وبقوا معه قائلاً: كان هناك أبٌ وعنده ولدان. فقال الإبن الأصغر: يا أبتي أعطني نصيبي من الثروة، فأعطاه أبوه إياها. وحينما أخذ نصيبه، ذهب إلى بلادٍ قاصية، وبذَّر ثروته مع الداعرات حتى أفلس، بعدما عاش في رغدٍ ورخاء.

وبعد ذلك حدثت مجاعةٌ شديدةٌ في تلك البلاد، بحيث أنَّ الولد البائس ذهب لخدمة مواطنٍ هناك، والذي وظفه ليطعم الخنازير. وعندما كان يطعم الخنازير، كان يخفف من جوعه بطعام الخنازير، وهو جوزة

البلوط. وحينما رجع إلى نفسه قال: أموت هنا من الجوع، وفي بيت أبي وفرةً من الولائم! سأقوم وأرجع إلى أبي وأقول له: يا أبتاه! لقد أذنبت في حقك، فاقبلني وعاملني كما تعامل أحداً من خدامك.

وعندما رجع، رآه أبوه من بعيد، وهو في حالةٍ بائسة، فعطف عليه وذهب ليستقبله وعانقه وقبَّله. فانحنى الإبن قائلاً: يا أبتاه! لقد أذنبت في حقك، فاقبلني وعاملني كما تعامل أحداً من خدامك، لأني لا أستحق أن أكون ابنك. فأجاب الأب: يا ولدي لا تقل ذلك، إنك ولدي ولن أسمح لك أن تنزل بمنزلة العبيد.

فنادى خدَّامه وقال: ألبسوه ملابس جديدة، وأعطوه أحذيةً جديدة، وضعوا الخاتم في إصبعه، واذبحوا له عجلاً سميناً، وسنقيم له وليمةً كبيرة. إن ولدي كان ميتاً، فرجع إلى الحياة مرةً ثانية، وكان ضائعاً وقد وجدناه.

فجاء الإبن الأكبر، وسمع صوت الطرب في داخل البيت، فتعجب وسأل أحد الخدام، لماذا هذه الوليمة ومظاهرُ الطربِ والفرحِ والسرور؟ فأجاب الخادم: أخوك قد رجع، وأبوك قد ذبح له العجل السمين، وأقام له الوليمة. وعند سماع ذلك اغتاظ الإبن الأكبر كثيراً، ولم يدخل البيت. فخرج الأب إليه وقال له: يا بني إن أخاك قد رجع، تعال وشاركنا في الفرح والسرور برؤيته.

أجاب الإبن الأكبر في سخطٍ وغضبٍ وغيظٍ وحنق: لقد خدمتك طول هذه المدة أحسن خدمة، ولم تذبح من أجلي خروفاً، كي أضيف أصدقائي. ولكنك ذبحت عجلاً سميناً، لأجل هذا الشخص الوضيع،

الذي افترق عنك، وبذَّر كل نصيبه من الثروة مع الفاجرات وبنات الهوى، ورجع إليك مفلساً بائساً!

أجاب الوالد: يا بني كنت دائماً معي، وكل شيء هنا لأجلك، بيد أن أخاك كان ميتاً، فرجع إلى الحياة مرةً أخرى، وكان ضائعاً فوجدناه، فلذلك يجب أن نفرح بقدومه.

فاستشاط الإبن الأكبر غيظا وقال: اذهب أنت واحتفل بقدومه، أما أنا فلن آكل الطعام مع الزناة. ثم افترق عن والده، ولم يستلم منه درهما واحداً.

قال عيسى: بحق الحي الذي لا يموت، إن الملائكة في السماء، لتطرب وتفرح وتبتهج، لمذنب حين يتوب ويندم.

عباد بني اسرائيل

أخبروني هل الفريسيون اليوم هم حقاً فريسيون؟ وهل هم حقاً عباد الله وخدامه؟ بالتأكيد لا! والحق أقول لكم: **ليس هناك أسوء على وجه الأرض من رجل يحترف الدين، وعليه لباس الدين، كي يُخبِّئ وراء ذلك روحاً آثمة**[1].

سأقصُّ عليكم حالةً واحدةً فقط عن الفريسيين، في الزمن القديم، كي تعرفوا الفريسيين في زماننا:

إنَّ محفل الفريسيين قد تشتت وتبدد وتفرق شملهم، بعدما غادر إلياس النبيُّ مسقط رأسه، بسبب الإضطهاد العظيم، الذي تعرض له رجال الله من قبل الوثنيين. وفي زمان إلياس، في خلال سنةٍ واحدةٍ فقط، قتل أكثر من عشرة آلاف ١٠,٠٠٠ نبيٍّ، وكلهم كانوا من الفريسيين الصادقين.

وذهب فريسيان منهم إلى الجبال، للإقامة والسكنى هناك. فأقام الواحد منهما ١٥ عاما، لا يعلم شيئاً عن جاره، الذي كان لا يبعد عنه أكثر

---

(١) يقول الرسول الأعظمﷺ: أبغض العباد إلى الله من كان ثوباه خيراً من عمله: أن يكون ثيابه ثياب الأنبياء وعمله عمل الجبارين.

من رحلة ساعة. **وما أشد قربهما إلى الله، ونزاهتما عن الفضول في أمور بعضهما البعض!** واتفق أن حدث جفافٌ في تلك الجبال، وخرج الإثنان يبحثان عن الماء، فوجدا بعضهما البعض.

وجرت العادة آنذاك، أن الأكبر سناً يبدأ بالحديث قبل الأصغر سناً، وكانوا يعتقدونه إثماً كبيراً، إن تكلَّم الصغير قبل الكبير.

فسأل الكبير: أين تقيم يا أخي؟

فأجاب الصغير: أقيم هنا! وأشار بإصبعه إلى مسكنه، حيث كانا قريبين منه.

فقال الكبير: يا أخي منذ متى تقيم هنا؟

فأجاب الصغير: منذ ١٥ عاما.

فقال الكبير: يمكن أن تكون قد أتيت إلى هنا، حينما كان أخآب[١] يقتل رجال الله وأوليائه.

فأجاب الصغير: بلى.

فقال الكبير: يا أخي هل تعرف من هو ملك إسرائيل الآن؟

أجاب الصغير: الله وحده هو ملك إسرائيل! لأن الوثنيين ليسوا ملوكاً لإسرائيل، بل مجرد مضطهدين لإسرائيل.

فقال الكبير: صدقت! ولكني كنت أعني من الذي يضطهد إسرائيل

---

(١) زوج ايزابل التي قتلت عشرة آلاف نبي، وكانت نهايتها أن سقطت من نافذة بيتها، وأكلتها الكلاب، ونهشت جسدها نهشاً.

الآن؟ فأجاب الصغير: ذنوب إسرائيل وحدها هي التي تضطهد اسرائيل. لأن إسرائيل لو لم تذنب، لما أقام الله ضدها ملوكاً وثنيين.

فقال الكبير: من هو الملك الكافر، الذي نصبه الله من أجل معاقبة إسرائيل ومجازاتها والقصاص منها؟

فأجاب الصغير: كيف أعرف ذلك، نظراً إلى أني خلال ١٥ عاما الماضية لم أر أحداً غيرك، ولأني لا أقرأ، فلهذا لا أستلم رسائل من أحد!

فقال الكبير: كيف تلبس فروة غنم جديدة، في حين أنك لم تر أحداً؟ فمن الذي أعطاك إياها؟

فأجاب الصغير: إن الذي حافظ على جودة ثياب بني إسرائيل، في التيه في الفلاة، لمدة أربعين عاما، حافظ على جودة فروتي، كما تشاهد وترى.

فشعر الفريسي الأكبر سناً بأن الفريسي الأصغر سناً كان أكمل منه، لأنه كان يتعامل مع الناس مرة كل سنة. فأراد أن يستبقيه مدة أطول، ويستفيد من المحاورة معه فقال له: يا أخي إنك لا تعرف القرائة، وأنا أعرف القرائة، وأنا عندي زبور داود في بيتي. تعال عندي، وأنا سوف أقرء لك في كل يوم شيئاً من الزبور، وأشرح لك ما قاله داود.

فقال الصغير: فلنذهب الآن حالاً.

فقال الكبير: يا أخي ما شربت الماء منذ يومين. فلنذهب للبحث عن قليل من الماء.

فأجاب الصغير: يا أخي أنا ما شربت الماء منذ شهرين. دعنا نذهب

وننظر ما قاله الله على لسان داود. إن ربنا الله قادرٌ على سقايتنا.

فانطلقا إلى مأوى الفريسي الأكبر سنا، وشاهدا على بابه عين ماء زلال. فقال الكبير: يا أخي أنت وليٌّ قدّيسٌ من أولياء الله، وقد فجَّر الله هذه العين من أجلك.

فأجاب الصغير: يا أخي أنت متواضع. بالتأكيد لو أن الله فعل ذلك من أجلي لكان فجَّر العين قرب مسكني، كي لا أذهب بعيداً بحثاً عن الماء. وأنا أعترف لك بأني قد أذنبت في حقك. لأنك حينما قلت، بأنك لم تذق الماء منذ يومين، وقلت لك إني لم أذق الماء منذ شهرين، شعرت كما لو أني مدحت نفسي، وأحسست بالعظمة، كما لو أني أحسن منك.

فقال الكبير: يا أخي إنك كنت صادقا في كلامك، فلذلك فإنك لم تذنب.

فأجاب الصغير: يا أخي إنك قد نسيت ما قاله أبونا إلياس: من كان يبحث عن الله، ينبغي له أن يذم نفسه فقط. لا جرم أنه كتب ذلك، كي نعمل به، لا أن نفهمه فحسب.

فقال الكبير، وقد أدرك صدق رفيقه وصلاحه واستقامته: صدقت! وقد غفر الله لك ذلك. ثم أخذ الزبور، وقرأ ما قاله أبونا داود قائلاً: **سأحرس لساني كي لا يزيغ وينحرف إلى قول الجور والظلم والشر والإثم، حتى لا أجد عذراً لمعصيتي.**

فبدأ الفريسي الأكبر سناً يحاضر عن اللسان. وفجأة غادر الفريسي الأصغر سناً. وبعد ١٥ سنة الأخرى، وجدا بعضهما البعض، لأن الفريسي

الأصغر سناً كان قد غيَّر محل إقامته.

وعندما وجده مرة أخرى قال الكبير: يا أخي لماذا لم ترجع إلى بيتي؟

أجاب الصغير: لأني لم أتعلم جيداً ما قلته لي بعد.

فقال الكبير: كيف ذلك وقد مضت خمسة عشرة سنة؟

أجاب الصغير: لقد فهمت الكلام من الساعة الأولى، ولم أنسه قط، بيد أنني لم أطبقه، ولم ألتزم به بعد، كما يجب وينبغي. **فماذا ينفع أن نتعلم كثيراً، ولا نراعي ما تعلمناه، ولا نطبقه ولا نلتزم به؟ إنّ ربنا لا ينشد منا جودةً وطيبةً في الفهم والإدراك، بل جودةً وطيبةً في القلب. فهو سبحانه وتعالى سوف لا يسألنا في يوم القيامة، ماذا تعلمنا، بل ماذا فعلنا.**

أجاب الكبير: يا أخي لا تقل ذلك! لأنك تستخفُّ بالمعرفة، التي أرادها الله أن تقدر وتثمن.

فأجاب الصغير: يا ترى كيف أتكلَّم الآن، كي لا أقع في المعصية! لأن كلامك صدق، وكلامي أيضاً صدق. ما أقوله هو أنه يجب على الذين فهموا وصايا الله المكتوبة في الناموس أن يطبقوها أولاً، قبل أن يتعلموا الباقي فيما بعد، وأنه كلما تعلَّم الإنسان شيئاً، يجب عليه أن يلتزم بتلك الحكمة ويطبقها، لا أن يعرفها ويفهمها فحسب.

فقال الكبير: يا أخي أخبرني مع من تكلمت في هذه الفترة، حتى عرفت بأنك لم تتعلم كل ما قلته؟

فأجاب الصغير: **يا أخي أنا أتكلم مع نفسي. في كل يوم أحاسب نفسي، كما لو أني أمام الله في يوم القيامة. وكلما حاسبت نفسي، أشعر**

بأن شيئاً ما في داخلي يجد لي أعذاراً لأخطائي وعيوبي وذنوبي.

فقال الكبير: يا أخي أنت كامل! فماذا يا ترى هي أخطاؤك وعيوبك وذنوبك!

أجاب الصغير: يا أخي لا تقل ذلك، لأني أقف بين ذنبين عظيمين: الأول أني لا أعرف نفسي بأني أعظم الخطائين. والثاني أنني لا أريد أن أندم على ذنبي هذا أكثر من الآخرين.

أجاب الكبير: إن كنت أكمل الرجال، فكيف ينبغي أن تعرف نفسك بأنك أعظم الخطائين؟

أجاب الصغير: إن أول كلمةٍ قالها لي معلمي، في بداية انخراطي في طريقة الفريسيين هو أنه ينبغي لي أن أضع نصب عيني، طيبة الآخرين وفداحة ذنبي، وإذا أنا فعلت ذلك، أدركت بأني أعظم الخطائين.

فقال الكبير: يا أخي إن كان لا يوجد حواليك ناس في هذه الجبال، فعن طيبة من أو عن ذنوب من تتكلَّم؟

أجاب الصغير: ينبغي أن أضع نصب عيني طاعة الشمس والكواكب، لأنها تخدم خالقها أحسن مني. بيد أني أذمها، لأنها لا تعطي النور الكافي، كما أحب وأشتهي، أو أن حرارتها شديدة، أو أن هناك مطراً كثيراً أو مطراً قليلاً على هذه الأرض.

وعند سماع ذلك قال الكبير: يا أخي من أين تعلمت هذه العقيدة؟ لأن عمري الآن ٩٠ عاماً، وأنا على طريقة الفريسيين منذ ٧٥ عاماً، ولم أتعلم ذلك!

أجاب الصغير: يا أخي أنت متواضع، لأنك وليٌّ قدِّيسٌ من أولياء الله. رغم ذلك أجيبك، بأن الخالق لا ينظر إلى أعمارنا، بقدر ما ينظر إلى قلوبنا. ولهذا انتخب الله داود ملكاً على إسرائيل، وجعله نبياً، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان أصغر من ستة من إخوانه.

فقال عيسى للحواريين: هذا الرجل العابد كان فريسيا حقيقيا، ويا ليتنا نحظى بصداقته في يوم القيامة!

ذروة الطيبة البشريَّة

واستأنف عيسى قائلاً: إنَّ السمة الغالبة على الفريسي في الوقت الحاضر، هي الأنانية وعدم الإيمان بالله، والتي لم تفسد الفريسيين في هذا العهد الحاضر فحسب، بل أفسدت إسرائيل برمتها. لأن العامة السذج لا يعرفون القراءة، ولذلك يتبعون ما يفعله الفريسيون، لأنهم يظنون بأنهم أولياءٌ قدِّيسون.

هل تعلمون من هو الفريسي الصادق؟ إنه خالص زيت الطبيعة البشرية. إن طيبة الفريسي الصادق تعلو الطيبة البشرية، كما يعلو الزيت كل سائل. إنه الكتاب الحيُّ الذي وهبه الله للعالم، لأن كل ما يقوله وكل ما يفعله مطابقٌ لقانون الله. فكل من اقتدى به واحتذى حذوه يراعي قانون الله.

إن الفريسي الصادق هو الملح الذي لا يسمح للحم البشري أن يتعفن بسبب الذنوب، لأن كل من يرى الفريسي الصادق يراجع نفسه، ويندم على ذنوبه. إنه النور الذي ينير طريق الحجاج، لأن كل من ينظر في فقره وحالة ندامته، يشعر بأنه لا ينبغي له أن يغلق قلبه.

أما من جعل الزيت نتناً فهو الفريسي الكاذب، الذي يدنس الكتاب

ويفسده، ويعفن الملح وينتنه، ويطفئ الضوء ويخمده. لذلك حذار أن تفعلوا كما يفعل الفريسون في هذا الزمان كي لا تهلكوا!

رققوا قلوبكم بذكر الموت

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[١]:

بحقٍ أقول لكم: إن الحريق ليقع في البيت الواحد، فلا يزال ينتقل من بيتٍ إلى بيت، حتى تحترق بيوتٌ كثيرة، إلا أن يستدرك البيت الأول، فيهدم من قواعده، فلا تجد فيه النار محلاً. وكذلك الظالم الأول لو أخذ على يديه، لم يوجد من بعده إمام ظالم فيأتمون به، كما لو لم تجد النار في البيت الأول خشباً وألواحاً لم تحرق شيئا.

بحقٍ أقول لكم: من نظر إلى الحية تؤم أخاه لتلدغه، ولم يحذِّره حتى قتلته، فلا يأمن أن يكون قد شرك في دمه، وكذلك من نظر إلى أخيه يعمل الخطيئة، ولم يحذِّره عاقبتها، حتى أحاطت به، فلا يأمن أن يكون قد شارك في إثمه.

ومن قدر على أن يغير الظالم، ثم لم يغيره، فهو كفاعله. وكيف يهاب الظالم، وقد أمن بين أظهركم، لا يُنهى ولا يُغير عليه، ولا يُؤخذ على يديه. فمن أين يقصر الظالمون أم كيف لا يغترون؟ فحسب أحدكم أن

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ٣١٧/١٤.

يقول: لا أظلم ومن شاء فليظلم، ويرى الظلم فلا يُغيِّره، فلو كان الأمر على ما تقولون، لم تعاقبوا مع الظالمين، الذين لم تعملوا بأعمالهم، حين تنزل بهم العثرة في الدنيا؟

ويلكم يا عبيد السوء، كيف ترجون أن يؤمنكم الله من فزع يوم القيامة، وأنتم تخافون الناس في طاعة الله، وتطيعونهم في معصيته، وتفون لهم بالعهود الناقضة لعهده؟ بحقٍ أقول لكم، لا يؤمن الله من فزع ذلك اليوم، من اتخذ العباد أرباباً من دونه.

ويلكم يا عبيد السوء، من أجل دنيا دنيةٍ وشهوةٍ رديئة، تفرِّطون في ملك الجنة، وتنسون هول يوم القيامة! ويلكم يا عبيد الدنيا، من أجل نعمةٍ زائلةٍ وحياةٍ منقطعة، تفرُّون من الله، وتكرهون لقائه! فكيف يحب الله لقائكم وأنتم تكرهون لقائه؟ وإنما يحب الله لقاء من يحب لقائه، ويكره لقاء من يكره لقائه.

وكيف تزعمون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنتم تفرُّون من الموت، وتعتصمون بالدنيا؟ فماذا يغني عن الميت طيب ريح حنوطه، وبياض أكفانه، وكل ذلك يكون في التراب، كذلك لا يغني عنكم بهجة دنياكم التي زينت لكم، وكل ذلك إلى سلبٍ وزوال! ماذا يغني عنكم نقاء أجسادكم وصفاء ألوانكم، وإلى الموت تصيرون، وفي التراب تنسون، وفي ظلمة القبر تغمرون!

ويلكم يا عبيد الدنيا، تحملون السراج في ضوء الشمس، وضوءها كان يكفيكم، وتدَّعون أن تستضيؤوا بها في الظلام، ومن أجل ذك سخرت لكم! كذلك استضأتم بنور العلم لأمر الدنيا وقد كفيتموه، وتركتم أن

تستضيؤوا به لأمر الآخرة، ومن أجل ذلك أعطيتموه!

تقولون: إن الآخرة حقٌ وأنتم تمهدون الدنيا؟ وتقولون: إن الموت حقٌ وأنتم تفرون منه؟ وتقولون: إن الله يسمع ويرى، ولا تخافون إحصائه عليكم؟ فكيف يصدّقكم من سمعكم؟ فإن من كذب من غير علمٍ أعذر ممن كذب على علم، وإن كان لا عذر في شيءٍ من الكذب.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ الدابة إذا لم تركب ولم تمتهن وتستعمل، لتصعب ويتغير خلقها، وكذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ويتبعها دؤوب العبادة تقسو وتغلظ. ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره، وجوفه وحشٌ مظلم؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشةٌ معطلة! فأسرعوا إلى بيوتكم المظلمة فأنيروا فيها، كذلك فأسرعوا إلى قلوبكم القاسية بالحكمة، قبل أن ترين عليها الخطايا، فتكون أقسى من الحجارة.

معجزة تدحرج العساكر الرومان

جاء عيسى إلى اورشليم، ودخل المعبد في يوم السبت، فاقترب منه الجنود الرومان، وحاولوا إغوائه، حتى يتسنى لهم القبض عليه. فسألوه: أيها المعلم هل شن الحروب مباحٌ وحلال؟

أجاب عيسى: حسب عقيدتنا، فإن الحياة نفسها هي حربٌ مستمرةٌ على الأرض.

فقال الجنود: هل تجعلنا نعتنق عقيدتك ونترك آلهتنا ـ لأن في روما وحدها هناك ٢٨،٠٠٠ إله الذين يمكن رؤيتهم ـ ونتبع إلهك الواحد. فهو لا يمكن رؤيته، وغير معروف أين هو. ومِمكن أن يكون باطلاً.

أجاب عيسى: إذا كنت قد خلقتكم كما خلقكم إلهنا، فيمكن أن أهديكم إلى ديني.

فقال الجنود: يا ترى كيف خلقنا إلهك، نظراً إلى أنه غير معروفٍ أين هو. أرنا إلهك ونحن نعتنق اليهودية.

قال عيسى: إن كانت عندكم عيونٌ لرؤيته لأريتكموه. ولأنكم عميان فلا أستطيع أن أريكم إياه.

أجاب الجنود: لا جرم أن الشرف، الذي أغدقوه عليك هؤلاء الناس، قد سلبك فهمك. لأن كل واحد منا له عينان في رأسه، في حين أنك تقول بأننا عميان.

أجاب عيسى: إنَّ العيون المادية تستطيع أن ترى الأشياء الظاهرية الضخمة والجسيمة فقط. لذلك فباستطاعتكم فقط رؤية آلهتكم، التي هي من الخشب والفضة والذهب، والتي لا تقدر على فعل شيئ. بيد أننا في يهودا **نملك عيوناً روحية، وهي عبارةٌ عن خشية الله والإيمان بإلهنا. وبهذا نستطيع رؤية إلهنا في كل مكان.**

فأجاب الجنود: حذار أن تتكلم هكذا! لأنك إذا احتقرت آلهتنا، فسوف نسلمك إلى هيرود، والذي سينتقم لآلهتنا، التي هي قادرةٌ على كلً شيئ.

أجاب عيسى: إذا كانت قادرةٌ على كل شيء كما تقولون، فاغفروا لي لأني سأعبدهم.

فابتهج الجنود بذلك، وبدأوا يعظمون ويمجدون آلهتهم.

ثم قال عيسى: لا حاجة للكلمات بل للأفعال. فلتخلق آلهتكم ذبابة واحدة، وأنا سوف أعبدهم.

فأصاب الجنود الرعب والفزع، ولم يدروا ماذا يقولون.

فقال عيسى: نظراً إلى أنَّ آلهتكم لا تستطيع أن تخلق ذبابةً واحدة، فإني سوف لا أترك الله، الذي خلق كل شيءٍ بكلمةٍ واحدة، والذي اسمه يخيف الجيوش والعساكر.

أجاب الجنود: دعنا نرى ذلك! لأننا نشتاق إلى القبض عليك. فأرادوا أن يمدوا أيديهم للقبض على عيسى.

فقال عيسى: (أدوناي سبوت)! فتدحرج الجنود إلى خارج المعبد ـ كما تتدحرج البراميل الخشبية، حين غسلها قبل ملئها بالشراب ـ بحيث أنهم من دون أن يمسَّهم أي أحد، كانت رؤوسهم ترتطم بالأرض ثم أقدامهم وهلم جرا.

فأصابهم الذعر والرعب والخوف، وفروا من هناك، بحيث أن أحداً لم يرهم في يهودا بعد ذلك اليوم مرة أخرى.

المتذمرون لصوص الشرف

وحينما رأى الكهنة والفريسيون ذلك، تذمَّروا[١] فيما بينهم وقالوا: إنه

---

(١) تذمَّروا بدل أن يفتحوا قلوبهم لهذه المعجزة العظيمة، ويتأملوا ويتبصروا من هو المتكلِّم ومن هم المخاطبون. المتكلِّم هو عيسى الذي يدافع عن الله، وعن دين الله الحقيقي، والمخاطبون هم الكفار من جنود الرومان، الذين يدافعون عن أوثانهم، ويركنون إلى قوتهم العسكرية. وبدل أن يفتح الكهنة والفريسيون قلوبهم، على نبوة عيسى، إلاَّ أنهم فتحوا أذهانهم الوسخة، على أحقادهم القديمة، ومصالحهم الشخصية. فأي ذنبٍ أكبر من هذا!؟

وثانيا: بدل أن يضعوا الأشياء مواضعها الصحيحة، وينسبوا المعجزة إلى قوة الله تعالى، التي ظهرت في نبيه عيسى، فاذا هم ينسبون المعجزة إلى قوة الشيطان، ويسرقون عيسى هذا الشرف العظيم. أليست لصوصية الشرف من أعظم الذنوب، التي لا يغفرها الله؟ أتعلمون لماذا؟ لأن هذه اللصوصية مرضٌ عضالٌ لا يعتبرها البشر مرضاً، بل يعتبرها مادةً للفخر والمباهاة، وإرضاءٍ لعقدة العظمة عندهم، فلذلك لا يندمون عليها، ولا يتوبون عنها، فكيف يغفر الله هذا الذنب العظيم، إذا كان المذنب لا يشخِّص مرضه، وفداحة معاصيه وآثامه.

فتعلَّم الدرس، وخذ العبرة من عابد بني اسرائيل، وهو يتأمل في السماء والشمس والقمر والنجوم، ويرى بأم عينيه طاعتها المطلقة في خدمة الله وفي عبادة الله! ثم ينظر في نفسه، وهو يتذمَّر من قلة المطر تارة، ومن كثرة المطر تارةً أخرى، ويتذمَّر من =

يملك حكمة بعل وعشتاروت، وقد فعل ما فعل بقوة الشيطان.

وفتح عيسى فمه الشريف، وهو الناطق بالحق المبين قائلاً: إنّ الله قد أمرنا أن لا نسرق متاع جارنا. ولكن هذه الفريضة النادرة في نوعها، قد انتهكت ودُنست وهُتكت وأسيئ استعمالها، بحيث أنها ملأت العالم ذنوبا وآثاماً ومعاصي.

إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر هذا الذنب، كما يغفر الذنوب الأخرى. فإن الإنسان ربما بكى وندب على ذنبٍ ولم يكرره، أو صام وصلى وزكى تكفيراً عن الذنب، فإن الله القادر الرحيم سوف يغفر له ذلك الذنب. بيد أن هذا الذنب لا يغفره الله البتة، إلا أن تُردَّ بضاعة الشرف إلى صاحبها، كما سُرقت من صاحبها[1].

= حرارة الشمس الملتهبة تارة، ومن برودة الهواء تارةً أخرى، ويتذمَّر من قلة ضوء القمر والنجوم، التي لا تساعده على الرؤية الصافية في الليلة الحالكة. أليست كل هذه التذمرات والدمدمات والزمزمات لصوصية شرف الله؟

ولكن طوبى لمن شخَّص مرضه العضال، وعرضه على الله عارياً مكشوفاً، يستعطفه ويستمطر رحمته ورأفته وشفقته! حينئذ ينظر الله سبحانه وتعالى إلى عبده، بنظر الرحمة والعطف والرأفة، ويحوّل حالته البشرية إلى حالة الله؛ أي الحالة الإلهية والمقام الرباني، ويجعله ربانياً بعد أن كان بشرياً. فتعلموا يا لصوص الشرف ويا أيها المتذمّرون! شخصوا مرضكم العضال، واستعطفوا ربكم، إنه كان غفاراً، ينزل سماء رحمته عليكم مدراراً، ويهديكم صراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والأولياء والأئمة الطاهرين، والعيش في جوارهم أبد الآبدين.

(١) وما أسرع ما ردت الأمة بضاعة الشرف إلى عيسى، بعد ما سرقها أجدادهم منه. ومن الخاسر في نهاية المطاف؟ هم والله أجدادهم الذين سرقوا بضاعة الشرف من عيسى، واتهموه بعبودية الشيطان، ومثلوه ببعل وعشتاروت. =

ثم قال أحد الكتاب: أيها المعلم كيف أن اللصوصية والسرقة والنهب قد ملأت الدنيا آثاماً وذنوباً؟ لا جرم أن حالات السرقة والنهب في زماننا قليلةٌ بفضل الله ورحمته، وأن اللصوص لا يجرؤون على الظهور، وإلا شنقوا حالاً من قبل السلطة.

أجاب عيسى: إنَّ الذي لا يعرف البضاعة لا يعرف اللصوص. الحق أقول لك: إن هناك كثيرين يسرقون، ولا يعلمون ماذا يفعلون، ولذلك فإنَّ ذنبهم أعظم من غيرهم، لأن المرض الذي لا يُعرف ولا يُشخص، لا يبرئ ولا يداوى.

= وما أسرع ما ردت الأمة بضاعة الشرف إلى محمدﷺ، بعد ما سرقها أجدادهم منه.
ومن الخاسر في نهاية المطاف؟ هم والله أجدادهم الذين سرقوا بضاعة الشرف من محمدﷺ، واتهموه بالجنون والسحر والكذب، واضطهدوه شر اضطهاد، ورموه بالحجارة حتى أثخنوه دماً، وحتى قالﷺ: ما أوذي نبيٌّ بمثل ما أوذيت.

وما أسرع ما ردت الأمة بضاعة الشرف إلى عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ولد الحسينعليهم السلام، بعد ما سرقها أجدادهم منهم. ومن الخاسر في نهاية المطاف؟ هم والله أجدادهم الذين سرقوا بضاعة الشرف منهم، وقتلوهم إما بالسيف وإما بالسم الزعاف.

ونفس القصة تستمر مع أولياء الله الصالحين إلى يوم القيامة. فكانت مشيئة الله أن يكونوا غرباء في أوطانهم، تُسرق منهم بضاعة الشرف، وأيما سرقة! وتعطى بضاعة الشرف إلى من لا يستحقونها، من أهل الدنيا في هذه الدنيا، **ممن قال عنهم الرسول الأعظمﷺ**: **أبغض العباد إلى الله من كان ثوباه خيراً من عمله: أن يكون ثيابه ثياب الأنبياء وعمله عمل الجبارين.**

فلصوصية الشرف من كبريات المعاصي عند الله، لا يغفرها الله، إلا إذا رُدت بضاعة الشرف إلى أصحابها الحقيقيين، كما سُرقت منهم. وما أندر الأفراد الذين يردون بضاعة الشرف إلى أصحابها في حياتهم، فيحصلون على غفران الله ورضوانه.

ثم اقترب الفريسيون من عيسى وقالوا: أيها المعلم إنك الوحيد في إسرائيل، الذي تعرف الحق والحقيقة، فعلمنا إياها.

أجاب عيسى: لا أقول إني الوحيد في إسرائيل، الذي يعرف الحق والحقيقة. إنَّ كلمة الوحيد والأوحد والأحد، مختصةٌ بالله وحده لا بغيره. لأنه الحق وهو الوحيد الذي يعرف الحق. ولذلك إذا أنا ادعيت أني الوحيد، فأنا أعظم لص، لأني أكون قد سرقت شرف الله ومجده. وإذا ادعيت أني الوحيد الذي يعرف الله، أكون قد وقعت في جهلٍ عظيم.

لذلك فقد اقترفتم ذنباً فظيعاً، بقولكم أني الوحيد الذي يعرف الحق والحقيقة. وأقول لكم إن ذنبكم أعظم، إذا كنتم فعلتم ذلك لإغوائي وإغرائي.

فلما رأى عيسى أنهم سكتوا، كأن على رؤوسهم الطير، تكلم ثانية وقال: ورغم أني لست الوحيد في إسرائيل الذي يعرف الحق، ولكني الوحيد الذي يتكلَّم. لذا اسمعوا لي وأنصتوا لأنكم سألتموني.

كلُّ الأشياء التي خلقها الله، تختص بالله وحده، بحيث أن لا مجال لأحد أن يدَّعي ملكية أي شيئ. لذلك فإن الروح والحواس والجسد والزمان والمتاع والشرف كلها لله، بحيث أن الإنسان يعتبر لصاً، إذا كان قد حصَّلها بما لا يرضي الله. كذلك هو يعتبر لصاً، إذا كان قد أنفقها بما لا يرضي الله.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إذا كنتم تسوفون وتقولون: سأفعل ذلك غداً، أو سأقول ذلك غداً، أو سأذهب إلى ذلك

المكان غداً، ولم تقولوا: (إنشاء الله) فإنكم لصوص[١]. وأنتم تعتبرون من أكبر اللصوص، إذا قضيتم أحسن أوقاتكم في إرضاء أنفسكم، لا في إرضاء الله، وقضيتم أسوء أوقاتكم في خدمة الله وعبادته.

وكل من اقترفت إثماً، أياً كان الآثم، وأياً كان الإثم، فهو يعتبر لصاً، لأنه يسرق من وقته وروحه وحياته، التي ينبغي له أن يكرّسها جميعها لخدمة الله وعبادته، ثم يعطيها للشيطان الذي هو عدو الله.

فالإنسان شرفه وحياته ومتاعه كلها هي بضاعته. فإذا سرق سارقٌ متاعه شنق، وإذا أخذ القاتل حياته قطع رأسه. وهذه الأوامر جائت صريحةً في الناموس، ومن وصايا الله سبحانه وتعالى إلى عبده موسى.

ولكن إذا دُنِّس شرف الجار وانتهك وهُتك، فلماذا لا يصلب سارق الشرف؟ هل المتاع حقا أحسن من الشرف؟ هل الله حقاً أمر بأن يعاقب سارق الأمتعة، وأن يقاص قاتل النفس، ولا يعاقب ولا يجازى سارق

(١) إذا أنتم أظهرتم مشيئتكم، من دون أن تكون مشروطةً بمشيئة الله، فأنتم من أكبر اللصوص، لأنكم سرقتم شرف الله ومجده. فالمشيئة هي من اختصاص الله وحده، لا من اختصاصكم. فكم من عزيمةٍ عزمتم واتكلتم عليها، هدم الله بنيانها من أساسه! يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: (إلهي كم من طاعة بنيتها وحالةٍ شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك). وكم من حالات فسخ العزائم ونقض الهمم أيقظت الضمائر إلى معرفة الله تعالى! بلى أيقظت الضمائر إلى أن هناك قوةً عظمى تحول بينك وبين ما تريد، أو تسهل عليك المستحيل. يقول الإمام علي عليه السلام: عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم. ويقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: إلهي إنّ اختلاف تدبيرك وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء.

الشرف، بل يترك حراً طليقاً؟

بالتأكيد لا! لأن أجدادنا منعوا من دخول أرض الميعاد، وذلك بسبب تذمُّرهم ودمدمتهم وزمزمتهم وشكايتهم. بيد أن أولادهم دخلوا أرض الميعاد فيما بعد. وبسبب هذا الإثم العظيم، قتلت الحيات والثعابين حوالي ٧٠،٠٠٠ من أجدادنا في التيه.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إنَّ سارق الشرف يستحق عقاباً أكبر من الذي يسرق الإنسان متاعه وحياته. والذي ينصت إلى المتذمِّر الشاكي ويتعاطف معه، هو أيضاً مجرم، لأن المتذمر يحتضن الشيطان في لسانه، في حين أن المستمع يحتضن الشيطان في أذنه.

فاستشاط الفريسيون غضباً لدى سماعهم ذلك، لأنهم لم يستطيعوا إدانة حديثه.

فاقترب مطببٌ إلى عيسى وقال: أيها المعلم الطيب! إنَّ الله كان يعلم مسبقاً أن أجدادنا في التيه، سوف يتدهورون صحيا، فلماذا لم يعطهم القمح والفواكه؟

أجاب عيسى: أنت تناديني بالطيب، ولكنك تخطئ، لأن الله وحده هو الطيب. وإنك تخطئ أكثر بسؤالك، لماذا لم يفعل الله حسب عقلك. مع ذلك سوف أرد عليك. أخبرك أنَّ الله خالقنا وبارئنا، لا يعمل بموجب إرادتنا، ولذلك ليس مباحاً للمخلوق، أن ينشد هوى نفسه، بل أن ينشد شرف الله خالقه وبارئه، ويبحث عنه ويفتش عنه في كل شيء، كي يعتمد المخلوق على الخالق، لا الخالق على المخلوق.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، لو أعطى الله الإنسان كل شيءٍ لطغى، ولاعتبر نفسه سيداً على الجنة، ولم يحسب نفسه عبداً لله. لذلك فإن الله تبارك اسمه، منعه من الطعام، كي يبقى الإنسان تابعاً خاضعاً مذعناً لله سبحانه وتعالى.

والحق أقول لك، من كانت عينه صافية، رأى كل شيءٍ صافياً، واجتذبت عينه الضوء، حتى من الظلمة نفسها. أما الأعمى فلا يستطيع ذلك. ولذلك أقول لك: لو لم يذنب الإنسان، لما عرفت أنا ولا أنت رحمة الله وصلاحه واستقامته. ولو أن الله قد جعل الإنسان غير قادرٍ على الذنب، لكان الإنسان كفؤاً ونداً لله، في ذلك الأمر.

لهذا خلق الله تعالى الإنسان طيباً وصالحاً، بيد أنه سبحانه جعل الإنسان حراً في أن يفعل ما يسره ويرضيه، بخصوص حياته، وفلاحه أو هلاكه.

فتحيَّر المطبب وذُهل واندهش من هذا الجواب، وغادر في حيرةٍ وارتباك.

لا جبر ولا اختيار بل أمرٌ بين الأمرين

ثم دعا الكاهن الأعظم سراً كاهنين كبيرين في السن، وأرسلهما إلى عيسى، الذي كان قد خرج من المعبد، وكان يجلس في سقيفة سليمان، ينتظر صلاة الظهر. وكان بالقرب منه حواريوه وجمعٌ كبيرٌ من الناس.

فاقترب الكاهنان من عيسى وقالا: أيها المعلم لماذا يأكل الإنسان القمح والفواكه؟ هل شاء الله أن يأكلهما الإنسان أو لم يشأ؟ وكان سؤالهما من النوع الإغرائي. لأنه إذا قال (شاء الله)، يردان عليه قائلين: فلماذا منعهما الله؟ وإذا قال (لم يشأ الله) سيقولان: إذن الإنسان أقوى من الله، لأنه يعمل ضد مشيئة الله.

أجاب عيسى: سؤالكما كمثل الطريق على الجبل، على طرفيه هاوية، وأنا سوف أمشي في وسط الطريق[١].

---

(١) سبحان الله إنَّ رجال الله يتكلمون نفس الشيئ، في أي زمانٍ وفي أي مكان، كأن المصدر واحد، وهو فعلاً واحد. فقد سألوا الإمام الباقر عليه السلام عن الجبر والاختيار فأجاب: لا جبر ولا اختيار، بل أمر بين الأمرين. إن المصدر واحد في كل زمان ومكان، وهو الله سبحانه وتعالى، وهو يتكلّم بلسان هذا النبي تارةً، أو بلسان ذاك الإمام تارةً أخرى، أو بلسان هؤلاء الأولياء الأبرار كرةً أخرى، إلى يوم القيامة. =

وعندما سمع الكاهنان ذلك ارتبكا، وشعرا بأنه قرأ أفكارهما.

فاستأنف عيسى حديثه قائلاً: كل إنسانٍ يعمل لمصلحته، وإرضاءً لحاجاته. وإن الله لا حاجة له بشيء، فلذلك فهو يفعل ما يشاء[1]. فلقد خلق الإنسان وجعله حراً، كي يعلم بأن الله ليس بحاجة إليه. بالضبط كما يفعل الملك، الذي يعطي الحرية لعبيده، إظهاراً لغناه وثروته، ولكي يحبه عبيده أكثر. كذلك الله قد خلق الإنسان حراً، كي يحب خالقه أكثر وأكثر، ولكي يتعرَّف على نعمه ومنحه وعطاياه.

ولأنَّ الله قادرٌ على كل شيء، فلقد خلق الإنسان بقدرته المطلقة، ولا يحتاج إلى الإنسان في شيء. لذلك فقد جعله حراً بجوده وفضله وكرمه، بحيث يكون بمقدوره مقاومة الشر وعمل الخير. ورغم أنَّ الله عنده القدرة

= فكلهم مكبرات صوتٍ لمصدرٍ واحد، وهو الله الملك المبين. وإن الله سبحانه وتعالى يتكلَّم باستمرار، ولا يتوقف عن الكلام طرفة عين. فهو لم يكن فصيحاً بليغاً في الماضي فحسب، وأبكماً في الوقت الحاضر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً! بل إن فيضه جاري في كل زمان ومكان، وكلامه يتدفق في كل زمان ومكان، ولا يعوزه مكبر صوتٍ في أي زمان ومكان. يقول الله سبحانه وتعالى في أواخر سورة الكهف: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾. وكلمات الله هم القديسون وأولياء الله الصالحون، فإن البحر ينفد قبل أن ينفد القديسون وأولياء الله الصالحون، الذين يتكلَّم الله دوماً وأبداً على لسانهم المقدس، ولو جاء الله بمثل البحر وبمثل مداد كلمات الله مدداً.

(١) إنَّ لفاطمة الزهراء، عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها أفضل الصلاة والسلام، كلماتٌ خالدةٌ مضيئة، مثل النجوم الزهراء، كانت ترددها في دعائها وهي: يفعل الله ما يشاء بحكمته ويحكم ما يريد بعزته. وما أشبه كلام عيسى بكلامها! وما أعظمها من كلمات!!!!!!

على منع الذنب وصده، لكنه لا يناقض ولا يضاد جوده وكرمه وفضله. وتعالى الله عن أن يناقض نفسه، ويضاد نفسه، ويعارض نفسه، ويخالف نفسه علواً كبيراً!

ولأنَّ قدرة الله المطلقة، وكرم الله المطلق، كليهما مكتوبان في فطرة الإنسان، فإنَّ الله لا يصد الإنسان عن الذنب، كي تعمل رحمة الله وعدله كلاهما في هذا الإنسان[1]. وكدليلٍ على صدق حديثي، أقول لكما بأنَّ الكاهن الأعظم قد بعثكما إلي كي تغوياني، وهذه ثمرة كهانته.

وغادر الشيخان، وقصَّا كل ما جرى على الكاهن الأعظم الذي قال: إنَّ هذا الشخص يحمل على ظهره الشيطان، الذي يقصُّ عليه كل شيء،

---

(١) ولأنَّ العارفين بالله مطلعون على هذه الحقيقة المطلقة، وعلى هذا التوازن بين العدل وقدرة الله المطلقة من جانب، والرحمة وكرم الله المطلق من جانب آخر، في فطرتهم، فلذلك فإنَّ اختلاف تدبير الله وسرعة طواء مقاديره، قد منعا عباده العارفين به، عن السكون إلى عطاء، واليأس منه في بلاء. ولذلك فإنهم في حزنٍ دائم، يبكون في نفوسهم وينتحبون، كي يعطيهم الله القدرة على مقاومة الشر والذنب، واحتضان الرحمة الإلهية، أبداً سرمداً. وهذا هو الصراط المكتوب في فطرة الإنسان: على الطرف الواحد منه السعادة الأبدية، وعلى الطرف الآخر التعاسة الأبدية، أو ما يسمى الجنة والنار، أوالفيزيك والميتافيزيك وغيرها.

والعارف مطَّلعٌ على كليهما، بصيرٌ بصر الشهود بالشر والذنب، وبصيرٌ بصر الشهود بالرحمة الإلهية. وعلى هذا الصراط يقعد لك الشيطان بالمرصاد! وما أكثر الناس والسالكون الذين يغفلون عن الشيطان، وهو قاعدٌ لهم بالمرصاد، وعن مكائده الخفية الذكية، وما أقل الشاكرون! وإلى هذه الحقيقة يشير الله تعالى في أوائل سورة الأعراف على لسان الشيطان: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

لأنه يطمح إلى أن يكون ملكاً على اسرائيل. ولكن الله سوف يهتم بهذا الأمر[١].

(١) إنّ هذا الكاهن الأعظم سيصلى سقر، من أجل قوله هذا، لأنه طعن في شرف عيسى ومجده، بل سرق شرف عيسى ومجده، والله ليس بغافلٍ عما يعمل الظالمون.

كيف يبلغ من يسافر بغير دليل

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[1]:

كيف يطيق حمل الأثقال من لا يستعين على حملها! أم كيف تحط أوزار من لا يستغفر الله منها! أم كيف تنقى ثياب من لا يغسلها! وكيف يبرأ من الخطايا من لا يكفرها! أم كيف ينجو من غرق البحر، من يعبر بغير سفينة! كيف ينجو من فتن الدنيا، من لم يداوها بالجد والاجتهاد! وكيف يبلغ من يسافر بغير دليل! وكيف يصير إلى الجنة من لا يبصر معالم الدين! وكيف ينال مرضاة الله من لا يطيعه! وكيف يبصر عيب وجهه من لا ينظر في المرآة! وكيف يستكمل حب خليله من لا يبذل له بعض ما عنده! وكيف يستكمل حب ربه من لا يقرضه بعض ما رزقه!

بحقٍ أقول لكم أنه كما لا ينقص البحر أن تغرق فيه السفينة، ولا يضره ذلك شيئاً، كذلك لا تنقصون الله بمعاصيكم شيئاً ولا تضرونه، بل أنفسكم تضرون، وإياها تنقصون، وكما لا ينقص نور الشمس كثرة من يتقلب فيها، بل به يعيش ويحيى، كذلك لا ينقص الله كثرة ما يعطيكم ويرزقكم، بل برزقه تعيشون وبه تحيون.

---

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ١٤/٣١٧.

ويلكم يا أجراء السوء، الأجر تستوفون، والرزق تأكلون، والكسوة تلبسون، والمنازل تبنون، وعمل من استأجركم تفسدون! يوشك رب هذا العمل أن يطالعكم، فينظر في عمله الذي أفسدتم، فينزل بكم ما يخزيكم، ويأمر برقابكم، فتجذ من أصولها، ويأمر بأيديكم فتقطع من مفاصلها، ثم يأمر بجثتكم فتجرُّ على بطونها، حتى توضع على قوارع الطريق، حتى تكونوا عظةً للمتقين، ونكالاً للظالمين.

ويلكم يا علماء السوء، لا تحدثوا أنفسكم أن آجالكم تستأخر، من أجل أنَّ الموت لم ينزل بكم، فكأنه قد حلَّ بكم فأظعنكم، فمن الآن فاجعلوا الدعوة في آذانكم، ومن الآن فنوحوا على أنفسكم، ومن الآن فابكوا على خطاياكم، ومن الآن فتجهزوا وخذوا أهبتكم، وبادروا التوبة إلى ربكم.

بحق أقول لكم أنه كما ينظر المريض إلى طيب الطعام، فلا يلتذه مع ما يجده من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها، مع ما يجد من حب المال. وكما يلتذ المريض نعت الطبيب العالم، بما يرجو فيه من الشفاء، فإذا ذكر مرارة الدواء وطعمه، كدر عليه الشفاء، كذلك أهل الدنيا يلتذون ببهجتها وأنواع ما فيها، فإذا ذكروا فجأةً الموت، كدرها عليهم وأفسدها.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ كل الناس يبصر النجوم، ولكن لا يهتدي بها، إلاَّ من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك تدرسون الحكمة، ولكن لا يهتدي لها منكم، إلاَّ من عمل بها.

ويلكم يا عبيد الدنيا! نقوا القمح وطيبوه، وأدقوا طحنه، تجدوا

طعمه، ويهنئكم أكله، كذلك فأخلصوا الإيمان وأكملوه، تجدوا حلاوته، وينفعكم غبه.

بحقٍ أقول لكم: لو وجدتم سراجاً يتوقد بالقطران، في ليلة مظلمة، لاستضأتم به، فلم يمنعكم منه ريح قطرانه، كذلك ينبغي لكم أن تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه، ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها.

ويلكم يا عبيد الدنيا، لا كحكماء تعقلون، ولا كحلماء تفقهون، ولا كعلماء تعلمون، ولا كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقتلعكم من أصولكم، فتقلبكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ويدفعكم العالم من خلفكم، حتى يُسلمكم إلى الملك الديان عراةً فرادى، فيجزيكم بسوء أعمالكم.

ويلكم يا عبيد الدنيا، أليس بالعلم أُعطيتم السلطان على جميع الخلائق؟ فنبذتموه، فلم تعملوا به، وأقبلتم على الدنيا، فبها تحكمون، ولها تمهدون، وإياها تؤثرون وتعمرون، فحتى متى أنتم للدنيا، ليس لله فيكم نصيب؟

الإثم مضادٌ لمشيئة اللّه(١)

الرجل الذي ولد أعمى أو الأكمه، والذي أعاد عيسى إليه بصره بإذن

---

(١) كيف أنَّ الإثم مضادٌ لمشيئة الله، ولماذا يبغض الله الإثم؟ أطرح مثالاً لتبسيط هذا الأمر: إنك تريد شيئاً ولكن الله يشاء غير ذلك بحكمته. فاذا ضجرت وتذمرت، فمعنى ذلك أنك قد تمردت على مشيئة الله، فهو الذنب بعينه، وهو مضادٌ لمشيئة الله. تقول فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين في دعائها: يفعل الله ما يشاء بحكمته ويحكم ما يريد بعزته. وإذا شاء الله بحكمته، أن يخلق الإنسان، وتسجد له الملائكة، وأعطاه الكرامات الجمة، وعارض إبليس ذلك قائلاً: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. فذلك هو الذنب العظيم، لأنه مضادٌ لمشيئة الله سبحانه وتعالى.

واذا شاء الله بحكمته، أن يحدث شيء في حياتك بما لا يسرك، مثلا ضياع مالك وثروتك، أو موت ولد، أو مرض ما، فمن صبر فهو مؤمن، ومن جزع فهو الإثم بعينه. وكثير من الناس يسبون ويشتمون الدهر، ولا أثر للصبر في تصرفاتهم. فذاك هو الإثم بعينه، وهو مضادٌ لمشيئة الله.

وكذلك إذا حدث شيء في حياتك بما يسرك، ظننت أنه من شطارتك، ولم تشكر الله مصدر النعم والهبات. فقليلٌ من عبادي الشكور. فذاك هو الإثم بعينه، وهو ما يبغضه الله. فالإيمان نصفان: نصف في الصبر ونصف في الشكر، كما قال الرسول الأعظم ص. وكثير منا بين هاتين من الآثمين.

ثم أنّ الإثم نابعٌ من هوى النفس والذي لا يستسيغ المشيئة الربانية ولا يتناغم معها.

ربه، جاء إلى عيسى بعد طرده من المعبد، بأمرٍ من الكاهن الأعظم. فهدأ عيسى من روعه قائلاً: أنت مباركٌ من قبل الله، الذي تكلم ضد أهل الدنيا، على لسان أبينا نبيُّ الله داود قائلاً: (هم يلعنون وأنا أبارك). وتكلَّم على لسان نبيِّ الله ميخا قائلاً: (أنا ألعن بركتكم).

وأضاف عيسى: ولم تكن بركتك بهذه العظمة كما هي الآن.

إنَّ مشيئة الله مضادةٌ لمشيئة العالم(١)، كما أنَّ الأرض مضادٌ للهواء،

---

(١) إن هذه العبارة باللغة العربية هي كالآتي: إنَّ مشيئة الله مضادةٌ لمشيئة أهل الدنيا. بيد أنه باللغة العبرية يطلق اسم (العالم) على أنواعه الثلاث: الدنيا والأمة وعالم الجماد كما سيأتي. وإذا كانت مشيئة الله مضادةٌ لمشيئتنا أي مضادةٌ لهوى نفوسنا، وهي كذلك، وإذا كان المفروض أن نصل إلى مقام يكون فيه همنا وغمنا بل شغلنا الشاغل هو نشدان مشيئة الله لا نشدان هوى النفس، وأن نتعرَّف على مشيئة الله ثم نقنع بها قناعةً تامةً في خوفٍ من الله وخشية، كما ذكر إلياس النبيُّ في كتيبه، فكيف لا يكون الجهاد الأكبر وادياً من الدموع، كما ذكر النبيُّ داود!

ولكن لا بد من الجهاد الأكبر حتى نصل إلى هذا المقام الذي تطابق فيه مشيئتنا مشيئة الله ونقنع بها راضين مرضيين، حتى نستحق مقام النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضيةً مرضية وتدخل في عباد الله وتدخل جنة الله ـ كما ذكرها الله في سورة الفجر من القرآن الكريم!

المشكلة الكبرى هي أنَّ الشيطان منذ الصغر قد رسخ في نفوسنا أنَّ المصائب شيءٌ سيئ، وأن قضاء الله وقدره شيءٌ أسوء، وأن هوى النفس هو الشيئ المطلوب. والذي يظهر جلياً على صفحة نفوسنا هو الكدورة والنكد أي الإعتراض على مشيئة الله وقضائه وقدره، رغم كل ما نقوله بألسنتنا. أي أن عدم الرضا من مشيئة الله هو الذي يولد فينا الكدورة والنكد، وهذا كله من عمل الشيطان الذي هو عدونا ولا يريد لنا الهدوء وراحة البال. لذلك أمرنا الرسول الأعظمﷺ بالجهاد الأكبر طول حياتنا حتى نتغلب على كل ما تركه الشيطان في نفوسنا من أفكار خاطئة وعقد عويصة، حتى نرضى برضا الله =

والماء مضادٌ للنار، والنور مضادٌ للظلمة، والبرودة مضادةٌ للحرارة، والحب مضادٌ للحقد.

فسأله الحواريون: يا سيدنا إنَّ كلامك عظيم، فأخبرنا بمعناه، لأننا لم نفهمه بعد.

أجاب عيسى: عندما تعرفون معنى العالم، سوف يتضح لكم صدقي، كما يتضح لكم صدق كل نبي.

فاعلموا أنَّ هناك ثلاثة أنواع من العالم، تحت مظلة اسمٍ واحد. النوع الأول هو عبارة عن السموات والأرض، والماء والهواء والنار، وكل شيء أوضع وأحط من الإنسان. وكل الأشياء في إطار هذا النوع، مسلمةً تماماً لمشيئة الله، كما قال نبيُّ الله داود: إنَّ الله قد أمرها بأمر، وهي لا تتعدى أمر الله ولا تخالفه.

أما النوع الثاني فهو عبارة عن كل الناس أو الأمة. إنَّ الأمة في الحقيقة تحب الله، لأنها بالفطرة تشتاق إلى الله، ولو أنها تخطئ في البحث عن الله. وهل تعرفون لماذا يشتاق الكل إلى الله؟ لأن كل واحدٍ منهم يشتاق إلى الطيبة اللامتناهية اللامحدودة، التي لا أثر للشر فيها. وهذا هو الله وحده لا شريك له. فلهذا السبب بعث الله الرحمن الرحيم أنبيائه، إلى هذا النوع من العالم، من أجل خلاصه.

= ونسلم لقضائه ونصبر على بلائه في كمال الهدوء وراحة البال. وكما قال عيسى آنفا: أخبرك أن الله خالقنا وبارئنا، لا يعمل بموجب إرادتنا، ولذلك ليس مباحاً للمخلوق، أن ينشد هوى نفسه، بل أن ينشد شرف الله خالقه وبارئه، ويبحث عنه ويفتش عنه في كل شيء، كي يعتمد المخلوق على الخالق، لا الخالق على المخلوق.

أما النوع الثالث فهو عبارة عن حالة الناس المنحطة المنغمسة في الذنوب والآثام، والتي حولت نفسها إلى قانون يغاير قانون الله خالقهم. وهذه الحالة تمسخ الإنسان إلى شكل عفاريت مردة، الذين هم أعداء الله.

وهذا النوع من العالم، يبغضه الله بشدة، بحيث لو أنَّ الأنبياء أحبوه، لا جرم أنَّ الله يسلبهم النبوة! وماذا أقول لكم أكثر من ذلك؟ بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إذا أتى رسول الله إلى هذا العالم، ولو أنه حمل حباً تجاه هذا العالم الشرير[١]، لا جرم أنَّ الله يسلبه كل ما أعطاه، حينما خلقه، ويجعله منبوذا! إنَّ الله مضادٌ لهذا العالم الشرير، إلى هذا الحد، وبهذه الشدة والمرارة والحرقة.

قال الحواريون: أيها المعلم كلامك عظيم جداً، ولكن انظر إلينا بعين الرفق والرأفة، فإننا لا نفهم ما تقول.

أجاب عيسى: هل من الممكن أنَّ الله قد خلق رسوله، كي يكون له نداً؟ وهل من الممكن أن يكون رسوله، يرغب باشتياقٍ في أن يكون لله كفؤاً؟ بالتأكيد لا! لأن رسوله يحب أن يكون لله عبدا، وأنه لا يريد ما لا يريده ربه.

إنكم لا تقدرون على فهم هذا، لأنكم لا تعرفون ما هو الإثم. فاستمعوا إلي وأنصتوا. الحق والحق أقول لكم: إنَّ الذنب لا يستطيع أن يقوم في الإنسان، إلا كمخالفةٍ ومناقضةٍ ومعارضةٍ لله، نظراً إلى أن الشيء الوحيد، الذي يخالف ويناقض ويعارض مشيئة الله، هو الذنب، بحيث أن

---

(١) على فرض المحال! وحاشا رسول الله من حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة!

كل ما يريده الله غريب وأجنبي على الذنب، ومباينٌ ومغايرٌ ومخالفٌ للذنب.

ولو كان الكاهن الأعظم مع الكهنة والفريسيين، اضطهدوني لأنَّ إسرائيل يسمونني الله، لكان عملهم هذا يرضي الله، ولكان الله يكافئهم على ذلك. ولكنهم يضطهدونني لسببٍ مغاير، لأنهم لا يريدونني أن أقول الحقيقة، وكيف أنهم بتقاليدهم البالية، دنسوا توراة موسى وزبور داود أنبياء الله وأخلاَّئه. لهذا السبب هم يبغضونني، ويريدون موتي. فلهذا يمقتهم الله سبحانه وتعالى.

إن موسى قتل ناساً، وأخآب قتل ناساً، أخبروني هل يمكن أن يكون كلاهما قد ارتكبا شيئاً واحداً وهو القتل؟ بالتأكيد لا! لأن موسى قتل ناساً لهدم الوثنية، ولأجل حفظ عبادة الله الأحد الصمد. بيد أن أخآب قتل ناساً لتدمير عبادة الله الأحد الصمد، ومن أجل حفظ الوثنية.

فلهذا كان قتل الناس، بالنسبة لموسى، يعتبر قرباناً، وبالنسبة لأخآب، يعتبر انتهاكاً لحرمة المعابد، وتدنيساً للمقدسات، بحيث أن نفس العمل أنتج عاقبتين متضادتين متناقضتين[١].

---

(١) بالله عليكم لو كان أمامكم رجلان يصليان وبنفس الحركات: أحدهما الحسين عليه السلام والآخر شمر بن ذي الجوشن، يا ترى ما الفرق بين الصلاتين، ونفس العمل، ونفس الحركات! الفرق بينهما هو الفرق بين السماء والأرض، وأين الثرى وأين الثريا! هذا **معراجٌ إلى الملأ الأعلى، والآخر هبوطٌ إلى نار السعير! وهكذا فإن العمل لا يجدي، ولكن ما يطفح به الروح فهو المهم، إن كان سامياً فالعمل يوصلك إلى أعلى عليين، وإن كان منحطاً فاسداً فنفس العمل ينزلك إلى أسفل السافلين.** قال رسول الله ﷺ: لا=

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، لو كان إبليس قد تكلّم إلى الملائكة، كي يعرف كيف يحبون الله، لم يكن ليرجم من قبل الله. لكنّ إبليس كان ينشد أن يبعد الملائكة عن الله، فلهذا فهو يعتبر فاسداً شريراً.

= ينجو أحدكم بعمله. قالوا حتى أنت يا رسول الله؟ قالﷺ: حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته.

قصة هلاك أخآب

فقال برنابا كيف إذن نفهم ما قاله نبيُّ الله ميخا، عن الكذبة التي كرس الله ألسنة الأنبياء الكاذبين، أن تنطق بها، كما جاء في كتاب ملوك بني إسرائيل؟

أجاب عيسى: يا برنابا قُصَّ علينا ماذا حدث باختصار، حتى نرى الحقيقة واضحا جليا.

عندها قال برنابا: كتب نبيُّ الله دانيال، واصفاً تاريخ ملوك بني إسرائيل، وتاريخ الحكام الظالمين الذين اضطهدوا بني إسرائيل كما يلي:

كان ملك إسرائيل قد انضم إلى ملك يهودا، للحرب ضد أبناء الشيطان الفاسدين وهم بنو عمون. وكان يهوشاقاط ملك يهودا وأخآب ملك إسرائيل قد تربعا العرش في سامراء، وكان يقف أمامهما ٤٠٠ من الأنبياء الزائفين، الذين قالوا لملك إسرائيل: انطلق إلى بني عمون وحاربهم، لأن الله سوف يسلمك إياهم، وسوف تشتت عمون وتبددهم.

فسأل يهوشاقاط: هل هناك نبيٌّ لرب آبائنا؟

أجاب أخآب: هناك واحدٌ فقط، بيد أنه شرير، لأنه دائماً يتنبأ لي

بالشَّر، وأنا أحبسه في سجني. وقال أخآب، وفي كلامه مكرٌ واضح، بأن هناك واحداً فقط، بيد أنه وبموجب مرسوم أخآب، كان قد قتل كل من وجدوا من الأنبياء، حتى أنهم هربوا إلى قمم الجبال، حيث لا يسكن أي إنسان، وكما ذكرت أيها المعلم.

وقال يهوشاقاط: ابعثه هنا حتى نرى ماذا يقول. فأمر أخآب، وأوتيَ بميخا النبيّ، ورجلاه مقيدان، ووجهه مدهوش، كأنه بين الحياة والموت.

فسأله أخآب قائلاً: تكلَّم باسم الله يا ميخا. هل ننطلق لمواجهة بني عمون؟ هل سيسلمنا الله مدنهم؟

أجاب ميخا: انطلق انطلق! لأنك سوف تصعد عالياً موفقاً ناجحاً، وسوف تهبط إلى الأسفل أكثر نجاحاً وتوفيقاً!

وقام الأنبياء الكاذبون، ومدحوا ميخا بأنه نبيُّ الله صدقاً وعدلاً، وكسروا قيوده من على رجليه.

وكان يهوشاقاط خائفاً من الله، ولم ينحن أبداً أمام الأوثان. فسأل ميخا قائلاً: تكلَّم بالصدق حباً في الله رب أجدادنا، لأنك اطلعت على موضوع الحرب.

أجاب ميخا: أهاب من وجهك يا يهوشاقاط، ولذلك أنبئك بأني رأيت بني إسرائيل كالغنم بدون راعي.

فتبسم أخآب وقال ليهوشاقاط: لقد أخبرتك بأن هذا الشخص يتنبأ سوءاً، وكنت لا تصدقني.

فسألا ميخا: وكيف تعرف ذلك يا ميخا؟

أجاب ميخا: يظهر لي أنَّ الملائكة تجمعوا في حضور الله، ولقد سمعت الله يقول: من منكم سيخدع أخآب، حتى يخرج لقتال عمون كي يُقتل؟ فاختلفت الملائكة فيما بينهم، ثم قام أحد الملائكة وقال: يا ربي سأناضل ضد أخآب، وسأذهب إلى أنبيائه الكاذبين، وسأضع كذبةً في أفواههم، وبذلك سيتشجع أخآب، ويذهب إلى مصيره المحتوم. فقال الله: انطلق وافعل كذا لأنك الغالب.

فاستشاط الأنبياء الكاذبون غضباً، وقام رئيسهم ولطم ميخا على خده قائلاً: أيها المنبوذ من قبل الله، متى افترق عنا ملك الحق وجاء إليك؟ أخبرنا متى جائنا الملك بكذبة؟

أجاب ميخا: سوف تعرفون حينما تفرُّون من بيت إلى بيت، خوفاً من أن تقتلوا، لأنكم خدعتم مليككم.

فاغتاظ أخآب وقال: امسكوا بميخا وضعوا على عنقه القيود، التي كانت على رجليه،، ودعه يعيش على خبز القمح والماء حتى أرجع، لأني لا أعرف الآن بأي قتلة سأقتله بها.

فانطلقوا إلى الحرب، ووقع ما تنبأ به ميخا. لأن ملك بني عمون قال لعبيده: لا تحاربوا ملك يهودا، ولا أمراء بني إسرائيل، بل اقتلوا ملك إسرائيل وهو عدوي أخآب.

فقال عيسى: توقف هاهنا يا برنابا لأن ما رويته يكفي لغرضنا.

هل اللّه تابعٌ للشريعة بأن لا يقتل ولا يكذب؟

فقال عيسى: هل سمعتم كل القصة؟

أجاب الحواريون بالإيجاب.

عندئذ قال عيسى: إنَّ الكذبة هي حقاً ذنبٌ وإثم، بيد أن القتل أعظم ذنباً من الكذب، لأن الكذب هو ذنب يخص المتكلم وحده، ولكن القتل يخص القاتل ويخص الإنسان المقتول، الذي هو أعزُّ شيءٍ عند الله على وجه المعمورة. والكذب يمكن أن يعالج بالنطق بشيءٍ مضادٍ لما قيل، بيد أنَّ القتل لا علاج له، نظراً إلى أنه ليس بالإمكان أن تحيي الميت. أخبروني هل ارتكب عبد الله موسى إثماً بقتله كل الذين قتلهم؟

أجاب الحواريون: معاذ الله معاذ الله! كيف أنَّ موسى ارتكب إثماً في طاعته لله الذي أمره بالقتل!

فقال عيسى: وأنا أقول: معاذ الله أن يأثم الملك، الذي خدع أنبياء أخآب الكاذبين بتلك الكذبة، فكما أنَّ الله يعتبر قتل الناس قرباناً، كذلك هو يعتبر الكذب حمداً لله.

الحق أقول لكم: كما أنَّ الطفل يخطئ بأن يجعل أحذيته على مقاس العملاق، كذلك يخطئ من يجعل الله تابعاً للشريعة، كما أنَّ الإنسان نفسه تابعٌ للشريعة. لذا فإنكم على الحق والصواب، كما أقول لكم، إن اعتقدتم بأنَّ الإثم هو الشيء الذي لا يريده الله.

ولأن الله ليس مركباً ولا متغيراً، لذا فهو غير قادرٍ على إرادة الشيء وعدم إرادة ذلك الشيء نفسه، لأن هذا يعتبر تناقضاً في ذاته، ومن ثم الألم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

المصائب ظاهرها شرٌّ وباطنها خير

فقال فيليب: ولكن كيف نفهم قول النبيِّ عاموس: ليس هناك شرٌّ في المدينة لم يصنعه الله؟

أجاب عيسى: يا فيليب! ما أعظم الخطر في الالتزام بحرفية النص! كما يفعل الفريسيون، الذين اخترعوا لأنفسهم مصطلح «الجبر في صفوة الله المختارين»، بمعنى أنَّ صفوة الله المختارين خلقوا هكذا من بطون أمهاتهم. إنهم في الحقيقة يقولون بأن الله خدَّاع وكذاب وهو ليس عادلاً، ويبغض القضاء في يوم القيامة - القضاء الذي هو مصيرهم المحتوم.

لذا أقول لكم: إنَّ نبيَّ الله عاموس، يتكلَّم عن الشر، من وجهة نظر أهل الدنيا. ولو كان قد استعمل لغة الصالحين، لصعب فهمه على أهل الدنيا.

إنَّ الشرَّ الذي ذكره النبي، هو المصائب والخطوب والبلايا والمحن، والتي هي حسنة، لأنها كفارة عن آثامنا التي اقترفناها، أو لأنها تمنعنا من

ارتكاب الإثم، أو لأنها تطلعنا على حقيقة هذه الدنيا، كي نحب التجافي عن دار الغرور، ونرغب في الإنابة إلى دار الخلود.

وعليه لو أنَّ النبيَّ عاموس كان قد قال: ليس هناك خيرٌ في المدينة، إلاّ وصانعه هو الله، لكان قد هيأ جو اليأس للمغمومين المهمومين، عندما يجدون أنفسهم في المحن والشدائد، في حين أنهم يجدون المذنبين في بحبوحة من العيش.

وما هو أسوء من ذلك، هو أنَّ الكثيرين لو اعتقدوا، بأنَّ الشيطان له الولاية على الإنسان، لخافوا الشيطان وخدموه، كي لا يتعرضوا للمحن والمصائب. لذلك فإنَّ عاموس فعل ما يفعله المترجم الروماني، حيث أنه في الحوار في حضور الكاهن الأعظم، لا يلتزم بنص الكلمات، بل بإرادة اليهود ومصالح شؤونهم، أمام الذين لا يعرفون العبرية.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، لو قال النبيُّ عاموس: (ليس هناك خيرٌ في المدينة إلاّ وصانعه هو الله) لكان قد أخطأ خطأً فظيعاً، لأنَّ الخير في اصطلاح أهل الدنيا، هو الظلم والجور والذنوب والآثام، التي تقترف بالزهو والعجب والغرور والخيلاء. ولتشجع أهل الدنيا لممارسة الظلم والجور والعدوان واقتراف الذنوب أكثر وأكثر، باعتقادهم بأنَّ ليس هناك إثمٌ أو خبث، لم يصنعه الله. وبمجرد سماع ذلك، تهتز الأرض وترتجف وترتعش.

وحالاً عندما قال عيسى ذلك، حدث زلزالٌ عظيم، بحيث وقع الناس على الأرض صرعى كالموتى. فأنهضهم عيسى قائلاً: هذا الزلزال يثبت بأني قد نطقت بالحق والحقيقة.

فاعلموا بأن النبيَّ عاموس، حينما قال وهو يخاطب أهل الدنيا: (إنَّ الله قد صنع الشر في المدينة) إنما تكلم عن البلايا والمصائب والمحن والشدائد، والتي تسمى الشر عند المذنبين.

وأما عن الجبر الذي تودون معرفته، فسوف أتكلَّم عنه غداً إن شاء الله، قرب نهر الأردن على الجانب الآخر منه.

لدوا للموت وابنوا للخراب واجمعوا للضياع

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[١]:

بحقٍ أقول لكم: لا تدركون شرف الآخرة، إلاّ بترك ما تحبون، فلا تنتظروا بالتوبة غداً، فإنَّ دون غدٍ يوماً وليلة، قضاء الله فيهما يغدو ويروح.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ صغار الخطايا ومحقراتها، لمن مكائد إبليس، يحقرها لكم ويصغِّرها في أعينكم، وتجتمع فتكثر وتحيط بكم.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ المدحة بالكذب، والتزكية في الدين، لمن رأس الشرور المعلومة. وإنَّ حب الدنيا لرأس كل خطيئة.

بحقٍ أقول لكم: ليس شيءٌ أبلغ في شرف الآخرة، وأعون على حوادث الدنيا، من الصلاة الدائمة، وليس شيءٌ أقرب إلى الرحمن منها. فدوموا عليها واستكثروا منها، وكل عملٍ صالحٍ يقرِّب إلى الله، فالصلاة أقرب إليه وآثر عنده.

---

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ١٤/٣١٧.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ عمل المظلوم، الذي لم ينتصر بقولٍ ولا فعلٍ ولا حقد، هو في ملكوت السماء عظيم. أيكم رأى نوراً اسمه ظلمة، أو ظلمةً اسمها نور؟ كذلك لا يجتمع للعبد أن يكون مؤمناً كافراً، ولا مؤثراً للدنيا راغباً في الآخرة. وهل زارعٌ شعيرٍ يحصد قمحا؟ أو زارعُ قمحٍ يحصد شعيرا؟ كذلك يحصد كل عبدٍ في الآخرة ما زرع، ويُجزى بما عمل.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ الناس في الحكمة رجلان: فرجلٌ أتقنها بقوله وضيَّعها بسوء فعله، ورجلٌ أتقنها بقوله وصدقها بفعله، وشتان بينهما! فطوبى للعلماء بالفعل! وويلٌ للعلماء بالقول!

بحقٍ أقول لكم: من لا ينقّي من زرعه الحشيش، يكثر فيه حتى يغمره فيفسده، وكذلك من لا يُخرج من قلبه حب الدنيا، يغمره حتى لا يجد لحب الآخرة طعماً.

ويلكم يا عبيد الدنيا، اتخذوا مساجد ربكم سجوناً لأجسادكم، واجعلوا قلوبكم بيوتاً للتقوى، ولا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات!

بحق أقول لكم: أجزعكم على البلاء لأشدكم حباً للدنيا، وإنَّ أصبركم على البلاء لأزهدكم في الدنيا. ويلكم يا علماء السوء، ألم تكونوا أمواتاً فأحياكم، فلما أحياكم متم؟ ويلكم ألم تكونوا أُميين فعلمكم، فلما علمكم نسيتم؟ ويلكم ألم تكونوا جفاة ففقهكم الله، فلما فقهكم جهلتم؟ ويلكم ألم تكونوا ضلالاً فهداكم، فلما هداكم ضللتم؟

ويلكم ألم تكونوا عمياً فبصركم، فلما بصركم عميتم؟ ويلكم ألم تكونوا صماً فأسمعكم، فلما اسمعكم صممتم؟ ويلكم ألم تكونوا بكماً فأنطقكم، فلما أنطقكم بكمتم؟ ويلكم ألم تستفتحوا فلما فتح لكم،

نكصتم على أعقابكم؟ ويلكم ألم تكونوا أذلةً فأعزكم، فلما عززتم قهرتم واعتديتم وعصيتم؟ ويلكم ألم تكونوا مستضعفين في الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس، فنصركم وأيدكم، فلما نصركم استكبرتم وتجبرتم؟

فيا ويلكم من ذل يوم القيامة، كيف يهينكم ويصغِّركم! ويا ويلكم يا علماء السوء! إنكم لتعملون عمل الملحدين، وتأملون أمل الوارثين، وتطمئنون بطمأنينة الآمنين، وليس أمر الله على ما تتمنون وتتخيرون، بل للموت تتوالدون، وللخراب تبنون وتعمرون، وللوارثين تمهدون.

لا تقنطوا من رحمة اللَّه

ذهب عيسى بمعية حوارييه إلى الصحراء، وراء نهر الأردن. وبعد صلاة الظهر، جلس بقرب شجرة النخل، وجلس حواريوه في ظلال النخل.

عند ذلك تكلَّم عيسى: يا إخواني إنَّ الجبر سرٌ عميق، حتى أني أقول لكم بحق: إنَّ هذا السر لا يظهر جلياً، إلا لرجلٍ واحدٍ فقط: هو الذي تنتظره الأمم، وهو الذي تظهر له أسرار الله جليةً واضحة، حتى أنه إذا أتى إلى هذا العالم، عمَّت البركة أولئك الذين ينصتون إلى كلامه، لأنَّ الله سوف يظلهم برحمته، كما أنَّ شجرة النخل هذه تظلكم. وكما يحمينا هذا النخل من حرارة الشمس الملتهبة، كذلك فإنَّ رحمة الله، سوف تحمي من الشيطان، أولئك الذين يؤمنون بهذا الرجل.

فقال الحواريون: أيها المعلم تُرى من يكون هذا الرجل، الذي تتكلَّم عنه، والذي سوف يأتي إلى هذا العالم!

أجاب عيسى، وقلبه مبتهج فرحا: إنه محمد رسول الله! وعندما يأتي إلى هذا العالم، سيكون كالمطر، تهتزُّ تحته الأرض وتربو، وتثمر ثماراً يانعة، بعد أن لم تمطر السماء لمدة طويلة. كذلك سيكون هو سبباً

للأعمال الصالحة بين الناس، بوسيلة الخير الوفير، والرحمة الغزيرة، التي سيأتي بها. لأنّه السحابة البيضاء، حبلى بالرحمة الإلهية، والتي سيرشها الله على المؤمنين، كما يرش المطر.

والآن سأخبركم القليل، مما وهبني الله من المعرفة عن الجبر. إنَّ الفريسيين يقولون بأنَّ كل شيءٍ قد سبق وقدر، بحيث أنَّ الصفوة المختارين لا يمكن لهم أن يكونوا فاسدين، وأنَّ الفاسدين لا يمكن لهم بأي حالٍ من الأحوال أن يكونوا من الصفوة المختارين. وكما أنَّ الله قد قضى وقدر عمل الخير، كوسيلة يمشي بها الصفوة المختارون إلى الفلاح والخلاص، كذلك فإنَّ الله قد قضى وقدر الذنوب، كوسيلة يمشي بها الفاسد إلى هلاك الجحيم.

اللعنة على اللسان الذي تكلَّم بهذا! واللعنة على اليد التي كتبت هذا! لأنَّ هذه هي عقيدة الشيطان. ومن ثم يمكن معرفة الفريسيين، في هذا العهد، بأنهم عبيدٌ مخلصون للشيطان.

ماذا يمكن للجبر أن يعني سوى الإرادة المطلقة، لترسيم النهاية، لشيءٍ قد تضافرت الوسائل في اليد لتحقيقه؟ لأنه من دون الوسائل، لا يمكن ترسيم النهاية. فكيف يمكن ترسيم البيت لأحد، لا تنقصه مجرد الحجارة والنقود فحسب، بل تنقصه حتى قدمٌ واحدةٌ من الأرض، لبناء البيت عليها؟

لا جرم، لا يمكن تحقيق النهاية من دون وسائل. وأكثر من ذلك، كيف نستبعد الإرادة الحرة وقوة الاختيار، التي وهبنا الله إياها، من خالص فضله وجوده وكرمه، وكيف نستبعد قانون الله وشريعته، والعمل بها،

لتحقيق النهاية السعيدة، والفلاح والخلاص للإنسان؟ لا جرم أننا بهذه العقائد، لا نؤسس للجبر، بل للرجس والمنكر والكره والبغض والمقت.

إنَّ قوة الإختيار عند الإنسان، يثبتها كتاب موسى، حينما أعطاه الله الناموس فوق جبل سينا وتكلَّم قائلاً: إنَّ وصاياي ليست في السماء، حتى تجدوا العذر لأنفسكم قائلين: من يستطيع أن يأتينا بوصايا الله؟ ومن يستطيع أن يعطينا القوة لمراعاة تطبيقها؟ كما أنَّ وصاياي ليست وراء البحار، حتى تجدوا العذر لأنفسكم بنفس المنوال. بل إنَّ وصاياي قريبةٌ من قلوبكم، تستطيعون مراعاة تطبيقها متى شئتم.

أخبروني لو أنَّ الملك هيرود، أمر الشيخ أن يعيد الشباب إلى نفسه، وأمر المريض أن يعيد الصحة إلى نفسه، وإذا امتنعا عن تنفيذ أوامره، يجب أن يقتلا. هل هذه عدالة؟

أجاب الحواريون: إذا أعطى الملك هيرود مثل هذه الأوامر، يُعدُّ عديم التقوى وأكبر ظالم.

فتأوه عيسى قائلاً: يا إخواني هذه هي ثمار التقاليد البشرية. لأنهم في قولهم بأنَّ الله سبق وقدر، بأن الفاسد الشرير لا يمكنه، بأي حالٍ من الأحوال، أن يهتدي ويصبح من صفوة الله، فإنهم في الحقيقة يسبُّون الله، ويصفونه بالظالم وعديم التقوى. لأنَّ الله يأمر المذنب أن لا يذنب، وأن يتوب ويندم إذا أذنب، في حين أن عقيدة الجبر، تسلب المذنب قوته على أن لا يذنب، وتجرده كلياً من الندامة والتوبة.

واسمعوا ماذا قال الله على لسان النبيِّ يوئيل: أنا ربكم الله الحي القيوم، لا أريد أن يموت المذنب مذنباً، بل أنشد للمذنب أن يتوب ويندم.

هل من الممكن أن يقضيَ الله ويقدِّر ما لا يريده؟ قارنوا ما يقوله الله، مع ما يقوله الفريسيون في هذا الزمان.

ويقول الله على لسان أشعياء النبي: لقد ناديتكم ولكن لا تنصتون إلي.

واسمعوا إلى الله، كم نادى على لسان أشعياء النبي نفسه: كل يومٍ أمد يدي إلى الناس، الذين لا يؤمنون بي، بل يخالفونني ويعارضونني ويضادونني!

بيد أن الفريسيين في هذا الزمان، عندما يقولون بأنَّ الفاسد الشرير، لا يمكنه أن يكون من الصفوة، إنهم في الحقيقة يقولون، بأنَّ الله يسخر من الناس، كما يسخر الواحد من الأعمى، حين يريه شيئاً أبيضاً، وكما يسخر الواحد من الأصم، عندما يهمس في أذنه.

وكم من الصفوة حبطت أعمالهم، وتحولوا إلى أشرارٍ فاسدين! اسمعوا ماذا يقول الله على لسان النبيِّ حزقائيل: أنا الله الحي القيوم، إذا ارتد الرجل الصالح، وترك صلاحه وعدله واستقامته، وارتكب المنكرات، فإنه سوف يهلك، وسوف لا أذكر شيئاً من صلاحه واستقامته، لأنَّه إذا عول على صلاحه، فإن صلاحه سوف يتركه أمام عيني، وسوف لا يخلِّصه من الهلاك.

وفي تسمية الفاسدين الأشرار، يقول الله على لسان النبيِّ هوشع: (من لم أسمه من الصفوة، سوف أسميه من الصفوة). إنَّ الله صادقٌ في قوله، ولا يكذب، لأنَّ الله هو الحق، ولا ينطق إلا بالحق. بيد أن الفريسيين في هذا الزمان، يناقضون الله جل وعلا، ويضادونه بعقيدتهم الهوجاء.

حرية الإختيار البشرية
أساس الجبر

سأل اندرو: وكيف نفهم ما قاله الله لموسى، بأنه يرحم من يشاء، ويجعل قلب من يشاء قسياً؟

أجاب عيسى: لقد قال الله ذلك، كي لا يظنُّ الإنسان، أنه ينال النجاة والخلاص والفلاح على علمٍ منه، بل يدرك ويتأكد بأنَّ الله عز وجل قد وهبه الحياة وتغمده بالرحمة الإلهية من فيوض فضله وجوده وكرمه. ولقد قال الله ذلك، حتى يتحاشى الإنسان أيَّ فكرٍ وعقيدة، بأنه توجد آلهةٌ غير الله.

لذلك فإنه سبحانه وتعالى، إذا كان قد جعل قلب فرعون قاسياً مخشوشناً، فلأن فرعون آلم رجالنا، وضايقهم وأغمَّهم، وسعى في إفنائهم، بقتل الأولاد الذكور من بني إسرائيل، وكان موسى نفسه على وشك الموت.

والحق أقول لكم: إنه بناءً عليه فإن عقيدة الجبر أساسها قانون الله، وحرية الإختيار البشرية. وحتى إذا كان الله قادراً على إنقاذ العالم كله، وأن

لا يهلك أحد من البشر بذنوبه، إلا أنه سبحانه لن يشاء ذلك، كي لا يجرد الإنسان من حرية الاختيار ـ والتي اختصه الله بها ـ ولكي يعمل الإنسان على خلاف رغبة الشيطان[(١)]، حتى تكون لهذه الكتلة من الطين ـ والتي يبغضها الشيطان ـ القدرة على الندامة والتوبة والإنابة، ومن ثم الذهاب للعيش إلى نفس المكان، الذي طرد منه غريمها الشيطان، رغم أنها أذنبت كما أذنب الشيطان.

إنَّ الله يريد بقدرته المطلقة، أن يتابع برحمته قوة اختيار البشر، ولا يريد أن يترك البشر في ذنوبهم، بل يريد بمتابعته أن يرجعوا إلى رشدهم، ويندموا ويتوبوا وينيبوا، حتى لا يكون في مقدور أي أحدٍ منهم، أن يلتمس العذر لذنوبه، نظراً إلى أنه سيكون واضحاً وجلياً لكل أحد، كم فعل الله لهدايته، وكم أتمَّ حجته عليه، بدعوته إلى الندامة والتوبة والإنابة!

واذا كان عقلك لا يزال غير قانع وغير مستوعب، رغم كل التوضيحات، وربما رغبت باشتياق في التساؤل مرةً أخرى: (لماذا ولماذا)؟ فسوف أكشف لك سر (لماذا). إنه هذه الحقيقة:

---

(١) يقول رسول الله ﷺ: إنَّ الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم. لذا فإن رغبة الشيطان ـ هذا الطاغية العنيد المسيطر على البشرية ـ هو نشدان هوى النفس، وهو التيار القوي الذي يسود البشرية. فاذا نجح إنسانٌ ما بدخوله في السير والسلوك وممارساته المثابرة في ذكر الله وجهاد النفس الأكبر، وتحويل هذا التيار الشيطانيّ القوي الجارف الكاسح، وهو نشدان الهوى، إلى نشدان مشيئة الله والتعرف عليها والقناعة التامة بها، في رضاً كاملٍ وخوفٍ من الله وخشيته، ومن ثم الدخول في الجنة، ورضوان الله ورحمته، التي طرد منها غريمه وعدوه الشيطان، رغم أنه أذنب كما أذنب الشيطان، فإن ذلك هو الفلاح والنجاة والخلاص بعينه.

أخبرني لماذا الحجر الواحد لا يستقر على وجه الماء، في حين أنَّ الأرض برمتها، تستكن على وجه الماء؟ أخبرني لماذا الماء يطفئ النار، والهواء يفرُّ من الأرض، بحيث لا يمكن للأرض والهواء والماء والنار، أن تتحد في تناسقٍ وانسجامٍ وتناغم؟ رغم ذلك فهي متحدةٌ في البشر، ومحفوظةٌ فيه، في تناسقٍ وانسجامٍ وتناغم؟

واذا كنت لا تستطيع أن تستوعب ذلك ـ بل إنَّ البشر جميعهم لا يقدرون على درك ذلك كبشر ـ فكيف في مقدورهم، أن يفهموا بأنَّ الله قد خلق الكون من العدم بكلمةٍ واحدة؟ وكيف يكون في مقدور البشر، أن يستوعبوا خلود الله؟ لا جرم إنهم لا يستطيعون أن يدركوا ذلك، بأي حالٍ من الأحوال، لأنَّ الإنسان محدود، ومركبٌ مع الجسد، الذي قال عنه النبيُّ سليمان بأنه قابلٌ للتعفن والفساد، وأنه يكبس الروح كبساً، في حين أنَّ أعمال الله متناسبةٌ مع الله وحده، فكيف يقدر البشر على دركها وفهمها واستيعابها!

وبالنظر إلى كل هذا، فإنَّ أشعياء النبيُّ صرخ قائلاً: إنك بحقٍ إلهٌ مخفي[1]! وقال عن رسول الله وكيف خلقه الله: ومن يستطيع أن يروي عنه غير ذريته[2]! وقال عن عظمة أعمال الله: يا ترى من كان مستشاره!

---

(١) إنه بحقٍ إلهٌ مخفي، لأننا كبشر، لا نستطيع أن نستوعب عظمته، وندرك مداه، ونفهم ماهيته. إنه مخفيٌ عن أذهاننا وعقولنا كبشر، لأننا لسنا إلا ذرة، بل أقل من ذرة، بالنسبة لعظمته وفخامته وجلاله وأبهته وبهائه وجبروته وسموء وروعته.

(٢) كان أشعياء النبيُّ يعيش قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة، ورغم ذلك كان يعرف الشيئ الكثير عن رسول الله، وعن ذرية رسول الله. ونحن بعد ١٥٠٠ سنة من ولادة رسول الله، لا نعرف عن رسول الله، ولا عن ذرية رسول الله إلا قليلا. **والعجيب أن أشعياء=**

ولأجل ذلك خاطب الله البشر قائلاً: كما أن السماء معظّم وممجدٌ على الأرض، كذلك فإن طرقي معظَّمةٌ وممجدةٌ على طرقك، وأفكاري معظّمةٌ وممجدةٌ على أفكارك.

وعلى هذا أقول لكم: إنَّ نمط الجبر وكيفيته ليس واضح المعالم على البشر[١]، رغم أن الحقائق التي أنبأتكم بها صادقة.

هل ينبغي للبشر إذن أن ينكر الحقيقة، إذا كان لا يعرف الكيفية؟ حقاً إني لم أر أحداً بعد يرفض الصحة، رغم أن كيفيتها لا تدرك. ولا أعرف إلى الآن، كيف أنَّ الله يبرئ المرضى على يدي، وبوسيلة لمسي ومسي.

= النبي قبل ٣٠٠٠ سنة يخبرنا بطور صريح قائلا: ومن يستطيع أن يروي عن رسول الله غير ذرية رسول الله! إنَّ ارتباط عترة الرسول مع الرسول ﷺ ـ ذلك الإرتباط المقدس الوثيق ـ كان معروفاً لدى الأنبياء!

(١) يا ترى من يستطيع أن يعطينا صورةً واضحةً عن توازن القدرة المطلقة مع الكرم المطلق والرحمة المطلقة ـ هذا التوازن الذي لا يوجد إلا في الإنسان ـ هذا المخلوق العجيب الرائع ـ المشمول بالقدرة المطلقة والكرم المطلق والرحمة المطلقة، وهي تعيش جنباً إلى جنب في تناسقٍ وانسجامٍ وتناغم، لا يعرف سرها إلا الله!

مجد الجنَّة وجلالها وبهاؤها وعظمتها

فقال الحواريون: حقاً إنَّ الله يتكلَّم في وجودك. لأنَّ البشر لم يتكلَّم قط، كما تتكلَّم، ولم يكن في مقدور البشر، أن ينطق بما تنطق به.

أجاب عيسى: صدقوني أن الله سبحانه وتعالى، حينما اصطفاني وبعثني إلى بني إسرائيل، أعطاني كتاباً كالمرآة الصافية، نزل على قلبي، بحيث أنَّ كل ما أنطق به، يأتي من ذلك الكتاب. وحينما ينتهي ذلك الكتاب، ويتوقف عن التفجر من فمي، سوف أُرفع عن هذه الأرض.

فقال بطرس: أيها المعلم هل الذي تنطق به الآن مكتوبٌ في ذلك الكتاب؟

أجاب عيسى: كلُّ ما أنطق به عن علم الله، وعن خدمة الله وعبادته، وعن علم البشر، وعن خلاص البشر وفلاحه، كلُّ هذا يأتي من ذلك الكتاب، والذي هو إنجيلي.

فسأل بطرس: هل مكتوبٌ في ذلك الكتاب عن مجد الجنة وجلالها وبهائها وعظمتها؟

أجاب عيسى: اسمعوا لي وأنصتوا، لأني سأخبركم عن كيفية الجنة، وكيف أنَّ القديسين والمؤمنين، سوف يمكثون فيها، إلى ما لا نهاية، لأنها دار الخلود. والخلود من أعظم بركات الجنة ونعمها وسعاداتها، نظراً إلى أنَّ كل شيء، مهما كانت عظمته، يكون صغيراً جداً، بل صفراً ولا شيء، إن كانت له نهاية.

إنَّ الجنة دارٌ يدخر فيها الله مباهجه وبسطه وسروره وفرحه، وهي عظيمةٌ للغاية، بحيث أنَّ أرضها التي تطأُها أقدام القديسين وأولياء الله الصالحين ثمينةٌ وفاخرةٌ ونفيسةٌ للغاية، بحيث أنَّ درهما واحداً منها، أثمن وأفخر وأنفس من آلاف العالمين.

إنَّ هذه المباهج شاهدها أبونا نبيُّ الله داود، لأنَّ الله أراه إياها، حتى يشهد أمجاد الجنة وجلالها وبهائها وعظمتها. وعندما رجع إلى نفسه، أغمض عينيه بكلتى يديه، وبكى وانتحب قائلاً: لا تنظري يا عيني إلى هذا العالم كرةً أخرى، لأنه جميعه باطلٌ وسراب، ولا يوجد شيءٌ طيبٌ هاهنا.

وعن هذه المباهج يقول أشعياء النبي: **لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على بال بشر، تلك المباهج التي هيأها الله لعاشقيه ومحبيه.**

أتعلمون لماذا لا يشاهد البشر، مثل هذه المباهج، التي لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على بال بشر؟ لأنَّ البشرَ في عيشه في أسفل السافلين، غير جدير بمشاهدة مثل هذه المشاهد. فلهذا على الرغم من أنَّ أبانا داود قد رآها حقّاً، إلا أنه لم يرها بعيونه البشرية، بل إنَّ الله رفع روحه ودمجها معه، وبالإتحاد مع الله، رأى تلك المشاهد، بالنور الإلهي.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، نظراً إلى أنَّ مباهج الجنّة غير محدودة ولامتناهية، وأنَّ الإنسان محدودٌ متناهي، لذا فإنَّ الإنسان لا يستطيع احتوائها، كما لا تستطيع الجرة الفخارية الخزفية احتواء البحر.

فانظروا كم هو جميلٌ هذا العالم في فصل الصيف حين تؤتي الأرض ثمارها! إنَّ الفلاح يُسكره الجذل والفرح، بسبب الحصاد الوافر، فيملأ الوديان والجبال غناءً، لأنه يحب ثمار يديه وكده وكدحه حباً جماً. والآن ارفع قلبك إلى الجنة، حيث الوفرة من الثمار والفواكه، من تلك التي زرعها وفلحها الخالق العظيم.

بحق الحي الذي لا يموت، إنَّ هذا يكفيكم للتعرف على الجنَّة، نظراً إلى أنَّ الله قد خلق الجنَّة، لتكون داراً لمباهجه.

يا ترى ماذا تتوقع من الطيبة المطلقة إلا الطيبة المطلقة بلا حدود! ويا ترى ماذا تتوقع من الجمال المطلق إلا الجمال المطلق بلا حدود! أنت في خطأ جسيم إذا فكرت غير ذلك. وأنت في ضلالٍ بعيدٍ، إذا فكرت أنَّ الله جلَّ وعلا لا يملك الطيبة المطلقة، والجمال المطلق، بلا حدود ولا نهاية.

لقد خاطب الله الإنسان الذي يخدمه ويعبده بكل إخلاصٍ قائلاً:

أنا مطَّلع على أعمالك، وبأنك تعمل من أجلي. بحقي أنا الحي القيوم، إنَّ حبك لي ليس أوسع من فضلي وجودي وكرمي. ولأنك تخدمني وتعبدني أنا الله خالقك وبارئك، عارفاً بأنك من صنع يدي، وأنت لا تسألني شيئاً غير فضلي ونعمتي ومنتي وصفحي وعفوي ومغفرتي ورحمتي ورفقي ورأفتي، كي تخدمني وتعبدني بكل إخلاص، وأنت لا

تضع حداً ولا هدفاً لخدمتي وعبادتي، نظراً إلى أنك تشتاق إلي، وترغب في خدمتي وعبادتي أبد الآبدين، كذلك سأفعل أنا بك، لأني سأكافئك، كما أنك الله وكما أنك عدلي.

وأنا لن أكافئك فقط، بأن أضع في يديك وفرة الجنَّة وفيضها وغزارتها، بل سوف أعطيك نفسي كهدية. وكما أنك تشتاق، بكل فرحٍ وسرور، أن تكون عبدي أبد الآبدين، كذلك سأجعل لك أجري وثوابي أبدَ الآبدين.

واستمر عيسى في كلامه إلى الحواريين قائلاً: يا ترى ماذا تفكرون وتتصورون عن الجنَّة! هل هناك عقلٌ يقدر على درك مثل هذه الثروات والمباهج؟ إنَّ الإنسان ينبغي له علمٌ، بعظمة علم الله، إذا أراد أن يعرف ما يريد الله إعطاءَه لعبيده المخلصين.

هل رأيتم الملك هيرود، كيف يقدم هديةً ما إلى أحد أفراد حاشيته المفضلين وأصحاب الزلفى عنده؟

أجاب جون: لقد رأيت ذلك مرتين. وبالتأكيد إنَّ عُشر ذلك الذي يعطيه، يكفي لرجل فقير.

فقال عيسى: ولكن إذا تقدم رجلٌ فقير إليه ماذا سيعطيه؟

فأجاب جون: فلساً أو فلسين.

فقال عيسى: فليكن هذا كتابك، تدرس فيه علم الجنَّة. لأنَّ كل ما أعطاه الله لجسد الإنسان في هذه الدنيا، تساوي فلساً، أي بالضبط ما يعطيه الملك هيرود للرجل الفقير. بيد أنَّ ما يعطيه الله للجسد والروح في الجنَّة،

تساوي كما أنَّ هيرود يعطي كل ما عنده، بل يعطي حياته رخيصةً، لأحد من عبيده المخلصين أصحاب الزلفى عنده.

يقول الله لمن يحبه ويخدمه بكل إخلاص:

يا عبدي اذهب، وعد حبات رمل البحر، وانظر كم عددها. ولو أعطى لك البحر حبة واحدة من الرمل، هل يتراءى لك ذلك ضئيلاً؟ بالتأكيد نعم! أنا خالقك الحيُ القيوم، كل ما أعطيته للأمراء والملوك على هذه الأرض، هي أقل من حبة رمل، التي يعطيك إياها البحر، بالمقارنة مع ما سوف أعطيك في جنَّتي.

واستأنف عيسى قائلاً: تأملوا وتبصروا في وفرة الجنَّة وفيضها وغزارتها. إذا كان الله قد أعطى للإنسان في هذه الدنيا، درهماً واحداً من الخير والرفاهية، فإنه سيعطيه في الجنَّة الف الف أضعاف.

تصور كمية الفواكه في هذه الدنيا، وكمية الطعام، وكمية الورود والزهور، وكمية الأشياء التي هي في اختيار الإنسان!

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، كما أنَّ البحر يطفح بالرمل الغزير، حتى بعد ما يتسلم الإنسان حبة منه، كذلك ستكون جودة التين وكميته في الجنَّة، تفوق جودة التين وكميته في هذه الدنيا. وعلى نفس المنوال، ستكون حالة الأشياء الأخرى في الجنَّة.

والحق أقول لكم بأنه إضافة إلى كل هذا، فكما أنَّ جبلاً من الذهب واللؤلؤ أفخر وأنفس من ظل النمل، كذلك فإنَّ مباهج الجنَّة أفخر وأنفس من كل المباهج التي يتمتع بها أمراء العالم، مما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

هل الجنَّة للجسد أو للروح وحده

فقال بطرس: وهل سيدخل جسدنا الجنَّة على حالته، التي نحن عليها الآن؟

أجاب عيسى: حذار حذار أن تكون من الصدوقيين، لأنَّ الصدوقيين يقولون بأن الجسد لن يحيى مرة أخرى، وأنه لا توجد ملائكة. فلهذا يحرم جسدهم وروحهم من الدخول في الجنَّة، ويحرمون من خدمة الملائكة في هذه الدنيا.

هل من الممكن يا بطرس أن تكون قد نسيت ما قاله نبيُّ الله وخليله أيوب: أنا أعلم بأنَّ الله حيٌّ قيوم، وفي يوم القيامة سوف أستيقظ بجسدي، وسوف أرى الله مخلِّصي ومنقذي بعيني؟

ولكن صدقني إنَّ الجسد سوف يطهر ويصفى وينقى، بحيث لا تبقى أية خاصيةٍ أو صفةٍ أو خلةٍ من الجسد الحالي، نظراً إلى أنه سوف يطهر من رغبات الشر والإثم، ويصفى وينقى من الشهوة والهوى، وأنَّ الله عزَّ وجل سيغيره ويحوله إلى الحالة والهيئة التي كان عليها آدم، قبل أن يعصي ويذنب.

على سبيل المثال، هناك رجلان يعملان لسيدٍ واحد، في عملٍ واحد. الأول مراقب ويعطي الأوامر للثاني، والذي بدوره يؤدي كل ما يأمره به المراقب. هل يتراءى لك أنَّ السيد يجب أن يكافئ المراقب وحده، الذي يشرف على العمل ويصدر الأوامر، ثم يرمي خارج منزله بذاك الذي كد واجتهد في العمل، وأنهك نفسه وأضنى وأعيى؟ بالتأكيد لا.

فكيف تتحمل عدالة الله ذلك! إنَّ روح الإنسان وجسده وحواسه تخدم الله معاً: الروح وحده يشرف ويراقب، ويأمر بالخدمة والعبادة، لأنَّ الروح لا يأكل ولا يصوم ولا يمشي، ولا يحس البرودة ولا الحرارة، ولا يمرض ولا يمكن أن يُقتل ويُباد، لأنَّ الروح خالد: فهو لا يعاني من تلك الآلام والأوجاع، التي يعانيها الجسد تحت وطأة محيطه. هل هذه عدالة أن يذهب الروح وحده إلى الجنَّة، ولا يذهب الجسد إلى الجنَّة، ذاك الذي أنهك نفسه كثيراً وأضنى، وأكل وأتعب وأعيى، في خدمة الله وعبادته جلَّ وعلا!

أجاب بطرس: أيها المعلم الجسد تسبب للروح أن يذنب، فلهذا لا ينبغي له أن يدخل الجنَّة.

أجاب عيسى: قل لي كيف يمكن للجسد أن يذنب من دون روح؟ بالتأكيد إنَّ ذلك مستحيل. فلذلك إذا أبعدت رحمة الله عن الجسد، فأنت في الحقيقة تحكم على الروح بعذاب النار.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إنَّ ربنا الله قد وعد أن يتغمد المذنب برحمته قائلاً: بمحض أن يندب المذنب ويبكي على ذنوبه، فأنا من جهتي سوف لا أتذكر آثامه إلى الأبد.

والآن قل لي من سيأكل اللحم الطري في الجنَّة، إذا كان الجسد لا يدخل الجنة؟ هل من الممكن أن يكون الروح؟ بالتأكيد لا!

فقال بطرس: فالجسد هو الذي سيأكل في الجنَّة. ولكن كيف يفرغ اللحم من دون نجاسة؟

أجاب عيسى: قل لي كيف يكون الجسد متنعما، إذا كان لا يأكل ولا يشرب؟ لا جرم أنه من اللائق أن تكرم شيئاً بما يناسب ذلك الشيئ. ولكنك تخطئ يا بطرس بتفكيرك، بأنَّ لحم الجنَّة يجب أن يفرغ في نجاسة، لأن الجسد في هذه النشأة، يأكل لحوماً قابلةً للتعفن، ولذلك لا ينتج منها إلا التعفنات والنجاسات، بيد أنه في الجنَّة، يكون الجسد غير قابلٍ للتعفن، وعديم الإحساس وخالداً، ومتحرراً من كل بؤس وشقاء وتعاسة، وضنك وإملاق وفاقة، وأنه في الجنَّة، تكون اللحوم بلا عيب، ولذلك لا تنتج منها التعفنات والنجاسات البتة.

يقول الله على لسان أشعياء النبي، مستخفاً بالفاسدين الأشرار: إنَّ عبادي سوف يجلسون على مائدتي في بيتي، وسوف يقيمون الأعياد والولائم، ويتلذذون ويتمتعون بابتهاج وسرورٍ وفرحٍ، وعلى أصوات القيثار والأرغن، وسوف لا أسمح لهم، بأن يكونوا بحاجة إلى أي شيئ. ولكنكم يا أعدائي سوف ترمون بعيداً عني، حيث تموتون في بؤسٍ وشقاءٍ وتعاسة، وضنكٍ وإملاقٍ وفاقة، وتكونون في معرض الإحتقار والإزدراء من قبل عبادي.

فقال عيسى للحواريين: ماذا تعني كلمة (وسوف يقيمون الأعياد والولائم، ويتلذذون ويتمتعون بابتهاج وسرور وفرح)؟ لا جرم أنَّ الله

يتكلم بوضوح. أخبروني لاي غرض تجري الأنهار الأربعة[١] من خمرٍ فاخرٍ نفيس، مع وفرةٍ من الفواكه في الجنَّة؟ بالتأكيد إن الله لا يأكل، وأن الملائكة لا تأكل، وأن الروح لا يأكل، وأن الحواس لا تأكل. بل الذي يأكل هو الجسد.

ولأجل هذا فإن تكريم الجنَّة للجسد هو اللحوم، وتكريم الجنَّة للروح والحواس هو الله، ومعاشرة الملائكة، ومخالطة الأرواح المقدسة[٢]. إنَّ أمجاد الجنَّة سوف يعلنها ويظهرها رسول الله على أحسن وجه، وهو يعرف كل شيء، أحسن من أي مخلوقٍ آخر، نظراً إلى أنَّ الله قد خلق كل شيء حباً له.

---

(١) إنَّ عيسى يتكلَّم عن الأنهار الأربعة والفواكه في الجنَّة، بنفس الوصف الذي يتكلَّم به القرآن الكريم في سورة محمد: (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهارمن لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات). أليس هذا عجيباً؟ ألا يثبت ذلك أن المتكلِّم واحد، وهو الله عز وجل، وأن عيسى ومحمد ما هما إلا مكبرا صوت، لصوت واحد فقط، ألا هو صوت الله سبحانه وتعالى.

(٢) إن القرآن الكريم يعبر عن معاشرة الملائكة ومخالطة الأرواح المقدسة بالأزواج. يقول الله عز وجل في سورة يس: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الارائك متكئون. ويعبر عنهم بالولدان المخلدون أيضا: يقول الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾. ويعبر عنهم أيضا بحور، في آيات كثيرة منها في سورة الرحمن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾. وأيضا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾. وأيضا: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾. ويصفهن في سورة الرحمن: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

فقال برثولماوس: أيها المعلم، هل سيكون تكريم الجنَّة مساوياً لكل أحد؟ وإذا كان مساوياً، فلا يكون عدلاً، وإذا لم يكن مساوياً، فالمقام الأسفل سوف يحسد المقام الأعلى.

أجاب عيسى: سوف لا يكون مساوياً، لأنَّ الله عادل. وكل أحد سوف يكون قانعا، لأنه لا حسد في الجنَّة. أخبرني يا برثولماوس، إذا كان هناك سيد، ويملك عبيداً كثيرين، وأنه يلبس عبيده نفس اللباس. فهل الصبيان الذين يلبسون لباس الصبيان، ينوحون لأن ثيابهم ليست ثياب الكبار؟ على العكس من ذلك، لو رغب الكبار أن يعطوهم حللاً أكبر، لغضبوا لأن الحلل ليست على مقاسهم، وسوف يظنون أنَّ الكبار يستهزئون بهم.

والآن يا برثولماوس، ارفع قلبك إلى الله في الجنَّة، وسوف تجد هناك مجداً واحداً، رغم أنه سيكون متفاوتاً في التكريم، لكن ذلك لا يولد حسداً.

فقال برنابا: أيها المعلم، هل في الجنَّة ضوءٌ من الشمس، كما يوجد هنا؟

أجاب عيسى: يا برنابا إن الله قد قال لي: إنَّ للعالم، حيث يوجد بشرٌ مذنبون، شمساً وقمراً ونجوماً تزينه، قد خلقت كل ذلك لمنفعتكم ولبهجتكم. أتفكرون أنَّ بيتي، حيث يقيم المؤمنون، ليس أحسن؟ لا جرم أنكم تخطئون بمثل هذا التفكير، لأني أنا الله شمس الجنَّة، وإن رسولي قمرها، الذي يتلقى مني كل شيء، وإن النجوم هم أنبيائي، الذين وعظوكم مشيئتي. وكما أنَّ المؤمنين تلقوا كلامي من خلال أنبيائي، فإنهم

سوف يتلقون، على نفس المنوال، البهجة والسرور من خلالهم، في جنَّة مباهجي.

قال عيسى: فلنكتف الآن بعلم الجنَّة.

عظمة اللّه
لا يمكن تصورها

فقال برثولماوس مرة أخرى: أيها المعلم تحملني قليلا، حتى أسألك شيئاً واحداً.

أجاب عيسى: قل ما بدا لك.

فقال برثولماوس: إنَّ الجنَّة حقا عظيمة. ونظراً لأن فيها مثل هذه الأشياء العظيمة، فينبغي أن تكون عظيمة.

أجاب عيسى: إنَّ الجنَّة عظيمةٌ جداً، بحيث لا أحد يستطيع أن يتصورها. الحق أقول لكم: إنَّ السموات تسعة، وبينها وضعت الكواكب، وكل كوكب يبعد عن الآخر، بمقدار رحلة ٥٠٠ عاما للإنسان. وإن الأرض على نفس المنوال، تبعد عن السماء الأولى، بمقدار رحلة ٥٠٠ عاما.

ولكن توقف عند قياس السماء الأولى، والتي تكبر عن الأرض، بمقدار ما تكبر الأرض عن حبة رمل. كذلك تكبر السماء الثانية عن الأولى، والثالثة عن الثانية، وهكذا دواليك إلى السماء الأخيرة، حيث أنَّ كل سماء تكبر عن السماء التي قبلها بنفس النسبة.

والحق أقول لكم: إنَّ الجنَّة تكبر عن الأرض والسموات جميعاً، بمقدار ما تكبر الأرض عن حبة رمل.

فقال بطرس: أيها المعلم، يظهر أنَّ الجنَّة أكبر من الله، لأن الله يُرى في الجنَّة.

أجاب عيسى: امسك لسانك يا بطرس، لأنك كفرت بالله سهواً وبدون التفات.

ثم هبط جبرائيل على عيسى، وأراه مرآةً تضيئ كالشمس، وشاهد فيها هذه الكلمات مكتوبة:

بحقي أنا الحي القيوم! فكما أنَّ الجنَّة تكبر عن الأرض والكون والسموات جميعاً، بمقدار ما تكبر الأرض عن حبة رمل، كذلك أنا أكبر من الجنَّة، بأضعاف ما في البحار من حبات رمل، وما في ماء البحار من قطرات، وما في حشيش الأرض من شفرات، وما في الأشجار من أوراق، وما في الحيوانات من جلود، بل أكبرُ بكثيرٍ من أضعاف حبات الرمل تملأ الكون والسموات والأرض والجنَّة، بل أكبر من ذلك بكثير.

ثم قال عيسى: فلنكبِّر لله ونهلل، ونقدسه ونبجله، ونحترمه ونجله. فانحنوا جميعا برؤوسهم مئة مرة، وسجدوا لله في صلاة.

وبعد الصلاة نادى عيسى بطرس، وأخبره وجميع الحواريين بما شاهد. وقال لبطرس: **إنَّ روحك الذي هو أكبر من كل الأرض، يشاهد الشمس التي هي أكبر من كل الأرض الف مرة، من خلال عينٍ واحدة.**

فقال بطرس: لقد صدقت.

ثم قال عيسى: كذلك سترى الله خالقنا بعين الجنّة.

ثم قام عيسى، وشكر الله ربنا، وصلى من أجل بني إسرائيل، ومن أجل المدينة المقدسة. وأجاب الجميع: آمين يا رب العالمين.

الجاهلون عبرةٌ للحكماء

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه(١):

بحقٍ أقول لكم: إنَّ موسى كان يأمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين، وأنا أقول: لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين، ولكن قولوا: لا ونعم. . .

بحق أقول لكم: إنَّ الناس مُعافى ومُبتلى، فاحمدوا الله على العافية، وارحموا أهل البلاء.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ كل كلمةٍ سيئةٍ تقولون بها، تعطَون جوابها يوم القيامة. يا عبيد السوء، إذا قرب أحدكم قربانه ليذبحه، فذكر أنَّ أخاه وجد عليه، فليترك قربانه وليذهب إلى أخيه فليرضه، ثم ليرجع إلى قربانه فليذبحه. يا عبيد السوء، إذا أُخذ قميص أحدكم فليعط ردائه معه، ومن لُطم خده منكم، فليمكن من خده الآخر، ومن سُخر منكم ميلاً، فليذهب ميلاً آخر معه.

بحقٍ أقول لكم: ماذا يُغني الجسد إذا كان ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً؟ وما تُغني عنكم أجسادكم إذا أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم؟ وما

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ١٤/ ٣١٧.

يُغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة؟

بحقٍ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل، يخرج الدقيق الطيب ويمسك النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم، ويبقى الغِل في صدوركم.

بحقٍ أقول لكم: ابدأو بالشر فاتركوه، ثم اطلبوا الخير ينفعكم، فإنكم إذا جمعتم الخير مع الشر لم ينفعكم الخير.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ الذي يخوض النهر، لا بد أن يصيب ثوبه الماء، وإن جهد أن لا يصيبه، كذلك من يحب الدنيا لا ينجو من الخطايا.

بحقٍ أقول لكم: طوبى للذين يتهجدون من الليل، أولئك الذين يرثون النور الدائم، من أجل أنهم قاموا في ظلمة الليل على أرجلهم في مساجدهم، يتضرعون إلى ربهم، رجاء أن ينجيهم في الشدة غداً.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ الدنيا خلقت مزرعة، يزرع فيها العباد الحلو والمر والشر والخير، الخير له مغبةٌ نافعة يوم الحساب، والشر له عناءٌ وشقاءٌ يوم الحصاد.

بحقٍ أقول لكم: إنَّ الحكيم يعتبر بالجاهل، والجاهل يعتبر بهواه. أوصيكم أن تختموا على أفواهكم بالصمت، حتى لا يخرج منها ما لا يحل لكم.

بحقٍ أقول لكم: إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون.

بحقٍ أقول لكم: يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة، من لا تنقص

شهوته من الدنيا، ولا تنقطع منها رغبته.

بحقٍ أقول لكم: يا عبيد الدنيا، ما الدنيا تحبون، ولا الآخرة ترجون، لو كنتم تحبون الدنيا، أكرمتم العمل الذي به أدركتموها، ولو كنتم تريدون الآخرة، عملتم بعمل من يرجوها.

بحقٍ أقول لكم: يا عبيد الدنيا، إنَّ أحدكم يبغض صاحبه على الظن، ولا يبغض نفسه على اليقين. وأقول لكم: إنَّ أحدكم ليغضب، إذا ذكر له بعض عيوبه وهي حق، ويفرح إذا مدح بما ليس فيه.

ضعة الإنسان وضآلته

كان عيسى يوما جالسا في سقيفة سليمان، واقترب منه كاتب، من الذين كانوا يحاضرون للناس في المعبد فسأله: أيها المعلم، لقد حاضرت للناس عدة مرات، وهناك جملة في التوراة، تدور في رأسي، لا أستطيع فهمها.

أجاب عيسى: وما هي هذه الجملة؟

فقال الكاتب: تلك التي قالها الله لأبينا إبراهيم: (سأكون جائزتك العظمى). يا ترى كيف يستحق الإنسان مثل هذه الجائزة؟

فتهللت روح عيسى، وطربت وابتهجت فرحا وقال: لا جرم أنك لست ببعيد عن ملكوت الله! أنصت إلي جيدا، إني سأخبرك بمعناها. إن الله غير محدود، بيد أن الإنسان محدود، فكيف يكون الإنسان جديرا بالله - أهذه هي شكوكك يا أخي؟

فأجاب الكاتب وهو يبكي وينتحب: يا سيدي أنت تعلم ما في نفسي. تكلم لأن روحي تشتاق إلى سماع صوتك!

فقال عيسى: بحق الحي الذي لا يموت، إن الإنسان لا يستطيع أن يكون جديرا بهذا النفس الضئيل، الذي يتنفسه في كل لحظة.

فاستغرق الكاتب في الحيرة والتفكير، عند سماع ذلك، وكذلك الحواريون تعجبوا واستغربوا واندهشوا، لأنهم كانوا يتذكرون، ما قاله عيسى لهم بأنهم سوف ينالون مئة أضعاف، ما ضحوا من أجل حب الله.

ثم استأنف عيسى قائلاً: إذا أقرضك أحد مئة قطعة من الذهب، وفرطت في كل ذلك وصرفتها وبذرت فيها تبذيرا، هل من اللائق أن تقول له: سأعطيك جناح بعوضة، لهذا أعطني بيتك لأني أستحقه؟

فأجاب الكاتب: لا يا سيدي! ينبغي له أولا أن يرد له ما استقرضه، ومن ثم إذا أراد شيئاً، يمكنه أن يعطيه أشياء جيدة. وماذا ينفع جناح بعوضة!

فقال عيسى: لقد أصبت يا أخي. والآن أخبرني من الذي خلق الإنسان من العدم؟ لا جرم أنه الله! الذي وهبه أيضاً العالم كله لصالحه والإنتفاع منه. بيد أن الإنسان قد فرط في كل ما أعطاه ربه في الآثام، وبسبب الإثم تحول العالم كله ضده.

إن الإنسان في بؤسه وشقائه وتعاسته، لا يملك شيئاً كي يعطيه لله، عدا الأعمال الملوثة بالذنوب. لأنه بارتكابه المستمر للمعاصي، في كل يوم، قد أفسد أعماله. ولهذا قال أشعياء النبي: إن أعمالنا الصالحة كمثل خرقة حيضة.

وأنى للإنسان أن تكون له جدارة، وهو غير متمكن من الإكتفاء بذاته، ولا يستطيع أن يرضي غيره! هل في الإمكان أن لا يذنب البشر؟ لقد قال الله على لسان نبي الله داود: إن الصالح المستقيم يزل ويسقط سبع مرات في اليوم.

إذن كيف لا يزل ويسقط الطالح الشرير؟ وإذا كانت أعمالنا الصالحة كخرقة حيضة، فما بالك بأعمالنا الطالحة!

بحق الحي الذي لا يموت، لا شيء أجدر بالتحاشي والهروب، من أن يقول العبد: (أنا أستحق). فلينظر الإنسان في أعماله، سيرى حالا عدم جدارته. فإذا أتى بأشياء حسنة، فهي من الله، لا من عنده، لأن وجوده من الله الذي خلقه.

وما يعمل المرء من عنده، هو أن يعارض الله خالقه وبارئه، ويخالفه ويضاده، ويرتكب الآثام، ويقترف الجناية على نفسه[1]. وهذا لا يستحق الثواب بل العقاب.

---

(١) كيف نعرف ما هو من عند الله، والذي هو العمل الصالح، والأشياء الحسنة في حياتنا، وما هو من عندنا، والذي هو الذنوب والآثام والمعاصي؟ الميزان هو الفطرة الإلهية، والمشيئة الربانية. إن الذي خلقنا الله عليها هي الفطرة. فما تماشى معها وتناغم وتماهى، فهو من عند الله. وما تعارض معها، وتناقض وتضاد، فهو من عندك. يقول الرسول الأكرمﷺ: **الإيمان نصفان نصف في الصبر ونصف في الشكر**. إذن فالإيمان كله في الشكر والصبر، وهما من عند الله. وهما عبارة عن التماشي والتناغم والتماهي مع الفطرة الإلهية والمشيئة الربانية. أما ما خرج عن الشكر والصبر، فهو تبديل لخلق الله، وهو ذنب وإثم ومعصية، وهو من عندك، لأنه تناقض وتعارض ومخالفة مع الفطرة الإلهية والمشيئة الربانية. يقول الرسول الأعظمﷺ: من ابتلي فصبر وأعطي فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

إن ضعف الإنسان وذنوبه، هي في علم الله، وتحت مظلة قدرته المطلقة. بيد أن الله يحب أن يعترف العبد أمامه بضعفه، ويقر بآثامه وذنوبه، متجردا من عجبه وغروره. أما إذا لم يعترف ولم يقر بضعفه وذنوبه أمام خالقه وفاطره، وأصر على تكبره وتجبره، أكبه الله على منخريه في نار جهنم. يقول الرسولﷺ: لو لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك العجب العجب. وقالﷺ: لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم ويدخلهم الجنة.

إن الله لم يخلق الإنسان فحسب، بل خلقه كاملا(١). إن الله قد أعطاه العالم جميعه، وبعد افتراقه عن الجنَّة، جعل له ملكين لحراسته، وبعث إليه بأنبيائه، وأعطاه الناموس والقانون والشريعة، وأعطاه الإيمان، وهو في كل لحظة ينجيه من الشيطان، وهو راغب باشتياق، بأن يعطيه الجنَّة، بل أكثر من ذلك، هو يريد أن يعطي نفسه للإنسان.

فانظر كم هو كبير دين الله علينا! وإذا أردت سد هذا الدين، لزم عليك

---

(١) إن الله قد خلقك كاملا، بفطرة صافية، كأنها المرآة الصافية الشفافة، ينعكس عليها الله جل جلاله، وببراءة كاملة كأنها براءة الملائكة. ثم عند الموت، ترى كيف يعيد الإنسان هذه الوديعة الكاملة إلى خالقه وفاطره وبارئه! يعيدها شيئا ممسوخا مشوها، والعياذ بالله!

فلنضرب مثلا كأمثال عيسى عليه السلام: إذا أودعك شخص لوحة فنية رائعة، هي لوحة موناليزا مثلا، ثم بعد فترة أتى إليك ليستلم أمانته، فيرى أنها شيء آخر، ممسوخة مشوهة كأنها صورة العفاريت. لقد غيرت وبدلت في الأمانة بجهلك وغباوتك، وتحسب أنك تحسن صنعا! ترى كيف يكون رد فعل هذا الشخص، وكيف ينظر إليك مثل هذا الشخص! يراك خائنا لصا شريرا! وسيقلب الدنيا عليك، وسينغص العيش عليك!

يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. هذا هو حال الناس: تبديل وتغيير لخلق الله! مسخ وتشويه للأمانة والوديعة! ثم يدعون الدين وهو لعق على ألسنتهم! أليس الأحرى بهم، أن يراجعوا في هذه الفترة القصيرة الباقية من عمرهم، ماذا أحدثوا من مصائب حقيقية في فطرتهم، التي خلقها الله كاملة! لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وآله كيف نفعل ذلك وقال: (موتوا قبل أن تموتوا). عايشوا الموت في حياتكم، ثم لا يغيب الموت عن أبصاركم وبصائركم! اجعلوا الموت نصب أعينكم! لا سبيل ولا مخرج إلا بالسير والسلوك إلى الله، واتباع تعاليم العرفان الذي هو لب الدين.

أن تخلق الإنسان من العدم، وأن تخلق كثيراً من الأنبياء، كما بعثهم الله، وأن تخلق العالم، وأن تخلق الجنَّة، وأكثر من ذلك، أن تخلق ربا عظيما طيبا، كما هو الله ربنا. وبذلك سوف تكون في وضع، تستطيع معه أن تسد دينك، بالتمام والكمال، إلى الله العظيم. وكذا يتم سد الدين، ويبقى بعد ذلك على ذمتك، الإلتزام بأن تشكر الله رب العالمين.

ولأنك لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، ناهيك عن غيرها، ولأنه لا إله إلا الله رب العالمين، لا إله غيره، فكيف تستطيع أن تسد الدين؟ لا جرم لو أن الإنسان أقرضك مئة قطعة من الذهب، يبقى في ذمتك الإلتزام بأن تعيد إليه مئة قطعة من الذهب بالتمام والكمال.

فمغزى هذا الكلام يا أخي، هو أن الله يستطيع أن يقول ما يشاء، ويهب ما يشاء، لأنه سيد الجنَّة ورب العالمين. ولذلك حينما قال لإبراهيم: (سأكون جائزتك العظمى)، فإن إبراهيم لم يستطع أن يقول: إن الله هو جائزتي. بل قال: إن الله هو هديتي، والدين الذي في رقبتي.

فعندما تحاضر الناس يا أخي، ينبغي لك أن توضح لهم هذه الجملة: بأن الله يهب للإنسان كذا وكذا، إن عمل الإنسان صالحا.

التواضع الحق
هو مسكنة الروح

فيا أيها الإنسان، عندما يخاطبك الله قائلاً: أي عبدي لقد عملت الصالحات حباً في! ما المكافأة التي تنشدها مني، أنا ربك الله؟ فليكن جوابك كذا: يا ربي أنا صنيع يديك، وليس من اللائق أن أحمل ذنباً الذي يحبه الشيطان. لذلك يا ربي وسيدي ومولاي، تغمد صنيع يديك برحتمك، إعلاء لشأنك ومجدك.

وإذا قال لك ربك: (لقد عفوت عنك وأنا راغب باشتياق في مكافأتك) فأجب: يا ربي وسيدي ومولاي، إني أستحق عقابك لما فعلته، وأنت تستحق الحمد والثناء والمجد والتهليل والتكبير لما عملته. **يا سيدي عاقب في ما فعلته أنا، وادخر لي ما عملته أنت وصنعته.**

واذا قال لك ربك: (ما نوع العقاب في نظرك الذي يناسب ذنبك؟) فأجب: يا ربي وسيدي ومولاي، استحق عقاباً كعقاب الفاسدين الأشرار بأجمعهم.

وإذا سألك الله: يا عبدي المؤمن، لماذا تنشد عقاباً بهذه الشدة؟

فأجب: لو أن كل واحد من الفاسدين رأى، بأنه يتلقى عقاباً بشدة عقابي، لخدمك وعبدك، بإيمان أكثر من إيماني.

وإذا قال لك الله: متى تود أن تنال هذا العقاب، ولكم مدة من الزمن؟ فأجب: الآن وبلا نهاية.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، مثل هذا العبد يسر الله أكثر من الملائكة المقدسين، **لأن الله يحب التواضع الصادق، ويبغض العجب والغرور والكبرياء.**

فشكر الكاتب عيسى وقال له: يا سيدي تعال إلى منزل خادمك، لأن خادمك يود أن يقدم اللحوم لك ولحوارييك.

أجاب عيسى: سآتي إذا وعدتني أن تناديني أخاً لا سيداً، وتقول: أنت أخي لا خادمي.

فوعده الرجل ذلك، وذهب عيسى إلى منزله.

وعندما كانوا على المائدة، يأكلون اللحم، سأل الكاتب: أيها المعلم لقد قلت إن الله يحب التواضع الصادق، فأخبرنا ما هو التواضع، وكيف يكون صادقاً أو زائفاً؟

من لم يكن كالطفل الصغير لا يدخل ملكوت اللّٰه

أجاب عيسى: **الحق أقول لكم: من لم يكن كالطفل الصغير لا يدخل ملكوت الله.**

فذهل الجميع ودهشوا عند سماع ذلك، وقالوا لبعضهم البعض: وكيف يكون كالطفل الصغير، من كان عمره ثلاثين أو أربعين عاماً؟ لا جرم أن هذا الكلام صعب.

أجاب عيسى: بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إن كلامي صادق. لقد قلت لكم: إن الرجل يجب أن يكون كالطفل الصغير؛ لأن هذا هو التواضع الصادق. لأنك إذا سألت الطفل الصغير: من الذي صنع ملابسك؟ يجيب: أبي. إذا سألته لمن هذا المنزل الذي تسكن فيه؟ يجيب: إنه منزل أبي. وإذا سألته: من الذي يعطيك الطعام؟ يجيب: أبي. وإذا سألته: من الذي علمك المشي والكلام؟ يجيب: أبي.

ولكنك إذا سألته: من كسر جبينك، لأن جبينك مضمد؟ سيجيب: لقد سقطت على الأرض فكسرت رأسي. فإذا سألته: لماذا سقطت على

الأرض؟ سيجيب: أما ترى أني طفل صغير، لا قوة لي على المشي والجري كالكبار! ولكي أستطيع أن أمشي بثبات، فإن والدي يأخذ بيدي. ولكن كي أتعلم المشي، فإن والدي تركني قليلاً فسقطت، لأني حاولت أن أجري. وإذا سألت: وماذا قال أبوك؟ سيجيب: لماذا لم تمشِ هويداً هويداً؟ احترز أن لا تترك يدي في المستقبل.

فقال عيسى: أخبروني هل ما قلته صحيح؟

فقال الحواريون والكاتب: إنه صحيح جداً.

فقال عيسى: من ميّز بقلبه صادقاً مخلصاً، بأن الله هو صانع كلّ خيرٍ، وأنه هو صانع كل ذنب، سيكون متواضعاً صادقاً. ومن يتكلم بلسانه، كما يتكلم الطفل الصغير، ثم يناقض نفسه بعمله، لا جرم أن تواضعه زائف، وغروره صادق. لأن الغرور يكون في ذروته، إذا تظاهر الإنسان بالتواضع، كي لا يلام ويرفض.

إن التواضع الصادق هو مسكنة الروح، أي أن يكون الإنسان مسكيناً مستكيناً، خاشعاً خاضعاً في نفسه، يعرف نفسه في صدق. بيد أن التواضع الكاذب، هو ضباب وغبار مظلم من جهنم، يسود فهم الروح ونباهته، بحيث إن الإنسان ينسب إلى الله، ما ينبغي له أن ينسب إلى نفسه، وينسب إلى نفسه ما ينبغي له أن ينسب إلى الله.

فالمتواضع الكاذب الزائف سوف يقول بأنه مذنب فظيع، في حين لو أن أحداً قال له إنه مذنب، لحنق عليه واضطهده. إن المتواضع الكاذب الزائف سوف يقول بأن الله قد أعطاه كل ما عنده، بيد أنه من طرفه لم ينم ولم يغفل، بل عمل الصالحات.

أخبروني يا إخواني كيف يتصرف الفريسيون في الوقت الحاضر؟

فأجاب الكاتب وهو يبكي وينتحب: أيها المعلم إن الفريسيين الآن يلبسون ثياب الفريسيين، ويحملون اسمهم، بيد أنهم في قلوبهم وأعمالهم، جبارون كالكنعانيين. ولو أنهم لم يغصبوا هذا الاسم، لما استطاعوا أن يخدعوا البسطاء من الناس!

ماذا فعلت العهود القديمة بنا، وكيف عاملتنا بهذه القسوة: أخذت منا الفريسيين الصادقين، وتركت لنا ورائها الفريسيين الكاذبين الزائفين!

أجاب عيسى: يا أخي لا علاقة لهذا الأمر بالزمان، فالعهود القديمة أو الجديدة لا تصنع ذلك، إنما الدنيا الفاسدة الشريرة وإغراءاتها، هي التي تصنع ذلك. ففي كل زمان، من الممكن أن تعبد الله وتخدمه صادقا مخلصاً. ولكن فساد المرء في كل زمان، يرتبط بمحيطه الفاسد الشرير، والأخلاق السيئة التي تسود في ذلك الزمان بعينه.

ألا تعلم أن جيهازي، خادم النبي اليسع، كذب على سيده وأخجله، وسرق مال نعمان السوري وثيابه؟ ورغم ذلك، كان حوالي اليسع النبي، عدد كبير من الفريسيين، الذين كان هو نبياً مبعوثاً إليهم.

الحق أقول لكم: إن البشر ميالون إلى الأعمال الطالحة، وإن الدنيا تغريهم، والشيطان يغويهم، بحيث إن الفريسيين في الوقت الحاضر، يتحاشون أي عمل صالح، وأي قدوة مقدسة. إلا أن مثال جيهازي المنبوذ من قبل الله يكفيهم.

فأجاب الكاتب: إن ما قلته حق.

فقال عيسى: أيها الكاتب قصّ علينا أمثلة النبيين حاغاي وهوشع، كي نكون ناظرين على الفريسيين الصادقين.

فأجاب الكاتب: أيها المعلم ماذا أقول؟ لا جرم أن الكثيرين لا يصدقونها، رغم أنها كتبت من قبل النبي دانيال. بيد أني سأقص الحقيقة كما هي طاعة لك.

الأنبياء متواضعون ومساكين الروح

كان عمر حاغاي ١٥ عاماً، حين باع إرثه ووزعه على الفقراء، وغادر اناتوت، كي يخدم النبي عوبدياً. وكان عوبدياً الكبير في السن عالماً بتواضع حاغاي. لذلك استعمله ككتاب مفتوح، يعلم مريديه من خلاله. وكان في أغلب الأحيان، يرسل إليه حللاً وأطعمة لذيذة كهدايا، بيد أن حاغاي يردها إليه قائلاً للرسول: اذهب وردها إلى بيته، لأنك قد ارتكبت خطأً. هل يمكن لعوبدياً أن يرسل لي مثل هذه الأشياء؟ كلا! لأنه يعلم أني لا أستحق ذلك، وأنني مليئ بالآثام.

و حين يريد عوبدياً أن يعطي شيئاً سيئاً لأحد، كان يعطيه للمريد الذي يجلس بجانب حاغاي، كي يراه حاغاي. وحينئذ يخاطب حاغاي نفسه قائلاً: لا شك أن عوبدياً قد أخطأني، لأني أنا الوحيد الذي أستحق هذا الشيء السيئ، فأنا أسوء من الباقين. وكل شيء دنيئ من قبل الله، أستلمه من أيدي عوبدياً، هو بالنسبة لي كنز.

وحينما يريد عوبدياً أن يعلم أحداً، كيف يصلي ويدعو ويناجي ربه،

كان ينادي حاغاي ويقول له: اتل دعائك حتى يسمع الجميع. فكان حاغاي يتلو:

يا إلهي وإله بني إسرائيل، انظر بعين الشفقة إلى عبدك الذي يناجيك، لأنك خلقته. إلهي تذكر صلاحك ونزاهتك، وعاقب آثام عبدك وذنوبه، كي لا ألوث إبداعك في الأرض. إلهي أنا لا أستطيع أن أسألك المزايا والمباهج، التي أغدقتها على عبادك الصالحين، لأني مذنب آثم عاصي. إلهي إذا أصبت أحداً من عبادك بعلة أو ضعف أو مرض أو عاهة، تذكر هذا العبد العاصي من أجل مجدك وجلالك.

وحينما فعل حاغاي ذلك، أحبه الله وأكرمه بالنبوة، كما أكرم كل أحد ساعده وظاهره وعضده في زمانه بالنبوة. ولم يسأل حاغاي ربه شيئاً إلا أعطاه.

وحينما قال الكاتب الصالح ذلك، أجهش بالبكاء والنحيب، كما يفعل البحار، حينما يرى سفينته تتكسر أمام عينيه. ثم استأنف حديثه قائلاً:

قصة هوشع وإحسانه
وكتاب موسى

أما هوشع فقد كان أميراً على قبيلة نفتالي، وكان عمره ١٤ عاماً، حينما ذهب لعبادة ربه. فباع إرثه ووزعه على الفقراء، ثم ذهب إلى حاغاي، كي يكون مريده.

وكان هوشع متحمساً للخيرات، بحيث إنه إذا سأله أحد شيئاً، كان يحسن إليه قائلاً: هذا ما أعطانيه ربي من أجلك يا أخي، لذا تقبله مني! ولهذا السبب لم يبق له إلا ملبسان فقط: معطف من خيش وعباءة من جلد، لأنه باع إرثه وأعطاه للفقراء، وإلا كيف يقال عنه أنه فريسي!

كان لدى هوشع كتاب موسى، الذي كان يقرأه باهتمام عظيم. وفي يوم من الأيام سأله حاغاي: يا هوشع من أخذ منك كل ما كنت تملكه؟ فأجاب: كتاب موسى!

واتفق أن مريداً لأحد الأنبياء المجاورين، اشتاق إلى الذهاب إلى أورشليم، ولكنه لم يكن عنده عباءة. وكان قد سمع عن إحسان هوشع، فذهب ليقابله. وحينما لقيه قال له: يا أخي أنا أشتاق إلى الذهاب إلى

أورشليم، لأقدم قربانا إلى الله، ولكنني لا أملك عباءة، ولذلك لا أعرف ماذا أصنع.

وعندما سمع هوشع ذلك قال له: يا أخي سامحني، لأني اقترفت ذنباً كبيراً في حقك، لأن الله كان قد أعطاني عباءة، كي أعطيها لك، بيد أني نسيت. لذلك تقبل مني هذه العباءة وادع لي. وصدق الرجل ذلك، وقبل عباءة هوشع، وغادر إلى أورشليم. وعندما ذهب هوشع إلى بيت حاغاي قال له حاغاي: من أخذ منك عباءتك؟ فأجاب هوشع: كتاب موسى.

وفرح حاغاي بذلك فرحاً عظيماً، لأنه أدرك طيبة هوشع.

واتفق أن قطاع الطرق جردوا إنساناً فقيراً من ملابسه وتركوه عرياناً. وعندما رآه هوشع، خلع معطفه وأعطاه للإنسان الفقير العريان. وبقي هو نفسه بقطعة صغيرة من جلد الشاة تغطي عورته. ولما انقطع عن زيارة حاغاي، فكر حاغاي الطيب بأن هوشع مريض. فذهب مع اثنين من مريديه لعيادته، وفوجئوا بأن هوشع مغطى بأوراق النخيل. فقال حاغاي: لماذا لا تزورني؟

أجاب هوشع: كتاب موسى أخذ مني معطفي، وخفت أن أزورك بدون معطف. فأعطاه حاغاي معطفاً آخر.

واتفق أن شاباً رأى هوشع يقرأ كتاب موسى فبكى قائلاً: يا ليت عندي كتاب وأتعلم القراءة! فلما سمع هوشع ذلك أعطاه الكتاب قائلاً: يا أخي هذا الكتاب لك، لأن الله أعطاني إياه، كي أعطيه للذي يبكي متمنياً كتاباً. فصدقه الشاب وقبل الكتاب.

وكان هناك مريد لحاغاي يعيش قريباً من هوشع. فأراد يوماً أن يتأكد إن كان كتابه قد كتب بدقة، فذهب إلى هوشع وقال له: يا أخي خذ كتابك، ودعنا نقارن ونرى، إن كان كتابي قد كتب بدقة.

أجاب هوشع: إن كتابي قد أخذ مني.

فقال المريد: من الذي أخذ منك الكتاب؟

أجاب هوشع: كتاب موسى أخذ مني كتاب موسى!

فلما سمع المريد ذلك، ذهب إلى حاغاي وقال له: إن هوشع قد صار مجنوناً لأنه يقول: كتاب موسى أخذ مني كتاب موسى!

فأجاب حاغاي: يا أخي يا ليتني كنت مجنوناً مثله، ويا ليت المجانين كانوا مثل هوشع!!!!!

وحينما أغار لصوص سوريون على أرض يهودا، اختطفوا شاباً هو ابن لأرملة فقيرة، التي كانت تعيش في شغف العيش، على سفح جبل كارمل، حيث يعيش الأنبياء والفريسيون. واتفق أن هوشع ذهب إلى هناك، لقطع الحطب، ولقي المرأة وهي تبكي. فغدا يبكي... لأنه إذا رأى أحداً يضحك ضحك، وإذا رأى أحداً يبكي بكى. ثم سألها هوشع يستفسر عن سبب بكائها، فروت له القصة.

فقال لها هوشع: تعالي يا أختي، إن الله يريد أن يهبك ولدك.

وانطلقا إلى الخليل، حيث باع هوشع نفسه، ودفع النقود إلى الأرملة التي قبلتها، لأنها لم تكن تعرف من أين أتى بهذه النقود، ثم دفعت النقود إلى خاطف ولدها، وخلصته واستردته.

وذهب الذي شرى هوشع به إلى أورشليم، حيث كان يقيم، وهو لا يعرف من هو هوشع.

فافتقده حاغاي، وتضايق كثيراً، وصار محزوناً مهموماً مغموماً. فأخبره ملك من السماء كيف أخذ به كعبد إلى أورشليم. وحينما سمع حاغاي ذلك، بكى لافتقاده، كما تبكي المرأة لافتقاد ولدها. فذهب إلى أورشليم، مع اثنين من مريديه، ورآه على مدخل المدينة، بقدرة الله عز وجل، وهو محمل بالخبز، يحمله لعمال يعملون في مزرعة الكرمة لسيده.

فقال له: يا ولدي لماذا تركت والدك العجوز، الذي يبحث عنك محزوناً نادباً ناحياً عليك؟

فأجاب هوشع: يا أبتاه لقد باعوني كعبد.

فاستشاط حاغاي غضباً وصرخ قائلاً: من هو هذا الشخص السيئ الذي باعك كعبد؟

فأجاب هوشع: الله يسامحك يا أبتاه، لأن الذي باعني هو الطيب، الذي لو لم يوجد في هذا العالم، لما كان هناك أحد من القديسين.

فقال له حاغاي: بالله عليك من هو هذا الشخص؟

فأجاب هوشع: يا أبتاه إنه كتاب موسى!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

فبقي حاغاي الطيب حيراناً مبهوتاً وقال: يا ولدي ليتني باعني كتاب موسى أيضاً، وجميع ولدي، كما باعك!

وانطلق حاغاي مع هوشع إلى بيت سيد هوشع، الذي قام وجرى حين

رأى حاغاي، ووقع على يديه يقبلهما وقال: تبارك الله رب العالمين، الذي بعث بنبيه إلى بيتي!

فقال حاغاي: يا أخي قبل يدي عبدك، الذي شريته، لأنه أحسن مني. فقص عليه كل ما جرى، فقام السيد وأعطى هوشع حريته.

وختم الكاتب كلامه مخاطباً عيسى قائلاً: أيها المعلم هذا كل ما طلبته مني.

معجزة توقف الشمس عن الحركة

فقال عيسى: هذا صحيح لأن الله طمأنني على صحته. وللتأكيد على صحته لدى كل فرد، دع الشمس تتوقف عن الحركة بإذن الله لمدة اثنتي عشرة ساعة! وهكذا حصل، وتوقفت الشمس عن الحركة، وساد الرعب في أورشليم وجميع يهودا.

فقال عيسى للكاتب: يا أخي ماذا تنشد أن تتعلم مني، نظراً إلى مثل هذا العلم الذي تحمله؟ بحق الحي الذي لا يموت، إن هذا العلم يكفي لخلاص الإنسان وفلاحه، بحيث إن تواضع حاغاي وإحسان هوشع، يحققان المرام من قانون الله وجميع النبوات.

أخبرني يا أخي، عندما أتيت إلي في المعبد، لتسألني سؤالاً، لربما فكرت بأن الله بعثني لهدم الناموس والنبوات!

بالتأكيد لا! إن الله لن يفعل ذلك، نظراً إلى أنه سبحانه لا يتغير. ولهذا فالذي سنّه الله لخلاص البشر، لقنه جميع أنبيائه لينطقوا به.

بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، لو لم يدنس كتاب موسى وكتاب أبينا داود، بسبب تقاليد الفريسيين والمطببين البالية، لما

لقنني الله كلامه. ناهيك عن كل النبوات التي قد دنست، بحيث إن الناس اليوم، لا ينشدون ماذا أمر الله، بل ينشدون ماذا يقوله المطببون، وماذا يفعله الفريسيون، كما أن الله ـ والمعاذ بالله ـ مخطئ والبشر لا يخطئون.

فالويل لهذا الجيل الجاحد! فإن دماء النبيين والقديسين وأولياء الله الصالحين تبقى في رقبتهم، كما هو دم زكريا، الذي أهدر بين المعبد والمحراب!

مَنْ مِنَ الأنبياء لم يضطهد؟ مَنْ مِنَ القديسين وأولياء الله الصالحين قد سمح لهم بأن يموتوا ميتة طبيعية؟ اللهم إلا القليل النادر! وهم الآن يريدون قتلي، ويتباهون بأنهم أولاد إبراهيم، وبأنهم يملكون معبداً جميلاً.

بحق الحي الذي لا يموت، إنهم أولاد الشيطان، وهم ينفذون إرادته. ولهذا فإن المعبد والمدينة المقدسة سوف تهدمان، وتتحولان إلى حطام وأنقاض، بحيث لا يبقى حجر على حجر في المعبد.

يا أخي أنت دكتور في القانون. أخبرني في أي بذرة كان وعد أبينا إبراهيم بالمسيح؟ في إسحاق أو في إسماعيل؟

أجاب الكاتب: أيها المعلم أخاف أن أقول لك ذلك، لوجود عقوبة الموت على مثل هذا الكلام.

فقال عيسى: أنا متكدر وحزين لأني أتيت إلى منزلك للطعام، لأنك تحب هذه الدنيا، وتفضلها على الله خالقك. ولهذا السبب، إنك تخاف الموت، ولا تخاف من ضياع الإيمان والحياة الخالدة، والتي تضيع، إذا كان اللسان ينطق بعكس ما يعلمه القلب عن الناموس.

فأجهش الكاتب الطيب بالبكاء وقال: أيها المعلم لو علمت كيف أثمر الثمار الطيبة، لوعظت الناس بكثير من الأشياء، التي سكتت عنها، كيلا تقوم فتنة بين الناس.

فأجاب عيسى: لا يجوز لك أن تثير سخط الله خالقك، باحترامك للناس ولجميع العالم، وحتى للقديسين والملائكة. فالأحسن أن يهلك العالم، ولا تسخط الله خالقك، ولا تحافظ على العالم باقتراف الذنوب، لأن الذنب يهدم ولا يحفظ، وأن الله قادر على خلق الكثير من العالمين، بعدد حبات الرمل في البحار، بل أكثر من ذلك بكثير.

فقال الكاتب: سامحني أيها المعلم لأن أذنبت.

فقال عيسى: الله يسامحك لأنك أذنبت في حقه.

ثم قال الكاتب: لقد وجدت كتاباً قديماً، كتب بيدي موسى ويوشع - الذي أوقف الشمس كما أوقفتها أنت. وهذا الكتاب هو كتاب موسى الحقيقي. وقد كتب فيه أن إسماعيل هو أبو المسيح، وأن إسحاق هو أبو رسول المسيح. وكذا يقول الكتاب بأن موسى قال: يا رب إسرائيل القادر الرحيم، أرِ عبدك جلال مجدك. وعندئذ أراه الله رسوله في أحضان إسماعيل، وأراه إسماعيل في أحضان إبراهيم. وبالقرب من إسماعيل، وقف إسحاق وفي أحضانه طفل، وهو يشير بإصبعه إلى رسول الله قائلاً: هو الذي خلق الله من أجله كل شيء[1].

---

(١) عندما كنت في ايران أدرس العرفان، بل الأحرى أن أقول: أتربى في العرفان كما يستخرج الذهب في الأفران، كان هناك عارف ضليع يقول دائماً: عندما كان عيسى ابن مريم يشير بإصبعه إلى السماء قائلاً: (أبي في السماء) كان يعني بذلك محمداً ﷺ. =

عندها زعق موسى فرحاً يقول: يا إسماعيل إن كل العالم والجنَّة في أحضانك! اهتم بي وراعني يا عبد الله، حتى أكون بعين الله، ببركة ولدك، الذي خلق الله من أجله كل شيء.

لم أجد في ذلك الكتاب، بأن الله يأكل لحم الشاة والخروف. ولم أجد في ذلك الكتاب، أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل وحدها، بل إن الله وسعت رحمته كل إنسان، يبحث عن الله خالقه بصدق.

لم أستطع أن أقرأ الكتاب كله، لأن الكاهن الأعظم، الذي كنت أعمل في مكتبته منعني قائلاً: إن إسماعيلياً قد كتب هذا الكتاب.

فقال عيسى: احذر أن لا تخفي الحقيقة مرة أخرى، لأن الله سوف يهب الناس الخلاص والفلاح بدين المسيح[1] وإيمانه، ولن يفلح أحد من دون عناية المسيح ورعايته.

وهناك ختم عيسى حديثه.

= عندما كنت مديراً عاماً لإحدى شركات الصناعة الرائدة في سلطنة عمان زرت مصنعاً للنحاس في بلجيكا، حيث يستخرج النحاس والذهب في الأفران من المواد الخام التي يستوردونها من كونغو في أفريقيا.

(١) المعني من المسيح هو النبي محمدﷺ.

الدعاء مفتاح
الحق والتقوى والرحمة

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه(١):

بحق أقول لكم: إن أرواح الشياطين ما عمرت في شيء، ما عمرت في قلوبكم. وإنما أعطاكم الله الدنيا لتعملوا فيها للآخرة، ولم يعطكموها لتشغلكم عن الآخرة، وإنما بسطها لكم لتعلموا أنه أعانكم بها على العبادة، ولم يعنكم بها على الخطايا، وإنما أمركم فيها بطاعته، ولم يأمركم فيها بمعصيته، وإنما أعانكم بها على الحلال، ولم يحل لكم بها الحرام، وإنما وسعها لكم لتواصلوا فيها، ولم يوسعها لكم لتقاطعوا فيها.

بحق أقول لكم: إن الأجر محروص عليه، ولا يدركه إلا من عمل له.

بحق أقول لكم: إن الزرع لا يصلح إلا بالماء والتراب، كذلك الإيمان لا يصلح إلا بالعلم والعمل.

---

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ١٤/ ٣١٧.

بحق أقول لكم: إن الماء يطفئ النار، كذلك الحلم يطفئ الغضب.

بحق أقول لكم أنه لا يجتمع الماء والنار في إناءٍ واحد، كذا لا يجتمع الفقه ولا العمى في قلبٍ واحد.

بحق أقول لكم أنه لا يكون مطر بغير سحاب، كذلك لا يكون عمل في مرضاة الرب إلا بقلب تقي.

بحق أقول لكم: إن الشمس نور كل شيء، وإن الحكمة نور كل قلب، والتقوى رأس كل حكمة، والحق باب كل خير، ورحمة الله باب كل حق. ومفاتيح ذلك الدعاء، والتضرع والعمل، وكيف يفتح باب بغير مفتاح!

معجزة إحياء لازاروس

كان عيسى وحواريوه على المأدبة في منزل الكاتب الطيب نيكوديموس، إذ دخلت عليهم مريم المجدلية، وجلست عند قدمي عيسى، وأجهشت بالبكاء والنحيب قائلة: يا سيدي خادمتك التي تغمدها الله برحمته ببركتك، عندها أخت وأخ وهو مريض وفي حالة الاحتضار.

أجاب عيسى: أخبريني أين منزلك؟ لأني سآتي للدعاء من أجل سلامته.

أجابت مريم: بيت أخي وأختي في بيتاني، وبيتي في مجدالا. أخي في بيتاني.

فقال عيسى: اذهبي تواً إلى منزل أخيك، وانتظريني هناك، وسوف آتي لعلاجه وإبرائه من مرضه. ولا تخافي لأنه لن يموت.

وغادرت مريم إلى بيتاني، حيث وجدت أخاها قد مات في نفس اليوم، وقد دفنوه في مقبرة آبائهم.

وأقام عيسى يومين في منزل الكاتب الطيب. وفي اليوم الثالث غادر

إلى بيتاني. وعندما كان على مقربة من البلد، بعث اثنين من مريديه أمامه، كي يعلنا لمريم خبر وصوله. فخرجت من المدينة مسرعة، وعندما وجدت عيسى ناحت وندبت قائلة: يا سيدي لقد قلت إن أخي لن يموت، وهو الآن ميت ومقبور من أربعة أيام. يا ليتك أتيت حين ناديتك فأنقذته من الموت!

أجاب عيسى: إن أخاك ليس ميتاً، بل هو نائم، وقد أتيت لأوقظه.

أجابت مريم وهي تبكي: يا سيدي إن هذا النائم لن يستيقظ، إلا في يوم القيامة، عندما ينفخ ميكائيل في الصور.

أجاب عيسى: يا مريم صدقيني إنه سيستيقظ قبل ذلك اليوم، لأن الله قد آتاني القدرة على إيقاظه. والحق أقول لك إنه ليس ميتاً. لأن الميت من مات وهو ليس مشمولاً برحمة الله.

فعادت مريم مسرعة لتخبر أختها مارثا بمجيئ عيسى.

وكان قد اجتمع عند موت لازاروس، جمع حاشد من اليهود من أورشليم، وعدد كبير من الكتّاب والفريسيين. وعندما سمعت مارثا من أختها مريم بمجيئ عيسى، نهضت باستعجال، وجرت خارج منزلها.

وكان قد اجتمع خارج منزلها، حشدٌ كبير من اليهود والكتّاب والفريسيين، والذين تبعوها لمواساتها، لأنهم ظنوا أنها تذهب إلى قبر أخيها للبكاء والنحيب عليه. وعندما وصلت إلى المكان، الذي تحدث فيه عيسى إلى مريم، أجهشت مارثا بالبكاء والنحيب وقالت: يا سيدي لو كنت هنا لما مات أخي!

فجاءت مريم وهي تبكي، فأذرف عيسى الدموع وتأوه سائلا: أين دفنتموه؟ فقالتا: تعال معنا وشاهد.

وتهامس الفريسيون فيما بينهم قائلين: إن هذا الرجل الذي أحيى ابن الأرملة في نايين، لماذا سمح للازاروس أن يموت، في حين أنه كان قد قال سابقاً بأنه سوف لا يموت؟

وعندما وصل عيسى إلى المقبرة، حيث كان الكثيرون ينتحبون قال: لا تبكوا لأن لازاروس نائم، وقد أتيت لأوقظه.

فتهامس الفريسيون فيما بينهم قائلين: يا ليتك نمت مثله! فقال عيسى: إن أجلي لم يأت بعد، ولكنه حينما يأتي، سأكون نائماً بنفس المنوال، وسأستيقظ بسرعة. فكرر عيسى قوله: أزيحوا الحجر من فوق الجدث.

فقالت مارثا: يا سيدي إن الجسد قد أنتن، وخبثت رائحته، لأنه مات قبل أربعة أيام.

فقال عيسى: فلماذا جئت إلى هنا يا مارثا؟ أما تؤمنين بي بأني سوف أوقظه؟

فأجابت مارثا: أعلم أنك ولي قديس من قبل الله، الذي بعثك إلى هذا العالم.

فرفع عيسى يديه إلى السماء[١] وقال: يا ربي، يا إله إبراهيم، ويا إله

---

(١) في الرواية الإسلامية: كان دعاء عيسى الذي كان يشفي به المرضى، ويحيي به =

إسماعيل وإسحاق، وإله آبائنا، ارحم محنة هؤلاء النسوة وكربتهن، بحق اسمك المقدس وجلال وجهك الكريم! وعندما قال الجميع: آمين! صاح عيسى بأعلى صوته: يا لازاروس تعال هنا!

فنهض الميت، وقال عيسى لحوارييه: فكوا عنه كفنه. لأنه كان مربوطاً بالكفن حتى وجهه، كما جرت العادة.

فآمن حشدٌ كبير من اليهود وبعض من الفريسيين بعيسى، لأن معجزته كانت عظيمة. والذين جحدوا غادروا إلى أورشليم، وأخبروا رئيس الكهنة برجوع لازاروس إلى الحياة، وكيف أن الكثيرين أصبحوا نصرانيين. وكان الناس يسمون الذين يؤمنون بعيسى وبرسالته نصرانيين.

= الموتى: اللهم أنت إله من في السماء، وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك، وأنت جبار من في السماوات، وجبار من في الأرض، لا جبار فيهما غيرك، وأنت ملك من في السماوات، وملك من في الأرض، لا ملك فيهما غيرك، وأنت حكم من في السماوات، وحكم من في الأرض، لا حكم فيهما غيرك، قدرتك في الأرض كقدرتك في السماء، وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء، أسألك بأسمائك الكرام، إنك على كل شيء قدير. (عرائس المجالس ٣٩٠)،

ما هو الموت والحياة

فاستشار الكُتاب والفريسيون رئيس الكهنة بشأن قتل لازاروس. فالكثيرون رفضوا تقاليدهم، وتبرأوا منها، وآمنوا برسالة عيسى، لأن معجزة إحياء لازاروس كانت عظيمة، نظراً إلى أن لازاروس كان يحاور الناس، ويأكل ويشرب. فبقوا حيارى بشأنه، لا يدرون ماذا يفعلون، لأنه كان ذا نفوذ في أتباعه في أورشليم، وكان يملك مع أخته مجدالا وبيتاني.

دخل عيسى منطقة بيتاني في منزل لازاروس، وكانت مارثا ومريم تخدمانه. وفي يوم من الأيام، كانت مريم تجلس عند قدمي عيسى، وتنصت إلى كلامه المقدس. فقالت مارثا لعيسى: يا سيدي أما ترى أن أختي لا تخدمك، ولا تهتم بك، ولا تناولك وحوارييك ما تحتاجون من الطعام!

فأجاب عيسى: يا مارثا يا مارثا افعلي ما يعنيك، لأن مريم المجدلية قد اختارت شيئاً، لن يؤخذ منها إلى الأبد.

وكان عيسى جالساً، مع حشدٍ كبير ممن آمنوا به، على المائدة وقال لهم: يا إخواني سأبقى معكم فترة وجيزة، لأن أجلي قريب، وسوف أودع هذه الدنيا. لهذا أذكركم بكلمات الله على لسان حزقائيل النبي:

كما أني أنا الله خالد باق! كذلك الروح الذي يذنب يموت، وإذا تاب المذنب وندم، فسوف لن يموت، بل سيبقى.

فاعلموا أن موت الإنسان ليس موتاً، بل نهاية لموت طويل. إن الجسد حين يفترق عن الحواس في الغشية والإغماء، ولو أن الروح موجودة فيه، لا يتميز عن الميت المدفون في شيء، سوى أن الميت المدفون ينتظر من الله أن يعيده إلى الحياة، في حين أن المغشي المغمى عليه، ينتظر من الحواس أن تعود اليه.

فاعلموا أن الحياة الحاضرة هي موت، إذا كان الله ليس حاضراً في الإنسان. إن الذين آمنوا بي لا يموتون، بل سيخلدون، لأنهم يستحضرون الله في أنفسهم، عبر كلماتي ورسالتي، ولذلك سوف يسعون ويجدون ويجتهدون، كي ينالوا خلاصهم وفلاحهم.

ما الموت إلا عمل تؤديه الطبيعة، بأمر من الله! ماذا لو أن أحداً مسك طيرا بحبلٍ، ثم مسك الحبل في يده؟ ماذا لو أن الرأس أراد للطير أن يطير، ماذا يعمل؟ لا جرم أنه من الطبيعي أن يأمر اليد بالإنفتاح، فيطير الطير فوراً.

يقول النبي داود: «إن روحنا هو كالعصفور يتحرر من مصيدة صياد الطيور». ويضيف عيسى: عندما يكون الإنسان تحت حماية الله. وإن حياتنا هي كالحبل، تربط به الطبيعة الروح بجسد الإنسان وحواسه. وعندما يريد الله، يأمر الطبيعة أن تفتح يدها، فتنقطع الحياة، ويفر الروح إلى أيدي الملائكة، الذين وكلهم الله لاستلام الأرواح.

فاعلموا أنه لا يجوز البكاء على الميت، لأن موته إنما هو بمشيئة الله.

بل ابكوا واندبوا وانتحبوا بدون انقطاع إذا أذنبتم، لأنه بالذنوب يموت الروح، نظراً إلى أنه يفترق عن الله، الذي هو الحياة الحقيقية[١].

إذا كان الجسد مخيفاً بدون اتّحاده مع الروح، فإن الروح مخيف مرعب أضعافاً مضاعفة، بدون اتّحاده مع الله، لأن الله سبحانه وتعالى يجعل الروح جميلاً بهياً حياً منتعشاً، بفضله ورحمته.

ثم شكر عيسى الله كثيراً. فقام لازاروس وقال: يا سيدي إن هذا البيت يخص الله خالقي وبارئي، مع كل ما خولني الله من فضله، وذلك لخدمة الفقراء. ولأنك فقير، وعندك حشد كبير من المريدين، فإنك مرحب بك في هذا البيت، متى ما شئت، ولأية فترة شئت، لأن خادم الله سوف يخدمك، في كل حاجاتك، وذلك حبًّا في الله.

---

(١) إن الله هو الحياة، ومن لم يستحضر الله في نفسه فهو ميت لا حياة له، ناهيك عمن ينكره ويجحده. ومن كان الله حاضراً فيه فهو حي، وسوف يخلد في كتاب الحياة الخالدة. إن المساكين إلى الله الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً هم المتقون حقاً، وقد جعل الله لهم الدار الآخرة، دار العدالة القائمة، والرحمة الغزيرة، والسعادة الأبدية، والنفس المطمئنة الخالدة. يقول الله تعالى في سورة القصص الآية ٨٣: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ويل للروح المشبع بالذنوب، فإنه يفترق عن الله وعن منبع الحياة الحقيقية! بل افتراقه وغيابه عن الله هو الذنب العظيم، إذا لم يتب ولم يندم في هذه الحياة الدنيا. فالروح مخيف مرعب بدون اتحاده مع الله، ولا يليق بمقام الحياة الخالدة في الآخرة التي قال الله عز وجل عنها في سورة العنكبوت الآية ٦٤: وإن الدارالآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون.

مزايا الموت قبل الموت

فتهلل وجه عيسى طرباً حين سمع ذلك وقال: انظروا كم هو رائع أن يموت الإنسان! قد مات لازاروس مرة واحدة فقط، وقد تعلم العقيدة والإيمان، ما لم يتعلمه أعقل عقلاء العالم، الذين شاخوا وشابوا وسط الكتب! يا ليت أن كل إنسان يموت مرة واحدة ثم يعود إلى هذا العالم، مثل لازاروس، كي يتعلم كيف يعيش!

فقال جون: أيها المعلم هل تسمح لي أن أقول كلمة؟

فأجاب عيسى: بل تكلم الف كلمة يا جون! فكما أن الإنسان يجب عليه أن ينفق المال والمتاع في سبيل الله، كذلك يجب عليه أن ينفق العقيدة الحقة والمبدأ الحق. بل إن إنفاق العقيدة الحقة واجب أضعافاً مضاعفة، ما دامت الكلمة لها القوة والنفوذ، في أن توقظ روحاً إلى التوبة والندامة، في حين أن المال والمتاع ليست لهما القدرة لإرجاع الحياة إلى الميت.

فاعلم أن الإنسان يعتبر قاتلاً، إذا كانت له القدرة على مساعدة إنسان فقير، ثم إذا لم يساعده، مات الفقير جوعاً. ولكن القاتل الأفجع والأفظع، هو الذي عنده القدرة على توصيل المذنب إلى التوبة والندامة، عبر كلمات الله، ثم لا يوصله، بل يقف متفرجاً، كما قال الله: «كالكلب الأبكم». وقد

قال الله ضد هؤلاء: أيها العبيد الخونة الغدارون، عندما تهلك روح مذنبة، بسبب سكوتكم، وكتمانكم رسالتي، وإخفائكم كلماتي[١]، فسوف أوقفكم فإنكم مسؤولون[٢].

فتصوروا كم الوضع مفجع فظيع، بالنسبة للكتاب والفريسيين، في هذا الزمان، الذين هم عندهم المفتاح، ولا يلجون الباب، بل يمنعون الآخرين[٣]، الذين هم مستعدون بكل فرح وسرور، للدخول في الحياة الخالدة!!!

أنت تسألني يا جون السماح، بأن تتكلم كلمة واحدة، في حين أنك سمعت مني مئة ألف كلمة. الحق أقول لك: إني ملتزم بأن أسمع منك عشر كلمات، عن كل كلمة سمعتها مني. والذي لا ينصت للآخرين، عندما يتكلمون، مذنب آثم، نظراً إلى أنه يجب علينا، أن نفعل بالآخرين، ما نحبه لأنفسنا، وأن لا نفعل بالآخرين، ما لا نحبه لأنفسنا.

فقال جون: أيها المعلم، لماذا لم يمنح الله الإنسان الفرصة للموت مرة واحدة، كما منح لازاروس، ثم الرجوع إلى الحياة مرة أخرى، كي يعرف الإنسان نفسه، ويعرف خالقه؟

فأجاب عيسى: كان هناك مالك بيت، أعطى لأحد من خدامه فأساً

---

(١) أين الجهلة الذين يقولون لي حسدا وحقدا: لماذا تكتب الكتب؟ أين هم من هذه الكلمات القوية التي هي من عند الله تخرج من فم عيسى الطاهر. إذا سكت العالم وكتم رسالة الله وأخفى كلمات الله فما أعظم ذنبه!

(٢) يقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

(٣) يقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾.

حاداً، كي يقطع الحطب، الذي شوه منظر بيته. ولكن الخادم نسي الفأس وقال: لو كان سيد البيت أعطاني فأساً قديماً، لقطعت الحطب بكل سهولة.

يا ترى ماذا كان رد فعل سيد البيت؟ لا جرم أنه استشاط غضباً، وأخذ الفأس القديم، وضربه على رأسه قائلاً: أيها الأحمق أيها الوغد! لقد أعطيتك فأساً، تستطيع به أن تقطع الحطب، من دون كد وعناء، وأنت تبحث عن هذا الفأس القديم، الذي يستلزم عناءً كبيراً، وناتجه يكون نفاية وفضلات، والتي لا تنفعنا في شيء؟ أنا أريد منك أن تقطع الحطب، بحيث يكون عملك متقناً. أليس هذا صحيحاً؟

فأجاب جون: إنه صحيح جداً.

ثم قال عيسى: لقد قال الله: قسماً بي أنا الخالد الباقي! لقد أعطيت لكل واحد منكم فأساً حاداً، وهو منظر دفن أحد موتاكم، الذي تشاهدونه بأعينكم. فمن أحسن استعمال هذا الفأس، أزال حطب ذنوبه من قلبه، من دون ألم. ومن ثم ينال بفضلي ورحمتي، جدارة الحياة الخالدة، لعمله الصالح المتقن.

والذي ينسى أنه ابن الموت، وفان غير خالد، رغم رؤيته موت الآخرين، الواحد تلو الآخر، ثم يقول: «لو رأيت النشئة الآخرة لعملت صالحاً»، فإن غضبي ينصب عليه، وسأقرعه بالموت، حتى لا ينال خيراً.

يا جون! ما أعظم مزية إنسان يتعلم من سقوط الآخرين كيف يقف على قدميه!

عندئذ قال لازاروس: أيها المعلم الحق أقول لك، إني لا أستطيع درك مدى العقوبة، التي يستحقها ذاك الذي يرى بعينيه الموتى، يحملون إلى لحودهم، الواحد تلو الآخر، ثم لا يخاف الله خالقه! إن الذي يحرص على متاع الدنيا ومالها ومنالها، والتي من المفروض، أن يتركها كلها وراء ظهره، يغيظ خالقه الذي منحه إياها.

فتوجه عيسى إلى حوارييه قائلاً: أنتم تسمونني معلماً ـ وحسناً فعلتم ـ نظراً إلى أن الله يعلمكم من خلال لساني. ولكن بماذا تسمون لازاروس؟ حقاً إنه الآن معلم المعلمين، الذين يعلمون العقيدة الحقة في هذا العالم.

لقد علمتكم كيف تعيشون عيشة طيبة، بيد أن لازاروس سوف يعلمكم كيف تموتون ميتة طيبة.

بحق الله الحي القيوم، لقد نال لازاروس موهبة النبوة[١]. فاستمعوا إلى كلامه الذي هو حق. بل أنصتوا إليه أضعافاً مضاعفة، أكثر مما تنصتون إلي، لأن الحياة الطيبة عبث، لو لم تنته إلى خير العاقبة ومسك الختام، في الميتة الطيبة.

فقال لازاروس: أيها المعلم إنني أشكرك، لأنك تثمن الحق والحقيقة، وتقدرها حق قدرها. لذلك سيعطيك ربك أجراً عظيماً.

---

(١) إذا كان لازاروس قد نال موهبة النبوة، فما أكثر من نال موهبة النبوة في أمة محمدﷺ! بيد أنهم أولياء أتقياء أبرار أخفياء يسمون الآن تسمية أخرى. فهم العلماء الحقيقيون الذين أشار الرسول الأعظمﷺ إليهم قائلاً: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.

لماذا الأولياء
يبكون على خطاياهم

فقال برنابا: أيها المعلم كيف يقول لازاروس الحق في مخاطبتك، بأنه سيكون لك أجر عظيم؟ في حين أنك أخبرت نيكوديماس، بأن البشر لا يجدر بهم إلا العقوبة. فهل أنت سوف تكون موضع عقوبة الله؟

أجاب عيسى: إني لأعرف أني لم أخدم الله خالصاً مخلصاً، كما ينبغي لي أن أفعل، فيا ليتني أكون في منجى من عقوبة ربي في هذا العالم! بيد أن الله قد أحبني بفضله ورحمته، بحيث إن العقوبة قد رفعت عني، وبقي لي أن أعذب في شخصٍ آخر، لأنني قد كنت أهلاً للعقوبة، لأن الناس قد سموني الله.

إلا أنني قد اعترفت وأقررت على رؤوس الأشهاد، ليس فقط بأني لست الله، كما هو الواقع، بل أيضاً بأني لست المسيح. ولهذا فإن الله قد رفع عني العقوبة، وجعل وغداً لئيماً (جعله شبيهاً بي) يتعذب باسمي، إلا أن عار العقوبة وحده، سوف يكون علي.

لذلك أقول لك يا برنابا، عندما يتكلم الإنسان، عما يعطيه الله لجاره،

دعه يقول إن جاره جدير بالأجر. ولكن عندما يتكلم الإنسان عما يعطيه الله لنفسه دعه يقول: «إن الله سيعطيني»، ولكن ليحذر من القول: «إني جدير بالأجر، أو أهل لما يعطيني الله». إن الله يحب أن ينزل رحمته على عباده، عندما يعترفون بأنهم يستحقون نار جهنم، بسبب ذنوبهم، وأن الله يعطيهم ما الله أهله.

إن الله غني برحمته، بحيث إن مياه الف بحر - إن وجدت تلك البحار - لا تطفىء شرارة واحدة من لهب جهنم، **بيد أن دمعة واحدة من خشية الله - يذرفها العبد الحزين**[١]، **بسبب إغاظته لله - تطفىء نار جهنم كلها، لأن الله برحمته الواسعة، يغيث هذا العبد الحزين.**

إن الله بفضله ورحمته، يريد أن يسمي عبده المؤمن أهلاً لفضله ورحمته بسبب أعماله الصالحة، وذلك إظهارا لجوده وكرمه وإرباكاً للشيطان. ويريد من عبده المؤمن أن يتكلم كذا عن جاره. أما إذا تكلم العبد عن نفسه فليحذر من قوله، بأنه يستحق الأجر، لأن الله سوف يدينه[٢].

---

(١) كيف لا يذرف العبد دموعاً من خشية الله، إذا كان متيقناً بأن كل حسنة فيه هي من عند الله، لأن وجوده هو من عند الله، وأن ليس له إلا ما ترتكبه يداه من الآثام والمعاصي، بما هو منشغل به ليل نهار من معارضة الله خالقه وبارئه، ومخالفته بلسانه وفكره وسلوكه، وتذمره واعتراضه على مشيئة ربه، واقترافه الجناية على نفسه، وليس له إلا الذنوب التي يرتكبها ليل نهار بغفلته عن الله وغيابه عن الله، حتى لو كان للحظة واحدة! ولتقريب الأذهان إلى مسألة ماهية الذنب أقول: إن الوجدان (الضمير) هو وجدان الله في ذات الإنسان. فمن استقر في الضمير وجد الله. والله هو الطيبة المطلقة اللامتناهية. ومن خرج من الضمير دخل في عالم الذنب، حيث لا يجد الله بل يجد الشيطان.

(٢) في أدعية أئمتنا الأطهار عليهم أفضل الصلاة والسلام، هذه الجملة الرائعة التي يحبها الله سبحانه وتعالى: إلهي افعل بي ما أنت أهله ولا تفعل بي ما أنا أهله.

ثم نظر عيسى إلى لازاروس وقال: يا أخي سوف أعيش فترة قصيرة في هذه الدنيا. وعندما أتواجد قرب منزلك، لن أذهب إلى مكانٍ آخر، لأنك تخدمني لا حبًّا فيّ، بل حباً في الله.

لا يكمل الدين إلا بالتحرج عن المحارم

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[١]:

بحق أقول لكم: إن الشجرة لا تكمل إلا بثمرة طيبة، كذلك لا يكمل الدين إلا بالتحرج عن المحارم.

بحق أقول لكم: إن الرجل الحكيم لا يغرس شجرة إلا شجرة يرضاها، ولا يحمل على خيله إلا فرساً يرضاه، كذلك المؤمن العالم لا يعمل إلا عملاً يرضاه ربه.

بحق أقول لكم: إن الصقالة تصلح السيف وتجلوه، كذلك الحكمة للقلب تصقله وتجلوه، وهي في قلب الحكيم، مثل الماء في الأرض الميتة، تحيي قلبه، كما يحيي الماء الأرض الميتة، وهي في قلب الحكيم، مثل النور في الظلمة، يمشي بها في الناس.

بحق أقول لكم: إن نقل الحجارة من رؤوس الجبال، أفضل من أن

(١) تحف العقول: ٥١٣ ـ وبحار الأنوار: ٣١٧/١٤.

تحدث من لا يعقل عنك حديثك، كمثل الذي ينقع الحجارة لتلين، وكمثل الذي يصنع الطعام لأهل القبور.

طوبى لمن حبس الفضل من قوله، الذي يخاف عليه المقت من ربه، ولا يحدث حديثاً لا يفهم، ولا يغبط امرء في قوله، حتى يستبين له فعله. طوبى لمن تعلم من العلماء ما جهل، وعلم الجاهل مما علم. طوبى لمن عظم العلماء لعلمهم، وترك منازعتهم. وصغر الجهال لجهلهم، ولا يطردهم، ولكن يقربهم ويعلمهم.

بحق أقول لكم: يا معشر الحواريين، إنكم اليوم في الناس، كالأحياء من الموتى، فلا تموتوا بموت الأحياء.

حمار عيسى

وعندما اقترب عيد الفصح، قال عيسى لحوارييه: فلنذهب إلى أورشليم لنأكل لحم الخروف في عيد الفصح. ثم أرسل بطرس وجون إلى المدينة قائلاً: اذهبا إلى هناك، وسوف تجدان حماراً ومهره مربوطين هناك قرب بوابة المدينة، ثم فكا رباطهما وأتيا بهما إلى هنا، لأني سأمتطي الحمار، عند دخولي أورشليم. وإذا سألكما أحد لماذا فكيتما رباط الحمار ومهره؟ قولا له: إن صاحبهما يحتاجهما، وسوف يسمحون لكما بالإتيان بهما إلى هنا.

فذهب الحواريان، ووجدا كل ما قاله لهما عيسى، فأتيا بالحمار ومهره. فوضع الحواريون عباءاتهم على المهر، وركب عيسى الحمار. وعندما سمع أهل أورشليم أن عيسى الناصري آتٍ، انطلقوا مع أولادهم، باشتياق عظيم، لرؤية عيسى، حاملين في أيديهم أغصان النخل والزيتون، وهم يغنون: مبارك هذا الذي يأتي إلينا باسم الله ـ حسانا ابن داود!

وعندما دخل عيسى أورشليم، نشر الناس ملابسهم، تحت أقدام حمار عيسى تبركاً، وهم يغنون: مبارك هذا الذي يأتي إلينا باسم الله ربنا ـ حسانا ابن داود!

فزجر الفريسيون عيسى وانتهروه قائلين: أما تسكت هؤلاء؟ أما ترى ماذا يقولون؟

فقال عيسى: بحق الحي القيوم والذي نفسي بيديه، لو أن الناس سكتوا لصرخت الحجارة وزعقت، ضد جحود المذنبين الخبثاء. وعندما قال عيسى ذلك، صرخت كل أحجار أورشليم زاعقة بصوتٍ عالٍ: مبارك هذا الذي يأتي إلينا باسم الله ربنا!

ورغم كل ذلك، بقي الفريسيون في جحودهم، واجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم، كيف يحرجوا عيسى ويربكوه.

من كان منكم بلا ذنب فليبدأ برجمها

وعندما دخل عيسى المعبد، أتى الكُتاب والفريسيون إليه بامرأة، مسكت أثناء الزنى. فقالوا فيما بينهم: إذا أنقذها سيكون على خلاف قانون موسى، وسوف نلقي القبض عليه كمجرم جانٍ. وإذا أدانها سيكون على خلاف عقيدته، لأنه يعظ بالرحمة. لذلك أتوا إلى عيسى قائلين: أيها المعلم لقد مسكنا هذه المرأة أثناء الزنى، وإن موسى أمرنا برجم الزانية، فماذا تقول؟

فطأطأ عيسى رأسه، ورسم مرآة على الأرض، حيث رأى الجميع ذنوبهم وآثامهم. وحينما أصروا على مطالبتهم له بالجواب، رفع نفسه، وأشار إلى المرآة بإصبعه قائلاً: من كان منكم بلا ذنب فليبدأ برجمها. ومرة ثانية طأطأ رأسه إلى الأرض، ورسم المرآة.

وعندما رأوا رجسهم ومنكراتهم منعكسة على المرآة، خجلوا منها، وتركوا مواضعهم، واحداً تلو الآخر، بدء من الأكبر سناً.

فرفع عيسى نفسه، ولم ير أحداً إلا المرأة فقال: أيتها المرأة أين ذهب أولئك الذين أدانوك؟

أجابت المرأة باكية منتحبة: يا سيدي لقد غادروا جميعاً. بحق الحي القيوم، لو سامحتني سوف لن أذنب قط!

فقال عيسى: تبارك الله الحي القيوم! اذهبي بسلام، ولا تذنبي مرة أخرى، لأن الله لم يبعثني لإدانتك.

وحينما رأى عيسى الكُتاب والفريسيين مجتمعين قال لهم: أخبروني لو أن أحداً منكم، كان له مئة خروف، وضاع منها خروف واحد، أما تذهبون للبحث عنه، تاركين التسع والتسعين الباقية؟ وحينما تجدونه، أما تحملونه على أكتافكم، وتدعون جيرانكم وتقولون لهم: افرحوا معي وتهللوا وابتهجوا واطربوا، لأني وجدت الخروف الضائع؟ لا جرم أنكم ستفعلون ذلك.

أخبروني هل الإنسان، الذي خلق الله العالم لأجله، يحبه الله أقل من غيره؟ بحق الحي القيوم، إن الملائكة لتفرح وتتهلل وتبتهج وتطرب، لأجل مذنب يتوب ويندم، لأنه بسبب المذنبين تظهر رحمة الله.

أخبروني من يحب الطبيب أكثر: ذاك الذي عولج بيد الطبيب من مرضٍ عضال، أو ذاك الذي لم يمرض في حياته قط؟

فقال له الفريسيون: وكيف أن السليم المعافى يمكنه أن يحب الطبيب؟ لا جرم أنه سيحبه فقط، لأنه سليم معافى، وليس بحاجة إليه. ولأنه لا عهد له بالمرض، لذلك سوف لا يحب الطبيب إلا قليلاً.

عندئذ تكلم عيسى بحماسٍ شديد قائلاً: بحق الحي القيوم، إن ألسنتكم لتدين غروركم، بحيث أن الله ربي وربكم، يحبه المذنب الذي

يندم، حين يرى بأم عينيه رحمة الله العظيمة تغدق عليه، أكثر من الصالح المقسط الذي لا يذنب. لأن الصالح القويم لا عهد له برحمة الله وشفقته. لذلك تفرح الملائكة وتتهلل وتبتهج وتطرب، لأجل مذنب يتوب ويندم، أكثر من تسع وتسعين صالحاً باراً.

أين الصالحون في زماننا؟ بحق الحي القيوم والذي نفسي بين يديه، ما أكثر الطالحين، الذين يظنون أنفسهم صالحين! وما أشبههم بالشيطان!

فأجاب الكُتاب والفريسيون: نحن خطاؤون، ولذلك سيرحمنا ربنا. قالوا ذلك لإغراء عيسى وإغوائه، لأن الكتاب والفريسيين يعتبرونها إهانة كبيرة، إذا سموا خطائين.

فقال عيسى: أخوف ما أخاف عليكم، أن تكونوا من الطالحين، الذين يظنون أنفسهم من الصالحين. لأنكم تعتبرون طالحين، إذا أذنبتم ثم أنكرتم ذنوبكم، ظانين بأنكم صالحون. وأدهى من ذلك وأمر، أن تدعوا بألسنتكم بأنكم خطاؤون، في حين أنكم في صميم قلوبكم، تعتبرون أنفسكم صالحين بررة.

تنبوءات عيسى بدمار أورشليم والمعبد

فارتبك الكُتاب والفريسون من هذا الكلام، وغادروا المكان. فذهب عيسى وحواريوه إلى منزل سيمون الجذامي، الذي أبرأه عيسى من قبل. وهناك اجتمع الأهالي، وقد صاحبوا معهم مرضاهم، وتوسلوا إلى عيسى أن يبرئ مرضاهم.

وكان عيسى يعلم بأن أجله قد اقترب فقال: نادوا مرضاكم كلهم، لأن الله رحيم، وقادر على أن يبرئهم كلهم. فأجابوا: نحن لا نعلم أن في أورشليم مرضى غيرهم.

فأجهش عيسى بالبكاء والنحيب وقال: **يا اورشليم، يا بني إسرائيل، أنا أبكي عليكم، لانكم لا تعلمون العقاب الذي ينتظركم. فكما تجمع الدجاجة أفراخها تحت أجنحتها، تمنيت باشتياق أن أجمعكم، لأجل حب الله خالقكم وبارئكم، بيد أنكم رفضتم! لذلك يخاطبكم الله هكذا:**

يا مدينة أورشليم، يا بني إسرائيل، الفاسدين القاسية قلوبهم! لقد بعثت إليكم عبدي، كي يهديكم السبيل إلى قلوبكم، حتى تندموا وتتوبوا،

ولكنك أيتها المدينة المخزية، نسيت العقاب الذي أنزلته على مصر، وعلى فرعون، لأجل حبكم يا بني إسرائيل. كم تبكون وتتوسلون إلى عبدي، كي يبرئ أجسادكم المريضة، في حين أنكم تنوون قتل عبدي، لأنه ينشد إبراء أرواحكم من الذنوب!

أتظنون أنكم تتفادون عقابي؟ أتظنون أنكم تعيشون إلى الأبد؟ أتظنون أن كبريائكم تخلصكم من يدي؟ بالتأكيد لا! لأني سوف أجيش الأمراء وجيشاً عرمرماً ضدكم، وسوف يطوقونكم بقوتهم، بحيث إني سوف أسلمكم إلى أيديهم، كي تتحطم كبرياؤكم، وتذهب إلى حطام الحجيم[١].

سوف لا أغفر الشيوخ منكم ولا الأرامل ولا الأطفال، بل سأسلمكم كلكم إلى المجاعة، وإلى حدّ السيوف، وإلى السخرية والاستهزاء. والمعبد الذي راقبته برحمتي، سوف أحوله مع المدينة إلى مكان مقفر موحش مهجور، بحيث سوف تصبحون أسطورة وعبرة وأمثولة وسخرية عند الشعوب. وكذلك سيحل غضبي وسخطي عليكم.

ثم استأنف عيسى حديثه قائلاً: ألا تعلمون بمرضى آخرين في المدينة؟ بحق الحي القيوم، إن مرضى الروح في أورشليم، أكثر بكثير من مرضى الجسد. وكي تعرفوا أنني على حق، أقول لكم أيها المرضى، بإذن الله، فليذهب مرضكم! وحين قال ذلك تعافوا المرضى فوراً.

---

(١) هذا هو الضمير الصارخ يصرخ لكل زمان ومكان. فهل نحن منتهون؟ إلى متى لا نستحي من ربنا؟

فبكى الناس حين سمعوا عن غضب الله وسخطه على أورشليم، والتمسوا الرحمة. حينئذ قال عيسى: يقول الله عز وجل: إذا بكت أورشليم على ذنوبها وندمت، واتبعت سبلي، سوف أنسى ذنوبها، ولن أصيبها بمكروه. لكن أورشليم تبكي لدمارها، لا لأنها أهانتني وهتكت حرمتي بين الشعوب. لذلك اشتد غضبي وضراوتي عليها أكثر وأكثر.

بحقي أنا الخالد الحي الذي لا يموت، لو توسل عبيدي أيوب وإبراهيم وساموئيل وداود ودانيال وموسى إلي، في إنقاذ هؤلاء الناس، فإن غضبي وسخطي على أورشليم لن يهدأ ولن يسكن.

خيانة يهوذا الأسخريوطي

هنا توقف عيسى عن الكلام، وبقي الناس في خوف وهلع. ثم ذهب عيسى إلى منزل سيمون. وفي أثناء تناوله العشاء برفقة حوارييه، دخلت مريم المجدلية أخت لازاروس فجأة، وكسرت وعاء فيه دهان، وصبته على رأس عيسى وملابسه. فنهض يهوذا الخائن، ومنع مريم من ذلك قائلاً: اذهبي وبيعي الدهان وأتيني بالنقود، كي أنفقه على الفقراء.

فقال عيسى: لماذا تمنعها؟ الفقراء متواجدون دائماً كي تنفق عليهم، أما أنا فلن أكون متواجداً معكم دائماً.

فأجاب يهوذا: أيها المعلم هذا الدهان ربما بيعت بثلاثمائة قطعة نقود. فانظر كم من الفقراء يمكن مساعدتهم بذلك.

أجاب عيسى: يا يهوذا أنا أعرف ما في قلبك. فاصبر قليلاً! سأعطيك كل شيء.

فتعشى الجميع في خوف، وكان يسود على الحواريين حزن شديد، لأنهم كانوا يعلمون بأن عيسى على وشك مفارقتهم. بيد أن يهوذا كان

ساخطاً مغتاظاً، لأنه كان يعلم أنه خسر ثلاثين قطعة من النقود، للدهان الذي لم يستطع يبعه، نظراً إلى أنه كان يسرق عشراً من كل المبالغ التي تعطى لعيسى.

لذلك ذهب يهوذا إلى الكاهن الأكبر، الذي كان في اجتماع مع الكهنة والكُتاب والفريسيين. فقال له: ماذا تعطوني في مقابل أن أغدر بعيسى وأسلمه بيدك، نظراً إلى أنه مشتاق إلى أن يعلنوه ملكاً على إسرائيل؟

فأجابوه: كيف تسلمه إلينا؟

فقال يهوذا: سأخبركم حينما يغادر المدينة للعبادة، وسأقودكم إلى المكان الذي يتواجد فيه، لأنه من غير الممكن إلقاء القبض عليه، في داخل المدينة، من دون قيام فتنة.

فأجاب الكاهن الأكبر: عندما تسلمناه، سندفع لك ثلاثين قطعة من الذهب، وسترى كيف أعاملك بسخاء.

انظروا في خلاص أنفسكم

قال الإمام الصادق عليه السلام[1]:

كان المسيح عليه السلام يقول لأصحابه: إن كنتم أحبائي وإخواني، فوطنوا أنفسكم على العداوة والبغضاء من الناس، فإن لم تفعلوا فلستم بإخواني. إنما أعلمكم لتعملوا، ولا أعلمكم لتعجبوا، إنكم لن تنالوا ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، وبصبركم على ما تكرهون. وإياكم والنظرة! فإنها تزرع في قلب صاحبها الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة.

يا طوبى لمن يرى بعينيه الشهوات، ولم يعمل بقلبه المعاصي. ما أبعد ما قد فات، وأدنى ما هو آتٍ! ويل للمغترين، لو قد آزفهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون! في خلق هذا الليل والنهار معتبر. ويل لمن كانت الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً عند ربه!

ولا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله، قاسية قلوبهم، ولكن لا يعلمون. لا تنظروا إلى عيوب الناس،

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٢٨ ـ أمالي المفيد: ١٢٢.

ولكن انظروا في خلاص أنفسكم، فإنما أنتم عبيد مملوكون.

الى كم يسيل الماء على الجبل لا يلين؟ إلى كم تدرسون الحكمة، لا يلين عليها قلوبكم؟ عبيد السوء فلا عبيد أتقياء، ولا أحرار كرام. إنما مثلكم كمثل الدفلى[١]، يعجب بزهرها من يراها، ويقتل من طعمها. والسلام.

(١) نبات مر قتال، زهره أحمر.

حرب الحجارة في المعبد

بعد بضعة أيام، ذهب عيسى إلى المعبد، وفي معيته جمهور عظيم من الناس. فاقترب منه الكاهن الأعظم وقال: يا عيسى هل نسيت كل ما اعترفت وأقررت به، بأنك لست إلهاً، ولا ابن إله، ولا حتى المسيح؟

أجاب عيسى: كلا لم أنس ذلك بالتأكيد، لأنه اعترافي وإقراري أمام الله في يوم القيامة. وأن كل ما هو مكتوب في كتاب موسى حق وصدق، بأن الله خالقنا وبارئنا هو الله وحده لا شريك له، وبأني عبد الله، وأشتاق إلى خدمة رسول الله، الذي تسمونه المسيح.

فقال الكاهن الأعظم: إذن لماذا تأتي إلى المعبد في معية هذا الجمهور العظيم من الناس؟ هل من الممكن أنك تنشد أن تكون ملكاً على إسرائيل؟ حذار! لئلا تقع في محظور!

أجاب عيسى: لو كنت أنشد أن أصنع أمجاداً لنفسي، وأطلب سهماً لي في هذه الدنيا، لما هربت حينما أراد أهالي نائين أن ينصبوني ملكاً، بملء إرادتهم. صدقني، الحق أقول لك، إني لا أنشد شيئاً في هذه الدنيا.

فقال الكاهن الأعظم: نحن نريد أن نعرف شيئاً عن المسيح. ثم كون الكهنة والكتاب والفريسيون حلقة حول عيسى.

أجاب عيسى: ما هو الشيء الذي تنشدون معرفته بشأن المسيح؟ ربما تقولون إنها كذبة؟ بالتأكيد إني لن أكذب. لو كذبت لعبدتني، ولعبدني الكُتاب والفريسيون، بل كل إسرائيل. ولأني أقول الصدق، فإنك تكرهني وتنشد قتلي.

فقال الكاهن الأعظم: نحن نعلم أنك تحمل شيطاناً وراء ظهرك، لأنك سامري، ولا تستشعر احتراماً لكاهن الله.

أجاب عيسى: بحق الحي القيوم، أنا لا أحمل شيطاناً وراء ظهري، بل إنني أنشد أن أطرد الشيطان. ولهذا فإن الشيطان يهيج العالم ضدي، ويستفزه ويثيره، لأني لست من هذا العالم، بل إنني أنشد المجد لله وحده، الذي بعثني إلى هذا العالم.

فانصتوا لي جيداً، حتى أخبركم من يحمل الشيطان وراء ظهره. بحق الحي الذي لا يموت والذي نفسي بيديه، إن الذي يعمل بإرادة الشيطان، هو الذي يحمل الشيطان وراء ظهره، ذاك الذي وضع الشيطان لجام إرادته عليه، ويتحكم فيه حسب إرادته ورغبته، ويجره إلى كلّ شرٍّ وظلم وخطيئة.

فكما أن اللباس يغير اسمه، حينما يغير صاحبه، رغم أنه نفس النسيج والقماش، كذلك الناس يختلفون، بسبب القوى التي تعمل فيهم، رغم أنهم من نسيجٍ واحد.

وإذا كنت قد أثمت (كما أعلم ذلك)، فلماذا لا تنتهروني وتعذلوني كأخ، بدل أن تبغضوني وتكرهونني كعدو؟ الحق أقول لكم، إن أعضاء البدن تغيث بعضها البعض، حينما تكون متحدة مع الرأس، بيد أن

الأعضاء المبتورة لا تكون مدداً لها. إن أيدي الجسد، لا تشعر بآلام أقدام جسد آخر، بل تشعر بآلام أقدام نفس الجسد، الذي تتحدان فيه.

بحق الحي القيوم والذي نفسي بيديه، إن الذي يخاف الله خالقه ويحبه، يستشعر الرحمة قبال الذين يرحمهم الله. إن الله لا يريد موت المذنبين، بل يصبر على كل واحد منهم حتى يندم. بحق الحي القيوم، إذا كنتم متحدين مع نفس المبدأ، الذي أنا متحدٌ معه، ستكونون لي مدداً، بأن أعمل حسب مبدئي.

إذا كنت أعمل السيئات، فانتهروني واعذلوني يحببكم الله، لأنكم قد عملتم حسب إرادته ومشيئته. بيد أنكم إذا لم تعذلوني وتلوموني، بسبب إثم ارتكبته، فذلك يدل على أنكم لستم أبناء إبراهيم، كما تسمون أنفسكم، ولستم متحدين مع المبدء، الذي كان إبراهيم متحداً معه.

بحق الحي القيوم، إن حب إبراهيم لله كان عظيماً، بحيث إنه لم يحطم الأصنام، ولم يهجر أباه وأمه فحسب، بل كان يريد قتل ابنه طاعة لله.

فقال الكاهن الأعظم: إني لا أريد قتلك، بل أريد أن أسألك: من كان ابن إبراهيم هذا؟

أجاب عيسى: يا رب إن غيرة شرفك وكرامتك تلهبني وتثيرني، ولا أستطيع الصمت! الحق أقول لكم، إن ابن إبراهيم كان إسماعيل، الذي في بذرته يكون المسيح، الذي وعد الله به إبراهيم، أن يبارك فيه كل قبائل الأرض.

فاستشاط الكاهن الأعظم غيظاً، وزعق قائلاً: ارجموا هذا الشخص الملحد الكافر، لأنه إسماعيلي، وقد كفر بموسى وبقانون الله.

فقام كل كاتب وكل فريسي مع أكابر القوم، وأخذوا الحجارة، كي يرجموا عيسى، بيد أنه اختفى عن أنظارهم، وخرج من المعبد. فضرب بعضهم البعض بالحجارة، حتى مات في نهاية المطاف ألف شخص، ودنسوا المعبد المقدس، وكل ذلك بسبب الرغبة العارمة، لقتل عيسى، والهياج والضراوة والبغض والكراهية التي أعمتهم.

المؤامرة الكبرى على عيسى

أما الحواريون والمؤمنون، فقد رأوا عيسى يخرج من المعبد، رغم أنه كان مختفياً عن أنظار غيرهم، لذلك تبعوه إلى منزل سيمون.

فجاء نيكوديموس، وأشار على عيسى، أن يخرج من اورشليم، إلى ما وراء غدير سيدرون قائلاً: يا سيدي عندي حديقة ومنزل وراء غدير سيدرون، وإني ألتمس منك أن تذهب هناك، بمعية بعض حوارييك، وتنتظروا هناك، حتى يهدأ هيجان الكهنة، وسأخدمكم أنا في كل حاجاتكم. واترك جمهور الحواريين هنا، في منزل سيمون وفي منزلي، لأن الله سيدبر أمورهم. وفعل عيسى ذلك، مفضلاً أن يصاحب معه الحواريين الأوائل الاثني عشر.

وفي نفس الوقت، كانت مريم العذراء أم عيسى، تصلي في محرابها بالناصرة؛ إذ ظهر لها جبرائيل، وقص عليها ما جرى على ابنها قائلاً: يا مريم لا تخافي، لأن الله سوف يحميه من أهل الدنيا. فبكت مريم، وغادرت إلى أورشليم، إلى منزل أختها مريم سالوم، تبحث عن ابنها.

ولأن عيسى انسحب سراً إلى ما وراء غدير سيدرون، فهي لم تستطع أن تراه في هذه الدنيا. بيد أنها رأته بعد يوم العار، إذ جاء به إلى أمه، بإذن الله، الملائكة الكرام جبرائيل وميكائيل ورافائيل ويوريال.

وعندما سكنت البلبلة والحيرة والارتباك في المعبد، بعد مغادرة عيسى، صعد الكاهن الأعظم المنبر، وأشار إلى الناس بيديه أن اسكتوا ثم قال: إخواني ماذا نحن فاعلون؟ أما ترون كيف أنه خدع جميع العالم بفنه الشيطاني! انظروا لو لم يكن ساحراً، لما استطاع أن يختفي عن الأنظار!

لا جرم لو كان نبياً ووليا قديساً، لما كفر بالله وبعبده موسى، وبالمسيح الذي هو أمل إسرائيل، ناهيك عن الكهنة جميعهم، إذ كفر بهم وهتك حرمتهم. والحق أقول لكم، لو أنه لم يرتحل عن هذا العالم، فإن إسرائيل سوف تدنس، وأن الله سوف يسلمنا إلى أيدي الشعوب. انظروا كيف أنه بسببه، قد هتكت حرمة هذا المعبد المقدس!

وبسبب كلام الكاهن الأعظم، ارتد الكثيرون عن عيسى، ومن ثم تحول الاضطهاد من السر إلى العلن، بحيث أن الكاهن الأعظم، ذهب بشخصه إلى هيرود، وإلى الحاكم الروماني، واتّهم عيسى برغبته في أن يعلن نفسه ملكاً على إسرائيل، وشهد بذلك شهود زور.

وانعقد المجمع العام ضد عيسى، حيث إن المرسوم الروماني كان يخوفهم. فقد صدر مرسومان من مجلس الشيوخ الروماني بصدد عيسى: أولهما كان يمنع تسمية نبي اليهود عيسى الناصري إلهاً، أو ابن إله، وكانت عقوبته الموت. وثانيهما كان يمنع المخاصمة، بشأن نبي اليهود عيسى الناصري، وكانت عقوبته الموت أيضاً.

لذلك حصل خلاف كبير بينهم. فارتأى بعضهم، أن يكتبوا إلى روما مرة أخرى ضد عيسى، في حين أن الآخرين ارتأوا، أن يترك عيسى لوحده، بذريعة أنه مجنون، بغض النظر عما يقوله، واستشهد الآخرون بمعجزاته العظيمة التي صنعها.

فتكلم الكاهن الأعظم قائلاً: لا يجوز لأحد أن يدافع عن عيسى، وإلا تصيبه اللعنة، ويحرم من المعبد. ثم تكلم إلى هيرود وإلى الحاكم قائلاً: على كل حال، نحن متورطون في مخاطرة سيئة، لأنه إذا قتلنا هذا الآثم، سنكون قد عملنا على خلاف مرسوم قيصر، وإذا سمحنا له أن يعيش ثم أعلن نفسه ملكاً، فماذا نحن فاعلون؟

فقام هيرود وهدد الحاكم قائلاً: احذر! لو برزت ثورة في هذا البلد، بسبب تحيزك لهذا الرجل، فسوف أتهمك أمام قيصر، بالمشاركة في التمرد والعصيان. فخاف الحاكم من مجلس الشيوخ، وصادق هيرود وتحاب معه ـ لأنه قبل ذلك كانا يكرهان بعضهما البعض حتى الموت ـ فاتّحدا من أجل قتل عيسى، وقالا للكاهن الأعظم: متى علمتم أين يكمن المجرم الأثيم، ابعثوا ورائنا، حتى نعطيكم العسكر لإلقاء القبض عليه.

وتحقق ما كان تنبأ به نبي الله داود، في حق عيسى نبي بني إسرائيل قائلاً: إن أمراء الأرض وملوكها، يتحدون ضد قديس بني إسرائيل، لإعلانه خلاص هذا العالم.

عيسى
في مخبئه

ومنذ ذلك اليوم، بدأ البحث الشامل عن عيسى، في كل أنحاء أورشليم.

وفي منزل نيكوديموس، فيما وراء غدير سيدرون، واسى عيسى حوارييه قائلاً: إن الأجل قريب، وسوف أفارق هذه الدنيا. أوصيكم أن لا تحزنوا علي، لأني في المكان الذي أذهب إليه، لن أشعر بالمحنة والشدة.

يا ترى هل يكون الحزن على سعادتي دليلاً على صداقتكم لي! بالتأكيد لا! بل يكون دليلاً على عداوتكم لي. إذا ابتهجت الدنيا وفرحت فاحزنوا، لأن فرح الدنيا مآبه إلى الحزن والبكاء، بيد أن حزنكم مآبه إلى الفرح، الذي يبقى معكم ولا يؤخذ منكم.

إن البهجة التي تشعرها قلوبكم، في حضور الله خالقكم، لا يمكن لكل العالم أن يأخذها منكم. لا تنسوا الكلام الذي كلمكم الله به على لساني. كونوا شهداء لي على كل أحد، يفسد شهادتي التي شهدتها في إنجيلي ضد الدنيا ومحبيها.

ثم رفع يديه إلى ربه خاشعاً في مناجاته قائلاً: يا ربنا ورب إبراهيم، ورب اسماعيل وإسحاق، ورب آبائنا! ارحم أولئك الذي وهبتهم لي، واحفظهم من هذه الدنيا. لا أقول بأن تأخذهم من الدنيا، لأنه من الضروري أن يبقوا في هذه الدنيا، ويشهدوا ضد من يفسد إنجيلي. لكني أدعوك يا ربي أن تحفظهم من شرور الدنيا، حتى يأتوا يوم القيامة في معيتي، ليشهدوا ضد الدنيا، وضد بني إسرائيل، الذين أفسدوا وفسقوا ميثاقك وعهدك.

يا ربي القدير الغيور! الذي يثأر وينتقم من الوثنية، ومن أولاد الوثنيين، حتى إلى الجيل الرابع، العن إلى الأبد أولئك، الذين يفسدون إنجيلي، الذي أعطيتني إياه، حينما يكتبون بأني ابن الله.

لأني أنا الطين والغبار، عبد عبيدك، ولم أفكر يوماً ما، بأني عبدك الصالح، لأني لا أستطيع أن أرد جميلك[١]،

---

(١) وكما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: (أنت الذي مننت أنت الذي أنعمت أنت الذي أحسنت أنت الذي أجملت أنت الذي أفضلت أنت الذي أكملت أنت الذي رزقت أنت الذي وفقت أنت الذي أعطيت أنت الذي أغنيت أنت الذي أقنيت أنت الذي آويت أنت الذي كفيت أنت الذي هديت أنت الذي عصمت أنت الذي سترت أنت الذي غفرت أنت الذي أقلت أنت الذي مكنت أنت الذي أعززت أنت الذي أعنت أنت الذي عضدت أنت الذي أيدت أنت الذي نصرت أنت الذي شفيت أنت الذي عافيت أنت الذي أكرمت).

واذا استمررت في ذكر جميلك علي، ليل نهار من دون توقف، إلى آخر نفس من حياتي، بل لآلاف آلاف السنين، من دون توقف، بل أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة ـ إن تسنى لي ذلك ـ لم أستطع إحصاء جميلك عليّ.

وما عساني أن أعطي[1]، في قبال كل النعم، التي لا تُعد ولا تُحصى، التي أغدقتها عليّ! إن كل الأشياء متعلقة بك، وأنا صفر اليدين، لا حول لي ولا قوة، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً[2]!

---

(١) أو كما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: (أنا الذي أسأت أنا الذي أخطأت أنا الذي هممت أنا الذي جهلت أنا الذي غفلت أنا الذي سهوت أنا الذي اعتمدت أنا الذي تعمدت أنا الذي وعدت وأنا الذي أخلفت أنا الذي نكثت أنا الذي أقررت أنا الذي اعترفت بنعمتك علي وعندي وأبوء بذنوبي).
واذا استمررت في ذكر جهلي وخطاياي وذنوبي، ليل نهار من دون توقف، إلى آخر نفس من حياتي، بل لآلاف آلاف السنين، من دون توقف، بل أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة - إن تسنّى لي ذلك - لم أستطع إحصاء مواقع جهلي وخطاياي وذنوبي ومعاصي.

(٢) هذا هو العالم الأكبر، الذي يعيش فيه القديسون والأنبياء والأئمة والأولياء، الذين كشف الله عن عيونهم الغطاء، فرأوا بأم أعينهم، عظمة الله، واستشعروها بكل ذرة من وجودهم، واقشعرت لذلك شرائح جلودهم، ولانت قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله الخفي الدائم، عن بينة من أمرهم، وشهود الحقائق الغيبية التي تجلت على قلوبهم.
فهم من جلال ما يرون خائفون وجلون، ومن جمال طلعة بهائه حيارى مدهوشون مذهولون. وهذا هو سبب وجلهم وخوفهم وخشيتهم، التي وصف الله العلماء الحقيقيين بذلك قائلاً عز من قائل: إنما يخشى الله من عباده العلماء.
ثم ينظرون إلى أنفسهم، ويرون ضعفهم المطلق، إزاء عظمة خالقهم وبارئهم، وبأنهم لا يستطيعون أن يؤدوا دين الله العظيم، الذي في رقبتهم وفي ذمتهم، مهما عملوا وحاولوا وجاهدوا. وهذا هو سبب حزنهم الدائم، الذي وصف أمير المؤمنين علي عليه السلام المتقين بذلك.
فكلما زاد إيمان الشخص ويقينه، زادت معرفته بعظمة الله، فاتّسم في حياته بالخشوع والخضوع والمسكنة والخشية من الله. وكلما زاد إيمان الشخص ويقينه، زادت معرفته بضعف نفسه، فاتسم في حياته بالحزن والبكاء والنحيب على تقصيره أمام خالقه. =

أي ربي الرحيم! الذي أظهرت رحمتك لمن يخشاك، إلى ألف جيل من ذريتهم، أنزل رحمتك على الذين يؤمنون بكلامي، الذي أعطيتني إياه. فكما أنك الله الحق المبين، كذلك كلامك الذي نطقت به هو الحق المبين، لأن كلامك مسطور في كتابك، الذي تجلى من لدنك على قلبي كالمرآة، نظراً إلى أني تكلمت، بما قرأت في كتابك.

يا ربي المنقذ المخلص! احفظ أولئك الذين وهبتهم لي، حتى لا يستطيع الشيطان أن يفعل شيئاً ضدهم. ولا تحفظهم فحسب، بل احفظ كل من آمن بهم.

يا ربي الغني الجواد الكريم المفضال في الرحمة! احشر عبدك مع رسول الله، وفي محفله يوم القيامة: لست فقط وحدي، بل كل من وهبتني، وكل من يؤمن بي بسبب مواعظهم. وافعل اللهم ذلك من أجلك، حتى لا يتباهى الشيطان أمامك.

يا ربي الذي تعطي بعنايتك كل شيء تحتاجه بنو إسرائيل، اشمل بعنايتك كل قبائل الأرض، الذين وعدت بأن تشملهم بركة رسول الله، الذي خلقت العالم من أجله. ارحم أهل الدنيا، وابعث رسولك وحياً[١]، حتى يخسر عدوك الشيطان امبراطوريته.

ثم ختم عيسى حديثه بقوله ثلاث مرات: آمين ياربنا العظيم الرحيم!

فأجاب الحواريون وهم ينتحبون: آمين! إلا يهوذا، لأنه لم يكن مؤمناً.

= ولذلك قال الإمام موسى الكاظم ﷺ: المؤمن مثل كفتي الميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه.

(١) يعني سريعاً.

العشاء الأخير

ولأن يوم إطعام الناس بلحم الخروف قد اقترب، فإن نيكوديموس بعث سراً بحمل إلى عيسى وحوارييه في حديقته، وأنبأه بكل ما خطط ضده، من قبل هيرود والحاكم والكاهن الإعظم.

فابتهجت روح عيسى(١) وقال: يا رب تبارك اسمك المقدس! لأنك

---

(١) ابتهاج روحه يذكرني بابتهاج روح مولانا الإمام علي عليه السلام حينما ضرب بالسيف على رأسه قائلاً: فزت ورب الكعبة! وبابتهاج مولانا الإمام الحسين عليه السلام وهو ملقى على رمضاء كربلاء قائلاً: إلهي رضا برضاك تسليماً لقضاك صبراً على بلاك لا معبود سواك!

الموت لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة.

كلما دنت طلعة الشهادة منهم زادت وجوههم نوراً وإشراقاً

روى هلال بن نافع قال إني كنت واقفاً مع أصحاب عمر بن سعد إذ صرخ صارخ: أبشر أيها الأمير فهذا شمر قد قتل الحسين. قال فخرجت بين الصفين فوقفت عليه وإنه ليجود بنفسه. **فوالله ما رأيت قط قتيلاً مضمخاً بدمه أحسن منه ولا أنور وجهاً. ولقد شغلني نور وجهه وجمال هيبته عن الفكرة في قتله. فاستسقى في تلك الحالة ماء،** فسمعت رجلاً يقول: لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها. فسمعته يقول: أنا لا أرد الحامية ولا أشرب من حميمها، بل أرد على جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأسكن معه في داره، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشرب من ماء غير آسن، وأشكو إليه ما ركبتم مني وفعلتم. (من كتاب كلمات الإمام الحسين عليه السلام تأليف =

جعلتني من عبادك الشهداء الصالحين، الذين اضطهدهم أهل الدنيا وقتلوهم. لك الحمد يا رب ولك الشكر، لأني أكملت رسالتك. ثم استدار إلى يهوذا وقال له: يا صديقي ماذا تنتظر؟ إن أجلي قد اقترب، فاذهب وافعل ما أنت فاعله.

= مؤسسة تحقيقات الإمام الباقر عليه السلام).

يقول نبي الله داود: ما أندر مشهد موت القديس بعين الله وأفخره وأنفسه وأجله وأعظمه! هل تعلمون لماذا؟ سأخبركم: كما أن الأشياء النادرة فاخرة ونفيسة، كذلك مشهد موت الذين يموتون ميتة طيبة نادر، ولذلك فهو فاخر ونفيس، بعين الله وفي منظور الله.

ويقول عيسى: ولكن كيف للإنسان أن يموت ميتة طيبة، إذا لم يتعلم عملياً كيف يموت ميتة طيبة؟ يقول عيسى: كل شيء يقع خطأ حتى لمرة واحدة، يظهر لنا كيف أن ممارسة الشيء على وجهه الصحيح، يحتاج إلى تمرين وتدريب. أما رأيتم الجنود، كيف أنهم في أيام السلم، يتمرنون ويتدربون على أساليب الحرب والقتال مع بعضهم البعض؟

ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: موتوا قبل أن تموتوا. وهذه الكلمة الطاهرة يبنى عليها السير والسلوك في العرفان العملي. يوجد في كتابي (السماوات السبع) فصلان خاصان يسميان (موتوا قبل أن تموتوا) و(قال ارجعوني)، أتمنى لو أن طالبي الهداية يقرؤونها ويستفيدون منها. إن هذا والله شيء أساسي في حياتهم لأن الموت قريب ولا يفلت منه أحد.

وبالنسبة للمذنبين الذين لا يتوبون ولا يندمون، يقول عيسى: فماذا يا ترى هي نهاية الإنسان، الذي يحب الدنيا وثرواتها! إنه سيموت كما قال نبي الله داود: إن المذنب يموت ميتة، في أقصى النحس والشؤم. ويقول: يا لشقاء الإنسان! لأن بناء حياته سيتحول إلى خرائب وأطلال، وإلى دمار عظيم، لأنه لم يهتم، ولم يعتن بأساس حياته وهو الموت، ولم يجعل عينه على موته أثناء حياته!

فظن الحواريون أن عيسى يبعث يهوذا، كي يبتاع شيئاً ليوم الفصح. بيد أن عيسى كان يعلم أن يهوذا يخونه، وقد تكلم ذلك، لأنه كان يشتاق إلى مفارقة هذا العالم.

أجاب يهوذا: اسمح لي سيدي أن آكل أولا ثم أرحل.

فقال عيسى: دعونا نأكل لأني مشتاق جدا لأكل لحم هذا الخروف قبل أن أفارقكم. فقام وشمر عن ساعده، وأخذ منشفة، وصب الماء في الطشت، وشرع بغسل أقدام الحواريين بادئاً بيهوذا. ثم جاء إلى بطرس، كي يغسل قدميه، فقال بطرس: يا سيدي هل تريد غسل قدمي؟

أجاب عيسى: أنت لا تعلم الآن ماذا أنا فاعله، ولكنك ستعلم ذلك لاحقاً.

أجاب بطرس: لن تغسل قدمي أبداً.

فقام عيسى وقال: إذن سوف لن تكون معي يوم القيامة.

أجاب بطرس: يا سيدي لا تغسل قدمي فحسب، بل أيضاً يدي ورأسي.

وعندما غسل عيسى الحواريين، جلسوا كلهم على المائدة. فقال عيسى: لقد غسلتكم، ولكن ليس كلكم طاهرين. إن مياه البحر لن تطهر من لا يؤمن بي. قال عيسى ذلك، لأنه كان يعرف من كان يخونه.

فحزن الحواريون من هذا الكلام، فتكلم عيسى مرة أخرى قائلاً: الحق أقول لكم، إن واحداً منكم سوف يخونني، بحيث أني سأباع مثل الخروف. اللعنة عليه! لأنه سيحقق كل ما قاله أبونا داود عن مثل هذا

الشخص: سوف يقع في نفس الحفرة، التي حفرها لغيره.

فنظر الحواريون إلى بعضهم البعض، متسائلين بكل حزن وأسى: من سيكون الخائن؟

فقال يهوذا: أيها المعلم هل سأكون أنا الخائن؟

أجاب عيسى: لقد أخبرتني من سيخونني. ولكن الحواريين الأحد عشر الباقين لم يسمعوا ذلك.

وبعد الطعام ركب الشيطان على ظهر يهوذا، الذي انطلق خارجاً من المنزل. فقال له عيسى مرة أخرى: أسرع فيما تريد فعله.

وبعد خروج يهوذا من المنزل، أوى عيسى إلى الحديقة للصلاة. وكانت عادته أن يصلي هكذا: يركع مئة مرة ويسجد على وجهه.

عروج عيسى إلى السماء

ذهب يهوذا إلى الكاهن الأعظم وقال له: إذا دفعت لي ما قد وعدتني، سأسلمك الليلة عيسى الذي تبحث عنه، لأنه وحيد مع أحد عشر من رفقائه.

فقال الكاهن الأعظم: كم تريد؟

قال يهوذا: ثلاثين قطعة من الذهب.

وفوراً عد الكاهن الأعظم النقود وسلمه إياه، ثم بعث فريسياً إلى الحاكم وهيرود، كي يجلب الجنود. فبعثوا فيلقا من الجنود، لأنهم خافوا من الناس. فأخذ الجنود أسلحتهم وفوانيسهم، ورفعوا مشاعلهم على هراواتهم، وخرجوا من أورشليم.

وعندما اقترب الجنود بمعية يهوذا إلى مخبأ عيسى، سمع عيسى أصوات دنو ناس كثيرين، فانسحب إلى المنزل في خوف، في حين أن الأحد عشر حوارياً كانوا نائمين.

وعندما رأى الله أن عبده في خطر، أمر ملائكته جبرائيل وميكائيل ورافائيل ويوريال، بأن يأخذوا عيسى بعيداً عن هذا العالم.

فجاء الملائكة المقدسون، وأخرجوا عيسى من النافذة الجنوبية، وحملوه إلى السماء الثالثة، في موكب من الملائكة، وهم يسبحون الله ويقدسونه.

يقول برنابا: وقبل أن تدخل العساكر، اندفع يهوذا مسرعاً إلى داخل الغرفة، التي رفع منها عيسى، في حين أن الحواريين كانوا نائمين. **وحدثت معجزة عجيبة مدهشة من الله البديع، بحيث إن يهوذا تغيرت ملامحه ونبرات صوته إلى ملامح عيسى ونبرات صوته، بحيث اعتقدنا أنه عيسى ذاته. وحين أيقظنا من النوم، كان يبحث عن المعلم. فتعجبنا من أمره وأجبنا: يا سيدي أنت هو معلمنا وهل نسيتنا الآن؟**

فتبسم قائلاً: هل أنتم أغبياء ولا تعرفونني، إنني يهوذا الاسخريوطي!

وذكر العلامة المجلسي في بحار الأنوار هذه الرواية:

قال رسول الله ﷺ: لما اجتمعت اليهود على عيسى ليقتلوه بزعمهم، أتاه جبرائيل فغشاه بجناحه، وطمح ببصره، فإذا هو بكتاب في جناح جبرائيل (اللهم إني أدعوك باسمك الواحد الأعز، وأدعوك اللهم باسمك الصمد، وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعال الذي ثبت أركانك كلها، أن تكشف عني ما أصبحت وأمسيت فيه).

فلما دعا به عيسى أوحى الله تعالى إلى جبرائيل: ارفعه إلى عندي.

ثم قال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب سلوا ربكم بتلك الكلمات، فوالذي نفسي بيده ما دعا بهن عبد بإخلاص دينه إلا اهتز له

العرش، وإلا قال الله لملائكته: اشهدوا أني قد استجبت له بهن وأعطيته سؤله في عاجل دنياه وآجل آخرته[١].

والآيات الكريمة في سورة النساء تشير إلى أن عيسى لم يصلب، ولكن شبه لهم، وأنه عليه السلام رفعه الله إليه في قوله تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/٣٣٨.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧ ـ ١٥٨.

القبض على يهوذا الأسخريوطي

وعندئذ دخل الجنود وقبضوا على يهوذا، لأنه كان مثل عيسى من كل جهة.

يقول برنابا: وعندما سمعنا يهوذا، ورأينا حشداً من العساكر، هربنا بأرواحنا. حتى أن جون الذي كان مغطى بنسيج أبيض، استيقظ من نومه وهرب، وعندما مسك جندي بنسيجه الأبيض، ترك النسيج وهرب عارياً من اللباس. إن الله حقاً قد استجاب لعيسى، وحفظنا نحن الأحد عشر حواري من كلّ سوء.

وأخذ العساكر يهوذا وأوثقوه بالحبال، وهم يستهزئون به، لأنه كان ينكر صادقاً بأنه عيسى. وكان الجنود يتهكمون به قائلين: لا تخف فإننا أتيناك، كي نعلنك ملكاً على إسرائيل، ولقد أوثقناك، لأننا نعرف بأنك ترفض الملك.

أجاب يهوذا: هل فقدتم حواسكم؟ أتيتم بأسلحتكم وفوانيسكم ومشاعلكم، كي تلقوا القبض على عيسى الناصري، كما تقبضون على أي

لص. ثم إنكم أوثقتموني ـ أنا الذي دللتكم على مخبئه ـ كي تجعلوا مني ملكاً!

ففقد الجنود صبرهم، وبدأوا يسخرون منه، بالضرب والرفسات، وقادوه بضراوة إلى داخل أورشليم.

وتبع جون وبطرس الجنود عن بعد، وأكدا لبرنابا بأنهما رأيا كل إجراءات التحقيق والاستنطاق مع يهوذا، الذي أجراه الكاهن الأعظم، ومجلس الفريسيين الذين اجتمعوا لإعدام عيسى. وكان يهوذا يتصنع الجنون، ويتكلم كالمجانين، بحيث إن الناس كانوا يضحكون ويقهقهون، ظانين أنه حقاً عيسى، وأنه يتظاهر بالجنون، لخوفه من الموت.

وعصب الكتاب عينيه متهكمين به قائلين: يا عيسى نبي النصارى ـ لأنهم كانوا يسمون كل من آمن بعيسى بهذه التسمية ـ أخبرنا من ضربك؟ وكانوا يلطمونه ويصفعونه، ويبصقون في وجهه.

وفي الصباح اجتمع محفل كبير من الكتاب وأكابر القوم. وبحث الكاهن الأعظم مع الفريسيين عن شاهد زور ضد يهوذا ـ الذي ظنوا أنه عيسى ـ فلم يجدوا أحداً.

ولم يكن رؤساء الكهنة وحدهم، يظنون يهوذا بأنه عيسى، بل إن كل الحواريين، وحتى برنابا، ظنوا ذلك. وحتى المسكينة مريم العذراء أم عيسى، مع كل أقربائه وأصدقائه، ظنوا ذلك، بحيث إن الحزن والكآبة البادية عليهم جميعاً، كانت عظيمة لا تصدق.

بحق الحي القيوم، حتى برنابا قد نسي كل ما قاله عيسى: كيف أنه

سيرفع إلى السماء، وأن شخصاً آخر سيعاني التعذيب بدلاً عنه، وأنه لن يموت حتى تقترب نهاية العالم. ولذلك ذهب برنابا مع أم عيسى وجون إلى الصليب.

وأستدعى الكاهن الأعظم يهوذا، وهو موثق بالحبال، وسأله عن حوارييه وعن عقيدته. وبدا يهوذا مذهولاً، ولم يجب إلى الغرض المقصود. واستحلفه الكاهن الأعظم بالله رب إسرائيل أن يقول الحق.

أجاب يهوذا: لقد قلت لك بأني يهوذا الأسخريوطي، الذي وعدك بأن يسلمك عيسى الناصري، وأنا لا أعرف كيف أنك مذهول ومدهوش، وتصر إصراراً بأني عيسى.

فأجاب الكاهن الأعظم: أيها المضل الفاسد، لقد خدعت كل إسرائيل بعقيدتك ومعجزاتك الكاذبة، بدءً من الجليل، وحتى هنا في أورشليم، والآن تظن بأنك سوف تهرب من العقاب، الذي يليق بك وتستحقه، بتصنعك الجنون؟ بحق الحي القيوم، إنك لن تهرب منه!

يهوذا
تحت التعذيب

فأمر عبيده أن يضربوه باللطمات والرفسات حتى يعود إلى رشده. وكانت معاناته من التهكم والسخرية والاستهزاء، بيد عبيد الكاهن الأعظم، قد بلغت الذروة، ولا يمكن تصديقها. لأنهم اخترعوا، بحماس وتعصب، طرقاً جديدة لإدخال السرور على المجلس، وألبسوه لباس المتشعوذين، وضربوه يميناً وشمالاً بالأيدي والأقدام، ما يجعل حتى الكنعانيين أنفسهم يرثون له، لو شاهدوا ذلك المنظر، الذي يثير الشفقة والحنان.

وكانت قلوب رؤساء الكهنة والفريسيين وأكابر القوم تشتعل غيظاً وحنقاً وسخطاً على عيسى ـ وكانوا يظنون يهوذا هو عيسى حقاً ـ بحيث أنهم شعروا بالفرح والارتياح عندما رأوا معاناته.

وبعد ذلك ساقوه إلى الحاكم موثقاً بالحبال، وكان يحب عيسى في السر. فأدخله إلى غرفته، ظناً منه أن يهوذا هو عيسى ذاته. فتكلم إليه وسأله لماذا أن رؤساء الكهنة والناس قد سلموه إليه.

فأجاب يهوذا: لو أخبرتك الحقيقة لما صدقتني. لأنك ربما قد خدعت، كما خدع رؤساء الكهنة والفريسيون.

فظن الحاكم أنه يريد أن يكلمه بشأن القانون فقال له: أما تعلم أني لست يهودياً؟ ولكن رؤساء الكهنة وأكابر قومك قد سلموك إلي. لذلك أخبرني الحقيقة حتى أقيم العدل، لأن عندي الصلاحية، أن أطلق سراحك أو أعدمك.

فأجاب يهوذا: يا سيدي صدقني إنك سوف ترتكب خطأً جسيماً، لو أعدمتني، لأنك بذلك سوف تعدم رجلاً بريئاً، نظراً إلى أنني يهوذا الأسخريوطي، ولست عيسى الذي هو ساحر، وقد غير ملامحي وصوتي بفنه.

وتعجب الحاكم كثيراً عندما سمع ذلك، وأراد أن يطلق سراحه. فخرج وهو يبتسم قائلاً: إن هذا الرجل لا يستحق الموت، بل يستحق الشفقة، لأنه يقول بأنه ليس عيسى، بل هو يهوذا الذي قاد الجنود إلى مخبأ عيسى، كي يلقوا القبض عليه، وأن عيسى من أهل الجليل قد غيّر ملامحه وصوته بفن سحره. لذلك فإن كان هذا صدقاً، فإن قتله سيكون خطأ جسيماً، لأنه بريء. وإن كان هو عيسى حقاً، وهو ينكر ذلك، فهو بالتأكيد، قد فقد صوابه، وأنه من عدم التقوى قتل رجل مجنون.

فصرخ رؤساء الكهنة وأكابر القوم والكتاب والفريسيون وزعقوا قائلين: إنه عيسى الناصري وإننا لنعرفه. ولو لم يكن مجرماً أثيماً لما سلمناه إليك. وإنه أيضاً ليس مجنوناً، بل هو رجل خبيث ومضر، وهو بهذه الطريقة يريد أن يهرب من أيدينا. وإذا هرب فإنه سوف يثير فتنة أسوء بكثير من الفتنة الأولى.

ولكي يتحاشى التورط في هذه القضية العويصة، فإن بيلات ـ وهو

اسم الحاكم ـ قال: إنه من أهل الجليل، وإن هيرود هو ملك الجليل، ولذلك فإنه ليس من صلاحيتي، أن أحكم في هذه القضية. فاحملوه إلى هيرود.

فاصطحبوه إلى هيرود، الذي طالما تمنى أن يجيئ عيسى إلى منزله. بيد أن عيسى لم يرض بذلك، لأن هيرود كان كافراً وثنياً، وكان يعبد آلهة زائفة، وكان منغمساً في رجس الوثنية. وعندما سيق يهوذا إلى هناك، سأله هيرود عن أشياء كثيرة، لكنه لم يجبه إلى الغرض المنشود، وكان ينكر أنه عيسى.

فسخر منه هيرود وكل من كان في بلاط الملك، وكساه لباساً أبيضاً كما يلبس المجانين. ثم أرجعه إلى بيلات قائلاً: لا تقصر في العدالة إزاء بني إسرائيل! وقد فعل ذلك هيرود، لأن رؤساء الكهنة والكتاب والفريسيين قد رشوه مبلغاً كبيراً من المال. وعندما سمع الحاكم ذلك من خادم هيرود، تظاهر بأنه يريد أن يطلق سراح يهوذا، كي ينال هو أيضاً مبلغاً من المال. فأمر عبيده أن يجلدوه، وكانوا قد تلقوا رشى من الكتاب، كي يقتلوه تحت تعذيب السياط.

لكن الله قد قضى أمراً كان مفعولاً. فحفظ يهوذا للصليب، كي يعاني الموت الرهيب، الذي أراده لغيره. إن الله لم يسمح ليهوذا، أن يموت تحت ضرب السياط، على الرغم من أن العساكر، جلدوه بشكلٍ محزن مؤلم مفجع فظيع، حتى سال جسده دماً.

ولكي يزيدوا الطين بلة، وزيادة في السخرية والاستهزاء والتهكم، كسوه لباساً قديماً أرجواني اللون قائلين: إن ما يليق بملكنا الجديد، هو أن

نلبسه هذا اللباس، ونضع على رأسه التاج. فجمعوا أشواكاً، وصنعوا منها تاجاً كالتيجان التي تصنع من الذهب، ومن الأحجار الكريمة، التي يضعها الملوك على رؤوسهم.

فوضعوا تاج الأشواك على رأس يهوذا، ووضعوا قصبة في يده كالصولجان، ثم أجلسوه على مكان عال. فجاء الجنود، وانحنوا أمامه تهكماً به، يحيونه ويؤدون له السلام كملك اليهود. ثم مدوا أيديهم إليه، لتلقي الهدايا، كما يفعل الملوك الجدد. وعندما لم ينالوا منه شيئاً، ضربوا يهوذا قائلين: أيها الملك الأحمق، كيف توجناك، وأنت لا تدفع شيئاً إلى جنودك وخدامك؟

يهوذا
على الصليب

وعندما رأى رؤساء الكهنة والكتاب والفريسيون، بأن يهوذا لم يمت تحت السياط، خافوا من أن يطلق بيلات سراحه، فقدموا له رشوة من المال كهدية. ولما استلم الحاكم الرشوة، سلم يهوذا إلى الكتاب والفريسيين كمجرم محكوم عليه بالموت. ثم حكموا معه على لصين بالموت على الصليب.

ثم ساقوا يهوذا إلى جبل كالواري، حيث كانوا يشنقون المجرمين والجناة والأشرار، وهناك صلبوه عارياً من اللباس، زيادة في الفضيحة والعار والشنار.

لم يفعل يهوذا حقاً إلا أن يصرخ ويزعق: إلهي لماذا تركتني. إن الجاني قد فر، وأنا أموت من دون عدل وإنصاف.

الحق أقول: إن صوت شخص يهوذا، ووجهه وشخصيته، كانت مثل عيسى تماماً، حتى أن الحواريين والمؤمنين اعتقدوا كلياً بأنه عيسى. لهذا ترك البعض عقيدة عيسى، معتقدين بأن عيسى كان نبياً كاذباً، وأنه قد صنع المعجزات بفنِّ السحر.

بيد أن الذين وقفوا صامدين على عقيدة عيسى، كان يلفهم الحزن والأسى ـ بسبب موت من كان يشبه عيسى كلياً ـ إلى حدٍّ أنهم نسوا ما قاله عيسى، **بأنه لن يموت، حتى تقترب نهاية العالم، وإلى ذلك الوقت، سوف يرفع إلى السماء، بعيداً عن هذا العالم.**

فذهبوا بصحبة أم عيسى إلى جبل كالواري، ولم يكتفوا بالحضور على مشهد موت يهوذا، وهم يبكون باستمرار، بل حصلوا، عبر نفوذ نيكوديموس ويوسف آباري ماتيا، على جسد يهوذا من الحاكم لدفنه. فأنزلوه من فوق الصليب، باكين منتحبين إلى درجة لا تصدق، ودفنوه في مقبرة يوسف الجديدة. ثم لفوه في دهان ثمين وزنه مئة بوند.

فرجع كل أحد إلى منزله. وذهب برنابا وجون وأخوه جيمس بمعية أم عيسى إلى الناصرة. أما الحواريون الذين لم يخافوا الله، فقد تسللوا ليلاً وسرقوا جسد يهوذا وخبئوه، ناشرين بياناً، بأن عيسى قد بعث حياً ورفع إلى السماء.

فظهرت بسبب ذلك فوضى عظيمة. فأصدر الكاهن الأعظم مرسوماً، يمنع بموجبه أي أحد، أن يتكلم عن عيسى الناصري، وإلا يعاقب بالحرمان من المعبد. فبدأ اضطهاد عظيم، لأن الناس لم يستطيعوا الصمت بشأن هذه القضية. فرجم ناس كثيرون، وضربوا ونفوا من بلدانهم.

ووصلت الأخبار إلى الناصرة، كيف أن عيسى الذي مات على الصليب، قد بعث حياً ورفع إلى السماء. فالتمس برنابا من أم عيسى، أن تكف عن البكاء، لأن ابنها قد بعث حياً ورفع إلى السماء. فقالت مريم العذراء باكية: فلنذهب إلى أورشليم، حتى أرى ولدي.

فوصلت العذراء إلى أورشليم، بمعية برنابا وجيمس وجون، في اليوم الذي ذاع فيه خبر مرسوم الكاهن الأعظم. لذلك فإن العذراء، التي كانت تخاف الله، أمرت أولئك الذين يقيمون معها، أن ينسوا ابنها، رغم أنها كانت تعرف بأن مرسوم الكاهن الأعظم، هو مرسوم غير عادل.

يقول برنابا: الله يعلم ما في القلوب، ويعلم كيف أن قوانا قد أنهكت واستهلكت! لأن تأثير الواقعة علينا كان كبيراً جداً! فالحزن والأسى على موت عيسى ـ إذ كنا نفكر بأن يهوذا المصلوب هو عيسى حقاً ـ من جانب، ورغبتنا الشديدة ورغبة أم عيسى لرؤية عيسى، وهو حي، من جانب آخر، فعلاً استهلكت قوانا!

هبوط عيسى
من السماء الثالثة

فصعدت الملائكة، الذين كانوا يحرسون مريم، إلى السماء الثالثة، ووجدوا عيسى هناك في صحبة الملائكة، حيث قص عليهم ما جرى عليه.

فالتمس عيسى من الله، أن يعطيه القوة، لرؤية أمه وحوارييه. فأمر الله الرحمن الرحيم ملائكته الأربعة المفضلين عنده، وهم جبرائيل وميكائيل ورافائيل ويوريال، أن يحملوا عيسى إلى منزل أمه، ويحرسوه هناك باستمرار لمدة ثلاثة أيام، حيث سمح لعيسى، بأن يراه فقط المؤمنون الذين يؤمنون به وبعقيدته.

فجاء عيسى، وهو مكتنف بالبهاء والرونق والجلال، إلى الغرفة، حيث تقيم مريم العذراء وأختاها ومارتا ومريم المجدلية ولازاروس وبرنابا وجون وجيمس وبطرس. فسقطوا جميعاً على الأرض، كالموتى من شدة الخوف. فرفع عيسى أمه والآخرين من فوق الأرض قائلاً: لا تخافوا لأني عيسى، ولا تبكوا علي، لأني حي ولست بميت.

فبقوا حيارى مذهولين لمدة طويلة في حضور عيسى، لأنهم جميعاً كانوا يعتقدون بأن عيسى ميت. فقالت العذراء وهي تبكي: أخبرني يا ولدي، كيف أن الله الذي أعطاك القوة لإحياء الموتى، سمح لك بأن تموت في عارٍ وشنار، أصاب أقربائك وأصدقائك، وأصاب حتى عقيدتك؟ لأن كل أحد يحبك كان كالميت، من شدة الذهول وعدم التصديق.

أجاب عيسى وهو يعتنق أمه: صدقيني يا أمي! الحق أقول لك إني لم أكن ميتاً أبداً. إن الله قد حفظني حياً، وسيحفظني حياً حتى تقترب نهاية العالم. ثم طلب من الملائكة الأربعة أن يظهروا إلى العيان ويشهدوا بما جرى.

فظهرت الملائكة إلى العيان كالشموس الأربعة الساطعة، بحيث إن الجميع سقطوا على الأرض مرة أخرى، كالموتى من شدة الخوف.

فأعطى عيسى أربع أنسجة بيضاء إلى الملائكة. فلربما غطوا أنفسهم، وتيسرت رؤيتهم، وسماع صوتهم، من قبل أمه ورفقائها. ثم رفع عيسى كل واحد منهم، فسلاهم وجبر قلوبهم قائلاً: هؤلاء ملائكة ربي: هذا جبرائيل يعلن عن أسرار الله، وهذا ميكائيل يحارب أعداء الله، وهذا رافائيل يتسلم أرواح من يموت، وهذا يوريال الذي سوف ينادي كل أحد، في اليوم الأخير، إلى عدل الله وقضاوته.

فحكى الملائكة الأربعة للعذراء، كيف أن الله بعث وراء عيسى، وبدل هيئة يهوذا وشخصيته ووجهه وملامحه ونبرات صوته، كي يقاسي من العذاب، الذي باع غيره له.

فقال برنابا: أيها المعلم هل يجوز لي أن أسألك الآن، كما كان يجوز لي من قبل، حينما كنت معنا؟

أجاب عيسى: اسأل ما بدا لك يا برنابا، وسوف أجيبك.

فسأل برنابا: أيها المعلم إن الله رحيم، وقد وسعت رحمته كل شيء، فلماذا عذبنا وكربنا باعتقادنا بأنك ميت؟ وأن أمك قد بكت من أجلك، حتى أنها كانت على وشك الموت. وأنت ولي الله المقدس! فلماذا سمح الله بالنميمة والسعاية والوشاية بك، حتى تقتل مع اللصوص، على جبل كالواري؟

أجاب عيسى: صدقني يا برنابا، إن الله يعذب عذاباً عظيماً على كل ذنب، مهما كان صغيراً، نظرا إلى أن الله يغتاظ ويسخط من الذنوب. ولأن أمي وحواريي الأوفياء أحبوني قليلاً، بحب أرضي، فإن الله العادل القويم، قد شاء أن يعذب على هذا الحب، بالحزن والأسى، كي يبعد عنكم لهيب نار جهنم.

وعلى الرغم من أنني كنت بريئاً في العالم، إلا أن الناس سموني (الله) و(ابن الله)، فلهذا شاء الله أن أكون بموت يهوذا، موضع سخرية من الناس في هذا العالم، بحيث ظن الناس جميعاً بأني مت على الصليب، ولكي لا أكون موضع سخرية الشياطين في يوم القيامة. وهذه السخرية سوف تستمر إلى ظهور محمد رسول الله. فهو حينما يأتي، سوف يميط اللثام عن هذه الخديعة، للمؤمنين المعتقدين بقانون الله.

ثم خاطب عيسى الله عز وجل قائلاً: يا الله ربي أنت العادل، ولك وحدك الجلال والبهاء والمجد والشرف والكرامة والفخر، بلا حد ولا نهاية.

ثم استدار عيسى نحو برنابا وقال: يا برنابا اكتب إنجيلي بكل تأكيد،

واكتب كل صغيرة وكبيرة بشأني، وما حصل لي أثناء إقامتي في الدنيا. واكتب بنفس المنوال ما حل بيهوذا، كي لا يخدع المؤمنون، ولكي يعتقد الجميع بالحق والحقيقة.

أجاب برنابا: سأفعل كل ذلك إن شاء الله أيها المعلم. ولكن ما أصاب يهوذا ودهاه فلا أعلم، لأني ما رأيت من ذلك إلا قليلاً.

فأجاب عيسى: هاهنا جون وبطرس، اللذان رأيا كل ما حصل، وسيخبرانك بما جرى.

ثم أمرنا عيسى أن ندعو حوارييه الأوفياء كي يروه. فدعا جيمس وجون الحواريين السبعة، مع نيكوديموس ويوسف، والكثيرين من الاثنين والسبعين حواري، وأكلوا جميعاً بمعية عيسى.

رجوع عيسى
إلى السماء الثالثة

وفي اليوم الثالث قال عيسى: اذهبوا إلى جبل الزيتون بمعية أمي، ومن هناك سوف أصعد مرة أخرى إلى السماء، وسوف ترون من يحملني إلى السماء.

فذهبوا جميعاً إلى هناك، ما عدا الخمس والعشرين من الاثنين والسبعين حواري، لأنهم فروا إلى دمشق من خوف الاضطهاد. وعند الزوال أثناء الصلاة، جاء عيسى مع حشد عظيم من الملائكة، وهم يسبحون الله ويقدسونه. وكان بهاء وجلال نور وجهه عظيماً، بحيث خاف الحواريون بشدة، ووقعوا بوجوههم على الأرض. بيد أن عيسى رفعهم جميعاً، وسلاهم وجبر قلوبهم قائلاً: لا تخافوا أنا معلمكم.

ووبخ عيسى الكثيرين، الذين اعتقدوا بأنه مات، ثم بعث حياً ورفع إلى السماء قائلاً: هل تظنونني وتظنون الله كاذبين؟ إن الله قد وهبني بأن أعيش حتى تقترب نهاية العالم، كما أخبرتكم.

الحق أقول لكم إنني لم أمت، ولكن يهوذا الخائن قد مات. حذار

حذار! إن الشيطان سوف يسعى جاهداً لأن يخدعكم. كونوا شهداء لي في كل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها مني، في كل إسرائيل وفي كل العالم.

ثم دعا الله بالخلاص للمؤمنين، والهداية للعاصين. وعندما انتهى من مناجاته، اعتنق أمه قائلاً: يا أمي سلام الله عليك!

استقري في الله الذي خلقك وخلقني!

ثم استدار إلى حوارييه قائلاً: تغمدكم الله برحمته!

ثم حملته الملائكة الأربعة إلى السماء أمام عيونهم.

وبعد صعود عيسى إلى السماء، تفرق الحواريون طرائق قدداً، في أنحاء مختلفة من إسرائيل والعالم. أما الحق المبغوض من قبل الشيطان، فقد اضطهد بالزور والكذب والنفاق، كما هو العادة دائماً.

لأن أشخاصاً شريرين معينين، بادعائهم بأنهم حواريون، بشروا بأن عيسى قد مات، ولم يبعث حياً ولم يرفع إلى السماء.

وبشر الآخرون بأن عيسى قد مات حقاً، ثم بعث حياً ورفع إلى السماء.

وبشر الآخرون ولا زالوا، بأن عيسى ابن الله، ومن ضمنهم بولس المخدوع.

بيد أن برنابا ورفقائه، يبشرون من يخافون الله، ويعظونهم بما كتب في إنجيل برنابا، لخلاصهم في يوم القيامة. آمين!

المصادر

ـ القرآن الكريم

ـ بحار الأنوار للعلامة محمد باقر المجلسي المتوفى سنة ١٠٣٧ هجري

ـ أمالي الشيخ الصدوق

ـ أمالي الشيخ المفيد

ـ روضة الكافي للعلامة الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ هجري

ـ تحف العقول لابن شعبة الحراني عاش في القرن الثالث الهجري

ـ عرائس المجالس لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ هجري

ـ الإستيعاب لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هجري

ـ أسد الغابة لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هجري

ـ المحاسن والأضداد للجاحظ

ـ كلمة الله للشهيد السيد حسن الشيرازي

ـ وصايا السيد المسيح لأحمد علي دخيل

ـ إنجيل برنابا

المحتويات





ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail : almahajja@terra.net.lb
E-mail & FB: info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com

